تاريخ الخلفاء الراشدين (١)

الانشراح ورفع الضيق في سيرة

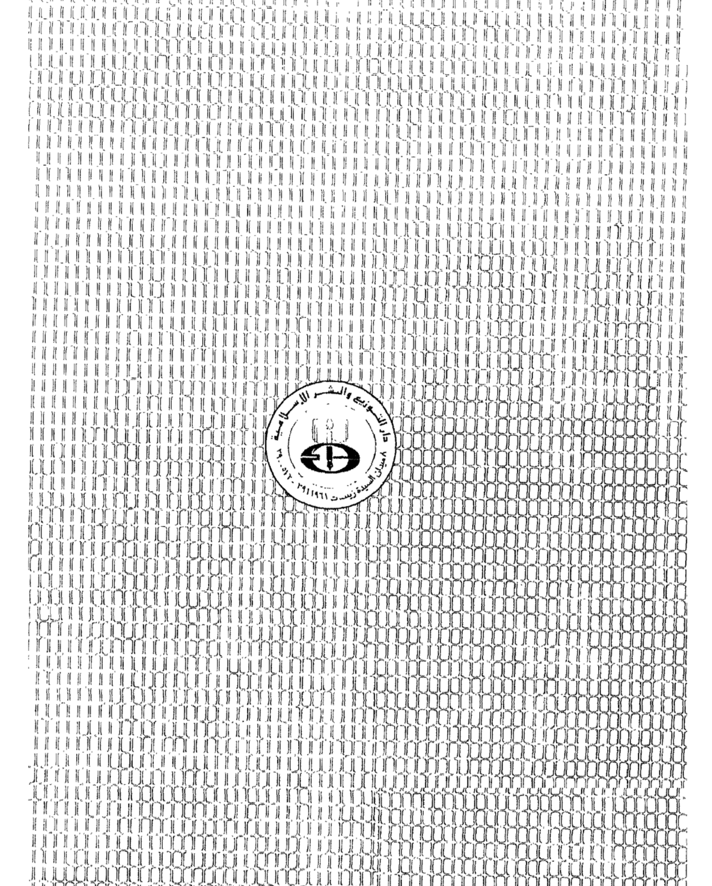


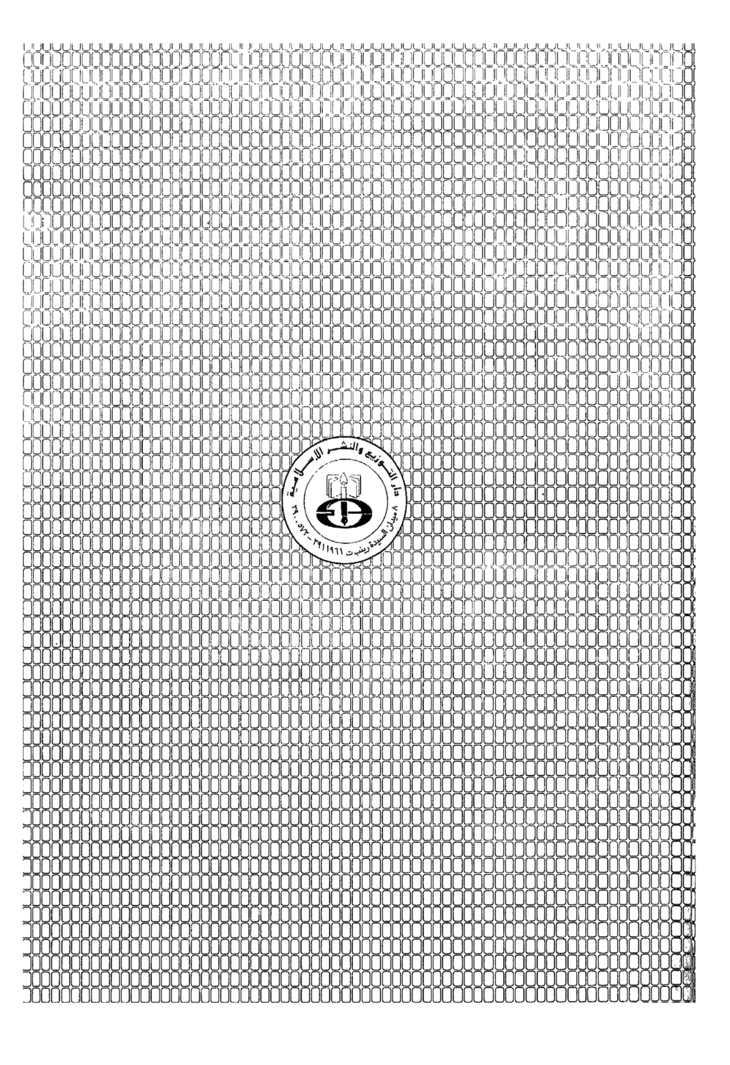
شخصيته وعصره



تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلابي


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٥١٢٠


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢

الانشراح ورفع الضيق فى سيرة

أبو بكر الصديق

رضى الله عنه

شخصيته وعصره

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلّابي

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الطبعة الثانية للناشر

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع : ٨٤٨٦ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N.

977 - 265 - 380 - X



دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصـــر - القاهـــرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

الإهداء

إلى العلماء العاملين والدعاة المخلصين
وطلاب العلم المجتهدين وأبناء الأمة الغيورين..
أهدى هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه
الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا
لوجهه الكريم

قال تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[الكهف: ١١٠]

المؤلف في سطور

على محمد محمد الصلابى

* ولد فى مدينة بنغازى بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م
* حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز وكان الأول على دفعته عام ١٤١٤هـ /١٩٩٣م.
* نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م.
* نال درجة الدكتوراه فى الدراسات الإسلامية
* **صدرت له عدة كتب :**

١ ــ من عقيدة المسلمين فى صفات رب العالمين (دار البيارق)

٢ــ الوسطية فى القرآن الكريم (دار البيارق ــ دار النفائس) .

سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى) .

٣ ــ صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الأفريقى (دار البيارق)

٤ ــ عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج (دار البيارق) .

٥ ــ الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية (دار البيارق)

٦ ــ فقه التمكين عند دولة المرابطين (دار البيارق) .

٧ ــ دولة الموحدين (دار البيارق) .

٨ ــ الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (دار التوزيع والنشر الإسلامية) .

٩ ــ الحركة السنوسية فى ليبيا (دار البيارق) .

(أ) الإمام محمد بن على السنوسى ومنهجه في التأسيس

(ب) محمد المهدى السنوى، وأحمد الشريف .

(ج) ادريس السنوسى، وعمر المختار .

١٠ ــ فقه التمكين فى القرآن الكريم (دار الوفاء، دار البيارق) .

١١ــ السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث (دار التوزيع والنشر الإسلامية) .

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء: ١]

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا (٧٠) يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد..

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

كان شغفى بسيرة الصديق رضى الله عنه منذ الطفولة، وكنت شديد الولع بالقراءة والسماع لسيرته العطرة، ومضت الأيام ومرت السنون، وأكرمنى الله تعالى بالدراسة فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان من ضمن المواد المقررة فى مادة التاريخ الإسلامى تاريخ الخلفاء الراشدين، وقد طلب الأستاذ المحاضر أن ندرس كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير و«الكامل» لابن الأثير فى ترجمة الصديق، ولم يكتف بكتاب التاريخ الإسلامى للشيخ محمود شاكر، فكانت لتلك الإرشادات أثر بعد توفيق الله تعالى للتعرف على حقيقة شخصية الصديق وعصره، وعندما سجلت بجامعة أم درمان الإسلامية رسالة الدكتوراه وكان عنوانها: فقه التمكين فى القرآن الكريم وأثره فى تاريخ الأمة، استقر البحث على ثلاثة أبواب: فقه التمكين فى القرآن الكريم. فقه التمكين فى السيرة النبوية. فقه التمكين عند الخلفاء الراشدين. وكانت أوراق البحث قد جاوزت

١٢٠٠ صفحة، فرأى الدكتور المشرف أن نكتفىَ بفقه التمكين فى القرآن الكريم وعدَّل الخطة على هذا الأساس، وقدم مقترحه لمجلس الكلية فوافق على ذلك، وقال لى بعد المناقشة : بإذن الله تعالى تستطيع أن تخرج فقه التمكين فى السيرة النبوية وفقه التمكين عند الخلفاء الراشدين كتبًا لعل الله ينفع بها المسلمين. وبتوفيق الله وبسبب ما ساقه من أسباب تطور كتاب فقه التمكين فى السيرة النبوية، وأصبح « السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث » وقد صدر عن دار التوزيع والنشر الإسلامية.

وهذا الكتاب الذى أقدم له الآن « أبو بكر الصديق شخصيته وعصره » يرجع الفضل فى كتابته للمولى عز وجل، ثم للأستاذ الدكتور المشرف على رسالة الدكتوراه، ومجموعة خيرة من الدعاة والشيوخ والعلماء الذين شجعونى على الاهتمام بدراسة عصر الخلفاء الراشدين، حتى إن أحدهم قال لى : أصبحت هناك فجوة كبيرة بين أبناء المسلمين وذلك العصر، وحدث خلط فى ترتيب الأولويات حيث صار الشباب يلمُّون بسير الدعاة والعلماء والمصلحين أكثر من إلمامهم بسيرة الخلفاء الراشدين، وأن ذلك العصر غنى بالجوانب السياسية والإعلامية والأخلاقية والاقتصادية والفكرية والجهادية والفقهية التى نحن فى أشد الحاجة إليها، ونحتاج أن نتتبع مؤسسات الدولة الإسلامية وكيف تطورت مع مسيرة الزمن، كالمؤسسة القضائية والمالية ونظام الخلافة والمؤسسة العسكرية وتعيين الولاة، وما حدث من اجتهادات فى ذلك العصر عندما احتكت الأمة الإسلامية بالحضارة الفارسية والرومانية، وطبيعة حركة الفتوحات الإسلامية.

كانت بداية هذا الكتاب فكرة أراد الله لها أن تصبح حقيقة، فأخذ الله بيدى وسهل لى الأمور وذلل الصعاب، وأعاننى على الوصول للمراجع والمصادر، وأصبح هذا العمل همًّا سيطر على مشاعرى وتفكيرى وأحاسيسى، فجعلته من أهدافى الكبرى فسهرت له الليالى ولم أُبالِ بالعوائق ولا الصعاب، والفضل لله تعالى الذى أعاننى على ذلك، قال الشاعر:

الهـول فى دربى وفى هدفى ... وأظَل أمضى غير مضطربِ
ما كنت من نفسى على خَوَرٍ ... أو كنت من ربى على رِيَبِ
ما فى المنايا ما أحاذره ... الله ملءُ القصد والأَرَبِ

إن تاريخ عصر الخلفاء الراشدين مليء بالدروس والعبر، وهى متناثرة فى بطون

الكتب والمصادر والمراجع، سواء كانت تاريخية أو حديثية أو فقهية أو أدبية أو تفسيرية، فنحن فى أشد الحاجة لجمعها وترتيبها وتوثيقها وتحليلها، فتاريخ الخلافة إذا أحسن عرضه يغذى الأرواح ويهذب النفوس وينور العقول ويشحذ الهمم ويقدم الدروس ويسهل العبر وينضج الأفكار، فنستفيد من ذلك فى إعداد الجيل المسلم وتربيته على منهاج النبوة، ونتعرف على حياة وعصر من قال الله فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال فيهم رسول الله ﷺ: «خير أمتي القرن الذى بعثت فيهم....»(١).

وقال فيهم عبد الله بن مسعود: من كان مستنًا فليستن بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد كانوا والله أفضل هذه الأمة وأبرَّها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم(٢). فالصحابة قاموا بتطبيق أحكام الإسلام ونشروه فى مشارق الأرض ومغاربها، فعصرهم خير العصور، فهم الذين علموا الأمة القرآن الكريم، ورووا لها السنن والآثار عن رسول الله ﷺ، فتاريخهم هو الكنز الذى حفظ مدخرات الأمة فى الفكر والثقافة والعلم والجهاد وحركة الفتوحات والتعامل مع الشعوب والأمم، فتجد الأجيال فى هذا التاريخ المجيد ما يعينها على مواصلة رحلتها فى الحياة على منهج صحيح وهدى رشيد، وتعرف من خلاله حقيقة رسالتها ودورها فى دنيا الناس، وقد عرف الأعداء من اليهود والنصارى والعلمانيين والماركسيين والروافض وغيرهم خطورة التاريخ وأثره فى صياغة النفوس وتفجير الطاقات، فعملوا على تشويهه وتزويره وتحريفه وتشكيك الأجيال فيه، فقد لعبت فيه الأيدى الخبيثة فى الماضى وحرفته أيدى المستشرقين فى الحاضر، ففى الماضى تعرض تاريخنا الإسلامى للتحريف والتشويه على

---

(١) مسلم (٢٥٣٤).

(٢) شرح السنة للبغوى (١/ ٢١٤، ٢١٥).

أيدى اليهود والنصارى والمجوس والرافضة الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، إذ رأوا أن كيد الإسلام على الحيلة أشد نكاية فيه وفى أهله، فأخذوا يدبرون المؤامرات فى الخفاء لهدم الإسلام وتفتيت دولته وتفريق أتباعه، وذلك عن طريق تزييف الأخبار وترويج الشائعات الكاذبة وتدبير الفتن ضد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه، فقام عبد الله بن سبأ اليهودى وأتباعه بالدور الكبير فى إشعال نار الفتنة التى أودت بحياة الخليفة الراشد الثالث، وكذلك إشعال المعركة بين المسلمين فى موقعة الجمل بعد أن كاد يتم الصلح بين الطرفين، إلى غير ذلك من التحركات والمؤامرات التى قصد بها النيل من الإسلام وأتباعه، هذا بالإضافة إلى الروايات الضعيفة والموضوعة الواردة فى مصادر التاريخ الإسلامى - وهى تشوه سيرة الصحابة - كرواية التحكيم التى تتهم بعضهم بالخداع أو الغباء أو التعلق بالجاه والسلطة، والهدف من وضع هذه الروايات الطعن فى الإسلام بطريقة غير مباشرة، لأن الإسلام لم يؤده لنا إلا الصحابة، والتشكيك فى ثقتهم وعدالتهم هو تشكيك بالتالى فى صحة الإسلام.. هذا وقد استغل المستشرقون هذه الروايات الموضوعة - ومن سار على نهجهم من أذنابهم ممن يتكلمون بلغتنا - فركزوا على التوسع فى البحث فيها، بل كانت مغنمًا تسابقوا إلى اقتسامه ما دامت تخدم أغراضهم للطعن فى الإسلام والنيل من أعراض الصحابة الكرام(١)... لقد قام الأعداء بصياغة تاريخنا وفق مناهجهم المنحرفة، وتأثر بعض المؤرخين المسلمين بتلك المناهج المستوردة، فأصبحت كتابتهم فى العقود الماضية ترجمة حرفية لما كتبه المستشرقون والماركسيون والروافض واليهود وغيرهم من أعداء الأمة، وذلك لأنهم لا يملكون تصورًا حقيقيًا لروح الإسلام وطبيعته، حيث إن كتابة التاريخ الإسلامى تحتاج حتمًا إلى إدراك طبيعة الفكرة الإسلامية ونظرتها إلى الحياة والأحداث والأشياء، ووزنها للقيم التى عليها الناس، وتأثيرها فى الأرواح والأفكار وصياغتها للنفوس والشخصيات.. ودراسة الشخصيات الإسلامية - على وجه خاص - تقتضى إدراكًا كاملاً لطبيعة استجابة تلك الشخصيات الإسلامية لإيحاءات الفكرة الإسلامية، فإن طريقة استجابة تلك الشخصيات لهذه الإيحاءات مسألة هامة فى صياغة شعورها بالقيم وسلوكها فى الحياة، وتفاعلها مع الأحداث، ولن يدرك طبيعة الفكرة الإسلامية ولا طريقة استجابة الشخصيات الإسلامية لها إلا كاتب مؤمن بهذه الفكرة مستجيب لها من أعماقه، لكى

---

(١) انظر: مقدمة الأستاذ سيد قطب لكتاب خالد بن الوليد للشيخ صادق عرجون، ص ٥.

يكون إدراكه لها ناشئًا عن تلبس ضميره بها لا عن رصدها من الخارج بالذهن المتجرد البارد[1].

وبسبب غياب ذلك المنهج وقع بعض المعاصرين من المؤرخين والكتَّاب والأدباء فى تشويه صورة سلف هذه الأمة، وأظهروا الصحابة بمظهر المتكالب على الدنيا وسفك الدماء للوصول إلى الغايات التى ينشدونها من الاستيلاء على الحكم والتنكيل بخصومهم، فتناولوا ذلك بعيداً عن فهم حقيقة الجيل الذى تربى فى مدرسة المصطفى ﷺ، وبعيداً عن تأثرهم بالإسلام وعقيدته وأصوله، وبسبب تلك الكتابات نشأ جيل لا يعرف عن تاريخه إلا الحروب وسفك الدماء والخداع والمكر والحيلة، وأصبحت صورة الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا مشوهة، مما جعل بعض المسلمين يردد تلك الأباطيل دون أن يعى الحقيقة، بل مجرد أن تلك الأباطيل مسطرة فى كتاب زيد أو عمرو من الكتَّاب[2].

إن إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بمنهج أهل السنَّة والجماعة أصبح ضرورة ملحة لأبناء الأمة، وقد بدأت أقلام الباحثين والكتَّاب تصيغ التاريخ من هذا المنظور، وهم لم يبدأوا من فراغ لأن الله حمى دينه وحمى أمته، فقيض لتاريخ الصحابة من يحقق وقائعه ويصحح أخباره، ويكشف الستار عن الوضاعين والكذابين من ملفقى الأخبار، ويرجع الفضل فى ذلك التصحيح، إلى الله ثم أهل السنَّة والجماعة من أئمة الفقهاء والمحدثين الذين حفلت مصادرهم بالكثير من الإشارات والروايات الصحيحة التى تنقض وترد كل ما وضعه الملفقون[3].

وقد سرت على أصول منهج أهل السنَّة فعكفت على المصادر والمراجع القديمة والحديثة، ولم أعتمد فى دراسة عصر الخلفاء الراشدين على الطبرى وابن الأثير والذهبى وكُتب التاريخ المشهورة فقط، بل رجعت إلى كتب التفسير والحديث وشروحها وكتب التراجم والجرح والتعديل وكتب الفقه، فوجدت فيها مادة تاريخية غزيرة يصعب الوقوف على حقيقتها فى الكتب التاريخية المعروفة والمتداولة، وقد بدأت بالكتابة عن

---

(١) انظر: مقدمة الأستاذ سيد قطب لكتاب خالد بن الوليد للشيخ صادق عرجون، ص ٥.

(٢) انظر: أبو بكر رضى الله عنه، محمد مال الله، ص (١٥، ١٦).

(٣) انظر: المنهج الإسلامى لكتابة التاريخ، د. محمد المحزون، ص ٤.

أبى بكر الصديق رضى الله عنه متناولاً شخصيته وعصره، فهو سيد الخلفاء الراشدين، وقد حثنا رسول الله ﷺ وأمرنا باتباع سنتهم والاهتداء بهديهم. قال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنَّةِ الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى**»[1]. فأبو بكر رضى الله عنه سيد الصديقين وخير الصالحين بعد الأنبياء والمرسلين، فهو أفضل أصحاب رسول الله ﷺ وأعلمهم وأشرفهم على الإطلاق، فقد قال فيه رسول الله ﷺ: «**لو كنت منخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن أخى وصاحبى**»[2] وقد قال فيه رسول الله ﷺ وفى عمر أيضًا: «**اقتدوا بالذين من بعدى: أبى بكر وعمر**»[3] وشهد له عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بقوله: أنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ[4]. وقال عنه على بن أبى طالب لما سأله ابنه محمد ابن الحنفية بقوله: أى الناس خير بعد رسول الله؟ قال: أبو بكر[5].

إن حياة أبى بكر رضى الله عنه صفحة مشرقة من التاريخ الإسلامى الذى بهر كل تاريخ وفاقه، والذى لم تَحْوِ تواريخ الأمم مجتمعة بعض ما حوى من الشرف والمجد والإخلاص والجهاد والدعوة لأجل المبادئ السامية، لذلك قمت بتتبع أخباره وحياته وعصره فى المراجع والمصادر، واستخرجتها من بطون الكتب، وقمت بترتيبها وتنسيقها وتوثيقها وتحليلها لكى تصبح فى متناول الدعاة والخطباء والعلماء والساسة ورجال الفكر وقادة الجيوش وحكام الأمة وطلاب العلم، لعلهم يستفيدون منها فى حياتهم، ويقتدون بها فى أعمالهم، فيكرمهم الله بالفوز فى الدارين.

لقد تتبعت صفات الصديق وفضائله ومشاهده فى ميادين الجهاد مع رسول الله ﷺ، وحياته فى المجتمع المدنى ومواقفه العظيمة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكيف ثَبَّت الله به الأمة. وسلطت الأضواء على سقيفة بنى ساعدة وما تم فيها من حوار ونقاش بين المهاجرين والأنصار، ونسفت الشبهات والأباطيل التى ألصقت بتاريخ سقيفة بنى ساعدة من قِبَل المستشرقين والروافض ومن سار على نهجهم، وبينت موقف الصديق من

---

(١) سنن أبى داود (٤/ ٢٠١)؛ الترمذى (٥/ ٤٤) حديث حسن صحيح.

(٢) البخارى، كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٥٦.

(٣) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/ ٢٠٠).

(٤) البخارى، كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٦٨.

(٥) نفس المصدر السابق رقم ٣٦٧١.

إرسال جيش أسامة، وما فى هذا الحدث العظيم من دروس فى الشورى والدعوة والحزم والاقتداء برسول الله ﷺ، وردّ الخلاف إلى الكتاب والسنَّة وآداب الجهاد وصورته المشرقة التى تمثلت فى تعاليم الصديق لجيش أسامة رضى الله عنهم، وقد قمت بتوضيح أحداث الردة فتحدثت عن أسبابها وأصنافها وبدايتها فى أواخر العصر النبوى، وموقف الصديق منها فى خلافته وخطته التى وضعها للقضاء عليها، وأساليبه التى استخدمها فى حروبه ضد المرتدين، وقد وقفت مع مؤهلات الصديق التى توفرت فى شخصيته والتى استطاع بها – بعد توفيق الله – أن يسحق حركة الردة، وقد تحدثت عن عصره وكيف تحققت شروط التمكين وأسبابه وصفات جيل التمكين فى ذلج العهد الذى قاده الصديق. وأشرت إلى سياسة الصديق فى محاربة التدخل الأجنبى فى دولته، وذكرت أهم نتائج أحداث الردة من تميز الإسلام عما عداه من تصورات وأفكار وسلوك وضرورة وجود قاعدة صلبة للمجتمع، وتجهيز الجزيرة قاعدة للفتوح الإسلامية، والإعداد القيادى لحركة الفتوح، والفقه الواقعى للردة، وسنة الله فى إحاقة المكر السيئ بأهله، واستقرار النظام الإدارى فى الجزيرة، وتكلمت عن فتوحات الصديق فبينت خطته فى فتح العراق، وسرت مع خالد فى فتوحاته حتى ضم جنوب العراق وشماله بمعاركه العظيمة التى ظهرت فيها بطولات نادرة من المثنى بن حارثة والقعقاع بن عمرو وخالد بن الوليد وجيوشهم المظفرة، فكانت تلك المعارك الخطوة الأولى لمعارك الفتوح الكبرى التى جاءت بعد عصر الصديق، والتى أنارت تاريخ الأمة فى مشوارها الطويل لنشر دين الله والجهاد فى سبيله.. قال الشاعر:

فالقادسية ما يزال حديثُها … عِبَراً تضىء بأطيب الأقوالِ
تحكى مفاخرَنا وتذكر مجدَنا … فتجيبها حطِّين بالمنوال
صفحات مجد فى الخلود سطورُها … دان الرجال لها بغير جدال
وكأننى بابن الوليد وجنده … وبكلِّ كفٍّ لامع الأنصال
نشروا على أرض الخليل لواءهم … فغدا يظلِّلُ أطهر الأطلال
وعن اليمين أبو عبيدة قد أتى … وأتى صلاح الدين صوبَ شمال
يَسعى إليهم قد شَرَوْا أرواحهم … لله بعد تسابق لقتال
فهم الأعزَّةُ فى كتاب خالدٍ … ما بعد قول الله من أقوال

هذا وقد حرصت على بيان وإظهار الرسائل التى كانت بين الصديق وخالد بن الوليد وعياض بن غنم رضى الله عنهم المتعلقة بفتوح العراق، وقد فصلت الخطوات التى سار عليها أبو بكر فى فتوحات الشام، فتحدثت عن عزمه فى غزو الروم، ومشورته لكبار الصحابة فى جهادهم، وعن استنفاره لأهل اليمن، وخطته فى إرسال الجيوش، ووصاياه للقادة الذين بعثهم لفتح الشام ومتابعته لهم وإمدادهم بالرجال والعتاد والتموين، ونقله لخالد من ميادين العراق إلى قيادة جيوش الشام، وما تمَّ فى معركة أجنادين واليرموك، واستخرجت من حركة الفتوحات بعض معالم الصديق فى سياسته الخارجية، من بذر هيبة الدولة فى نفوس الأمم، ومواصلة الجهاد الذى أمر به النبى ﷺ، والعدل بين الأمم المفتوحة والرفق بأهلها ورفع الإكراه عنهم وإزالة الحواجز البشرية بينهم وبين الدعاة، ووضحت بعض معالم التخطيط الحربى عند الصديق فى عدم الإيغال فى بلاد العدو حتى تدين للمسلمين، وعن قدرته فى التعبئة وحشد القوات وتنظيم عملية الإمداد المستمرة، وتحديد هدف الحرب، وإعطاءه الأفضلية لمسارح العمليات، وعزله لميدان المعركة، وتطويره لأساليب القتال، وحرصه على سلامة خطوط الاتصال بينه وبين قادة الجيوش، وبينت حقوق الله والقادة والجنود من خلال وصاياه التى ألزم بها قادة حربه، وتحدثت عن استخلافه لعمر وعن أيامه الأخيرة فى هذه الحياة الفانية، وعن آخر ما تكلم به الصديق فى هذه الدنيا بقول الله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

لقد حاولت فى هذا الكتاب أن أبين كيف فهم الصديق الإسلام وعاش به فى دنيا الناس. وكيف أثر فى مجريات الأمور فى عصره، وتحدثت عن جوانب شخصيته المتعددة السياسية والعسكرية والإدارية، وعن حياته فى المجتمع الإسلامى لما كان أحد رعاياه، وبعد أن أصبح خليفة رسول الله، وركزت على دور أبى بكر الصديق باعتباره رجل دولة مميز من الطراز النادر، وعن سياسته الداخلية والخارجية وأساليبه الإدارية، وعن مؤسسة القضاء كيف كانت بدايتها فى عصره لكى نستطيع متابعة التطورات التى حدثت لها ولغيرها من مؤسسات الدولة عبر العصر الراشدى والتاريخ الإسلامى.

إن هذا الكتاب يبرهن على عظمة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ويثبت للقارئ

بأنه كان عظيمًا بإيمانه، عظيمًا بعلمه، عظيمًا بفكره، عظيمًا ببيانه، عظيمًا بخلقه، عظيمًا بآثاره، فقد جمع الصديق العظمة من أطرافها، وكانت عظمته مستمدة من فهمه وتطبيقه للإسلام وصلته بالله العظيمة واتباعه الشديد لهدى الرسول الكريم ﷺ، إن أبا بكر رضى الله عنه من الأئمة الذين يرسمون للناس خط سيرهم ويتأسى بهم الناس بأقوالهم وأفعالهم فى هذه الحياة، فسيرته من أقوى مصادر الإيمان والعاطفة الإسلامية الصحيحة والفهم السليم لهذا الدين، فلذلك اجتهدت فى دراسة شخصيته وعصره حسب وسعى وطاقتى غير مدع عصمة ولا متبرئ من زلة، ووجه الله الكبير لا غيره قصدت وثوابه أردت، وهو المسئول فى المعونة عليه والانتفاع به، إنه طيب الأسماء سميع الدعاء. هذا وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى مقدمة وأربعة فصول وخلاصة، وهى كالآتى:

المقدمة:

الفصل الأول: أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى مكة، ويشتمل على خمسة مباحث.

المبحث الأول: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه وصفته وأسرته وحياته فى الجاهلية.

المبحث الثانى: إسلامه ودعوته وابتلاؤه وهجرته الأولى.

المبحث الثالث: هجرته مع رسول الله إلى المدينة.

المبحث الرابع: الصديق فى ميادين الجهاد.

المبحث الخامس: الصديق فى المجتمع المدنى وبعض صفاته وشىء من فضائله.

الفصل الثانى: وفاة الرسول ﷺ وسقيفة بنى ساعدة، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: وفاة الرسول ﷺ وسقيفة بنى ساعدة.

المبحث الثانى: البيعة العامة وإدارة الشئون الداخلية.

الفصل الثالث: جيش أسامة وجهاد الصديق لأهل الردة، ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: جيش أسامة رضى الله عنه.

المبحث الثانى: جهاد الصديق لأهل الردة.

المبحث الثالث: الهجوم الشامل على المرتدين.

المبحث الرابع: مسيلمة الكذاب وبنو حنيفة.

المبحث الخامس: أهم العبر والدروس والفوائد من حروب الردة.

الفصل الرابع: فتوحات الصديق واستخلافه لعمر ووفاته، ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: فتوحات العراق.

المبحث الثانى: فتوحات الصديق بالشام.

المبحث الثالث: أهم الدروس والعبر والفوائد.

المبحث الرابع: استخلاف الصديق لعمر بن الخطاب ووفاته.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة بعد صلاة العشاء بتاريخ الخامس من شهر المحرم لعام ١٤٢٢هـ، الموافق للثلاثين من مارس من عام ٢٠٠١م. والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسنًا وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

ولا يسعنى فى نهاية هذه المقدمة إلا أن أقف بقلب خاشع منيب بين يدى الله عز وجل، معترفًا بفضله وكرمه وجوده فهو المتفضِّلُ وهو المكرم وهو المعين وهو الموفِّقُ، فله الحمد على ما منَّ به علىَّ أولاً وآخراً، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصًا ولعبادة نافعًا، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

٥ / ١ / ١٤٢٢هـ

الفصل الأول

أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى مكة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وألقابه وصفته

وأسرته وحياته فى الجاهلية

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته وألقابه:

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب القرشى التيمى(١)، ويلتقى مع النبى ﷺ فى النسب فى الجد السادس مرة بن كعب(٢) ويكنى بأبى بكر، وهى من البكر وهو الفَتِىُّ من الإبل، والجمع بكارة وأبكر وقد سمَّت العرب بكرًا، وهو أبو قبيلة عظيمة(٣)، ولُقب أبو بكر رضى الله عنه بألقاب عديدة، كلها تدل على سمو المكانة، وعلو المنزلة وشرف الحسب منها:

١ - العتيق:

لقبه به النبى ﷺ، فقد قال له ﷺ: «أنت عتيقُ الله من النار». فسُمِّىَ عتيقًا(٤) وفى رواية عائشة قالت: دخل أبو بكر الصديق على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر فأنت عتيق الله من النار» (٥)، فمن يومئذ سُمى عتيقًا(٦)، وقد ذكر المؤرخون أسبابًا كثيرة لهذا اللقب، فقد قيل: إنما سمى عتيقًا لجمال وجهه(٧)، وقيل: لأنه كان قديمًا فى الخير(٨)، وقيل: سمى عتيقًا لعتاقة وجهه(٩)، وقيل: إن أم أبى بكر كان لا

---

(١) الإصابة لابن حجر (٤/ ١٤٥، ١٤٤).

(٢) سيرة وحياة الصديق، مجدى فتحى السيد، ص٢٧.

(٣) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص٤٦.

(٤) الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان (١٥/ ٢٨٠) إسناده صحيح.

(٥) رواه الترمذى رقم ٣٦٧٩ فى المناقب وصححه الألبانى فى السلسلة (١٥٧٤).

(٦) أصحاب الرسول، محمود المصرى (١/ ٥٩).

(٧) المعجم الكبير للطبرانى (١/ ٥٢).

(٨) الإصابة (١/ ١٤٦).

(٩) المعجم الكبير (١/ ٥٣)، الإصابة (١/ ١٤٦).

يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به الكعبة وقالت: اللهم إن هذا عتيقك من الموت فهبه لى[١]، ولا مانع للجمع بين بعض هذه الأقوال، فأبو بكر جميل الوجه، حسن النسب، صاحب يد سابقة إلى الخير، وهو عتيق الله من النار بفضل بشارة النبى ﷺ له[٢].

٢- الصديق:

لقبه به النبى ﷺ ففى حديث أنس رضى الله عنه أنه قال: أن النبى ﷺ صعد أحداً، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم فقال: «اثبت أحد، فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان»[٣].

وقد لقب بالصديق لكثرة تصديقه للنبى ﷺ، وفى هذا تروى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فتقول: لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس، كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أن أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك فقد صدق. قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟!! قال: نعم، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة، فلذلك سمى أبو بكر: الصديق[٤].

وقد أجمعت الأمة على تسميته بالصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول ﷺ، ولازمه الصدق فلم تقع منه هناة أبداً[٥]، فقد اتصف بهذا اللقب ومدحه الشعراء:

قال أبو محجن الثقفى:

وسُميتَ صديقًا وكل مهاجر ... سواك يسمَّى باسمه غير منكر

سبقت إلى الإسلام والله شاهد ... وكنتَ جليسًا فى العريش المشهر[٦]

(١) الكنى والأسماء للدولابى (١/٦) نقلاً عن خطب أبى بكر، محمد أحمد عاشور، جمال الكومى، ص١١.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، د. يسرى محمد هانى، ص٣٦.

(٣) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى، باب فضل أبى بكر (٥/١١).

(٤) أخرجه الحاكم (٣/٦٢، ٦٣) وصححه وأقره الذهبى.

(٥) الطبقات الكبرى (٢/١٧٢).

(٦) أسد الغابة (٣/٣١٠).

وأنشد الأصمعى[1]، فقال:

ولكنى أحبُّ بكل قلبى ... وأعلم أن ذاك من الصواب

رسول الله والصِّدِّيق حبًّا ... به أرجو غداً حسن الثواب[2]

٣- الصاحب:

لقبه به الله عز وجل فى القرآن الكريم: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الَّذين كفرُوا ثاني اثْنيْن إذْ هُمَا في الْغار إذْ يقُولُ لصاحبه لا تحزنْ إنّ الله معنا فأنزل اللهُ سكينتهُ عليْه وأيّدهُ بجُنُودٍ لَّمْ ترَوْها وجعل كلمة الَّذين كفرُوا السُّفْلىٰ وكلمةُ الله هي العُلْيا واللهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] وقد أجمع العلماء على أن الصاحب المقصود هنا هو أبو بكر رضى الله عنه[3]، فعن أنس أن أبا بكر حدثه فقال: قلت للنبى ﷺ وهو فى الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه!! فقال النبى ﷺ: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[4].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ﴿إلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الْغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فإن المراد بصاحبه هنا أبو بكر بلا منازع[5]، والأحاديث فى كونه كان معه فى الغار كثيرة شهيرة، ولم يشركه فى المنقبة غيره[6].

٤- الأتقى:

لقبه به الله عز وجل فى القرآن العظيم فى قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧]. وسيأتى بيان ذلك فى حديثنا عن المعذبين فى الله الذين أعتقهم أبو بكر رضى الله عنه.

---

(١) هو عبد الملك بن قريب الباهلى راوية العرب ونابغة الدنيا فى الحفظ.

(٢) أبو بكر الصديق للطنطاوى، ص٤٩.

(٣) تاريخ الدعوة فى عهد الخلفاء، يسرى محمد هانى، ص٣٩.

(٤) البخارى، فضائل الصحابة رقم (٣٦٥٣).

(٥، ٦) الإصابة فى تمييز الصحابة (٤/١٤٨).

٥ - الأواه:

لقب أبو بكر بالأواه وهو لقب يدل على الخوف والوجل والخشية من الله تعالى، فعن إبراهيم النخعى قال: كان أبو بكر يسمى بالأواه لرأفته ورحمته[١].

ثانيًا: مولده وصفته الخَلْقية:

لم يختلف العلماء فى أنه ولد بعد عام الفيل، وإنما اختلفوا فى المدة التى كانت بعد عام الفيل، فبعضهم قال بثلاث سنين، وبعضهم ذكر بأنه ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وآخرون قالوا بسنتين وأشهر، ولم يحددوا عدد الأشهر[٢]، وقد نشأ نشأة كريمة طيبة فى حضن أبوين لهما الكرامة والعز فى قومهما، مما جعل أبا بكر ينشأ كريم النفس، عزيز المكانة فى قومه[٣].

وأما صفته الخَلْقية، فقد كان يوصف بالبياض فى اللون، والنحافة فى البدن، وفى هذا يقول قيس بن أبى حازم: دخلت على أبى بكر، وكان رجلاً نحيفًا، خفيف اللحم أبيض[٤]، وقد وصفه أصحاب السير من أفواه الرواة فقالوا: إن أبا بكر رضى الله عنه اتصف بأنه: كان أبيض تخالطه صُفرة، حسن القامة، نحيفًا خفيف العارضين، أجنا[٥]، لا يستمسك إزاره يسترخى عن حقويه[٦] رقيقًا معروق الوجه[٧]، غائر العينين[٨]، أقنى[٩]، حمش الساقين[١٠]، محموص الفخذين[١١]، وكان ناتىء الجبهة، عارى الأشاجع[١٢]، ويخضب لحيته وشيبه بالحناء والكتم[١٣].

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ١٧١).

(٢) سيرة وحياة الصديق، مجدى فتحى السيد، ص٢٩؛ تاريخ الخلفاء، ص٥٦.

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص٣٠.

(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ١٨٨) إسناده صحيح.

(٥) الجنا: ميل فى الظهر.

(٦) حقويه: الحقو هو معقد الإزار، يعنى الخصر.

(٧) المعروق: هو قليل اللحم.

(٨) غائر العينين: دخلت فى الرأس.

(٩) أقنى واستقنى: حفظ حياءه ولزمه.

(١٠) حمش الساقين: دقيق الساقين.

(١١) المحموص: هو الشديد الخلق فى الفخذين، مع قلة اللحم بهما.

(١٢) الأشاجع: هو مفاصل الأصابع.

(١٣) البخارى رقم (٥٨٩٥)، ومسلم (٢٣٤١)، أبو بكر الصديق، مجدى السيد، ص٣٢.

ثالثًا: أسرته:

أما والده، فهو عثمان بن عامر بن عمرو يكنى أبا قحافة، أسلم يوم الفتح، وأقبل به الصديق على رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر هلا تركته، حتى نأتيه» فقال أبو بكر: هو أولى أن يأتيك يا رسول الله، فأسلم أبو قحافة وبايع رسول الله ﷺ(١)، ويروى أن رسول الله ﷺ هنا أبا بكر بإسلام أبيه(٢)، وقال لأبي بكر: «غيروا هذا من شعره» فقد كان رأس أبي قحافة مثل الثغامة(٣).

وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سَنَّهُ النبي ﷺ في توقير كبار السن واحترامهم ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»(٤).

وأما والدة الصديق، فهي سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، وكنيتها أم الخير أسلمت مبكرًا، وسيأتي تفصيل ذلك في واقعة إلحاح أبي بكر على النبي ﷺ على الظهور بمكة(٥).

وأما زوجاته، فقد تزوج رضي الله عنه من أربع نسوة، أنجبن له ثلاثة ذكور وثلاث إناث، وهنَّ على التوالي:

١ - قتيلة بنت عبد العزى بن أسعد بن جابر بن مالك:

اختلف في إسلامها(٦)، وهي والدة عبد الله وأسماء - وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية - وقد جاءت بهدايا فيها أقط وسمن إلى ابنتها أسماء بنت أبي بكر بالمدينة، فأبت أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها، فأرسلت إلى عائشة تسأل النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «لتُدْخلها ولتقبل هديتها» وأنزل الله عز وجل ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨] أي: لا يمنعكم الله من البر والإحسان وفعل الخير إلى الكفار الذين

---

(١) الإصابة (٤/٣٧٥).

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٧.

(٣) الإصابة (٤/٣٧٥)، الثغامة: نبات أبيض يشبه به الشيب.

(٤) الترمذي، كتاب البر، باب ١٥.

(٥) تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين، ص٣٠.

(٦) الطبقات لابن سعد (٣/١٦٩) (٨/٢٤٩).

سالموكم ولم يقاتلوكم فى الدين كالنساء والضعفة منهم، كصلة الرحم، ونفع الجار، والضيافة، ولم يخرجوكم من دياركم، ولا يمنعكم أيضًا من أن تعدلوا فيما بينكم وبينهم، بأداء ما لهم من الحق، كالوفاء لهم بالوعود، وأداء الأمانة، وإيفاء أثمان المشتريات كاملة غير منقوصة، إن الله يحب العادلين، ويرضى عنهم، ويمقت الظالمين ويعاقبهم(١).

٢- أم رومان بنت عامر بن عويمر:

من بنى كنانة بن خزيمة، مات عنها زوجها الحارث بن سخبرة بمكة، فتزوجها أبو بكر، وأسلمت قديمًا، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة وهى والدة عبد الرحمن وعائشة رضى الله عنهم، وتوفيت فى عهد النبى ﷺ بالمدينة سنة ست من الهجرة(٢).

٣- أسماء بنت عُمَيس بن معبد بن الحارث:

أم عبد الله، من المهاجرات الأوائل ، أسلمت قديمًا قبل دخول دار الأرقم، وبايعت الرسول ﷺ، وهاجر بها زوجها جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه إلى الحبشة، ثم هاجرت معه إلى المدينة فاستشهد يوم مؤتة، وتزوجها الصديق فولدت له محمداً روى عنها من الصحابة: عمر، وأبو موسى، وعبد الله بن عباس، وأم الفضل امرأة العباس، وكانت أكرم الناس أصهاراً، فمن أصهارها: رسول الله وحمزة والعباس وغيرهم(٣).

٤- حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبى زهير:

الأنصارية، الخزرجية وهى التى ولدت لأبى بكر أم كلثوم بعد وفاته، وقد أقام عندها الصديق بالسُّنح(٤).

وأما أولاد أبى بكر رضى الله عنه فهم:

١- عبد الرحمن بن أبى بكر:

أسن ولد أبى بكر: أسلم يوم الحديبية، وحسن إسلامه، وصحب رسول الله ﷺ وقد

---

(١) تفسير المنير للزحيلى (٢٨/ ١٣٥).

(٢) الإصابة (٨/ ٣٩١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٢).

(٤) منازل بنى الحارث بن الخزوج فى عوالى المدينة.

اشتهر بالشجاعة، وله مواقف محمودة ومشهودة بعد إسلامه(١).

٢- عبد الله بن أبي بكر:

صاحب الدور العظيم في الهجرة، فقد كان يبقى في النهار بين أهل مكة يسمع أخبارهم ثم يتسلل في الليل إلى الغار لينقل هذه الأخبار لرسول الله ﷺ وأبيه، فإذا جاء الصبح عاد إلى مكة، وقد أصيب بسهم يوم الطائف، فماطله حتى مات شهيداً بالمدينة في خلافة الصديق(٢).

٣- محمد بن أبي بكر:

أمه أسماء بنت عميس، ولد عام حجة الوداع وكان من فتيان قريش، عاش في حجر علي بن أبي طالب، وولاه مصر وبها قتل(٣).

٤- أسماء بنت أبي بكر:

ذات النطاقين أسن من عائشة، سماها رسول الله ﷺ ذات النطاقين لأنها صنعت لرسول الله ﷺ ولأبيها سفرة لما هاجرا فلم تجد ما تشدها به، فشقت نطاقها وشدت به السفرة، فسماها النبي ﷺ بذلك، وهي زوجة الزبير بن العوام وهاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير فولدته بعد الهجرة، فكان أول مولود في الإسلام بعد الهجرة، بلغت مائة سنة ولم ينكر من عقلها شيء، ولم يسقط لها سن، رُوِيَ لها عن الرسول ﷺ ستة وخمسون حديثًا، روى عنها عبد الله بن عباس، وأبناؤها عبد الله وعروة، وعبد الله ابن أبي مُلَيكة وغيرهم وكانت جوادة منفقة، توفيت بمكة سنة ٧٣هـ(٤).

٥- عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها-:

الصديقة بنت الصديق، تزوجها رسول الله ﷺ وهي بنت ست سنين، ودخل بها وهي بنت تسع سنين، وأعرس بها في شوال، وهي أعلم النساء، كناها رسول الله ﷺ أم عبد الله، وكان حبه لها مثالاً للزوجية الصالحة(٥).

---

(١) البداية والنهاية (٦/٣٤٦).

(٢) نسب قريش، ص٢٧٥.

(٣) نسب قريش، ص٢٧٧، الاستيعاب (٣/١٣٦٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٢٨٧).

(٥) تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين، ص٣٤.

كان الشعبى يحدث عن مسروق أنه إذا تحدث عن أم المؤمنين عائشة يقول: حدثتنى الصديقة بنت الصديق المبرأة حبيبة حبيب الله ﷺ، ومسندها يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث (٢٢١٠) اتفق البخارى ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا، وانفرد البخارى بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين[١]، وعاشت ثلاثًا وستين سنة وأشهرًا، وتوفيت سنة ٥٧هـ، ولا ذرية لها[٢].

٦- أم كلثوم بنت أبى بكر:

أمها حبيبة بنت خارجة، قال أبو بكر لأم المؤمنين عائشة حين حضرته الوفاة: إنما هما أخواك وأختاك. فقالت: هذه أسماء قد عرفتها فمن الأخرى؟ قال: ذو بطن بنت خارجة، قد ألقى فى خلدى أنها جارية، فكانت كما قال: وولدت بعد موته[٣]، تزوجها طلحة بن عبيد الله وقتل عنها يوم الجمل، وحجت بها عائشة فى عدتها فأخرجتها إلى مكة[٤].

هذه هى أسرة الصديق المباركة التى أكرمها الله بالإسلام، وقد اختص بهذا الفضل أبو بكر رضى الله عنه من بين الصحابة، وقد قال العلماء: لا يعرف أربعة متناسلون بعضهم من بعض صحبوا رسول الله ﷺ، إلا آل أبى بكر الصديق وهم: عبد الله بن الزبير، أمه أسماء بنت أبى بكر بن أبى قحافة، فهؤلاء الأربعة صحابة متناسلون، وأيضًا محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن أبى قحافة رضى الله عنهم[٥].

وليس من الصحابة من أسلم أبوه وأمه وأولاده، وأدركوا النبى ﷺ وأدركه أيضًا بنو أولاده: إلا أبو بكر من جهة الرجال والنساء - وقد بينت ذلك - فكلهم آمنوا بالنبى وصحبوه، فهذا بيت الصديق، فأهله أهل إيمان، ليس فيهم منافق ولا يعرف فى الصحابة مثل هذا لغير بيت أبى بكر رضى الله عنهم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٣٩، ١٤٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٥٨/٥٨)؛ المنذر (٤/ ٥).

(٣) الطبقات (٢/ ١٩٥).

(٤) نسب قريش، ص٢٧٨؛ الإصابة (٨/ ٤٦٦)؛ تاريخ الدعوة فى عهد الخلفاء الراشدين، ص٣٥.

(٥) أبو بكر الصديق، محمد رشيد رضا، ص٧.

وكان يقال: للإيمان بيوت وللنفاق بيوت، فبيت أبى بكر من بيوت الإيمان من المهاجرين، وبيت بنى النجار من بيوت الإيمان من الأنصار[1].

رابعًا: الرصيد الخُلقى للصديق فى المجتمع الجاهلى:

كان أبو بكر الصديق فى الجاهلية من وجهاء قريش وأشرافهم وأحد رؤسائهم، وذلك أن الشرف فى قريش قد انتهى قبل ظهور الإسلام إلى عشرة رهط من عشرة أبطن، فالعباس بن عبد المطلب من بنى هاشم، وكان يسقى الحجيج فى الجاهلية، وبقى له ذلك فى الإسلام، وأبو سفيان بن حرب من بنى أمية، وكان عنده العقاب راية قريش، فإذا لم تجتمع قريش على واحد رأسوه هو وقدموه، والحارث بن عامر من بنى نوفل، وكانت إليه الرفادة، وهى ما تخرجه قريش من أموالها، وترقد به منقطع السبيل، وعثمان بن طلحة ابن زمعة بن الأسود من بنى أسد، وكانت إليه المشورة فلا يُجمع على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافق ولاهم عليه، وإلا تخيّر وكانوا له أعوانًا، وأبو بكر الصديق من بنى تيم وكانت إليه الأشناق وهى الديات والمغارم، فكان إذا حمل شيئًا فسأل فيه قريشًا صدقوه، وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه، وخالد بن الوليد من بنى مخزوم، وكانت إليه القبة والأعنة، وأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب، وعمر بن الخطاب من بنى عدى، وكانت إليه السفارة فى الجاهلية، وصفوان بن أمية من بنى جمح، وكانت إليه الأزلام، والحارث بن قيس من بنى سهم، وكانت إليه الحكومة وأموالهم آلهتهم[2].

لقد كان الصديق فى المجتمع الجاهلى شريفًا من أشراف قريش وكان من خيارهم، ويستعينون به فيما نابهم وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد[3].

وقد اشتهر بعدة أمور منها:

١ - العلم بالأنساب:

فهو عالم من علماء الأنساب وأخبار العرب، وله فى ذلك باع طويل جعله أستاذ

---

(١) أبو بكر الصديق (١/ ٢٨٠) لمحمد مال الله مستخرج من منهاج السنة لابن تيمية.

(٢) أشهر مشاهير الإسلام (١/ ١٠).

(٣) نهاية الأرب (١٩/ ١٠) نقلاً عن تاريخ الدعوة، يسرى محمد، ص٤٢.

الكثير من النسابين كعقيل بن أبى طالب وغيره، وكانت له مزية حببته إلى قلوب العرب وهى: أنه لم يكن يعيب الأنساب، ولا يذكر المثالب بخلاف غيره[١]، فقد كان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها، وبما فيها من خير وشر[٢]، وفى هذا تروى عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها»[٣].

٢- تجارته:

كان فى الجاهلية تاجراً، ودخل بُصرى من أرض الشام للتجارة، وارتحل بين البلدان، وكان رأس ماله أربعين ألف درهم، وكان ينفق من ماله بسخاء وكرم عُرف به فى الجاهلية[٤].

٣- موضع الألفة بين قومه وميل القلوب إليه:

فقد ذكر ابن إسحاق فى «السيرة» أنهم كانوا يحبونه ويألفونه، ويعترفون له بالفضل العظيم والخلق الكريم، وكانوا يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته[٥]، وقد قال له ابن الدغنة حين لقيه مهاجراً: إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتكسب المعدوم، وتفعل المعروف[٦]، وقد علَّق ابن حجر على قول ابن الدغنة فقال: ومن أعظم مناقبه أن ابن الدغنة سيد القارة لما رد عليه جواره بمكة وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبى ﷺ لما بعث، فتوارد فيها نعت واحد من غير أن يتواطأ على ذلك، وهذه غاية فى مدحه، لأن صفات النبى ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصفات[٧].

٤- لم يشرب الخمر فى الجاهلية:

فقد كان أعف الناس فى الجاهلية[٨]، حتى إنه حرَّم على نفسه الخمر قبل الإسلام، فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: حرم أبو بكر الخمر على نفسه، فلم يشربها فى

---

(١) التهذيب (٢/١٨٣).

(٢) الإصابة (٤/١٤٦).

(٣) مسلم رقم ٢٤٩٠؛ الطبرانى فى الكبير رقم ٣٥٨٢.

(٤) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص٦٦؛ التاريخ الإسلامى، الخلفاء الراشدون، محمد شاكر، ص٣٠.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٧١).

(٦) البخارى، كتاب مناقب الأنصار رقم ٣٩٠٥.

(٧) الإصابة (٤/١٤٧).

(٨) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص٤٨.

جاهلية ولا فى إسلام، وذلك أنه مرَّ برجل سكران يضع يده فى العذرة، ويدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صرفها عنه. فقال أبو بكر: إن هذا لا يدرى ما يصنع، وهو يجد ريحها فحماها[1]، وفى رواية لعائشة... ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر فى الجاهلية[2].

وقد أجاب الصديق من سأله هل شربت الخمر فى الجاهلية؟ بقوله: أعوذ بالله، فقيل: ولم؟ قال: كنت أصون عرضى، وأحفظ مروءتى، فإن من شرب الخمر كان مضيّعًا لعرضه ومروءته[3].

٥- ولم يسجد لصنم:

ولم يسجد الصديق رضى الله عنه لصنم قط، قال أبو بكر رضى الله عنه فى مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: ما سجدت لصنم قط، وذلك أنى لما ناهزت الحلم أخذنى أبو قحافة بيدى فانطلق بى إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لى: هذه آلهتك الشُّمُ العوالى، وخلانى وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إنى جائع فأطعمنى فلم يُجبنى، فقلت: إنى عارٍ فاكسنى، فلم يجبنى، فألقيت عليه صخرة فخرَّ لوجهه. وهكذا حمله خلقه الحميد وعقله النير وفطرته السليمة على ا لترفع عن كل شيء يخدش المروءة وينقص الكرامة من أفعال الجاهليين وأخلاقهم التى تجانب الفطرة السليمة، وتتنافى مع العقل الراجح والرجولة الصادقة[4]، فلا عجب على من كانت هذه أخلاقه أن ينضم لموكب دعوة الحق ويحتل فيها الصدارة ويكون بعد إسلامه أفضل رجل بعد رسول الله ﷺ، فقد قال ﷺ: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»[5]. وقد علق الاستاذ رفيق العظم عن حياة الصديق فى الجاهلية فقال: اللهم إن امرأً نشأ بين الأوثان حيث لا دين زاجر، ولا شرع للنفوس قائد، وهذا مكانه من الفضيلة، واستمساكه بعرى العفة والمروءة... لجدير بأن يتلقى الإسلام بملء الفؤاد، ويكون أول مؤمن بهادى العباد، مبادر بإسلامه لإرغام أنوف أهل الكبر والعناد، ممهد سبيل الاهتداء بدين الله القويم، الذى

---

(١) سيرة وحياة الصديق، مجدى فتحى، ص٣٤.

(٢، ٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص٤٩.

(٤) أصحاب الرسول، محمود المصرى (١/ ٥٨)؛ الخلفاء، محمود شاكر، ص٣١.

(٥) تاريخ الدعوة فى عهد الخلفاء الراشدين، ص٤٣.

يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه، المستمسكين بمتين سببه[١].

لله در الصديق رضى الله عنه، فقد كان يحمل رصيداً ضخمًا من القيم الرفيعة، والأخلاق الحميدة والسجايا الكريمة فى المجتمع القرشى قبل الإسلام، وقد شهد له أهل مكة بتقدمه علي غيره فى عالم الأخلاق والقيم والمثل، ولم يُعلم أحد من قريش عاب أبا بكر بعيب ولا نقصه ولا استرذله، كما كانوا يفعلون بضعفاء المؤمنين، ولم يكن له عندهم عيب إلا الإيمان بالله ورسوله[٢].

---

(١) أشهر مشاهير الإسلام (١/ ١٢).

(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩) نقلاً عن كتاب (أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة) لمحمد عبد الرحمن قاسم، ص (١٨، ١٩).

المبحث الثانى

إسلامه ودعوته وابتلاؤه وهجرته الأولى

أولاً: إسلامه:

كان إسلام أبى بكر رضى الله عنه وليد رحلة إيمانية طويلة فى البحث عن الدين الحق الذى ينسجم مع الفطر السليمة ويلبى رغباتها، ويتفق مع العقول الراجحة والبصائر النافذة، فقد كان بحكم عمله التجارى كثير الأسفار، قَطَعَ الفيافى، والصحارى، والمدن والقرى فى الجزيرة العربية، وتنقل من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، واتصل اتصالاً وثيقًا، بأصحاب الديانات المختلفة وبخاصة النصرانية، وكان كثير الإنصات لكلمات النفر الذين حملوا راية التوحيد، راية البحث عن الدين القويم[1]، فقد حدث عن نفسه فقال: كنت جالسًا بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نُفيل قاعدًا، فمرَّ ابن أبى الصَّلْتِ، فقال: كيف أصبحت يا باغى الخير؟ قال: بخير، قال: وهل وجدت؟ قال: لا، فقال:

كل دين يوم القيامة إلا ... ما مضَى فى الحنيفية بُور[2]

أما إنَّ هذا النبى الذى ينتظر منا أو منكم، قال: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبى يُنتظر ويبُعث، قال: فخرجت أريد ورقة بن نوفل - وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصَّدر - فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخى، إنَّا أهل الكتب والعلوم، ألا إن هذا النبى الذى يُنتظر من أوسط العرب نسبًا - ولى علم بالنسب - وقومك أوسط العرب نسبًا. قلت: يا عمْ وما يقول النبى؟ قال: يقول ما قيل له؟ إلا إنَّه لا يظلم، ولا يُظلم ولا يُظالم، فلما بُعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدَّقته[3]، وكان يسمع ما يقوله أمية بن أبى الصلت:

فى مثل قوله:

ألا نبى لنا منا فيخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس مجرانا

---

(١) مواقف الصديق مع النبى بمكة، د. عاطف لماضة، ص٦.

(٢، ٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص٥٢.

إنى أعـوذ بمن حج الحجيج له والرافعون لدين الله أركانا

لقد عايش أبو بكر هذه الفترة، ببصيرة نافذة، وعقل نير، وفكر متألق، وذهن وقاد، وذكاء حاد، وتأمل رزين ملأ عليه أقطار نفسه، ولذلك حفظ الكثير من هذه الأشعار، ومن تلك الأخبار، فعندما سأل الرسول الكريم ﷺ أصحابه يومًا - وفيهم أبو بكر الصديق - قائلاً: «من منكم يحفظ كلام - قس بن ساعدة - فى سوق عكاظ؟». فسكت الصحابة، ونطق الصديق قائلاً: إنى أحفظها يا رسول الله.

كنت حاضراً يومها فى سوق عكاظ، ومن فوق جَمَله الأَوْرَق وقف قس يقول: أيها الناس: اسمعوا وَعُوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن فى السماءِ لخبراً، وإنَّ فى الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور، ليل داج، وسماء ذات أبراج!!

يُقسم قس، إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه. ما لى أرى الناس يذهبون، ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا، ثم أنشد قائلاً:

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائرْ

لما رأيت مناورداً للموت ليس لها مصادرْ

ورأيت قومى نحوها يسعى الأكابر والأصاغرْ

أيقنت أنى لا محالة حيث صار القومُ صائرْ(١)

وبهذا الترتيب الممتاز، وبهذه الذاكرة الحديدية، وهى ذاكرة استوعبت هذه المعانى، يقص الصديق ما قاله قس بن ساعدة على رسول الله وأصحابه(٢).

وقد رأى رؤيا لما كان فى الشام فقصَّها على بحيرا الراهب(٣)، فقال له: من أين أنت؟ قال: من مكة، قال: من أيها؟ قال: من قريش، قال: فأى شيء أنت؟ قال: تاجر، قال: إن صدق الله رؤياك، فإنه يبعث بنبى من قومك، تكون وزيره فى حياته، وخليفته بعد موته، فأسر ذلك أبو بكر فى نفسه(٤).

---

(١) مواقف الصديق مع النبى بمكة، ص٨.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٩.

(٣، ٤) الخلفاء الراشدون، محمود شاكر، ص٣٤.

لقد كان إسلام الصديق بعد بحث وتنقيب وانتظار، وقد ساعده على تلبية دعوة الإسلام معرفته العميقة وصلته القوية بالنبى ﷺ فى الجاهلية، فعندما نزل الوحى على النبى ﷺ وأخذ يدعو الأفراد إلى الله، وقع أول اختياره على الصديق رضى الله عنه، فهو صاحبه الذى يعرفه قبل البعثة بدماثة خلقه، وكريم سجاياه، كما يعرف أبو بكر النبى ﷺ بصدقه وأمانته وأخلاقه، التى تمنعه من الكذب على الناس فكيف يكذب على الله؟[١]

فعندما فاتحه رسول الله ﷺ بدعوة الله وقال له: «.. **إنى رسول الله ونبيه، بعثنى لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته**»[٢].

فأسلم الصديق ولم يتلعثم وتقدم ولم يتأخر، وعاهد رسول الله على نصرته، فقام بما تعهد، ولهذا قال رسول الله ﷺ فى حقه: «**إن الله بعثنى إليكم فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صدق، وواسانى بنفسه وماله. فهل أنتم تاركون لى صاحبى؟**» مرتين[٣].

وبذلك كان الصديق رضى الله عنه أول من أسلم من الرجال الأحرار، قال إبراهيم النخعى، وحسان بن ثابت وابن عباس وأسماء بنت أبى بكر: أول من أسلم أبو بكر. وقال يوسف بن يعقوب الماجشون: أدركت أبى ومشيختنا: محمد بن المنكدر، وربيعة ابن عبد الرحمن، وصالح بن كيسان، وسعد بن إبراهيم، وعثمان بن محمد الأخنس، وهم لا يشكون أن أول القوم إسلامًا أبو بكر[٤]، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أول من صلى أبو بكر، ثم تمثل بأبيات حسان:

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها ... إلا النبى وأوفاها بما حملا

الثانى التالى المحمود مشهده ... وأول الناس طرًّا صدق الرسلا[٥]

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صعد الجبلا

---

(١) تاريخ الدعوة فى عهد الخلفاء الراشدين، ص٤٤.

(٢) البداية والنهاية (٣/ ٣١) ط دار المعرفة بيروت.

(٣) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى رقم ٣٦٦١.

(٤) صفة الصفوة (١/ ٢٣٧)؛ أحمد فضائل الصحابة (٣/ ٢٠٦).

(٥) ديوان حسان بن ثابت تحقيق وليد عرفات (١/ ١٧).

وعـاش حـمـداً لأمـر الله مـتـبـعًـا بهـدى صاحبـه الماضى وما انتـقـلا

وكـان حب رسـول الله قـد علمـوا من البـرية لم يعـدل به رجـلا[١]

هذا وقد ناقش العلماء قضية إسلام الصديق، وهل كان رضى الله عنه أول من أسلم، فمنهم من جزم بذلك، ومنهم من جزم بأن عليًا أول من أسلم، ومنهم من جعل زيد بن حارثة أول من أسلم، وقد جمع الإمام ابن كثير رحمه الله بين الأقوال جمعًا طيبًا فقال: (والجمع بين الأقوال كلها: أن خديجة أول من أسلم من النساء – وقيل الرجال أيضًا – وأول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة، وأول من أسلم من الغلمان على بن أبي طالب – فإنه كان صغيراً دون البلوغ على المشهور – وهؤلاء كانو آنذاك أهل بيته ﷺ، وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدم ذكرهم إذ كان صدراً معظمًا، رئيسًا فى قريش مكرمًا، وصاحب مال وداعية إلى الإسلام، وكان محببًا متآلفًا يبذل المال فى طاعة الله ورسوله) ثم قال: وقد أجاب أبو حنيفة رضى الله عنه بالجمع بين هذه الأقوال، فإن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالى زيد بن حارثة، ومن الغلمان على بن أبى طالب، رضى الله عنهم أجمعين[٢].

وبإسلام أبى بكر عم السرور قلب النبى ﷺ حيث تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: فلما فرغ من كلامه – أى النبى ﷺ – أسلم أبو بكر، فانطلق رسول الله ﷺ من عنده، وما بين الأخشبين أحد أكثر سروراً منه بإسلام أبى بكر[٣]. لقد كان أبو بكر كنزاً من الكنوز ادخره الله تعالى لنبيه، وكان من أحب قريش لقريش، فذلك الخلق السمح الذى وهبه الله تعالى إياه جعله من الموطئين أكنافًا، من الذين يألفون ويؤلفون، والخلق السمح وحده عنصر كاف لألفة القوم، وهو الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر[٤] ». وعلم الأنساب عند العرب، وعلم التاريخ هما أهم العلوم عندهم، ولدى أبى بكر الصديق رضى الله عنه النصيب الأوفر منهما، وقريش تعترف للصديق بأنه أعلمها بأنسابها وأعلمها بتاريخها، وما فيه من خير وشر، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبى بكر لتنهل منه علمًا لا تجده عند غيره غزارة ووفرة وسعة، ومن أجل

---

(١) ديوان حسان (١/١٧).

(٢) البداية والنهاية (٣/٢٦، ٢٨).

(٣) نفس المصدر السابق (٣/٢٩).

(٤) الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٢/٨) ج٣.

هذا كان الشباب النابهون والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائماً، إنهم الصفوة الفكرية المثقفة التى تود أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانب آخر من جوانب عظمته، وطبقة رجال الأعمال ورجال المال فى مكة، هى كذلك من رواد مجلس الصديق، فهو إن لم يكن التاجر الأول فى مكة، فهو من أشهر تجارها، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده، ولطيبته وحسن خلقه تجد عوام الناس يرتادون بيته، فهو المضياف الدمث الخلق، الذى يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكى تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه(١)، كان رصيده الأدبى والعلمى والاجتماعى فى المجتمع المكى عظيماً، ولذلك عندما تحرك فى دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق(٢).

ثانياً : دعوته:

أسلم الصديق رضى الله عنه وحمل الدعوة مع النبى ﷺ، وتعلم من رسول الله ﷺ أن الإسلام دين العمل والدعوة والجهاد، وأن الإيمان لا يكمل حتى يهب المسلم نفسه وما يملك لله رب العالمين(٣)، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] وقد كان الصديق كثير الحركة للدعوة الجديدة، وكثير البركة أينما تحرك أثر وحقق مكاسب عظيمة للإسلام، وقد كان نموذجاً حياً فى تطبيقه لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

كان تحرك الصديق رضى الله عنه فى الدعوة إلى الله يوضح صورة من صور الإيمان بهذا الدين، والاستجابة لله ورسوله، صورة المؤمن الذى لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، حتى يحقق فى دنيا الناس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعة عاطفية مؤقتة سرعان ما تخمد وتذبل وتزول، وقد بقى نشاط أبى بكر وحماسه للإسلام إلى أن توفاه الله عز وجل لم يفتر أو يضعف أو يمل أو يعجز(٤).

---

(١) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/١١٥).

(٢) نفس المصدر السابق (١/١١٦).

(٣) تاريخ الدعوة فى عهد الخلفاء الراشدين، ص٨٧.

(٤) الوحى وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى، ص٦٢.

كانت أول ثمار الصديق الدعوية دخول صفوة من خيرة الخلق فى الإسلام وهم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان ابن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنهم، وجاء بهؤلاء الصحابة الكرام فرادي فأسلموا بين يدي رسول الله ﷺ، فكانوا الدعامات الأولي التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولي في تقوية جانب رسول الله ﷺ وبهم أعزه الله وأيده، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، رجالاً ونساءً، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلي الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد والإثنان، والجماعة القليلة، فكانوا علي قلة عددهم كتيبة الدعوة، وحصن الرسالة لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام[١].

اهتم الصديق بأسرته فأسلمت أسماء وعائشة وعبد الله وزوجته أم رومان وخادمه عامر بن فهيرة، لقد كانت الصفات الحميدة والخلال العظيمة والأخلاق الكريمة التى تجسدت فى شخصية الصديق عاملاً مؤثرًا فى الناس عند دعوتهم للإسلام، فقد كان رصيده الخلقى ضخمًا فى قومه وكبيرًا فى عشيرته، فقد كان رجلاً، مؤلفًا لقومه، محببًا لهم، سهلاً، أنسب قريش لقريش، بل كان فرد زمانه فى هذا الفن، وكان رئيسًا مكرمًا سخيًا يبذل المال، وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد، وكان رجلاً بليغًا[٢].

إن هذه الأخلاق والصفات الحميدة لا بد منها للدعاة إلى الله، وإلا أصبحت دعوتهم للناس صيحة فى واد، ونفخة فى رماد، وسيرة الصديق وهى تفسر لنا فهمه للإسلام وكيف عاش به فى حياته حرى بالدعاة أن يتأسوا بها فى دعوة الأفراد إلى الله تعالى.

ثالثًا: ابتلاؤه:

إن سنة الابتلاء ماضية فى الأفراد والجماعات والشعوب والأمم والدول، وقد مضت هذه السنة فى الصحابة الكرام، وتحملوا رضوان الله عليهم من البلاء ما تنوء به الرواسى الشامخات، و بذلوا أموالهم ودماءهم فى سبيل الله، وبلغ بهم الجهد ماشاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أوذى أبو بكر رضى الله عنه وحُثى على رأسه التراب، وضرب فى المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه،

(١) محمد رسول الله، صادق عرجون (١/٥٣٣).
(٢) السيرة الحلبية (١/٤٤٢).

وحمل إلى بيته فى ثوبه وهو ما بين الحياة والموت[1]، فقد روت عائشة رضى الله تعالى عنها أنه لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألَحَّ أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فى الظهور، فقال: يا أبا بكر إنَّا قليل. فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ، وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته، وقام أبو بكر فى الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس، فكان أوَّل خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ ، وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين، فضربوه فى نواحى المسجد ضربًا شديدًا، ووطىء أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويُحرِفهما لوجهه، ونزا على بطن أبى بكر رضى الله عنه، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبى بكر، وحَمَلت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون فى موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه، وقالوا لأمه أم الخير: انظرى أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت: والله مالى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر سائلك عن محمد بن عبد الله. فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك . قالت : نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دَنِفًا، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قومًا نالوا منك لأهل فسق وكفر، إننى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: فى دار الأرقم. قال: فإن لله على أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجْلُ وسكن الناس، خرجتا به يتكىء عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ ، فقال: فأكب عليه رسول الله فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة فقال أبو بكر: بأبى وأمى يا رسول الله، ليس بى بأس إلا ما نال الفاسق من وجهى، وهذه أمى برة بولدها

---

(١) التمكين للأمة الإسلامية، ص٢٤٣.

وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت(١).

إن هذا الحدث العظيم فى طياته دروس وعبر لكل مسلم حريص على الاقتداء بهؤلاء الصحب الكرام، ونحاول أن نستخرج بعض هذه الدروس التى منها:

١- حرص الصديق على إعلان الإسلام وإظهاره أمام الكفار، وهذا يدل على قوة إيمانه وشجاعته، وقد تحمل الأذى العظيم حتى إن قومه كانوا لا يشكون فى موته، لقد أشرب قلبه حب الله ورسوله أكثر من نفسه، ولم يعد يهمه - بعد إسلامه - إلا أن تعلو راية التوحيد، ويرتفع النداء: لا إله إلا الله محمد رسول الله فى أرجاء مكة حتى لو كان الثمن حياته، وكاد أبو بكر فعلاً أن يدفع حياته ثمناً لعقيدته وإسلامه.

٢- إصرار أبى بكر على الظهور بدعوة الإسلام وسط الطغيان الجاهلى، رغبة فى إعلام الناس بذلك الدين الذى خالطت بشاشته القلوب، رغم علمه بالأذى الذى قد يتعرض له وصحبه، وما كان ذلك إلا لأنه قد خرج من حظ نفسه.

٣- حب الله ورسوله تغلغل فى قلب أبى بكر على حبه لنفسه، بدليل أنه رغم ما ألم به، كان أول ما سأل عنه: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قبل أن يطعم أو يشرب، وأقسم أنه لن يفعل حتى يأتى رسول الله ﷺ، وهكذا يجب أن يكون حب الله ورسوله ﷺ عند كل مسلم أحب إليه مما سواهما حتى لو كلفه ذلك نفسه وماله(٢).

٤- إن العصبية القبلية كان لها فى ذلك الحين دور فى توجيه الأحداث والتعامل مع الأفراد حتى مع اختلاف العقيدة، فهذه قبيلة أبى بكر تهدد بقتل عتبة إن مات أبو بكر(٣).

٥- تظهر مواقف رائعة لأم جميل بنت الخطاب، توضح لنا كيف تربت على حُبِّ الدعوة والحرص عليها، وعلى الحركة لهذا الدين، فحينما سألتها أم أبى بكر عن رسول الله قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، فهذا تصرف حذر سليم، لأن أم الخير لم تكن ساعتئذٍ مسلمة وأم جميل كانت تخفى إسلامها، ولا تود أن تعلم به أم

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٩ - ٤٤١)؛ البداية والنهاية (٣/ ٣٠).

(٢) استخلاف أبى بكر الصديق، د. جمال الهادى، ص(١٣١، ١٣٢).

(٣) محنة المسلمين فى العهد المكى، د. سليمان السويكت، ص٧٩.

الخير، وفي ذات الوقت أخفت عنها مكان الرسول ﷺ مخافة أن تكون عينًا لقريش(١)، وفي نفس الوقت حرصت أم جميل أن تطمئن على سلامة الصديق، ولذلك عرضت على أم الخير أن تصحبها إلى ابنها، وعندما وصلت إلى الصديق كانت أم جيمل في غاية الحيطة والحذر من أن تتسرب منها أي معلومة عن مكان رسول الله ﷺ وأبلغت الصديق بأن رسول الله ﷺ سالم صالح(٢)، ويتجلى الموقف الحذر من الجاهلية التي تفتن الناس عن دينهم في خروج الثلاثة عندما: هدأت الرجل وسكن الناس(٣).

٦- يظهر بر الصديق بأمه وحرصه على هدايتها في قوله لرسول الله ﷺ: هذه أمي برة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار. إنه الخوف من عذاب الله والرغبة في رضاه وجنته، ولقد دعا رسول الله ﷺ لأم أبي بكر بالهداية فاستجاب الله له، وأسلمت أم أبي بكر وأصبحت من ضمن الجماعة المؤمنة المباركة التي تسعى لنشر دين الله تعالى، ونلمس رحمة الله بعباده ونلحظ من خلال الحدث: قانون المنحة بعد المحنة.

٧- إن من أكثر الصحابة الذين تعرضوا لمحنة الأذى والفتنة بعد رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه نظراً لصحبته الخاصة له، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرض فيها للأذى من قومه، فينبري الصديق مدافعًا عنه وفاديًا إياه بنفسه، فيصيبه من أذى القوم وسفههم، هذا مع أن الصديق يعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل والإحسان(٤).

رابعًا: دفاعه عن النبي ﷺ:

من صفات الصديق التي تميز بها: الجرأة والشجاعة، فقد كان لايهاب أحداً في الحق، ولا تأخذه لومة لائم في نصرة دين الله والعمل له والدفاع عن رسوله ﷺ، فعن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص بأن يخبرني بأشد شئ صنعه المشركون بالنبي ﷺ فقال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذا أقبل عبقة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ(٥)

---

(١) السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص٥٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٥١.

(٣) استخلاف الصديق، د. جمال عبد الهادي، ص١٣٢.

(٤) محنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان السويكت ص٧٥.

(٥) البخاري رقم (٣٨٥٦).

وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]. وفي رواية أنس رضي الله عنه أنه قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر رضي الله عنه فجعل ينادي ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله[١]. وفي حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقال: أدرك صاحبك، قالت: فخرج من عندنا وله غدائر أربع وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئًا من غدائره إلا رجع معه[٢]. وأما في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد قام خطيبًا وقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوى عليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه فهذا أشجع الناس. قال: ولقد رأيت رسول الله وأخذته قريش فهذا يُحادّه، وهذا يتلتله ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، فوالله مادنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب ويجاهد هذا ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع على بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فسكت القوم، فقال عليٌّ: فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه[٣].

هذه صورة مشرقة تبين طبيعة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، وتوضح ما تحمله الصديق من الألم والعذاب في سبيل الله تعالى، كما تعطي ملامح واضحة عن شخصيته الفذة، وشجاعته النادرة التي شهد له بها الإمام علي رضي الله عنه في خلافته، أي بعد عقود من الزمن، وقد تأثر علي رضي الله عنه حتى بكى وأبكى.

إن الصديق رضي الله عنه أول من أوذي في سبيل الله بعد رسول الله ﷺ وأول من دافع عن رسول الله، وأول من دعا إلى الله[٤]، وكان الذراع اليمنى لرسول الله ﷺ،

---

(١) الصحيح المسند في فضائل الصحابة للعدوي، ص٣٧.

(٢) منهاج السنة (٣/٤)؛ فتح الباري (٧/١٦٩).

(٣) البداية والنهاية (٣/٢٧١، ٢٧٢).

(٤) انظر: أبو بكر الصديق، محمد عبد الرحمن قاسم، ص(٢٩، ٣٠ – ٣٢).

وتفرغ للدعوة وملازمة رسول الله وإعانته على من يدخلون الدعوة فى تربيتهم وتعليمهم وإكرامهم، فهذا أبو ذر رضى الله عنه يقص لنا حديثه عن إسلامه ففيه: (... فقال أبو بكر: ائذن لى يا رسول الله فى طعامه الليلة، وأنه أطعمه من زبيب الطائف[1]، وهكذا كان الصديق فى وقوفه مع رسول الله يستهين بالخطر على نفسه، ولا يستهين بخطر يصيب النبى ﷺ قل أو كثر حيثما رآه واستطاع أن يذود عنه العادين عليه، وإنه ليراهم آخذين بتلابيبه فيدخل بينهم وبينه، وهو يصيح بهم: (ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟) فينصرفون عن النبى وينحون عليه يضربونه، يجذبونه من شعره فلا يدعونه إلا وهو صديع)[2].

خامسًا: إنفاقه الأموال لتحرير المعذبين فى الله:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله ﷺ ولأصحابه مع انتشار الدعوة فى المجتمع المكى الجاهلى، حتى وصل إلى ذروة العنف وخاصة فى معاملة المستضعفين من المسلمين، فنكلت بهم لتفتنهم عن عقيدتهم وإسلامهم، ولتجعلهم عبرة لغيرهم، ولتنفس عن حقدها وغضبها بما تصبه عليهم من العذاب. وقد تعرض بلال رضي الله عنه لعذاب عظيم، ولم يكن لبلال رضى الله عنه ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولا سيوف تذود عنه، ومثل هذا الإنسان فى المجتمع الجاهلى المكى يعادل رقمًا من الأرقام، فليس له دور فى الحياة إلا أن يخدم ويطيع ويباع ويشترى كالسائمة، أما أن يكون له رأى أو يكون صاحب فكر، أو صاحب دعوة أو صاحب قضية، فهذه جريمة شنعاء فى المجتمع الجاهلى المكى تهز أركانه، وتزلزل أقدامه، ولكن الدعوة الجديدة التي سارع لها الفتيان وهم يتحدون تقاليد وأعراف آبائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرمى المنسى، فأخرجته إنسانًا جديدا فى الحياة[3]، قد تفجرت معانى الإيمان فى إعماقه بعد أن آمن بهذا الدين وانضم إلى محمد ﷺ وإخوانه فى موكب الإيمان العظيم، وعندما علم سيده أمية بن خلف، راح يهدده تارة ويغريه أطوارًا فما وجد عند بلال غير العزيمة وعدم الاستعداد للعودة إلى الوراء إلى الكفر والجاهلية والضلال، فحنق عليه أمية وقرر أن يعذبه عذابًا شديداً، فأخرجه إلى شمس الظهيرة فى الصحراء بعد أن منع عنه الطعام والشراب يومًا

---

(١) الفتح (٧/٢١٣)؛ الخلافة الراشدة، يحيى اليحيى، ص١٥٦.

(٢) عبقرية الصديق للعقاد، ص٨٧؛ صديع: المشقوق الثوب.

(٣) التربية القيادية (١/١٣٦).

وليلة، ثم ألقاه على ظهره فوق الرمال المحرقة الملتهبة، ثم أمر غلمانه فحملوا صخرة عظيمة وضعوها فوق صدر بلال وهو مقيد اليدين، ثم قال له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. وأجاب بلال بكل صبر وثبات: أحد أحد. وبقى أمية بن خلف مدة وهو يعذب بلالاً بتلك الطريقة البشعة(١)، فقصد الصديق موقع التعذيب وفاوض أمية بن خلف وقال له: (ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ حتى متى! قال: أنت أفسدته فأنقذه مما تري، فقال أبو بكر: أفعل، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به، قال: قد قبلت، فقال: هو لك، فأعطاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه غلامه ذلك وأخذه فأعتقه)(٢)، وفى رواية اشتراه بسبع أواق أو بأربعين أوقية ذهبًا(٣)، ما أصبر بلالاً وما أصلبه رضى الله عنه! فقد كان صادق الإسلام، طاهر القلب، ولذلك صَلُب ولم تَلِن قناته أمام التحديات وأمام صنوف العذاب، وكان صبره وثباته مما يغيظهم ويزيد حنقهم، خاصة أنه كان الرجل الوحيد من ضعفاء المسلمين الذى ثبت على الإسلام فلم يوات الكفار فيما يريدون، مردداً كلمة التوحيد بتحد صارخ، وهانت عليه نفسه فى الله وهان على قومه(٤).

وبعد كل محنة منحة فقد تخلص بلال من العذاب والنكال، وتخلص من أسر العبودية، وعاش مع رسول الله بقية حياته ملازمًا له، ومات راضيًا عنه.

واستمر الصديق فى سياسة فك رقاب المسلمين المعذبين، وأصبح هذا المنهج من ضمن الخطة التي تبنتها القيادة الإسلامية لمقاومة التعذيب الذى نزل بالمستضعفين، فدعم الدعوة بالمال والرجال والأفراد، فراح يشترى العبيد والإماء المملوكين من المؤمنين والمؤمنات منهم عامر بن فهيرة شهد بدراً وأحداً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأم عبيس، وزِنِّيرة وأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فرد الله بصرها(٥)، وأعتق النهدية وبنتها وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار، مرَّ بهما وقد بعثتهما سيدتهما

---

(١) عتيق العتقاء (أبو بكر الصديق)، محمود البغدادى، ص(٣٩، ٤٠).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٩٤).

(٣) التربية القيادية (١/١٤٠).

(٤) محنة المسلمين فى العهد المكى، ص٩٢.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٩٣).

بطحين لها، وهى تقول: والله لا أعتقكما أبداً، فقال أبو بكر رضى الله عنه حِلٍّ[1] يا أم فلان فقالت: حلّ أنت، أفسدتهما فأعتقهما، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا. وقال: قد أخذتهما وهما حرتان أرجعا إليها طحينها. قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ قال: وذلك إن شئتما[2].

وهنا وقفة تأمل ترينا كيف سوى الإسلام بين الصديق والجاريتين حتى خاطبتاه خطاب الند للند، لا خطاب المسود للسيد، وتقبل الصديق - على شرفه وجلالته فى الجاهلية والإسلام - منهما ذلك، مع أنه له يدٌ عليهما بالعتق، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتى تخلقتا بهذا الخلق الكريم، وكان يمكنهما وقد أعتقتا وتحررتا من الظلم أن تدعا لها طحينها يذهب أدراج الرياح، أو يأكله الحيوان والطير، ولكنهما أبتا - تفضلاً - إلا أن تفرغا منه، وترداه إليها[3].

ومر الصديق بجارية بنى مُؤَمَّل - حى من بنى عدى بن كعب - وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك يضربها، حتى إذا ملَّ قال: إنى أعتذر إليك أنى لم أتركك إلا عن ملالة، فتقول: كذلك فعل الله بك فابتاعها أبو بكر فأعتقها[4].

هكذا كان واهب الحريات، ومحرر العبيد، شيخ الإسلام الوقور، الذى عرف بين قومه، بأنه يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق، ولم ينغمس فى إثم فى جاهليته، أليف مألوف، يسيل قلبه رقة ورحمة على الضعفاء والأرقاء، أنفق جزءاً كبيراً من ماله فى شراء العبيد، وعتقهم لله، وفى الله، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحببة فى العتق، والواعدة عليه أجزل الثواب[5].

كان المجتمع المكى يتندر بأبى بكر رضى الله عنه الذى يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين، أما فى نظر الصديق، فهؤلاء إخوانه فى الدين الجديد، فكل واحد من هؤلاء لا يساويه عنده مشركو الأرض وطغاتها، وبهذه العناصر وغيرها تبنى دولة

---

(١) حل: تحللى من يمينك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٩٣).

(٣) السيرة النبوية لأبى شهبة (١/٣٤٦).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٩٣).

(٥) السيرة النبوية لأبى شهبة (١/٣٤٥).

التوحيد، وتصنع حضارة الإسلام الرائعة[1]. ولم يكن الصديق يقصد بعمله هذا محمدة ولا جاهًا، ولا دينًا، وإنما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، لقد قال له أبوه ذات يوم: يا بنى إنى أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعوك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه: يا أبت إنى إنما أريد ما أريد لله عز وجل. فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل فى شأن الصديق قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۞ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۞ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۞ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۞ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۞ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۞ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۞ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۞ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٥-٢١].

لقد كان الصديق من أعظم الناس إنفاقًا لماله فيما يرضى الله ورسوله.

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلامية الأولى قمةً من قمم الخير والعطاء، وأصبح هؤلاء العبيد بالإسلام، أصحاب عقيدة وفكرة يناقشون بها وينافحون عنها، ويجاهدون فى سبيلها، وكان إقدام أبى بكر رضى الله عنه على شرائهم ثم عتقهم دليلاً على عظمة هذا الدين ومدى تغلغله فى نفسية الصديق رضى الله عنه، وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحيوا هذا المثل الرفيع، والمشاعر السامية ليتم التلاحم والتعايش والتعاضد بين أبناء الأمة التي يتعرض أبناؤها للإبادة الشاملة من قبل أعداء العقيدة والدين.

سادسًا: هجرته الأولى وموقف ابن الدغنة منها:

قالت عائشة رضى الله عنها: لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار: بكرة وعشية، فلما ابتلى المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى برك الغماد لقيه ابن الدغنة – وهو سيد

---

(١) التربية القيادية (٣٤٢/١).

القارة[١] - فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَقرى الضيف، وتُعين على نوائب الحق. فأنا لك جارٌ، ارجع واعبد ربك ببلدك. فرجع، وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره. ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بَكَّاءً لا يملك عينه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمته، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرك ولسنا بمقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليَّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل[٢]، وحين خرج من جوار ابن الدغنة، يعني أبو بكر، لقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه تراباً، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة - أو العاص بن وائل - فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ فقال: أنت فعلت ذلك بنفسك، وهو يقول: ربي ما أحلمك، أي ربي ما أحلمك، أي ربي ما أحلمك[٣]. وفي هذه القصة دروس وعبر كثيرة منها:

---

(١) ابن الدغنة: قيل: اسمه الحارث بن يزيد وقيل: مالك وقيل: ربيعة بن رفيع. والقارة قبيلة من بني الهون ابن خزيمة.

(٢) فتح الباري (٧/٢٧٤).

(٣) البداية والنهاية (٣/٩٥).

١- كان أبو بكر فى عز من قومه قبل بعثة محمد ﷺ، فها هو ابن الدغنة يقول له: مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نواب الحق، فأبو بكر لم يدخل فى دين الله طلبًا لجاه أو سلطان، وما دفعه إلى ذلك إلا حب الله ورسوله ﷺ، مما يترتب على ذلك من ابتلاءات، أى أنه لم يكن له تطلعات سوى مرضاة الله تعالى، إنه يريد أن يفارق الأهل والوطن والعشيرة ليعبد ربه، لأنه حيل بينه وبين ذلك فى وطنه(١).

٢- إن زاد الصديق فى دعوته القرآن الكريم، ولذلك اهتم بحفظه وفهمه وفقهه والعمل به، وأكسبه الاهتمام بالقرآن الكريم براعة فى تبليغ الدعوة، وروعة فى الأسلوب، وعمقًا فى الأفكار، وتسلسلاً عقليًا فى عرض الموضوع الذى يدعو إليه، ومراعاة لأحوال السامعين، وقوة فى البرهان والدليل(٢).

وكان الصديق يتأثر بالقرآن الكريم ويبكى عند تلاوته، وهذا يدل على رسوخ يقينه وقوة حضور قلبه مع الله عز وجل، ومع معانى الآيات التى يتلوها، والبكاء مبعثه قوة التأثير إما بحزن شديد أو فرح غامر، والمؤمن الحق يظل بين الفرح بهداية الله تعالى إلى الصراط المستقيم، والإشفاق من الانحراف قليلاً عن هذا الصراط، وإذا كان صاحب إحساس حىٍّ وفكر يقظ كأبى بكر رضى الله عنه فإن هذا القرآن يذكِّرُ بالحياة الآخرة وما فيها من حساب وعقاب أو ثواب، فيظهر أثر ذلك فى خشوع الجسم وانسكاب العبرات، وهذا المظهر يؤثر كثيراً على من شاهده، ولذلك فزع المشركون من مظهر أبى بكر المؤثر وخَشوا على نسائهم وأبنائهم أن يتأثروا به فيدخلوا فى الإسلام(٣).

لقد تربى الصديق على يدى رسول الله ﷺ، وحفظ كتاب الله تعالى وعمل به فى حياته، وتأمل فيه كثيراً وكان لا يتحدث بغير علم، فعندما سئل عن آية لا يعرفها أجاب بقوله: أى أرض تسعنى أو أى سماء تُظِلّنى إذا قلت فى كتاب الله ما لم يُرد الله(٤). ومن أقواله التى تدل على تدبره وتفكره فى القرآن الكريم قوله: إن الله ذكر أهل الجنة، فذكرهم بأحسن أعمالهم وغفر لهم سيئها، فيقول الرجل: أين أنا من هؤلاء؟!

(١) استخلاف أبو بكر الصديق، ص١٣٤.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص٨٨.

(٣) التاريخ الإسلامى للحميدى (جـ١٩، جـ٢٠/٢٠٩).

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص١١٧ هذه الرواية فيها انقطاع.

يعني: حسنها، فيقول قائل: لست من هؤلاء، يعني: وهو منهم[1].

وكان يسأل رسول الله ﷺ فيما استشكل عليه بأدب وتقدير واحترام، فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣] قال أبو بكر: يا رسول الله، قد جاءت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءًا؟ فقال: يا أبا بكر، ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك مما تجزون به[2].

وقد فسر الصديق بعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] قال فيها: فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة، فلم يلتفتوا بقلوبهم إلى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف، ولا بالرجاء ولا بالسؤال ولا بالتوكل عليه، بل لا يحبون إلا الله ولا يحبون معه أندادًا، ولا يحبون إلا إياه، لا لطلب منفعة، ولا لدفع مضرة، ولا يخافون غيره كائنًا من كان، ولا يسألون غيره ولا يتشرفون بقلوبهم إلى غيره[3]، وغير ذلك من الآيات.

إن الدعاة إلى الله عليهم أن يكونوا في صحبة مستمرة للقرآن الكريم، يقرأونه ويتدبرونه ويستخرجون كنوزه ومعارفه للناس، وأن يظهروا للناس ما في القرآن من إعجاز بياني وعلمي وتشريعي، وما فيه من سبل إنقاذ الإنسانية المعذبة من مآسيها وحروبها، بأسلوب يناسب العصر، ويكافىء ما وصل إليه الناس من تقدم في وسائل الدعوة والدعاية، ولقد أدرك أبو بكر رضي الله عنه كيف تكون قراءة القرآن الكريم في المسجد على ملأ من قريش وسيلة مؤثرة من وسائل الدعوة إلى الله[4].

سابعًا: بين قبائل العرب في الأسواق:

قد علمنا أن الصديق رضي الله عنه كان عالمًا بالأنساب وله فيها الباع الطويل؛ قال

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (٦/٢١٢).

(٢) أحمد (١/١١) وقال الشيخ شاكر: أسانيدها ضعاف. وهو صحيح بطرقه وشواهده. انظر: مسند الإمام أحمد رقم ٦٨.

(٣) الفتاوى (٢٨/٢٢).

(٤) تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء، ص٩٥.

السيوطى رحمه الله تعالى: رأيت بخط الحافظ الذهبى رحمه الله من كان فرد زمانه فى فنه... أبو بكر فى النسب[١]، ولذلك استخدم الصديق هذا العلم الفياض وسيلة من وسائل الدعوة ليعلم كل ذى خبرة كيف يستطيع أن يسخر ذلك فى سبيل الله، على اختلاف التخصصات، وألوان المعرفة، سواء كان علمه نظريًا أو تجريبيًا، أو كان ذا مهنة مهمة فى حياة الناس[٢]، وسوف نرى الصديق يصحبه رسول الله ﷺ عندما عرض نفسه على قبائل العرب ودعاهم إلى الله، كيف وظف هذا العلم لدعوة الله، فقد كان الصديق خطيبًا مفوهًا له القدرة على توصيل المعانى بأحسن الألفاظ، وكان رضى الله عنه يخطب عن النبى ﷺ فى حضوره وغيبته، فكان النبى ﷺ إذا خرج فى الموسم يدعو (أى أبو بكر) الناس إلى متابعة كلامه تمهيداً وتوطئة لما يبلغ الرسول، معونة له، لا تقدمًا بين يدى الله ورسوله[٣]، وكان علمه فى النسب ومعرفة أصول القبائل مساعداً له على التعامل معها، فعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه... إلى أن قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار فتقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: من بنى شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال: بأبى أنت وأمى ليس وراء هؤلاء عذر من قومهم وهؤلاء غرر الناس وفيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم لسانًا وجمالاً وكان له غديرتان تسقطان على تريبته، وكان أدنى القوم مجلسا من أبى بكر فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب الألف من قلة، فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم، فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أن رسول الله ﷺ فها هوذا. فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى عبد الله ورسوله وإلى أن تؤوونى وتنصرونى فإن قريشًا قد تظاهرت على الله وكذّبت رسوله**

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص١٠٠ نقلاً عن تاريخ الدعوة، ص٩٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٩٦.

(٣) أبو بكر الصديق لمحمد عبد الرحمن قاسم، ص٩٢.

واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد». فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١] فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هانىء بن قبيصة فقال: وهذا هانىء شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانىء: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وإنى أرى أن تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لذل فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة، إنَّ الزلة مع العجلة وإنَّا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً، ولكن نرجع وترجع وننظر، ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا فقال المثنى - وأسلم بعد ذلك -: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب فيه جواب هانىء بن قبيصة فى تركنا ديننا ومتابعتنا دينك، وإنا إنما نزلنا بين صيرين أحدهما اليمامة والأخرى السمامة، فقال رسول الله ﷺ: «وما هذان الصيران؟». فقال له: أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثًا، ولا نُؤوى محدثًا ولعل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول وأما ما كان يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول فإن أردت أن ننصرك مما يلى العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون الله وتقدسونه؟». فقال له النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك[1].

وفى هذا الخبر دروس وعبر وفوائد كثيرة منها:

١- ملازمة الصديق لرسول الله ﷺ وهذا جعله يفهم الإسلام بشموله، وهيأه الله

---

(١) البداية والنهاية (٣/١٤٢، ١٤٣ - ١٤٥)، وفيها زيادات ليست عند الصالحى فى سبيل الرشاد (٢/٥٩٦، ٥٩٧).

تعالى بأن يصبح أعلم الصحابة بدين الله، فقد تعلم من رسول الله ﷺ حقيقة الإسلام وتربى على يديه فى معرفة معانيه، فاستوعب طبيعة الدعوة ومر بمراحلها المتعددة، واستفاد من صحبته لرسول الله ﷺ وتشرب المنهج الربانى، فعرف المولى عز وجل من خلاله، وطبيعة الحياة، وحقيقة الكون، وسر الوجود، وماذا بعد الموت، ومفهوم القضاء والقدر، وقصة الشيطان مع آدم عليه السلام، وحقيقة الصراع بن الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، وحببت إليه العبادات كقيام الليل، وذكر الله وتلاوة القرآن، فسمت أخلاقه، وتطهرت نفسه، وزكت روحه.

٢- وفى رفقته لرسول الله ﷺ عندما كان ﷺ يدعو القبائل للإسلام استفاد الكثير، فقد عرف أن النصرة التى كان يطلبها رسول الله ﷺ لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية تتناقض مع الدعوة ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه يُعرضها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التى بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتى تجد فى الدعوة الإسلامية خطراً عليها وتهديداً لمصالحها(١).

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حربًا ضد كسرى لو أراد القبض على رسول الله ﷺ وتسليمه، ولن يخوضوا حربًا ضد كسرى لو أراد مهاجمة رسول الله ﷺ وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات(٢).

٣- «**إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه**» كان هذا الرد من النبى ﷺ على المثنى بن حارثة حيث عرض على النبى حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة يرى بعد النظر الإسلامى النبوى الذى لا يسامى(٣).

٤- كان موقف بنى شيبان يتسم بالأريحية والخلق والرجولة، وينم عن تعظيم هذا النبى ﷺ، وعن وضوح فى العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التى يملكونها، وقد بينوا أن أمر الدعوة مما تكرهه الملوك، وقدّر الله لشيبان بعد عشر سنوات أو تزيد أن

---

(١) الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية، محمد هيكل (١/ ٤١٢).
(٢) التحالف السياسى فى الإسلام، منير الغضبان، ص٥٣.
(٣) نفس المصدر السابق، ص٦٤.

تحمل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك، بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنى بن حارثة الشيباني صاحب حربهم وبطلهم المغوار الذي كان من ضمن قادة الفتوح في خلافة الصديق، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ولا يفكرون في قتالهم، بل إنهم ردوا دعوة النبي ﷺ بعد قناعتهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون به أبداً، وبهذا نعلم عظمة هذا الدين الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا حيث جعلهم سادة الأرض مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في جنات النعيم[١].

---

(١) التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/٦٩)؛ التربية القيادية (٢/٢٠).

المبحث الثالث

هجرته مع رسول الله ﷺ إلى المدينة

تمهيد :

اشتدت قريش فى أذى المسلمين، والنيل منهم فمنهم من هاجر إلى الحبشة مرة أو مرتين فراراً بدينه . . ثم كانت الهجرة إلى المدينة، ومن المعلوم أن أبا بكر استأذن النبى ﷺ فى الهجرة فقال له : «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً**»(١) فكان أبو بكر يطمع أن يكون فى صحبة النبى ﷺ، وهذه السيدة عائشة رضى الله عنها تحدثنا عن هجرة رسول الله ﷺ وأبيها رضى الله عنه حيث قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ﷺ فى الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهرى قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة(٢)، فى ساعة كان لا يأتى فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث . قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر، فقال رسول الله ﷺ : «**أخرج عنى من عندك**». فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاى، وما ذاك فداك أبى وأمى! فقال: «**إنه قد أذن لى فى الخروج والهجرة**» . قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «**الصحبة**» . قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحداً يبكى من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ، ثم قال: يا نبى الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلاً من بنى الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بنى سهم بن عمرو، وكان مشركاً يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما(٣) .

وجاء فى رواية البخارى عن عائشة فى حديث طويل تفاصيل مهمة وفى ذلك الحديث : . . . . قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوساً فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة، قال قائل لأبى بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً(٤)، فى ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص١٠٧ .

(٢) الهاجرة: نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر أو العصر.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٣٣، ٢٣٤).

(٤) متقنعاً: مغطياً رأسه.

رسول الله ﷺ لأبى بكر: «أخرج من عندك». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك. فقال: «فإنى قد أذن لى فى الخروج». فقال أبو بكر: الصحبة بأبى أنت يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو بكر: فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثمن». قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، ووضعنا لهم سفرة فى جراب، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل ثور، فكَمَنَا(١) فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف(٢)، لقن(٣)، فيدلج(٤) من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان(٥) به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما حيث تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان فى رسل – وهو لبن منحهما ورضيفهما(٦) ينعق(٧) بها عامر بن فهيرة بغلس(٨)، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الديل وهو من بنى عبد ابن عدى – هادياً خريتا– والخريت: الماهر– قد غمس حلفاً(٩) فى آل العاص بن وائل السهمى، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعده غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل(١٠).

لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا على بن أبى طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبى بكر، وجاء وقت الميعاد بين رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه، فخرجا من خوخة(١١)، لأبى بكر فى ظهر بيته، وذلك للإمعان فى الاستخفاء حتى لا

---

(١) كمنا فيه: أى: استترا واستخفيا ومنه: الكمين فى الحرب.
(٢) ثقف: ذو فطن وذكاء والمراد: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. (النهاية ١/٢١٦).
(٣) لقن: فهم حسن التلقى لما يسمعه، (النهاية ٤/٢٦٦).
(٤) يدلج: أدلج إذا سار أول الليل، وادَّلج بالتشديد: إذا سار آخره.
(٥) يكتادان: أى: يطلب لهما فيه المكروه وهو من الكيد.
(٦) الرضيف: اللبن المرضوف وهو الذى طرح فيه الحجارة المحماة.
(٧) ينعق: نعق بغنمه، أى: صاح بها وزجرها. (القاموس المحيط ٣/٢٦٥).
(٨) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح (النهاية ٣/٣٧٧).
(٩) غمس حلفًا: أى أخذ بنصيب من عقدهم وحلفهم يأمن به.
(١٠) البخارى، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبى رقم (٣٩٥).
(١١) الهجرة فى القرآن الكريم ص٣٣٤.

تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط فى غار ثور بعد ثلاث ليال(١)، وقد دعا النبى ﷺ عند خروجه من مكة إلى المدينة(٢)، ووقف عند خروجه بالحزورة فى سوق مكة وقال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت»(٣).

ثم انطلق رسول الله وأبو بكر والمشركون يحاولون أن يقتفوا آثارهم حتى بلغوا الجبل - جبل ثور- اختلط عليهم، فصعدوا الجبل فمروا بالغار، فرآوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ها هنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه(٤)، وهذه من جنود الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وبالرغم من كل الأسباب التى اتخذها رسول الله ﷺ فإنه لم يرتكن إليها مطلقًا، وإنما كان كامل الثقة فى الله، عظيم الرجاء فى نصره وتأييده، دائم الدعاء بالصيغة التى علمه الله إياها(٥)، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وفى هذه الآية الكريمة دعاء يُعلِّمه الله عز وجل لنبيه ﷺ ليدعوه به، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وكيف تتجه إليه؟ دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج، كناية عن صدق الرحلة كلها، بدئها وختامها، أولها وآخرها، وما بين الأول والآخر، وللصدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه ليفترى على الله غيره، وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات، والاطمئنان والنظافة والإخلاص ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قوة وهيبة استعلى بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين، وكلمة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه.

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمد السلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله، لا يمكن أن يستظل بحاكم أو ذى جاه فينصره ويمنعه ما لم يكن اتجاهه

---

(١) خاتم النبيين لأبى زهرة (١/ ٦٥٩)؛ السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٤).
(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٣٠-٢٣٤).
(٣) الترمذى، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/ ٧٢٢).
(٤) مسند الإمام أحمد (١/ ٣٤٨).
(٥) الهجرة النبوية المباركة ص٧٢.

قبل ذلك إلى الله، والدعوة قد تغزو قلوب ذوى السلطان والجاه، فيصبحون لها جنداً وخدمًا فيفلحون، ولكنها هى لا تفلح إن كانت من جند السلطان وخدمه، فهى من أمر الله، وهى أعلى من ذوى السلطان والجاه(١).

وعندما أحاط المشركون بالغار، أصبح منهم رأى العين طمأن الرسول ﷺ الصديق بمعية الله لهما: فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قلت للنبى ﷺ وأنا فى الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟»(٢).

وسجل الحق عز وجل ذلك فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وبعد ثلاث ليال من دخول النبى ﷺ فى الغار خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وقد هدأ الطلب، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله، وقد قلنا: إن رسول الله ﷺ وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بنى الديل يسمى عبد الله بن أريقط وكان مشركًا وقد أمناهُ فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما، وقد جاءهما فعلاً فى الموعد المحدد، وسلك بهما طريقًا غير معهودة ليخفى أمرهما عمن يلحق بهم من كفار قريش(٣)، وفى أثناء الطريق إلى المدينة مرَّ النبى ﷺ بأم معبد(٤)، فى قديد(٥)، حيث مساكن خزاعة، وهى أخت حبيش بن خالد الخزاعى الذى روى قصتها، وهى قصة تناقلها الرواة وأصحاب السير، وقال عنها ابن كثير: (وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضًا)(٦).

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/٢٢٤٧).

(٢) البخارى، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين رقم (٣٦٥٣)؛ مسلم رقم (٥٣٨١).

(٣) المستفاد من قصص القرآن، زيدان (٢/١٠١).

(٤) هى عاتكة بنت كعب الخزاعية.

(٥) وادى قديد يبعد عن الطريق المعبد حوالى ثمانية كيلو مترات.

(٦) البداية والنهاية (٣/١٨٨).

وقد أعلنت قريش فى نوادى مكة بأنه من يأتى بالنبى ﷺ حيًا أو ميتًا فله مائة ناقة، وانتشر هذا الخبر عند قبائل العرب الذين فى ضواحى مكة، وطمع سراقة بن مالك بن جعشم فى نيل الكسب الذى أعدته قريش لمن يأتى برسول الله ﷺ فأجهد نفسه لينال ذلك، ولكن الله بقدرته التى لا يغلبها غالب، جعله يرجع مدافعًا عن رسول الله ﷺ بعد أن كان جاهداً عليه(١).

ولما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يفدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم(٢) من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله ﷺ، وأصحابه مبيضين(٣)، يزول بهم السراب(٤)، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته، يا معشر العرب هذا جدكم(٥)، الذى تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عوف، وذلك يوم الاثنين(٦) من شهر ربيع الأول(٧)، فقام أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك(٨).

كان يوم وصول الرسول ﷺ وأبى بكر إلى المدينة يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يومًا مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم فى يوم عيد، ولقد كان حقًا يوم عيد، لأنه اليوم الذى انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق فى مكة إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إلى سائر بقائع الأرض، لقد أحس أهل المدينة بالفضل الذى حباهم الله به، وبالشرف الذى اختصهم الله به، فقد صارت بلدتهم موطنًا لإيواء رسول الله وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام، كما أصبحت موطنًا للنظام الإسلامى العام التفصيلى بكل مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهللون فى فرح وابتهاج

---

(١) السيرة النبوية، عرض وقائق وتحليل أحداث (١/٥٤٣).

(٢) أطم: كالحصن.

(٣) مبيضين: عليهم ثياب بيض.

(٤) السراب: أى: يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له.

(٥) جدكم: حظكم وصاحب دولتكم الذى تتوقعونه.

(٦) قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد وشذ من قال: الجمعة. (الفتح، ٤/٥٤٤).

(٧) الهجرة فى القرآن الكريم، ص٣٥١.

(٨) نفس المصدر السابق، ص٣٥٢.

ويقولون: يا رسول الله يا محمد يا رسول الله[1]، وبعد هذا الاستقبال الجماهيرى العظيم الذى لم يرد مثله فى تاريخ الإنسانية سار رسول الله ﷺ حتى نزل فى دار أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه[2]، ونزل الصديق على خارجة بن زيد الخزرجى الأنصارى.

وبدأت رحلة المتاعب والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله ﷺ للوصول للمستقبل الباهر للأمة والدولة الإسلامية التى استطاعت أن تصنع حضارة إنسانية رائعة على أسس من الإيمان والتقوى والإحسان والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان فى العالم، وهما الفرس والروم[3]، وكان الصديق رضى الله عنه الساعد الأيمن لرسول الله ﷺ منذ بزوغ الدعوة حتى وفاته ﷺ، وكان أبو بكر رضى الله عنه ينهل بصمت وعمق من ينابيع النبوة: حكمة وإيمانًا، يقينًا وعزيمة، تقوى وإخلاصًا، فإذا هذه الصحبة تثمر: صلاحًا وصدِّيقية، ذكرًا ويقظة، حُبًا وصفاء، عزيمة وتصميمًا، إخلاصًا وفهمًا، فوقف مواقفه المشهودة بعد وفاة رسول الله ﷺ، فى سقيفة بنى ساعدة وغيرها من المواقف، وبعث جيش أسامة، وحروب الردة، فأصلح ما فسد، وبنى ما هُدم، وجمع ما تفرق، وقوَّم ما انحرف[4]، إن حادثة هجرة الصديق مع رسول الله فيها دروس وعبر وفوائد منها:

أولاً: قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ففى هذه الآية الكريمة دلالة على أفضلية الصديق من سبعة أوجه، ففى الآية الكريمة من فضائل أبى بكر رضى الله عنه:

١ - أن الكفار أخرجوه:

الكفار أخرجوا الرسول (ثانى اثنين) فلزم أن يكونوا أخرجوهما، وهذا هو الواقع.

---

(١) الهجرة فى القرآن الكريم، ص٣٥٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٥٤.

(٣) انظر: الهجرة فى القرآن الكريم، أم محزون، ص٣٥٥.

(٤) فى التاريخ الإسلامى، شوقى أبو خليل، ص٢٢٦.

٢- أنه صاحبه الوحيد: الذى كان معه حين نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا هو أبو بكر، وكان ثانى اثنين الله ثالثهما.

قوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ ففى المواضع التى لا يكون مع النبى ﷺ من أكابر الصحابة إلا واحد يكون هو ذلك الواحد مثل سفره فى الهجرة ومقامه يوم بدر فى العريش لم يكن معه فيه إلا أبو بكر، ومثل خروجه إلى قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام كان يكون معه من أكابر الصحابة أبو بكر، وهذا اختصاص فى الصحبة لم يكن لغيره باتفاق أهل المعرفة بأحوال النبى ﷺ.

٣- أنه صاحبه فى الغار:

الفضيلة فى الغار ظاهرة بنص القرآن، وقد أخرجا فى الصحيحين من حديث أنس، عن أبى بكر رضى الله عنه، قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن فى الغار، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(١). وهذا الحديث مع كونه مما اتفق أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول، فلم يختلف فى ذلك اثنان منهم فهو مما دل القرآن على معناه(٢).

٤- أنه صاحبه المطلق:

قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ لا يختص بمصاحبته فى الغار، بل هو صاحبه المطلق الذى عمل فى الصحبة، كما لم يشركه فيه غيره فصار مختصاً بالأكملية من الصحبة، وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل العلم بأحوال النبى ﷺ، ولهذا قال من قال من العلماء: إن فضائل الصديق خصائص لم يشركه فيها غيره(٣).

٥- أنه المشفق عليه:

قوله ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ يدل على أن صاحبه كان مشفقًا عليه محبًا له، ناصرًا له حيث يحزن، وإنما يحزن الإنسان حال الخوف على من يحبه، وكان حزنه على النبى ﷺ لئلا يقتل ويذهب الإسلام، ولهذا لما كان معه فى سفر الهجرة كان يمشى أمامه تارة، ووراءه

---

(١) البخارى، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٣٦٥٣) مسلم رقم (١٨٥٤).
(٢) منهاج السنة (٤/ ٢٤٠، ٢٤١).
(٣) نفس المصدر السابق (٤/ ٢٤٥ - ٢٥٢).

تارة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك، فقال: أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون وراءك[1]، وفي رواية أحمد في كتاب «فضائل الصحابة»:.. فجعل أبو بكر يمشي خلفه ويمشي أمامه، فقال له النبي ﷺ: «مالك؟». قال: يا رسول الله إذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من وراءك وإذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، قال: فلما انتهينا إلى الغار قال أبو بكر: يا رسول الله كما أنت حتى أقمَّه.. فلما رأى أبو بكر جحرا في الغار فالقمها قدمه، وقال: يا رسول الله إن كانت لسعة أو لدغة كانت بي[2].

فلم يكن يرضى بمساواة النبي بل كان لا يرضى بأن يقتل رسول الله ﷺ وهو يعيش، بل كان يختار أن يفديه بنفسه وأهله وماله. وهذا واجب على كل مؤمن، والصديق أقوم المؤمنين بذلك[3].

٦- المشارك له في معية الاختصاص:

قوله: ﴿إنّ الله معنا﴾ صريح في مشاركة الصديق للنبي ﷺ في هذه المعية التي اختص بها الصديق لم يشركه فيها أحد من الخلق.. وهي تدل على أنه معهما بالنصر والتأييد والإعانة على عدوهما - فيكون النبي ﷺ قد أخبر أن الله ينصرني وينصرك يا أبا بكر، ويعيننا عليهم، نصر إكرام ومحبة، كما قال الله تعالى: ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والَّذين آمنُوا في الْحياة الدُّنْيا ويوْم يقُومُ الأَشْهادُ﴾ [غافر: ٥١]. وهذا غاية المدح لأبي بكر إذ دل على أنه ممن شهد له الرسول بالإيمان المقتضي نصر الله له مع رسوله في مثل هذه الحال التي يخذل فيها عامة الخلق إلا من نصره الله[4].

وقال الدكتور عبد الكريم زيدان عن المعية في هذه الآية الكريمة: وهذه المعية الربانية المستفادة من قوله تعالى ﴿إنّ الله مَعنا﴾ أعلى من معيته للمتقين والمحسنين في قوله تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل:١٢٨] لأن المعية هنا لذات الرسول وذات صاحبه، غير مقيدة بوصف هو عمل لهما، كوصف التقوى والإحسان بل هي خاصة برسوله وصاحبه، مكفولة هذه المعية بالتأييد بالآيات وخوارق العادات[5].

(١) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، ص٤٣.
(٢) منهاج السنة (٤/٢٦٢، ٢٦٣).
(٣) نفس المصدر السابق (٤/٢٦٣).
(٤) نفس المصدر السابق (٤/ ٢٤٢، ٢٤٣).
(٥) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٠٠).

٧- أنه صاحبه في حال إنزال السكينة والنصر:

قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] فإن من كان صاحبه في حال الخوف الشديد فلأن يكون صاحبه في حضور النصر والتأييد أولى وأحرى، فلم يحتج أن يذكر صحبته له في هذه الحال لدلالة الكلام والحال عليها. وإذا علم أنه صاحبه في هذه الحال علم أنما حصل للرسول من إنزال السكينة والتأييد بالجنود التي لم يرها الناس لصاحبه فيها أعظم مما لسائر الناس. وهذا من بلاغة القرآن وحسن بيانه(١).

ثانياً: فقه النبي ﷺ والصديق في التخطيط والأخذ بالأسباب:

إن من تأمل حادثة الهجرة رأى دقة التخطيط فيها ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائماً وأن التخطيط جزء من السنة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم، وأن الذين يميلون إلى العفوية بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السُّنة، أمثال هؤلاء مخطئون ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين(٢).

فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ في التنفيذ نلاحظ الآتي:

أ- وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروسا دراسة وافية، فمثلاً:

١- جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر في وقت شدة الحر؛ الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، بل من عادته لم يكن يأتي له لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

٢ - إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئه للصديق وجاء إلى بيت الصديق متلثماً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم(٣).

٣ - أمر ﷺ أبا بكر أن يخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

---

(١) منهاج السنة (٤/٢٧٢).

(٢) الأساس في السنة، سعيد حوى (٣٥٧٨).

(٣) السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحيطة، ص ١٤١.

٤ – وكان الخروج ليلاً ومن باب خلفى فى بيت أبى بكر[١].

٥ – بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، وكان ذلك الخبير مشركًا ما دام على خلق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[٢]، وقد بين الشيخ عبد الكريم زيدان أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم فى الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروط معينة وهى: تحقق المصلحة أو رجحانها بهذه الاستعانة، وأن لا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافى بمن يستعان به، وأن لا تكون هذه الاستعانة مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقية لهذه الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة[٣]، وقد كان الصديق رضى الله عنه قد دعا أولاده للإسلام ونجح بفضل الله فى هذا الدور الكبير والخطير، وقام بتوظيف أسرته لخدمة الإسلام ونجاح هجرة رسول الله ﷺ، فوزع بين أولاده المهام الخطيرة فى مجال التنفيذ العملى لخطة الهجرة المباركة:

١ – دور عبد الله بن أبى بكر – رضى الله عنهما:

فقد قام بدور صاحب المخابرات الصادق وكشف تحركات العدو، لقد ربى عبد الله على حب دينه، والعمل لنصرته ببصيرة نافذة وفطنة كاملة وذكاء متوقد، يدل على العناية الفائقة التى اتبعها سيدنا أبو بكر فى تربيته، وقد رسم له أبوه دوره فى الهجرة فقام به خير قيام، وكان يمتثل فى التنقل بين مجالس أهل مكة يستمع أخبارهم، وما يقولونه فى نهارهم، ثم يأتى الغار إذا أمسى، فيحكى للنبى ﷺ ولأبيه الصديق رضى الله عنه ما يدور بعقول أهل مكة وما يدبرونه، وقد أتقن عبد الله هذا الواجب بطريقة رائعة، فلم تأخذ واحداً من أهل مكة ريبة فيه، وكان يبيت عند الغار حارسًا حتى إذا اقترب النهار عاد إلى مكة فما شعر به أحد[٤].

---

(١) معين السيرة للشامى، ص ١٤٧.

(٢) الهجرة فى القرآن الكريم، ص ٣٦١.

(٣) المستفاد من قصص القرآن (٢/١٤٤، ١٤٥).

(٤) السيرة الحلبية (٢/٢١٣)؛ البداية والنهاية (٣/١٨٢).

٢- دور عائشة وأسماء رضى الله عنهما:

كان لأسماء وعائشة دور عظيم أظهر فوائد التربية الصحيحة، حيث قامتا عند قدوم النبى ﷺ إلى بيت أبى بكر ليلة الهجرة بتجهيز طعام للنبى ﷺ ولأبيهما: تقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: فجهزناهما - تقصد رسول الله ﷺ وأباها - أحسن الجهاز فصنعنا لهما سفرة فى جراب، فقطعت أسماء قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فلذلك سميت ذات النطاقين[١].

٣- دور أسماء فى تحمل الأذى وإخفاء أسرار المسلمين:

أظهرت أسماء رضى الله عنها دور المسلمة الفاهمة لدينها، المحافظة على أسرار الدعوة، المتحملة لتوابع ذلك من الأذى والتعنت، فهذه أسماء تحدثنا بنفسها حيث تقول: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ قلت: لا أدرى والله أين أبى؟ قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشا خبيثًا - فلطم خدِّى لطمة طرح منها قرطى، قالت: ثم انصرفوا..[٢].

فهذا درس من أسماء رضى الله عنها تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفى أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغى والظلم؟

٤- دور أسماء رضى الله عنها فى بث الأمان والطمأنينة فى البيت:

خرج أبو بكر رضى الله عنه مع رسول الله ﷺ ومعه ماله كله وهو ما تبقى من رأسماله - وكان خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم - وجاء أبو قحافة ليتفقد بيت ابنه، ويطمئن على أولاده وقد ذهب بصره، فقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: كلا يا أبت، ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم. لا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك[٣].

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ١٨٤).

(٢) الهجرة النبوية المباركة، ص ١٢٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠٢) إسناده صحيح.

وبهذه الفطنة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًا هذه الأحجار التى كوَّمتها لتطمئن لها نفس الشيخ إلا أنه قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة فى المال، وورثهم يقينًا وثقة به لا حد لهما، وغرس فيهم همة تتعلق بمعالى الأمور، ولا تلتفت إلى سفاسفها، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزَّ أن يتكرر، وقلَّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضى الله عنها بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هنَّ فى أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله، وظلت أسماء مع أخواتها فى مكة، لا تشكو ضيقًا، ولا تظهر حاجة، حتى بعث النبى ﷺ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأمه بركة المكناة بأم أيمن، وخرج معهما عبد الله بن أبى بكر بعيال أبى بكر، حتى قدموا المدينة مصطحبين(١).

٥- دور عامر بن فهيرة -مولى أبى بكر رضى الله عنه -:

من العادة عند كثير من الناس إهمال الخادم، وقلة الاكتراث بأمره، لكن الدعاة الربانيين لا يفعلون ذلك، إنهم يبذلون جهدهم لهداية من يلاقونه، لذا أدب الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه وعلمه، فاضحى عامر جاهزًا لفداء الإسلام وخدمة الدين.

وقد رسم له سيدنا أبو بكر رضى الله عنه دورًا هامًا فى الهجرة، فكان يرعى الغنم مع رعيان مكة، لكن لا يلفت الأنظار لشيء، حتى إذا أمسى أراح بغنم سيدنا أبى بكر على النبى ﷺ، فاحتلبا وذبحا، ثم يكمل عامر دور عبد الله بن أبى بكر حين يغدو من عند رسول الله ﷺ وصاحبه عائدًا إلى مكة، فيتتبع آثار عبد الله لِيُعَفِّى عليها مما يعد ذكاء، وفطنة فى الإعداد لنجاح الهجرة(٢).

وإنه لدرس عظيم يستفاد من الصديق لكى يهتم المسلمون بالخدم الذين يأتونهم من مشارق الدنيا ومغاربها ويعاملونهم على كونهم بشرًا أولاً، ثم يعلمونهم الإسلام،

---

(١) تاريخ الطبرى (٢/ ١٠٠)؛ الهجرة النبوية المباركة، ص ١٢٨.

(٢) تاريخ الدعوة فى عهد الخلفاء الراشدين، ص ١١٥.

فلعل الله يجعل منهم من يحمل هذا الدين كما ينبغى.

إن ما قام به الصديق من تجنيد أسرته لخدمة صاحب الدعوة ﷺ فى هجرته، يدل على تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص الهجرة فى مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف، لقد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المعقولة أخذاً قويًا حسب استطاعته وقدرته.. ومن ثم باتت عناية الله متوقعة(١).

إن اتخاذ الأسباب أمر ضرورى وواجب، ولكن لا يعنى ذلك دائمًا حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكل أمراً ضروريًا وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله ﷺ أعد كل الأسباب واتخذ كل الوسائل، ولكنه فى الوقت نفسه مع الله يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح، وهنا يستجاب الدعاء، ويكلل العمل بالنجاح(٢).

ثالثًا: جندية الصديق الرفيعة وبكاؤه من الفرح:

تظهر أثر التربية النبوية فى جندية أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فأبو بكر رضى الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة وقال له رسول الله ﷺ: «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا**». فقد بدأ فى الإعداد والتخطيط للهجرة (فابتاع راحلتين واحتبسهما فى داره يعلفهما إعداداً لذلك) وفى رواية البخارى: وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر – وهو الخبط– أربعة أشهر». لقد كان يدرك بثاقب بصره رضى الله عنه وهو الذى تربى ليكون قائداً، أن لحظة الهجرة صعبة قد تأتى فجأة ولذلك هيأ وسيلة الهجرة، ورتب تموينها، وسخر أسرته لخدمة النبى ﷺ، وعندما جاء رسول الله ﷺ وأخبره أنّ الله قد أذن له فى الخروج والهجرة، بكى من شدة الفرح، وتقول عائشة رضى الله عنها فى هذا الشان: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ، إنها قمة الفرح البشرى، أن يتحول الفرح إلى بكاء، ومما قال الشاعر عن

---

(١) أضواء على الهجرة، لتوفيق محمد، ص (٣٩٣ – ٣٩٧).

(٢) من معين السيرة، ص ١٤٨.

هذا:

ورد الكتاب من الحبيب بأنه	سيزورنى فاستعبرت أجفانى
غلب السرور علىَّ حتى إننى	من فرط ما قد سرنى أبكانى
يا عين صار الدمع عندك عادة	تبكين من فرح ومن أحزانِ

فالصديق رضى الله عنه يعلم أن معنى هذه الصحبة أنه سيكون وحده برفقة رسول رب العالمين بضعة عشر يومًا على الأقل، وهو الذى سيقدم حياته لسيده وقائده وحبيبه المصطفى ﷺ فأى فوز فى هذا الوجود يفوق هذا الفوز: أن يتفرد الصديق وحده من دون أهل الأرض ومن دون الصحب جميعًا برفقة سيد الخلق وصحبته كل هذه المدة[١]، وتظهر معانى الحب فى الله فى خوف أبى بكر وهو فى الغار من أن يراهما المشركون ليكون الصديق مثلاً لما ينبغى أن يكون عليه جندى الدعوة الصادق مع قائده الأمين، حين يحدق به الخطر من خوف وإشفاق على حياته، فما كان أبو بكر ساعتئذ بالذى يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك لما رافق رسول الله ﷺ فى هذه الهجرة الخطيرة وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول الله ﷺ، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم ﷺ، وعلى مستقبل الإسلام إن وقع الرسول ﷺ فى قبضة المشركين[٢]، ويظهر الحس الأمنى الرفيع للصديق فى هجرته مع النبى ﷺ فى مواقف كثيرة منها، حين أجاب السائل: من هذا الرجل الذى بين يديك؟ فقال: هذا هادٍ يهدينى السبيل، فظن السائل بأن الصديق يقصد الطريق، وإنما كان يقصد سبيل الخير، وهذا يدل على حسن استخدام أبى بكر للمعاريض فراراً من الحرج أو الكذب[٣]، وفى إجابته للسائل تورية وتنفيذ للتربية الأمنية التى تلقاها من رسول الله ﷺ، لأن الهجرة كانت سراً، وقد أقره الرسول ﷺ على ذلك[٤].

رابعًا: فن قيادة الأرواح وفن التعامل مع النفوس:

يظهر الحب العميق الذى سيطر على قلب أبى بكر لرسول الله ﷺ فى الهجرة، كما

---

(١) التربية القيادية (٢/١٩١، ١٩٢).

(٢) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعى، ص ٧١.

(٣) الهجرة النبوية المباركة، ص ٢٠٤.

(٤) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعى، ص ٦٨.

يظهر حب سائر الصحابة أجمعين فى سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، وهذا الحب الربانى كان نابعًا من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق أو نابعًا من مصلحة دنيوية، أو رغبة فى منفعة أو رهبة لمكروه قد يقع، ومن أسباب هذا الحب لرسول الله ﷺ صفاته القيادية الرشيدة، فهو يسهر ليناموا، ويتعب ليستريحوا، ويجوع ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرسول ﷺ مع صحابته، فى حياته الخاصة والعامة، وشارك الناس فى أفراحهم وأتراحهم، وكان عمله لوجه الله، أصابه هذا الحب إن كان من الزعماء أو القادة أو المسئولين فى أمة الإسلام[١].

وصدق الشاعر الليبى أحمد رفيق المهدوى عندما قال:

فـــإذا أحب الله باطن عـــبـــده ... ظهـــرت عليـــه مـــواهب الفـــتـــاح

وإذا صـــفـت لله نيـــة مـــصـلح ... مـــال العـــبـــاد عليـــه بالأرواح[٢]

إن القيادة الصحيحة هى التى تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شىء، وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود، فقد كان ﷺ رحيمًا، وشفوقًا بجنوده وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبق إلا المستضعفون والمفتونون، ومن كانت له مهمات خاصة بالهجرة[٣].

والجدير بالذكر أن حب الصديق لرسول الله ﷺ كان لله، ومما يبين الحب لله والحب لغير الله: أن أبا بكر كان يحب النبى ﷺ مخلصًا لله، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبل الله عمل أبى بكر وانزل فيه قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ – ٢١]، وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله، بل أدخله النار، لأنه كان مشركًا عاملاً لغير الله، وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبى ﷺ ولا من غيره، بل آمن به وأحبه وكلاه وأعانه فى الله، متقربًا بذلك إلى الله وطالبًا الأجر من الله،

(١) الهجرة النبوية لأبى فارس، ص ٥٤.
(٢) الحركة السنوسية للصّلاّبى (٢/ ٧).
(٣) الهجرة النبوية المباركة، ص ٢٠٥.

ويبلغ عن الله أمره ونهيه ووعده ووعيده[١].

خامساً: مرض أبى بكر الصديق بالمدينة فى بداية الهجرة:

كانت هجرة النبى ﷺ وأصحابه عن البلد الأمين تضحية عظيمة عبَّر عنها النبى ﷺ بقوله: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت»[٢].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: لما قَدمَ رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى، وكان واديها يجرى نجلاً – يعنى ماءً آجنًا – فأصاب أصحابه منها بلاءٌ وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه. قالت: فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال فى بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله ﷺ عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك[٣]، فدنوت من أبى بكر فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ فقال:

كلُّ امرىءٍ مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدرى أبى ما يقول. ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه[٤] ... كالثور يحمى جلده بروقه[٥]

قالت: قلت: والله ما يدرى عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى، اضطجع بفناء البيت ثم يرفع عقيرته[٦]، ويقول:

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بواد وحولى إذخر[٧] وجليل

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (١١/ ٢٨٦).

(٢) الترمذى، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/٧٢٢) رقم ٣٩٢٥.

(٣) الوعك: الحمى.

(٤) بطوقه: بطاقته.

(٥) بروقه: بقرنه.

(٦) عقيرته: صوته.

(٧) إذخر: نبات طيب الرائحة.

وهل أرِدَن يومًا مياه مَجَنَّةٍ وهل يبدون لى شامة وطفيل[١]

قالت: فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم وصحِّحها وبارك لنا فى مدها وصاعها وانقل حمَّاها واجعلها بالجُحْفَةَ**»[٢].

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وعوفى المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطنًا ممتازًا لكل الوافدين والمهاجرين إليها من المسلمين، على تنوع بيئاتهم ومواطنهم[٣].

شرع رسول الله ﷺ بعد استقراره بالمدينة فى تثبيت دعائم الدولة الإسلامية، فآخى بين المهاجرين والأنصار، ثم أقام المسجد، وأبرم المعاهدة مع اليهود وبدأت حركة السرايا، واهتم بالبناء الاقتصادى والتعليمى والتربوى فى المجتمع الجديد، وكان أبو بكر رضى الله عنه وزير صدق لرسول الله ﷺ، ولازمه فى كل أحواله، ولم يغب عن مشهد من المشاهد، ولم يبخل بمشورة أو مال أو رأى[٤].

* * *

---

(١) شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة على بريد مكة.

(٢) البخارى، كتاب الدعوات، باب الدعاء يرفع الوباء والوجع رقم (٦٣٧٢).

(٣) التربية القيادية (٢/ ٣١٠).

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٢١.

المبحث الرابع

الصدِّيق فى ميادين الجهاد

تمهيد :

ذكر أهل العلم بالتواريخ والسير أن أبا بكر شهد مع النبى ﷺ بدراً والمشاهد كلها، ولم يفته منها مشهد، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين انهزم الناس ودفع إليه النبى ﷺ رايته العظمى يوم تبوك وكانت سوداء(١).

وقال ابن كثير: ولم يختلف أهل السير فى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ فى مشهد من مشاهده كلها(٢).

وقال الزمخشرى: إنه - يعنى أبا بكر رضى الله عنه - كان مضافًا لرسول الله ﷺ إلى الأبد، فإنه صحبه صغيراً وأنفق ماله كبيرًا، وحمله إلى المدينة براحلته وزاده، ولم يزل ينفق عليه ماله فى حياته، وزوجه ابنته، ولم يزل ملازمًا له سفراً وحضراً، فلما توفى دفنه فى حجرة عائشة أحب النساء إليه ﷺ(٣).

وعن سلمة بن الأكوع: غزوت مع النبى ﷺ سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات مرة علينا أبو بكر ومرة علينا أسامة(٤).

ومن خلال هذا المبحث سنحاول أن نتتبع حياة الصديق رضى الله عنه الجهادية مع النبى ﷺ، لنرى كيف جاهد الصديق بنفسه وماله ورأيه فى نصرة دين الله تعالى.

أولاً: أبو بكر رضى الله عنه فى بدر الكبرى:

شارك الصديق فى غزوة بدر، وكانت فى العام الثانى من الهجرة وكانت له فيها مواقف مشهورة من أهمها:

---

(١) الطبقات الكبرى (١/١٢٤)؛ صفة الصفوة (١/٢٤٢).

(٢) أسد الغابة (٣/٣١٨).

(٣) خصائص العشرة الكرام البررة، ص ٤١.

(٤) البخارى، كتاب المغازى، باب بعث النبى أسامة، رقم (٤٢٧٠).

١ - مشورة الحرب :

لما بلغ النبى ﷺ نجاة القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبى ﷺ استشار رسول الله ﷺ أصحابه فى الأمر[١]، فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن[٢].

٢ - دوره فى الاستطلاع مع النبى ﷺ :

قام النبى ﷺ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان فى تلك المنطقة لقيا شيخًا من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمد ﷺ وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم: فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما. فقال له رسول الله ﷺ : «إذا أخبرتنا أخبرناك». فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم». فقال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذى به جيش المسلمين -، وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذى فيه جيش المشركين فعلاً -، ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبرانى ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ : «نحن من ماء». ثم انصرف النبى ﷺ وأبو بكر عن الشيخ، وبقى هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق[٣].

وفى هذا الموقف يتضح قرب الصديق من النبى ﷺ، وقد تعلم أبو بكر من رسول الله ﷺ دروسًا كثيرة.

٣ - فى حراسة النبى ﷺ فى عريشه :

عندما رتب ﷺ الصفوف للقتال، رجع إلى مقر القيادة وكان عبارة عن عريش على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر رضى الله عنه، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ[٤]، وقد تحدث على ابن أبى طالب رضى الله عنه عن هذا الموقف فقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟

---

(١) صحيح البخارى رقم (٣٩٥٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٤٧).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٨).

(٤) نفس المصدر السابق (٢/٢٣٣).

فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إنى ما بارزنى أحد إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر: إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوى إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوى إليه أحد من المشركين إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس[١].

٤ - الصديق يتلقى البشارة بالنصر، ويقاتل بجانب رسول الله ﷺ:

بعد الشروع فى الأخذ بالأسباب اتجه رسول الله ﷺ إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذى وعده ويقول فى دعائه: «**اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدًا**». وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتكم ربك فإنه منجز لك ما وعدك[٢]، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وفى رواية ابن عباس قال: قال النبى ﷺ يوم بدر: «**اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد**». فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك الله، فخرج ﷺ وهو يقول: «**سيهزم الجمعُ ويولُّون الدُّبُرَ**»[٣]، وقد خفق النبى ﷺ خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال: **أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع**. يعنى الغبار، قال: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم[٤].

وقد تعلم الصديق من هذا الموقف درسًا ربانيًا مهمًا فى التجرد النفسى وحظها والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثى بين يدى الله سبحانه لكى ينزل نصره، وبقى هذا المشهد راسخًا فى ذاكرة الصديق وقلبه ووجدانه يقتدى برسول الله ﷺ فى تنفيذه فى مثل هذه الساعات، وفى مثل هذه المواطن، ويبقى هذا المشهد درسًا لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد يريد أن يقتدى بالنبى ﷺ وصحابته الكرام.

ولما اشتد أوار المعركة وحمى وطيسها نزل رسول الله ﷺ وحرض على القتال والناس

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر رقم (١٧٦٣).

(٣) البخارى، كتاب المغازى، باب قصة بدر رقم (٣٩٥٣).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٥٧) نقلاً عن تاريخ الدعوة، ص ١٢٥.

على مصافهم يذكرون الله تعالى، وقد قاتل ﷺ بنفسه قتالاً شديداً وكان بجانبه الصديق[١]، وقد ظهرت منه شجاعة وبسالة منقطعة النظير، وكان على استعداد لمقاتلة كل كافر عنيد ولو كان ابنه، وقد شارك ابنه عبد الرحمن في هذه المعركة مع المشركين، وكان من أشجع الشجعان بين العرب، ومن أنفذ الرماة سهمًا في قريش، فلما أسلم قال لأبيه: لقد أهدفت لي (أي ظهرت أمامي كهدف واضح) يوم بدر، فملت عنك ولم أقتلك. فقال له أبو بكر: ولكنك لو أهدفت لي لم أَمِلْ عنك[٢].

٥ - الصديق والأسرى:

قال ابن عباس رضي الله عنه: .. فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى؟**». فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا ابن الخطاب؟**». قال: لا والله لا يارسول الله، ما أرى الذي يراه أبو بكر، ولكني أرى أن تمكننا منهم، فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله ﷺ إلى ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان الغد جئت فإذا برسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**». - شجرة قريبة من النبي ﷺ - وأنزل الله عز وجل: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ**﴾ [الأنفال: ٦٧] إلى قوله: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا**﴾ [الأنفال: ٦٩] فأحل الله لهم الغنيمة[٣].

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «**ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟**» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٧٨).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٩٤.

(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٦٣).

وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب، فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارًا، فقال العباس: قطعت رحمك، فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئًا. فقال ناس: يأخذ بقول أبى بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وإن مثلك كمثل موسى إذ قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨][١]. كان النبى ﷺ إذ استشار أصحابه أول من يتكلم أبو بكر فى الشورى، وربما تكلّم غيره، وربما لم يتكلم غيره فيعمل برأيه وحده، فإذا خالفه غيره اتبع رأيه دون رأى من يخالفه[٢].

ثانيًا: فى أحد وحمراء الأسد:

فى يوم أحد تلقى المسلمون درسًا صعبًا، فقد تفرقوا من حول النبى ﷺ، وتبعثر الصحابة فى أرجاء الميدان، وشاع أن الرسول ﷺ قتل، وكان رد الفعل على الصحابة متباينًا، وكان الميدان فسيحًا، وكل مشغول بنفسه، شق الصديق الصفوف، وكان أول من وصل إلى رسول الله ﷺ، واجتمع إلى رسول الله أبو بكر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعلى، وطلحة، والزبير، وعمر بن الخطاب، والحارث بن الصمة، وأبو دجانة، وسعد بن أبى وقاص، وغيرهم... رضى الله عنهم، وقصدوا مع رسول الله ﷺ الشعب من جبل أحد فى محاولة لاسترداد قوتهم المادية والمعنوية[٣].

وكان الصديق إذا ذكر أحدًا قال: ذلك يوم كله لطلحة، ثم أنشأ يحدث قال: كنت أول من فاء يوم أحد، فرأيت رجلاً يقاتل فى سبيل الله دونه، قال: قلت: كن طلحة،

---

(١) مسند أحمد (١/٣٧٣)؛ تفسير ابن كثير (٢/٣٢٥).

(٢) أبو بكر الصديق، محمد مال الله، ص ٣٢٥.

(٣) مواقف الصديق مع النبى فى المدينة، د. عاطف لماضة، ص ٢٧.

حيث فاتني ما فاتني، وكان بيني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه فإذا هو أبو عبيدة، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته وشج وجهه، وقد دخل في وجنتيه حلقتان من حلق المغفر، قال رسول الله ﷺ: «عليكما صاحبكما - يريد طلحة - فقد نزف». فلم نلتفت إلى قوله، قال: ذهبت لأنزع من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسم عليك بحقي لما تركتني، فتركته فكره تناولها فيؤذي رسول الله ﷺ، فأرزم عليه بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتمًا.. فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار، فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة ورمية، وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنه(1).

وتتضح منزلة الصديق في هذه الغزوة من موقف أبي سفيان عندما سأل وقال: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات. فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات. فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا(2)... فهذا يدل على ظن أبي سفيان زعيم المشركين حينئذ بأن أعمدة الإسلام وأساسه: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر(3).

وعندما حاول المشركون أن يقبضوا على المسلمين ويستأصلوا شأفتهم، كان التخطيط النبوي الكريم قد سبقهم وأبطل كيدهم، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين مع ما بهم من جراحات وقرح شديد للخروج في إثر المشركين، فاستجابوا لله ولرسوله مع ما بهم من البلاء وانطلقوا، فعن عائشة رضي الله عنها قالت لعروة بن الزبير في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]: يا ابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: «من يذهب في إثرهم؟». فانتدب منهم سبعين رجلاً: كان فيهم أبو بكر والزبير(4).

(١) منحة المعبود (٢/١٩) نقلاً عن تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ١٣٠.

(٢) الفتح (٢/١٨٨)، الفتح (٧/٤٠٥).

(٣) مواقف الصديق مع النبي في المدينة، د. عاطف لماضة، ص ٢٨.

(٤) مسلم رقم (٢٤١٨).

ثالثا: في غزوة بني النضير وبني المصطلق وفي الخندق وبني قريظة:

أ - خرج النبي ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو ابن أمية من بني عامر على وجه الخطأ، لأن عمراً لم يعلم بالعهد الذي بين بني عامر وبين النبي ﷺ، وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فلما آتاهم النبي ﷺ قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد. قالوا: فمن يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فاتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج إلى المدينة، فلما استثبت النبي أصحابه قالوا في طلبه، فرأوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقالوا: رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب النبي ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به.

فبعث النبي ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النفاق يحرضونهم على المقام ويعدونهم بالنصر، فقويت نفوسهم. وحمى حيي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنه لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهد، فعند ذلك أمر رسول الله ﷺ الناس بالخروج إليهم، فحاصروهم خمس عشرة ليلة فتحصنوا في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق، ثم أجلاهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، فنزلت سورة الحشر(١).

ب - بنو المصطلق:

أراد بنو المصطلق أن يغزوا المدينة، فخرج لهم رسول الله في أصحابه، فلما انتهى إليهم دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، ويقال: إلى عمار بن ياسر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة. ثم أمر عمر بن الخطاب فنادى في الناس أن قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبوا، فتراموا بالنبل ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة وأسر سائرهم، ولم

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير (٥/ ٢١٧)؛ مغازي الواقدي (١/ ٣٦٣)؛ البداية والنهاية (٤/ ٨٦).

يقتل من المسلمين سوى رجل واحد[١].

جـ - في الخندق وبني قريظة:

كان الصديق في الغزوتين مرافقًا للنبي ﷺ، وكان يوم الخندق يحمل التراب في ثيابه وساهم مع الصحابة للإسراع في إنجاز حفر الخندق في زمن قياسي، مما جعل فكرة الخندق تصيب هدفها في مواجهة المشركين[٢].

رابعًا: في الحديبية:

خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة ست من الهجرة يريد زيارة البيت الحرام في كوكبة من الصحابة عددها أربع عشرة مائة، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لتعظيم بيت الله الحرام، فبعث النبي ﷺ عينًا له من خزاعة، فعاد بالخبر أن أهل مكة جمعوا جموعهم لصده عن الكعبة، فقال: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**». فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد حربه أو قتل أحد، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، قال: «**امضوا على اسم الله**» وقد ثارت ثائرة قريش وحلفوا أن لا يدخل الرسول ﷺ مكة عنوة، ثم قامت المفاوضات بين أهل مكة ورسول الله ﷺ، وقد عزم النبي ﷺ على إجابة أهل مكة على طلبهم إن أرادوا شيئًا فيه صلة رحم[٣].

أ - في المفاوضات:

جاءت وفود قريش لمفاوضة النبي ﷺ، وكان أول من أتى بديل بن ورقاء من خزاعة، فلما علم بمقصد النبي ﷺ والمسلمين رجع إلى أهل مكة، ثم جاء مكرز بن حفص ثم الحليس بن علقمة ثم عروة بن مسعود الثقفي، فدار هذا الحوار بين النبي ﷺ وعروة بن مسعود الثقفي، واشترك في هذا الحوار أبو بكر رضي الله عنه وبعض أصحابه[٤].

قال عروة: يا محمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ والمطافيل - أي: خرجت رجالاً ونساءً صغارًا وكبارًا -

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١٥٧).

(٢) مواقف الصديق مع النبي في المدينة، ص ٣٢.

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ١٣٦.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٣٧.

قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة، وأيم الله لكأنى بهؤلاء يقصد أصحاب النبى ﷺ قد انكشفوا عنك!!

فقال أبو بكر: امصص بظر[1] اللات - وهى صنم ثقيف - أنحن نفرُّ عنه وندعه؟[2] فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك. وكان الصديق قد أحسن إليه قبل ذلك، فرعى حرمته ولم يجاوبه عن هذه الكلمة، ولهذا قال من قال من العلماء: إن هذا يدل على جواز التصريح باسم العورة للحاجة والمصلحة، وليس من الفحش المنهى عنه[3].

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشن حربًا نفسية على المسلمين حتى يهزمهم معنويًا، ولذلك لوح بقوة المشركين العسكرية، معتمداً على المبالغة فى تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريش لا محالة، وحاول أن يوقع الفتنة والإرباك فى صفوف المسلمين وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده عندما قال للنبى ﷺ: أجمعت أوباشًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، وكان رد الصديق صارمًا ومؤثرًا فى معنويات عروة ونفسيته، فقد كان موقف الصديق فى غاية العزة الإيمانية التى قال الله فيها: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ب - موقفه من الصلح:

ولما توصل المشركون مع رسول الله ﷺ إلى الصلح بقيادة سهيل بن عمرو، أصغى الصديق إلى ما وافق عليه رسول الله ﷺ من طلب المشركين، رغم ما قد يظهر للمرء أن فى هذا الصلح بعض التجاوز أو الإجحاف بالمسلمين، وسار على هدى النبى ﷺ ليقينه بأن النبى لا ينطق عن الهوى، وأنه فعل ذلك لشىء أطلعه الله عليه[4].

وقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله معلنًا معارضته لهذه الاتفاقية وقال لرسول الله ﷺ: ألست برسول الله؟ قال: «بلى». قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى». قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ قال:

---

(١) البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

(٢) البخارى، كتاب الشروط فى الجهاد رقم (٢٧٣٢).

(٣) أبو بكر الصديق، محمد مال الله، ص ٣٥٠.

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ١٣٨.

«إنى رسول الله ولست أعصيه»[١]. وفى رواية: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى»[٢]. قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به». قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت له: يا أبا بكر: أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ فقال أبو بكر - ناصحًا الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة -: الزم غرزه، فإنى أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله ولن يضيعه الله[٣]، وكان جواب الصديق مثل جواب رسول الله ﷺ ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبى ﷺ، فكان أبو بكر رضى الله عنه أكمل موافقة لله وللنبى ﷺ من عمر مع أن عمر رضى الله عنه مُحَدّث، ولكن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث، لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله[٤].

وقد تحدث الصديق فيما بعد عن هذا الفتح العظيم الذى تم فى الحديبية، فقال: ما كان فتح أعظم فى الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قَصُرَ رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يَعجَلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد، لقد نظرت إلى سُهيل بن عمرو فى حَجَّة الوداع قائمًا عند المنحر يُقرب إلى رسول الله ﷺ بَدَنَةً، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاَّق فحلق رأسه، وأنظر إلى سهيل يلتقط من شعره، وأراه يضعه على عينه، وأذكر إباءه أن يُقرَّ يوم الحديبية بأن يكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويأبى أن يكتب: محمد رسول الله ﷺ، فحمدت الله الذى هداه للإسلام[٥].

لقد كان الصديق رضى الله عنه أسَدَّ الصحابة رأيًا وأكملهم عقلاً[٦].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٤٦).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٤٦)؛ تاريخ الطبرى (٢/٣٦٤).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٤٦).
(٤) الفتاوى لابن تيمية (١١/١١٧).
(٥) كنز العمال (٣٠١٣٦) نقلاً عن خطب أبى بكر الصديق، محمد أحمد عاشور، ص ١١٧.
(٦) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ٦١.

خامسا : فى غزوة خيبر ، وسرية نجد وبنى فزارة :

ضرب رسول الله ﷺ حصاراً على خيبر واستعد لقتالهم، فكان أول قائد يرسله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه إلى بعض حصون خيبر، فقاتل ثم رجع، ولم يكن فتح، وقد جهد ، ثم بعث عمر فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح، ثم قال: «لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله» . فكان على بن أبى طالب رضى الله عنه[1]، وأشار بعض أصحاب النبى ﷺ بقطع النخيل حتى يثخن فى اليهود ورضى النبى ﷺ بذلك، فأسرع المسلمون فى قطعه، فذهب الصديق إلى النبى ﷺ وأشار عليه بعدم قطع النخيل لما فى ذلك من الخسارة للمسلمين سواء فتحت خيبر عنوة أو صلحًا، فقبل النبى ﷺ مشورة الصديق، ونادى بالمسلمين بالكف عن قطع النخيل فرفعوا أيديهم[2].

ب - فى نجد :

أخرج ابن سعد عن إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى نجد وأمره علينا، فبيتنا ناسًا من هوازن فقتلت بيدى سبعة أهل أبيات، وكان شعارنا أمتْ أمتْ[3].

جـ - فى بنى فزارة :

روى الإمام أحمد من طريق إياس بن سلمة عن أبيه، حدثنى أبى، قال: خرجنا مع أبى بكر بن أبى قحافة وأمره النبى ﷺ علينا، فغزونا بنى فزارة، فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعرسنا، فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشننا الغارة فقتلنا على الماء من مر قبلنا، قال سلمة: ثم نظرت إلى عنق من الناس فيه الذرية والنساء نحو الجبل، فرميت بسهم فوقع بينهم وبين الجبل . قال: فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر حتى أتيته على الماء، وفيهم امرأة عليها قشع من أدم ومعها ابنة لها من أحسن العرب، قال: فنفلنى أبو بكر، فما كشفت لها ثوبًا حتى قدمت المدينة ثم بت فلم أكشف لها ثوبًا، قال: فلقينى رسول الله ﷺ فى السوق فقال لى: «يا سلمة هب لى المرأة» . قال: فقلت والله يا رسول الله لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوبًا، قال: فسكت رسول الله، وتركنى حتى

---

(١) فتوح البلدان (١/ ٢٦) .

(٢) المغازى للواقدى (٢/ ٦٤٤) .

(٣) الطبقات الكبرى (١/ ١٢٤)؛ أبو داود، كتاب الجهاد، باب فى البيات (٣/ ٤٣) .

إذا كان من الغد لقينى رسول الله فى السوق فقال لى: «يا سلمة هب لى المرأة». قال: فقلت: والله يارسول الله ما كشفت لها ثوبًا وهى لك يا رسول الله، قال: فبعث بها رسول الله إلى أهل مكة وفى أيديهم أسارى من المسلمين ففداهم رسول الله بتلك المرأة(١).

سادساً: فى عمرة القضاء وفى ذات السلاسل:

أ - فى عمرة القضاء:

كان الصديق رضى الله عنه ضمن المسلمين الذين ذهبوا مع رسول الله ﷺ ليعتمروا عمرة القضاء مكان عمرتهم التى صدهم المشركون عنها(٢).

ب - فى سرية ذات السلاسل:

قال رافع بن عمرو الطائى رضى الله عنه: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل(٣)، وبعث معه فى ذلك الجيش أبا بكر وعمرو، رضى الله عنهما، وسَرَاة(٤) أصحابه، فانطلقوا حتى نزلوا جبل طَىٍّ، فقال عمرو: انظروا إلى رجل دليل بالطريق، فقالوا: ما نعلمه إلا رافع بن عمرو، فإنه كان رَبيلاً(٥) فى الجاهلية. قال رافع: فلما قضينا غَزَاتنا وانتهيت إلى المكان الذى كنا خرجنا منه، توسَّمت أبا بكر رضى الله عنه، وكانت له عباءة فدكية(٦)، فإذا ركب خَلَّها عليه بخلال(٧)، وإذا نزل بسطها فأذ ته، فقلت: يا صاحب الخلال، إنى توسمتك من بين أصحابك، فائتنى بشىء إذا حفظته كنت مثلكم ولا تطوِّلْ علىَّ فأنسى. فقال: تحفظ أصابعك الخمس؟ قلت: نعم، قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتقيم الصلوات الخمس وتؤتى زكاة مالك إن كان لك مال، وتحج البيت، وتصوم رمضان: هل حفظت؟ قلت: نعم، قال: وأخرى لا تُؤَمَّرَنَّ على اثنين، قلت: وهل تكون الإمرة إلا فيكم أهل المَدَر(٨).

---

(١) أحمد (٤/ ٤٣٠)؛ الطبقات (٤/ ١٦٤).

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ١٤٢.

(٣) ذات السلاسل: مكان وراء وادى القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام.

(٤) سراة: شرفاء أصحابه.

(٥) الربيل: اللص يغزو وحده ويغير على غيره.

(٦) منسوبة إلى فدك وهى قرية من خيبر، بينها وبين المدينة ست ليال.

(٧) خلها عليه: أى جمع بين طرفيها بخلال من عود أو حديد.

(٨) المدر: الطين اللزج المتماسك والمقصود سكان البيوت المبنية.

فقال: يوشك أن تفشو حتى تبلغك ومن هو دونك، إن الله عز وجل لما بعث نبيه ﷺ دخل الناس في الإسلام، فمنهم من دخل لله فهداه الله، ومنهم من أكرهه السَّيف، فكلهم عُوَّاذ الله وجيران الله وخَفَارةُ(١) الله، إن الرجل إذا كان أميراً، فتظالم الناس بينهم فلم يأخذ لبعضهم من بعض انتقم الله منه، إن الرجل منكم لتؤخذ شاة جاره فيظل ناتيء(٢) عضلته غضباً لجاره والله من وراء جاره(٣).

ففي هذه النصيحة دروس وعبر لأبناء المسلمين يقدمها الصحابي الجليل أبو بكر الصديق الذي تربى على الإسلام وعلى يد رسول الله ﷺ من أهمها:

١ – أهمية العبادات: الصلاة لأنها عماد الدين، والزكاة والصوم والحج.

٢ – عدم طلب الإمارة (ولا تكونن أميراً) تماماً كما أوصى رسول الله ﷺ، أبا ذر الغفاري: «**وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها**»(٤). ولذلك فإن أبا بكر الفاهم الواعي لكلام حبيبه محمد ﷺ جاء في رواية: وأنه من يك أميراً فإنه أطول الناس حساباً، وأغلظهم عذاباً، ومن لا يكن أميراً فإنه من أيسر الناس حساباً، وأهونهم عذاباً(٥)، فهذا فهم الصديق لمقام الإمارة.

٣ – إن الله حرم الظلم على نفسه، ونهى عبادَهُ أن يتظالموا، أن يظلم بعضهم بعضاً، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، كما نهى عن ظلم المؤمنين: «**من آذى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»(٦). وهم جيران الله، وهم عواذ الله، والله أحق أن يغضب لجيرانه(٧).

٤ – على عهد الصدر الأول كان أمراء الأمة خيارها، وجاء ووقت فُشُوّ أمرها (الإمارة) وكثرت حتى نالها من ليس لها بأهل، إن هذه الإمارة ليسيرة، وقد أوشكت أن تفشو حتى ينالها من ليس لها بأهل(٨).

---

(١) الخفارة: الذمة والعهد والأمان.

(٢) الناتيء: المرتفع والمنتفخ.

(٣) العضلة: هي القطعة من اللحم الشديد. انظر: مجمع الزوائد (٥/٢٠٢).

(٤) مسلم، كتاب الأمارة رقم (١٨٢٥).

(٥) استخلاف أبي بكر الصديق، جمال عبد الهادي، ص ١٣٩.

(٦) مسند أحمد (٦/٢٥٦).

(٧، ٨) استخلاف أبي بكر، جمال عبد الهادي، ص ١٤٠.

٥ – وفى غزوة ذات السلاسل ظهر موقف متميز للصديق فى احترام الأمراء مما يثبت أن أبا بكر كان صاحب نفس تنطوى على قوة هائلة، وقدرة متميزة فى بناء الرجال، وتقديرهم واحترامهم[١]، فعن عبد الله بن بريدة قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل وفيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا ينوروا ناراً، فغضب عمر وهم أن يأتيه، فنهاه أبو بكر، وأخبره أن الرسول ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب، فهدأ عنه عمر رضى الله عنه[٢].

سابعاً: فى فتح مكة وحنين والطائف:

أ – فى فتح مكة ٨هـ:

كان سبب الفتح بعد هدنة الحديبية ما ذكره ابن إسحاق قال: حدثنى الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم أنهما حدثاه جميعاً قالا: فى صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل فى عقد محمد دخل، ومن شاء أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة وقالوا: نحن ندخل فى عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن ندخل فى عقد قريش وعهدهم، فمكثوا فى ذلك نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بنى بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له الوتير – وهو قريب من مكة – وقالت قريش ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا من أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ، فقدم عمرو بن سالم إلى المدينة فأنشد رسول الله ﷺ قائلاً:

اللهم إنى ناشد محمداً … حلف أبينا وأبيك الأتلدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا … وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال النبى ﷺ: «نصرت ياعمرو بن سالم»[٣].

وتجهز النبى ﷺ مع صحابته للخروج إلى مكة، وكتم الخبر، ودعا الله أن يعمى على

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٨٢.

(٢) الحاكم فى المستدرك وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبى: صحيح كتاب المغازى (٣/٤٢).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/٤٤).

قريش حتى تفاجأ بالجيش المسلم يفتح مكة، وخافت قريش أن يعلم النبى ﷺ بما حدث، فخرج أبو سفيان من مكة إلى رسول الله فقال: يا محمد، أشدد العقد، وزدنا فى المدة، فقال النبى ﷺ: «ولذلك قدمت؟ هل كان من حدث قبلكم؟». فقال: معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لانغير ولا نبدل، فخرج من عند النبى ﷺ يقصد مقابلة الصحابة عليهم الرضوان(١).

١ - أبو بكر وأبو سفيان:

طلب أبو سفيان من أبى بكر رضى الله عنه أن يجدد العقد ويزيدهم فى المدة، فقال أبو بكر: جوارى فى جوار رسول الله ﷺ، والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم. وهنا تظهر فطنة الصديق وحنكته السياسية ثم يظهر الإيمان القوى بالحق الذى هو عليه، ويعلن أمام أبى سفيان دون خوف أنه مستعد لحرب قريش بكل ما يمكن، ولو وجد الذر تقاتل قريشاً لأعانها عليها(٢).

٢ - بين عائشة وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما:

دخل الصديق رضى الله عنه على عائشة وهى تغربل حنطة، وقد أمرها النبى ﷺ بأن تخفى ذلك.. فقال لها أبو بكر: يا بنية لم تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت، فقال: أيريد رسول الله أن يغزو؟ فصمتت، فقال: لعله يريد بنى الأصفر - أى الروم - فصمتت، فقال: لعله يريد أهل نجد؟ فصمتت، فقال: لعله يريد قريشاً، فصمتت، فدخل رسول الله ﷺ فقال الصديق له: يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً؟ قال: «نعم». قال: لعلك تريد بنى الأصفر؟ قال: «لا». قال: أتريد أهل نجد؟ قال: «لا». قال: فلعلك تريد قريشاً؟ قال: «نعم». قال أبو بكر: يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة؟ قال: «ألم يبلغك ما صنعوا ببنى كعب؟».

وهنا سلم أبو بكر للنبى ﷺ وجهز نفسه ليكون مع القائد ﷺ فى هذه المهمة الكبرى، وذهب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف منهم أحد(٣).

---

(١) التاريخ السياسى والعسكرى، د. على معطى، ص ٣٦٥؛ الطبرى (٣/ ٤٣).

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ١٤٥.

(٣) مغازى الواقدى (٢/ ٧٩٦).

٣ - الصديق في دخول مكة:

لما دخل النبى ﷺ مكة فى عام الفتح وكان بجانبه أبو بكر رأى النساء يلطمن وجوه الخيل، فابتسم إلى أبى بكر رضى الله عنه وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان؟ فأنشد أبو بكر:

عَدِمْنَا خَيلنا إن لم تروْها ... تُثير النَّقعَ مَوعِدُها كَدَاءُ

يباريِنَ الأَسِنَّة مُصغيات ... على أكتافِها الأسلُ الظِّماءُ

تظلُّ جيادُنا متمطِّراتٍ ... تلطمهُنَّ بالخُمرِ النساءُ(١)

فقال النبى ﷺ: «ادخلوها من حيث قال حسان»(٢). وقد تمت النعمة على الصديق فى هذا الجو العظيم بإسلام أبيه أبى قحافة(٣).

ب - فى حنين:

أخذ المسلمون يوم حنين درسًا قاسيًا، إذ لحقتهم هزيمة فى أول المعركة جعلتهم يفرون من هول المفاجأة، وكانوا كما قال الإمام الطبرى: فانشمروا لا يلوى أحدٌ على أحد(٤) وجعل رسول الله ﷺ يقول: «أين أيها الناس؟، هلموا إلىَّ، أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله.. يا معشر الأنصار، أنا عبد الله ورسوله». ثم نادى عمه العباس وكان جهورى الصوت، فقال له: «يا عباس ناد: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة»(٥). كان هذا هو حال المسلمين فى أول المعركة، النبى وحده لم يثبت معه أحد إلا قلة، ولم تكن الفئة التى صبرت مع النبى إلا فئة من الصحابة يتقدمهم الصديق رضى الله عنه، ثم نصرهم الله بعد ذلك نصرًا عزيزًا مؤزرًا(٦)، وكانت هناك بعض المواقف للصديق منها:

---

(١) الحاكم فى المستدرك: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى (٣/ ٧٢).

(٢) نفس المصدر السابق (٣/ ٧٢)؛ الطبرى (٣/ ٤٢).

(٣) تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ١٤٧.

(٤) تاريخ الطبرى (٣/ ٧٤).

(٥) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فى غزوة حنين رقم (١٧٧٥).

(٦) مواقف الصديق مع النبى فى المدينة، ص ٤٣.

١ - فتوى الصديق بين يدى رسول الله:

قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الذى يختله فرفع يده ليضربنى وأضرب يده فقطعتها، ثم أخذنى فضمنى ضمًا شديداً حتى تخوفت، ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب فى الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله: «**من أقام بينة على قتيل قتله . فله سلبه**». فقمت لألتمس بينة على قتيلى فلم أرَ أحداً يشهد لى، فجلست ثم بدا لى فذكرت أمره لرسول الله ﷺ فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذى يذكر عندى، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا لا يعطه[١] أصيبغ من قريش ويدع[٢] أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ، قال: فقام رسول الله ﷺ فأدَّاه إلىَّ، فاشتريت منه خرافًا[٣]، فكان أول مال تأثَّلته فى الإسلام[٤].

إن مبادرة الصديق فى الزجر والردع والفتوى واليمين على ذلك فى حضرة رسول الله ﷺ، ثم يصدقه الرسول فيما قال ويحكم بقوله خصوصية شرف، لم تكن لأحد غيره[٥]، ونلحظ فى الخبر السابق أن أبا قتادة الأنصارى رضى الله عنه حرص على سلامة أخيه المسلم وقتل ذلك الكافر بعد جهد عظيم، كما أن موقف الصديق رضى الله عنه فيه دلالة على حرصه على إحقاق الحق والدفاع عنه، ودليل على رسوخ إيمانه وعمق يقينه، وتقديره لرابطة الأخوة الإسلامية، وأنها بمنزلة رفيعة بالنسبة له[٦].

٢ - الصديق وشعر عباس بن مرداس:

حين استقل العباس بن مرداس عطاءه من غنائم حنين، قال شعراً عاتب فيه رسول الله ﷺ حيث قال:

---

(١) لا يعطيه: أى لا يعطيه رسول الله. وقوله: أصيبغ نوع من الطيور شبه له لعجزه وضعفه.

(٢) يدع: يترك.

(٣) خرفًا: أى: بستانًا أقام الثمر مقام الأصل.

(٤) البخارى، كتاب المغازى رقم (٤٣٢٢).

(٥) الرياض النضرة فى مناقب العشرة، لأبى جعفر محب الدين، ص ١٨٥.

(٦) التاريخ الإسلامى للحميدى (٨/ ٢٦).

كــانت نهــابًا تلافــيــتــهـــا بِكَرِّى على المُهـــرِ فى الأجـــرَع

وإيقـــاظى القـــوم أن يرقـــدوا إذا هـــجـــع الـــنـــاس لـــم أهـــجـــع

فـأصـبح نهـبى ونهب العـبـيـد بين عـــيـــيـــنة والأقـــرع[1]

وقـــد كنت فى الحـــرب ذا تُدْرَأٍ فلم أُعطَ شـــيـــئًـــا ولم أُمنَع

إلا أفـــائل أعطيـــتــهـــا عـــديد قـــوائمـــهـــا الأربع[2]

ومـــا كـــان حـــصن ولا حـــابس يفـــوقـــان شـــيـــخى فى المجـــمع

ومـــا كنت دون امـــرئ منهـــمـــا ومـن تـضع اليـــــوم لا يُرْفَعِ[3]

فقال رسول الله ﷺ : «اذهبوا به، فأقطعوا عنى لسانه». فأعطوه حتى رَضى، فكان ذلك قطع لسانه الذى أمر به رسول الله ﷺ[4].

وأتى العباس رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ : أنت القائل: «فأصبح نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة»؟. فقال أبو بكر: بين عيينة والأقرع. فقال رسول الله ﷺ : «هما واحد». فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩][5].

جـ- فى الطائف:

فى حصار الطائف وقعت جراحات فى أصحاب النبى ﷺ وشهادة، ورفع رسول الله ﷺ عن أهل الطائف الحصار ورجع إلى المدينة، وممن استشهد من المسلمين فى هذه الغزوة عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما، رمى بسهم فتوفى منه بالمدينة بعد وفاة النبى ﷺ[6].

وعندما قدم وفد ثقيف للمدينة ليعلنوا إسلامهم، فما إن ظهر الوفد قرب المدينة حتى تنافس كل من أبى بكر والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد للرسول ﷺ، وفاز الصديق بتلك البشارة[7]، وبعد أن أعلنوا إسلامهم وكتب لهم رسول الله

---

(١) العبيد: اسم فرس عباس بن مرداس.

(٢) الأفائل: الصغار من الإبل، الواحد أفيل.

(٣، ٤، ٥) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٧).

(٦) تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ١٥١.

(٧) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٣).

ﷺ كتابهم وأراد أن يؤمِّر عليهم أشار أبو بكر بعثمان بن أبى العاص - وكان أحدثهم سنًا فقال الصديق: يا رسول الله إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن[1]، فقد كان عثمان بن أبى العاص كلما نام قومه بالهاجرة، عمد إلى رسول الله ﷺ فسأله فى الدين واستقرأه القرآن حتى فقه فى الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائمًا عمد إلى أبى بكر، وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وعجب منه وأحبه[2].

وعندما علم الصديق بصاحب السهم الذى أصاب ابنه كانت له مقولة تدل على عظمة إيمانه، فعن القاسم بن محمد قال: رُمِىَ عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنهما بسهم يوم الطائف، فانتقضت به بعد وفاة رسول الله ﷺ بأربعين ليلة، فمات، فقدم عليه وفد ثقيف ولم يزل ذلك السهم عنده، فأخرجه إليهم فقال: هل يعرف هذا السَّهمَ منكم أحد؟ فقال سعيد بن عبيد، أخو بنى عجلان: هذا سهم أنا بَرَيْتُهُ ورشته[3]، وعقبته[4]، وأنا رميت به. فقال أبو بكر رضى الله عنه: فإن هذا السهم الذى قتل عبدالله بن أبى بكر، فالحمد لله الذى أكرمه بيدك، ولم يُهِنك بيده، فإنه أوسع لكما[5].

ثامنا: فى غزوة تبوك، وإمارة الحج، وفى حجة الوداع:

أ - فى تبوك:

خرج رسول الله ﷺ بجيش عظيم فى غزوة تبوك بلغ عدده ثلاثين ألفًا، وكان يريد قتال الروم بالشام، وعندما تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله ﷺ، اختار الأمراء والقادة وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه[6]، وفى هذه الغزوة ظهرت بعض المواقف للصديق منها:

---

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ١٥٢.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبى، المغازى، ص ٦٧٠.

(٣) رشته: صنعت فيه الريش.

(٤) عقبته: جذبته من عقبه.

(٥) خطب أبى بكر الصديق، محمد أحمد عاشور، ص ١١٨، والرواية فيها انقطاع.

(٦) صفة الصفوة (١ /٢٤٣).

١ - موقفه من وفاة الصحابى عبد الله ذى البجادين رضى الله عنه :

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قمت فى جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، قال : فرأيت شعلة من نار من ناحية العسكر، قال فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله فى حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول :«أدليا إلىَّ أخاكما» . فدلياه إليه، فلما هيأه بشقه قال :«اللهم إنى أمسيت راضياً عنه فارض عنه» . قال الراوى (عبد الله بن مسعود) : يا ليتنى كنت صاحب الحفرة[١] .

وكان الصديق ﷺ إذا دخل الميت اللحد قال : بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ، وباليقين وبالبعث بعد الموت[٢] .

٢ - طلب الصديق من رسول الله ﷺ الد ‹ . ‹مسلمين :

قال عمر بن الخطاب : خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله قد عوَّدك فى الدعاء خيراً، فادع الله، قال :«أتحب ذلك» ؟ . قال : نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى قالت السماء - أى : تهيأت لإنزال مائها - فأطلت - أى : أنزلت مطراً خفيفاً - ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[٣] .

٣ - نفقة الصديق فى تبوك :

حث رسول الله ﷺ الصحابة فى غزوة تبوك على الإنفاق بسبب بُعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عثمان رضى الله عنه صاحب القدح المعلى فى الإنفاق فى هذه الغزوة[٤] .

وتصدق عمر بن الخطاب بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، ونترك الفاروق

(١) صحيح السيرة النبوية، ص ٥٩٨ .
(٢) مصنف عبد الرزاق (٣/٤٩٧) نقلاً عن موسوعة فقه الصديق، ص ٢٢٢ .
(٣) ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك، رقم ١٧٠٧ .
(٤) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص ٦١٥ .

يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندى، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضى الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟». قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[١].

كان فعل عمر فيما فعله من المنافسة والغبطة مباحًا، ولكن حال الصديق رضى الله عنه أفضل منه، لأنه خال من المنافسة مطلقًا ولا ينظر إلى غيره[٢].

ب - الصديق أمير الحج سنة ٩هـ:

كانت تربية المجتمع وبناء الدولة فى عصر النبى ﷺ مستمرة على جميع الأصعدة والمجالات العقائدية والاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والعسكرية والتعبدية، وكانت فريضة الحج لم تمارس فى السنوات الماضية، وحجة عام ٨هـ بعد الفتح كُلِّف بها عَتَّاب ابن أسيد، ولم تكن قد تميزت حجة المسلمين عن حجة المشركين[٣]، فلما حل موسم الحج أراد الحج ﷺ ولكنه قال: «إنه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل النبى ﷺ الصديق أميرًا على الحج سنة تسع من الهجرة، فخرج أبو بكر الصديق بركب الحجيج نزلت سورة براءة فدعا النبى ﷺ عليًا رضى الله عنه، وأمره أن يلحق بأبى بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك الصديق أبا بكر بذى حليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم سار، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، وكان الحج فى هذا العام فى ذى الحجة كا دلت على ذلك الروايات الصحيحة، لا فى شهر ذى القعدة كما قيل، وقد خطب الصديق قبل التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول فكان يُعَرِّفُ الناس مناسكهم: فى وقوفهم وإفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات.. إلخ وعلى بن أبى طالب يخلفه فى

---

(١) سنن أبى داود، كتاب الزكاة رقم (١٦٧٨) وحسنه الألبانى.
(٢) الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ٧٢، ٧٣).
(٣) دراسات فى عهد النبوة، عماد الدين خليل، ص ٢٢٢.

كل موقف من هذه المواقف فيقرأ على الناس صدر سورة براءة ثم ينادى فى الناس بهذه الأمور الأربعة: «لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك»(١).

وقد أمر الصديق أبا هريرة فى رهط آخر من الصحابة لمساعدة على بن أبى طالب فى إنجاز مهمته(٢).

وقد كلف النبى ﷺ عليًا بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين فى موسم الحج، مراعاة لما تعارف عليه العرب فيما بينهم من عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه، وهذا العرفُ ليس فيه منافاة للإسلام، فلذلك تدارك النبى ﷺ الأمر وأرسل عليًا بذلك، فهذا هو السبب فى تكليف علىّ رضى الله عنه بتبليغ صدر سورة براءة، لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للإشارة إلى أن عليًا رضى الله عنه أحق بالخلافة من أبى بكر، وقد علق على ذلك الدكتور محمد أبو شهبة فقال: ولا أدرى كيف غفلوا عن قول الصديق له: أمير أم مأمور؟(٣) وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير(٤).

وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهى حجة الوداع(٥)، لقد أعلن فى حجة أبى بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلان الذى انتشر بين قبائل العرب فى الجزيرة، أيقنت تلك القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً، فأخذتِ ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها فى التوحيد(٦).

جـ- فى حجة الوداع:

روى الإمام أحمد رضى الله عنه بسنده إلى عبد الله بن الزبير عن أبيه أن أسماء بنت

---

(١) صحيح السيرة النبوية، ص ٦٢٥.

(٢) السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/ ٥٣٧).

(٣) صحيح السيرة النبوية، ص ٥٢٤.

(٤، ٥) السيرة النبوية لابى شهبة (٢/ ٥٤٠).

(٦) قراءة سياسية للسيرة النبوية، قلعجى، ص ٢٨٣.

أبى بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجًا، حتى إذا أدركنا (العرج)[1] نزل رسول الله ﷺ، فجلست عائشة جنب النبى ﷺ، وزمالة أبى بكر واحدة مع غلام لأبى بكر فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه، فطلع وليس معه بعيره!! فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضللته البارحة! فقال أبو بكر: بعير واحد تضله!! فطفق يضربه ورسول الله يبتسم ويقول: «انظروا إلى هذا المحرم وما يصنع»[2].

* * *

(١) العَرْج: واد فحل من أودية الحجاز التهامية. معجم المعالم الجغرافية، ص ٢٠٢.

(٢) مسند أحمد (٦/٣٤٤).

المبحث الخامس

الصديق فى المجتمع المدنى وبعض صفاته وشيء من فضائله

تمهيد :

كانت حياة الصديق فى المجتمع المدنى مليئة بالدروس والعبر، وتركت لنا نموذجًا حيًا لفهم الإسلام وتطبيقه فى دنيا الناس، وقد تميزت شخصية الصديق بصفات عظيمة ومدحه رسول الله ﷺ فى أحاديث كثيرة، وبين فضله وتقدمه على كثير من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

أولاً : من مواقفه فى المجتمع المدنى :

١ - موقفه من فنحاص الحبر اليهودى :

ذكر غير واحد من كُتَّاب السيَر والمفسرين أن أبا بكر رضى الله عنه دخل بيت المدراس[١]، على يهود، فوجد منهم ناسًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم، يقال له أشيع[٢]، فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك! اتق الله وأسلم، فوالله إنك تعلم أن محمداً لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل، فقال فنحاص لأبى بكر : والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضَنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنيًا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربًا شديداً، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت رأسك أى عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر:« **ما حملك على ما صنعت؟** فقال أبو بكر : يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيمًا، إنه يزعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص

---

(١) مكان يتلى فيه التوراة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/٥٥٨، ٥٥٩).

وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص رداً عليه، وتصديقًا لأبى بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ونزل فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وما بلغه فى ذلك من الغضب(١) قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٢- حفظ سر النبى ﷺ:

قال عمر بن الخطاب: تأيمت حفصة من خنيس بن حذافة، وكان ممن شهد بدراً، فلقيت عثمان بن عفان فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: أنظر، ثم لقينى فقال: قد بدا لى أن لا أتزوج يومى هذا، فلقيت أبا بكر فعرضتها عليه فصمت، فكنت عليه أوجد منى على عثمان، فلبثت ليالى ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، ثم لقينى أبو بكر فقال: لعلك وجدت علىَّ حين لم أرجع إليك، فقلت: أجل، فقال: إنه لم يمنعنى أن أرجع إليك إلا أنى علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ ولو تركها لنكحتها(٢).

٣- الصديق وآية صلاة الجمعة:

قال جابر بن عبدالله: بينما النبى ﷺ يخطب يوم الجمعة، وقدمت عيرُ المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١] وقال: فى الاثنى عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر(٣).

٤- رسول الله ﷺ ينفى الخيلاء عن أبى بكر:

قال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «من جر ثوبه خُيلاء لم

---

(١) تفسير القرطبى (٤/٢٩٥).

(٢) الفتح (٩/٨١)؛ الطبقات الكبرى (٨/٨٢).

(٣) الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان (١٥/٣٠٠)، مسلم رقم (٨٦٣).

ينظر الله إليه يوم القيامة». فقال أبو بكر: إن أحد شقيَّ يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال رسول الله ﷺ: «إنك لست تصنع ذلك خيلاء»(١).

٥- الصديق وتحريه للحلال:

عن قيس بن أبي حازم قال: كان لأبي بكر غلام فكان إذا جاء بغَلَّته لم يأكل من غلته حتى يسأل، فإن كان شيئًا مما يحب أكل، وإن كان شيئًا يكره لم يأكل، قال: فنسي ليلة فأكل ولم يسأله، ثم سأله فأخبره أنه من شيء كرهه، فأدخل يده فتقيأ حتى لم يترك شيئًا(٢).

فهذا مثال على ورع أبي بكر رضي الله عنه حيث كان يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، ويتجنب الشبهات، وهذه الخصلة تدل على بلوغه درجات عُليا في التقوى، ولا يَخفَى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس في الدين، وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء(٣)، كما في حديث الأشعث الأغبر وفيه: «**يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك**»(٤).

٦- أدخلاني في سلمكما، كما أدخلتماني في حربكما:

دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على النبي ﷺ فسمع صوت ابنته عائشة عاليًا، فلما اقترب منها تناولها ليلطمها وقال: أراك ترفعين صوتك على رسول الله، فجعل رسول الله يحجزه، وخرج أبو بكر مغضبًا فقال النبي ﷺ لعائشة حين خرج أبو بكر: «**أرأيت كيف أنقذتك من الرجل؟**». فمكث أبو بكر أيامًا، ثم استأذن على رسول الله فوجدهما قد اصطلحا. فقال لهما: أدخلاني في سلمكما، كما أدخلتماني في حربكما. فقال النبي ﷺ: «**قد فعلنا**»(٥).

---

(١) البخاري رقم ٣٦٦٥.

(٢) الزهد للإمام أحمد (١١٠) نقلاً عن التاريخ الإسلامي للحميدي (١٩/١٣).

(٣) التاريخ الإسلامي للحميدي (١٩/١٣).

(٤) مسلم، رقم (١٠١٥).

(٥) أبو داود (٤٩٩٩)، ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود؛ سيرة الصديق، مجدي السيد، ص ١٣٦.

٧- أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر :

دخل أبو بكر على عائشة رضى الله عنهما فى أيام العيد، وعندها جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ ؟ وكان رسول الله ﷺ معرضًا بوجهه عنهما، مقبلاً بوجهه الكريم إلى الحائط. فقال : «يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا»(١).

ففى الحديث بيان : أن هذا لم يكن من عادة النبى ﷺ وأصحابه الاجتماع عليه، ولهذا سماه الصديق مزمار الشيطان، والنبى ﷺ أقر الجوارى عليه معللاً ذلك بأنه يوم عيد، والصغار يرخص لهم فى اللعب فى الأعياد، كما جاء فى الحديث : «ليعلم المشركون أن فى ديننا فسحة»(٢). وكان لعائشة لُعَب تلعب بهن ويجئن صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها، وليس فى حديث الجاريتين أن النبى ﷺ استمع إلى ذلك، والأمر والنهى إنما يتعلق بالاستماع لا بمجرد السماع(٣). ومن هذا نفهم أنه يرخص لمن يصلح له اللعب أن يلعب فى الأعياد، كالجاريتين الصغيرتين من الأنصار اللتين تغنيان فى العيد فى بيت عائشة(٤).

٨- إكرامه للضيوف :

قال عبدالرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما : أن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء، وأن رسول الله ﷺ قال مرة : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، وإن أبا بكر جاء بثلاث... وإن أبا بكر تعشى عند رسول الله ﷺ فجاء بعد أن مضى من الليل ما شاء الله تعالى، فقالت له امرأته : ما حبسك عن أضيافك؟ أو قالت : عن ضيفك، قال : وما عشيتهم؟ قالت : أبوا حتى تجىء، وقد عرضوا عليهم فغلبوهم قال : فذهبت أنا فاختبأت، فقال : يا غنثر(٥) - فجدع وسب، وقال : كلوا هنيئًا وقال : والله لا أطعم أبدًا، وحلف الضيف أن لا يطعمه حتى يطعم أبو بكر، فقال أبو بكر : هذه من الشيطان، قال : فدعا بالطعام فأكل، فقال :

---

(١) مسلم فى صلاة العيدين رقم (٨٩٢).

(٢) الفتاوى (١١ /٣٠٨)، مسند أحمد (٦/ ١١٦، ٢٣٣) عن عائشة.

(٣، ٤) نفس المصدر السابق (٣٠/ ١١٨).

(٥) غنثر : الثقيل الوخيم وقيل : الجاهل.

وأيم الله ما كنا نأخذ لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، فقال: حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها فإذا هى كما هى وأكثر، فقال لأمراته: يا أخت بنى فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرة عينى هى الآن لأكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، فأكل أبو بكر وقال: إنما كان ذلك من الشيطان - يعنى يمينه - ثم أكل منها لقمة ثم حملها إلى رسول الله ﷺ فأصبحت عنده، وكان بيننا وبين القوم عقد فمضى الأجل فتفرقنا اثنى عشر رجلاً، مع كل واحد منهم أناس الله أعلم كم مع كل رجل منهم فأكلوا منها أجمعين[1].

وفى هذه القصة دروس وعبر منها:

أ - حرص الصديق على تطبيق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحث على إكرام الضيف مثل قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧].

وقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فيلكرم ضيفه»[2].

ب - وفى هذه القصة كرامة للصديق حيث جعل لا يأكل لقمة إلا رَبَا من أسفلها أكثر منها فشبعوا، وصارت أكثر مما هى قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هى أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا[3]، وهذه الكرامة حصلت ببركة اتباع الصديق لرسول الله ﷺ فى جميع أحواله، وهى تدل على مقام الولاية للصديق، فأولياء الله هم المقتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التى يكرم الله بها أولياءَه المتقين[4].

ج - تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: إن أبا بكر لم يحنث فى يمين قط حتى أنزل الله كفارة اليمين، فقال: لا أحلف على يمين فرأيت غيرها خيراً منها إلا أتيت

---

(١) مسلم، كتاب الأشربة رقم ٢٠٥٧.

(٢) مسلم (٣/١٣٥٣).

(٣) الفتاوى (١١/١٥٣).

(٤) نفس المصدر السابق (١١/١٥٢).

الذى هو خير وكفرت عن يمينى[1]، فكان إذا حلف على شىء ورأى غيره خيراً منه كفر وأتى الذى هو خير[2]، وفى هذه القصة ما يدل على ذلك حيث ترك يمينه الأولى إكراماً لضيوفه وأكل معهم[3].

٩- ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر:

قالت عائشة رضى الله عنها: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عقد لى فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليس على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس أبا بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فَخذى قد نام فقال: حبَست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، قلت: فعاتبنى وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعننى بيده فى خاصرتى فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذى ، فنام رسول الله ﷺ، حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ [النساء: ٤٣]. فقال أسيد بن حضير: ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر، فقالت عائشة: فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته)[4].

وفى هذه القصة يظهر حرص الصديق على التأدب مع رسوله، وحساسيته الشديدة على أن لا يضايقه شىء، ولا يقبل ذلك ولو كان من أقرب الناس وأحبهم إلى رسول الله ﷺ، كعائشة رضى الله عنها، فقد كان رضى الله عنه قدوة للدعاة فى الأدب الجم مع النبى ﷺ ومع نفسه ومع المسلمين[5].

١٠- انتصار النبى للصديق رضى الله عنه:

لقد ثبت من الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن النبى ﷺ كان ينتصر لأبى بكر وينهى الناس عن معارضته، فعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: كنت جالساً مع النبى

---

(١) سنن البيهقى (١٠/٣٤) نقلاً عن موسوعة فقه أبى بكر، ص ٢٤٠.
(٢) مصنف ابن أبى شيبة (١/١٥٨) نقلاً عن موسوعة فقه أبى بكر، ص ٢٤٠.
(٣) موسوعة فقه أبى بكر، ص ٢٤١.
(٤) البخارى رقم (٣٦٧٢).
(٥) تاريخ الدعوة الإسلامية ، ص (٤٠٢، ٤٠٣).

ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبى ﷺ : «أما صاحبكم فقد غامر»[١]، فسلم، و قال: يا رسول الله إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لى فأبى على، فأقبلت إليك. فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثًا. ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبى بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ قالوا: لا. فأتى النبى ﷺ فسلم عليه، فجعل وجه رسول الله ﷺ يتمعر[٢]، حتى أشفق أبو بكر[٣] فجثا على ركبتيه، فقال يا رسول الله : والله أنا كنت أظلم مرتين[٤]، فقال النبى ﷺ : «إن الله بعثنى إليكم فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق، وواسانى بنفسه وماله[٥]، فهل أنتم تاركو لى صاحبى» مرتين. فما أوذى بعدها[٦].

وفى هذه القصة دروس وعبر كثيرة منها الطبيعة البشرية للصحابة وما يحدث بينهم من خلاف، وسرعة رجوع المخطيء وطلب المغفرة والصفح من أخيه، وتواد الصحابة فيما بينهم، ومكانة الصديق الرفيعة عند رسول الله ﷺ ثم أصحابه.. إلخ.

١١- قل: غفر الله لك يا أبا بكر:

قال ربيعة الأسلمى رضى الله عنه: كنت أخدم النبى ﷺ... وذكر حديثًا ثم قال: إن رسول الله ﷺ أعطانى بعد ذلك أرضًا وأعطى أبا بكر أرضًا وجاءت الدنيا فاختلفنا فى عذق نخلة، فقلت أنا: هى فى حدِّى، وقال أبو بكر: هى فى حدى، فكان بينى وبين أبى بكر كلام، فقال أبو بكر كلمة كرهها، و ندم، فقال لى: يا ربيعة، رد عليها مثلها حتى تكون قصاصًا، قال: قلت: لا أفعل، فقال أبو بكر: لتقولن أو لاستعدين عليك رسول الله ﷺ، فقلت: ما أنا بفاعل، قال: ورفض الأرض[٧]، وانطلق أبو بكر رضى الله عنه إلى النبى ﷺ، وانطلقت أتلوه، فجاء ناس من أسلم فقالوا لى: رحم الله أبا بكر، فى أى شيء يستعدى عليك رسول الله ﷺ وهو قد قال لك ما قال، قلت:

---

(١) غامر: خاصم. أى: دخل فى غمرة الخصومة.

(٢) يتمعر: تذهب نضارته من الغضب.

(٣) أن يكون لعمر من الرسول ما يكره.

(٤) لأنه هو الذى بدأ.

(٥) المراد به أن صاحب المال يجعل يده ويد صاحبه فى ماله سواء.

(٦) لما أظهره النبى ﷺ من تعظيمه، البخارى رقم (٣٦٦١).

(٧) أى: فارق أبو بكر الأرض.

أتدرون من هذا؟ هذا أبو بكر الصديق، هذا ثانى اثنين، وهذا ذو شيبة المسلمين، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونى عليه فيغضب ، فيأتى رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه، فيغضب الله عز وجل لغضبهما فيهلك ربيعة، قال: ما تأمرنا؟ قال: ارجعوا، قال: فانطلق أبو بكر رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ فتبعته وحدى حتى أتى النبى ﷺ فحدثه الحديث كما كان، فرفع إلىَّ رأسه فقال: يا ربيعة مالك وللصديق؟ قلت: يا رسول الله كان كذا كان كذا، قال لى كلمة كرهها فقال: قل لى كما قلت حتى يكون قصاصاً فأبيت، فقال رسول الله ﷺ : «أجل فلا ترد عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر»، فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر. قال الحسن (البصرى): فَوَلَّى ابو بكر رضى الله عنه وهو يبكى(١).

لله أى وجدان هذا الوجدان، وأى نفس تلك النفس، بادرة بدرت منها لمسلم فلم ترض إلا اقتصاصه منها، وصفحه عنها، تناهيًا بالفضيلة، واستمساكًا بالأدب وشعوراً تمكن من الجوانح، وأخذ بمجامع القلوب، فكانت عنده زلة اللسان - ولو صغيرة - ألما يتململ منه الضمير فلا يستريح إلا بالقصاص منه، ورضا ذلك المسلم عنه(٢).

كانت كلمة هينة، ولكنها أصابت من ربيعة مَوجعًا.. فإذا أبو بكر يُزَلزَلُ من أجلها، ويأبى إلا القصاص عليها، مع أنه يومئذ كان الرجل الثانى فى الإسلام بعد رسول الله ﷺ، وهى كلمة لا يمكن أن تكون من فُحش القول أبداً: لأن أخلاقه لم تسمح بهذا، ولم يؤثر عنه حتى فى الجاهلية شيء من هذا(٣).

لقد خشى الصديق مغبة تلك الكلمة، ولهذا اشتكى لرسول الله، وهذا أمر عجيب، فإن أبا بكر قد نسى أرضه ونسى قضية الخلاف، وشغل باله أمر تلك الكلمة لأن حقوق العباد لابد فيها من عفو صاحب الحق(٤)، وفى هذا درس للشيوخ والعلماء والحكام والدعاة فى كيفية معالجة الأخطاء ومراعاة حقوق الناس وعدم الدوس عليها بالأرجل.

وقد استنكر قوم ربيعة أن يذهب أبو بكر يشتكى إلى رسول الله ﷺ وهو الذى قال

---

(١) مسند أحمد (٤/٥٨، ٥٩).

(٢) أشهر مشاهير الإسلام (١/٨٨).

(٣) خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، ص ١٠٣.

(٤) التاريخ الإسلامى (١٩/١٦).

ما قال، ولم يعلموا ما علمه أبو بكر من لزوم إنهاء قضايا الخصومات، وإزالة ما قد يعلق فى القلوب من الموجدة فى الدنيا قبل أن يكتب ذلك فى الصحف ويترتب عليه الحساب يوم القيامة.

وبالرغم مما ظهر من رضا ربيعة وتوجيه النبى ﷺ إلى عدم الرد على أبى بكر فإن أبا بكر قد بكى من خشية الله تعالى، وهذا دليل على قوة إيمانه، ورسوخ يقينه.

وأخيراً موقف يذكر لربيعة بن كعب الأسلمى رضى الله عنه، حيث قام بإجلال أبى بكر رضى الله عنه، وأبى أن يرد عليه بالمثل، وهذا من تقدير أهل الفضل والتقدم والمعرفة بحقهم، وهو دليل على قوة الدين ورجاحة العقل(١).

١٢- مسابقته فى الخيرات:

اتصف الصديق رضى الله عنه بالأخلاق الحميدة، والصفات الرفيعة ومسابقته فى الخيرات حتى صار فى الخير قدوة، وفى مكارم الأخلاق أسوة، وكان حريصاً أشد الحرص على الخيرات، فقد أيقن أن ما يمكن أن يقوم به المرء اليوم، قد يكون غير ممكن فى الغد، فاليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، ولذلك كان من المسارعين فى الخيرات، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**من أصبح منكم اليوم صائماً؟**». قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**». قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟**». قال أبو بكر: أنا. قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟**». قال أبو بكر: أنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمعن فى امرىء إلا دخل الجنة**»(٢).

١٣- كظمه للغيظ:

قال أبو هريرة رضى الله عنه: إن رجلاً شتم أبا بكر، ورسول الله ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر الرجل، رد عليه أبو بكر بعض قوله، فغضب النبى ﷺ، وقام فلحقه أبو بكر، وقال: يا رسول الله، كان يشتمنى وأنت جالس، فلما أكثر رددت عليه بعض قوله، غضبت وقمت!! فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنه كان معك**

(١) التاريخ الإسلامى (١٩/١٦).

(٢) صحيح مسلم رقم (١٠٢٨).

ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان».
ثم قال: «يا أبا بكر ثلاث كلهنَّ حق: ما من عبد ظلم بمظلمة، فيغضى عنها لله عز وجل إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية، يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة»(١).

إن الصديق رضى الله عنه اتصف بكظم الغيظ ولكنه رد ما ظن أنه به يسكت هذا الرجل، فرغبه النبى ﷺ فى الحلم والأناة، وأرشده إلى ضرورة تحليه بالصبر فى مواطن الغيظ، فإن الحلم و كظم الغيظ مما يزيد المرء ويجمله فى أعين الناس، ويرفع قدره عند الله تعالى.

ويتبين لنا كذلك من هذا الموقف حرص الصديق رضى الله عنه على عدم إغضاب النبى ﷺ والمسارعة إلى إرضائه، وفى الحديث ذم الغضب للنفس، والنهى عنه، والتحذير منه، واعتزال الأنبياء للمجالس التى يحضرها الشيطان، وبيان الفضل للمظلوم، الصابر، المحتسب للأجر والثواب، وفيه حث على العطايا، وصلة الأرحام، وذم للمسألة وأهلها.

وظل الصديق متمسكًا بالحلم، وكظم الغيظ، حتى عُرف بالحلم والأناة، ولين الجانب والرفق، وهذا لا يعنى أن أبا بكر لم يكن يغضب، وإنما كان غضبه لله تعالى، فإذا رأى محارم الله قد انتهكت غضب لذلك غضبًا شديدًا(٢).

لقد عاش رسول الله ﷺ متأملاً ومتفكرًا وعاملاً بقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

١٤- بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى:

كان أبو بكر رضى الله عنه يَعُول مِسْطَحَ بن أُثَاثَة، فلما قال فى عائشة رضى الله عنها ما قال- فى حديث الإفك المشهور - أقسم بالله أبو بكر ألا ينفعه أبداً، فلما أنزل

---

(١) الدر المنثور للسيوطى (٢/٧٤)؛ مجمع الزوائد (٨/١٩٠) حديث مرسل.

(٢) سيرة وحياة الصديق، مجدى فتحى السيد، ص ١٤٥.

الله عز وجل: ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ [النور: ٢٢]. قال أبو بكر: والله إنى أحب أن يغفر الله لى، فرجع إلى النفقة التى كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً(١). لقد فهم الصديق من الآية بأن على المؤمن التخلق بأخلاق الله، فيعفو عن الهفوات والزلات والمزالق، فإن فعل، فالله يعفو عنه ويستر ذنوبه، وكما تدين تدان، والله سبحانه قال: ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ أى: كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم(٢)، وكما أن فى الآية من حلف على شىء ألا يفعله، فرأى أن فعله أولى من تركه، أتاه وكفّر عن يمينه، وقال بعض العلماء: هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ(٣).

لقد دلت هذه الاية على أن أبا بكر أفضل الناس بعد النبى ﷺ، لأن الله وصفه بصفات عجيبة فى هذه الآية، دالة على علو شأنه فى الدين، أورد الرازى فى تفسيره أربع عشرة صفة مستنبطة من هذه الآية: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ منها: أنه وصفه بأنه صاحب الفضل على الإطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص، والفضل يدخل فيه الإفضال، وذلك يدل على أنه رضى الله عنه، كان فاضلاً على الإطلاق وكان مفضلاً على الإطلاق. ومنها أنه لما وصفه تعالى بأنه أولو الفضل والسعة بالجمع لا بالواحد وبالعموم لا بالخصوص على سبيل المدح، وجب أن يقال: إنه كان خالياً عن المعصية لأن الممدوح إلى هذا الحد لا يكون من أهل النار(٤).

١٥- خروجه للتجارة من المدينة إلى الشام:

خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه للتجارة إلى بصرى ببلاد الشام فى عهد النبى ﷺ، ما منعه حبه لملازمة النبى من الذهاب للتجارة، ولا منع النبى ﷺ الصديق من ذلك مع شدة حبه له(٥). وفى هذا أهمية أن يكون للمسلم مصدر رزق يستغنى به عن

(١) البخارى رقم (٤٧٥٠).

(٢، ٣) تفسير المنير (١٨/ ١٩٠).

(٤) تفسيرالرازى (١٨/ ٣٥١).

(٥) الفتح البارى (٤/ ٣٥٧) نقلاً عن الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى، ص(١٦٣).

سؤال الناس، بل ويساهم بهذا الرزق فى إغاثة الملهوف، وفك العانى ويسارع فى أبواب الإنفاق التى يحبها الله.

١٦- غيرة الصديق رضى الله عنه وتزكية النبى ﷺ لزوجه:

قال عبدالله بن عمرو بن العاص: إنَّ نفراً من بنى هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس، فدخل أبو بكر الصديق وهى تحته يومئذ فرآهم، فكره ذلك، فذكر ذلك لرسول الله، فقال: إن الله تعالى قد برأها من ذلك، ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «**لا يدخل رجل بعد يومى هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان**»[١].

١٧- خوفه من الله تعالى:

عن أنس رضى الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين[٢].

وقد كان الصديق رضى الله عنه على جانب من الخوف والرجاء عظيم، جعله قدوة عملية لكل مسلم سواء حاكماً أو محكوماً، قائداً أو جندياً، يريد النجاح والفلاح فى الآخرة[٣]، فعن محمد بن سيرين قال: لم يكن أحد أهيب لما يعلم بعد النبى ﷺ من أبى بكر. وعن قيس قال: رأيت أبا بكر آخذ بطرف لسانه ويقول: هذا الذى أوردنى الموارد[٤]، وقد قال أبو بكر رضى الله عنه: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا[٥]، وعن ميمون ابن مهران قال: أتى أبو بكر بغراب وافر الجناحين فقلبه ثم قال: ما صيد من صيد ولاعضدت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح[٦]، وعن الحسن قال: قال أبو بكر: والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد[٧]، وقال أبو بكر: لوددت أنى كنت شعرة فى جنب عبد مؤمن[٨]، وكان رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت من الشعر:

---

(١) الرياض النضرة فى مناقب العشرة لأبى جعفر أحمد الطبرى، ص ٢٣٧.
(٢) البخارى، كتاب التفسير، باب لا تسألوا عن أشياء (٦/ ٦٨).
(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، يسرى محمد، ص ٣٩٦.
(٤) صفة الصفوة (٢/ ٢٥٣).
(٥) الزهد، للإمام أحمد، باب زهد أبى بكر، ص ١٠٨.
(٦) نفس المصدر السابق، ص ١١٠.
(٧، ٨) المصدر السابق، ص ١١٢.

لا تزال تنعى حبيبًا حتى تكونه   وقد يرجو الرجا يموت دونه(١)

ثانياً : من أهم صفات الصديق وشيء من فضائله :

إن شخصية الصديق رضى الله عنه تعتبر شخصية قيادية، وقد اتصف رضى الله عنه بصفات القائد الربانى، ونجملها فى أمور ونركز على بعضها بالتفصيل، فمن أهم هذه الصفات : سلامة المعتقد، والعلم الشرعى، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول التضحية، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات التى ظهرت للباحث فى الفترة المكية فى صحبته للنبى ﷺ، وفى العهد المدنى فى غزواته مع رسول الله وحياته فى المجتمع، وظهر البعض الآخر لما تسلم قيادة الدولة وأصبح خليفة رسول الله ﷺ، فقد استطاع بتوفيق الله تعالى وبسبب ما أودع الله فيه من صفات القيادة الربانية أن يحافظ على الدولة ويقمع حركة الردة، وينتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ومن أهم تلك الصفات التى نحاول تسليط الأضواء عليها فى هذا المبحث، إيمانه بالله العظيم، وعلمه الراسخ، وكثرة دعائه وتضرعه لله تعالى.

١ - عظمة إيمانه بالله تعالى :

كان إيمان الصديق بالله عظيماً، فقد فهم حقيقة الإيمان وتغلغلت كلمة التوحيد فى نفسه وقلبه، وانعكست آثارها على جوارحه، وعاش بتلك الآثار فى حياته، فتحلى بالأخلاق الرفيعة، وتطهر من الأخلاق الوضيعة، وحرص على التمسك بشرع الله والاقتداء بهديه ﷺ، وكان إيمانه بالله تعالى باعثًا له على الحركة والهمة و النشاط والسعى، والجهد والمجاهدة، والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة، وكان فى قلبه من اليقين والإيمان شىء عظيم لا يساويه فيه أحد من الصحابة، قال أبو بكر بن عياش : ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشىء وقر فى قلبه(٢)، ولهذا قيل : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح، كما فى السنن عن أبى بكرة عن النبى ﷺ

---

(١) الزهد، للإمام أحمد، باب زهد أبى بكر، ص ١٠٨.

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/١٧٣).

قال: «**هل رأى أحد منكم رؤيا؟**». فقال رجل: أنا رأيت كأن ميزانًا نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبى بكر، ثم وزن أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر، ثم وزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان - فاستاء لها رسول الله ﷺ، فقال: «**خلافة نبوة ثم يؤتى الله الملك من يشاء**» (١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم أقبل على الناس فقال: «**بينا رجل يسوق بقرة له، قد حمل عليها التفتت إليه البقرة، فقالت: إنى لم أخلق لهذا، ولكنى خلقت للحرث**»، فقال الناس: سبحان الله! تعجبًا وفزعًا أبقرة تتكلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**فإنى أؤمن به وأبو بكر وعمر**»، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**وبينما رجل فى غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب: هذا استنقذتها منى، فمن لها يوم السبع، يوم لا راعى لها غيرى؟**» فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم؟ قال ﷺ: «**فإنى أومن بذلك أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم**» (٢). ومن شدة إيمانه والتزامه بشرع الله تعالى وصدقه وإخلاصه للإسلام أحبه النبى ﷺ، وأصبحت تلك المحبة مقدمة عند النبى ﷺ على غيره من الصحابة.

فعن عمرو بن العاص رضى الله عنه: أن النبى ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أى الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**». فقلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**». قلت: ثم من؟ قال: «**عمر بن الخطاب**». فعد رجالاً(٣).

وبسبب هذا الإيمان العظيم والتزامه بشرع الله القويم ولجهوده التى بذلها لنصرة دين رب العالمين استحق بشارة رسول الله بالجنة، وأنه يدعى من جميع أبوابها، فعن أبى موسى الأشعرى أنه توضأ فى بيته ثم خرج فقلت: لألزمن رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومى هذا. قال: فجاء المسجد فسأل عن النبى ﷺ فقالوا: خرج ووجه ها هنا، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريسٍ، فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته فتوضأ، فقمتُ إليه، فإذا هو جالس على بئر أريسٍ وتوسط قُفَّها وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر، فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند

---

(١) أبو داود رقم (٤٦٣٤)؛ الترمذى رقم (٢٢٨٨).

(٢) مسلم، رقم (٢٣٨٨).

(٣) صحيح البخارى، رقم (٣٦٦٢).

الباب فقلت: لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت: من هذا فقال: أبو بكر. فقلت: على رسلك، ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة». فاقبلت حتى قلت لأبى بكر: ادخل ورسول الله يبشرك بالجنة. فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه فى القف ودلّى رجليه فى البئر كما صنع النبى ﷺ وكشف عن ساقيه.... (١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين من شىء من الأشياء فى سبيل الله دعى من أبواب (أى الجنة) يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام وباب الريان». فقال أبو بكر رضى الله عنه: ما على هذا الذى يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: هل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر»(٢).

٢- علمه رضى الله عنه:

كان الصديق من أعلم الناس بالله وأخوفهم له(٣)، وقد اتفق أهل السنة على أن أبا بكر أعلم الأمة، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد(٤)، وسبب تقدمه على كل الصحابة فى العلم والفضل ملازمته للنبى ﷺ، فقد كان أدوم اجتماعًا به ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، وكان يسمر عند النبى ﷺ بعد العشاء، يتحدث معه فى أمور المسلمين، دون غيره من أصحابه، وكان إذا استشار أصحابه أول من يتكلم أبو بكر فى الشورى، وربما تكلم غيره، وربما لم يتكلم غيره، فيعمل برأيه وحده، وفإذا خالفه غيره اتبع رأيه دون رأى من يخالفه(٥)، وقد استعمله النبى ﷺ على أول حجة حجت من مدينة النبى ﷺ، وعلم المناسك أدق ما فى العبادات، ولولا سعة علمه لم يستعمله،

(١) البخارى رقم (٣٦٧٤).
(٢) نفس المصدر السابق رقم (٣٦٦٦).
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ٥٩.
(٤) الفتاوى (١٣/١٢٧).
(٥) أبو بكر الصديق، محمد مال الله، ص (٣٣٤، ٣٣٥).

وكذلك الصلاة استخلفه عليها ولولا علمه لم يستخلفه، ولم يستخلف غيره لا في حج ولا في صلاة، وكتاب الصدقة التي فرضها رسول الله أخذه أنس من أبي بكر وهو أصح ما روى فيها(١)، وعليه اعتمد الفقهاء وغيرهم في كتابه ما هو متقدم منسوخ، فدل على أنه أعلم بالسنة الناسخة، ولم يحفظ له قول يخالف فيه نصًا، وهذا يدل على غاية البراعة والعلم، وفي الجملة لا يعرف لأبي بكر مسألة في الشريعة غلط فيها، وقد عرف لغيرة مسائل كثيرة(٢)، وكان رضي الله عنه يقضي ويفتي بحضرة النبي ﷺ ويقره، ولم تكن هذه المرتبة لغيره، وقد بينت ذلك في سلب أبي قتادة بحنين(٣)، وقد ظهر فضل علمه وتقدمه على غيره بعد وفاة الرسول ﷺ، فإن الأمة لم تختلف في ولايته في مسألة إلا فصلها هو بعلم يبينه لهم وحجة يذكرها لهم من الكتاب والسنة، وذلك لكمال علم الصديق وعدله، ومعرفته بالأدلة التي تزيل النزاع، وكان إذا أمرهم أطاعوه. كما بين لهم موت النبي ﷺ وتثبيتهم على الإيمان ثم بين لهم موضع دفنه، وبين لهم ميراثه، وبين لهم قتال مانعي الزكاة لما استراب فيه عمر، وبين لهم أن الخلافة في قريش، وتجهيز جيش أسامة، وبين لهم أن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة هو رسول الله ﷺ(٤)، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه بإذن الله تعالى.

ولقد رأى رسول الله ﷺ له رؤيا تدل على علمه، فعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت كأني أعطيت عُسًا مملوءاً لبنًا، فشربت منه حتى تملأت، فرأيتها تجري في عروقي بين الجلد واللحم، ففضلت منها فضلة، فأعطيتها أبا بكر**». قالوا: يا رسول الله، هذا علم أعطاكه الله حتى إذا تملأت منه، فضلت فضلة، فأعطيتها أبا بكر، فقال ﷺ: «**قد أصبتم**»(٥).

وكان الصديق رضي الله عنه يرى أن الرؤيا حق، وكان يجيد تأويلها، وكان يقول إذا أصبح: من رأى رؤيا صالحة فليحدِّثنا بها وكان يقول: لأن يرى رجل مسلم مسبغ

---

(١) البخاري رقم (١٤٤٨).

(٢) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، ص ٦٠.

(٣) نفس المصدر السابق، ص٥٧.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٩.

(٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٥/ ٢٦٩).

الوضوء رؤيا صالحة أحب إلى من كذا وكذا(١)، ومما عبره ﷺ من الرؤى ما يلى: عن ابن عباس رضى الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله فقال: إنى رأيت الليلة فى المنام ظلّة تنطف السمن و العسل، فأرى الناس يتكففون منها، فالمستكثر والمستقلُّ، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وُصِلَ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، بأبى أنت، والله لَتَدَعَنِّى فأُعَبِّرَهما، فقال النبى ﷺ: «اعبرها» قال: أما الظلة فالإسلام، وأما الذى ينطف من العسل والسمن فالقرآن، حلاوته تنطف فالمستكثر من القرآن، والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذى أنت عليه، تأخذ به فيُعليك الله، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ رجل آخر فيعلو به فأخبرنى يا رسول الله، بأبى أنت، أصبت أم أخطأت؟ قال النبى ﷺ: «**أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً**». قال: فو الله لَتُحَدِّثَنِّى بالذى أخطأت. قال: «**لاتُقسم**»(٢).

وعن عائشة رضى الله عنها أنها رأت كأنه وقع فى بيتها ثلاثة أقمار، فقصتها على أبى بكر – وكان من أعبر الناس – فقال: إن صدقت رؤياك لَيُدْفَنَنَّ فى بيتك من خير أهل الأرض ثلاثة. فلما قبض النبى ﷺ قال: «يا عائشة هذا خيرُ أقمارك»(٣). فقد كان الصديق رضى الله عنه أعبر هذه الأمة بعد نبيها(٤).

ومع كونه رضى الله عنه من أعلم الصحابة إلا أنه من أبعد الناس عن التكلف، فعن إبراهيم النخعى قال: قرأ أبو بكر الصديق ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] فقيل: ما الأب؟ فقيل: كذا وكذا، فقال أبو بكر: إن هذا لهو التكلف، أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم(٥).

٣- دعاؤه وشدة تضرعه :

إن الدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات وانهالت عليه البركات،

---

(١) خطب أبى بكر الصديق، محمد عاشور، جمال الكومى، ص ١٥٥.

(٢) البخارى، كتاب التعبير، رقم (٧٠٤٦).

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ١٢٩.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٥) فتح البارى (١٣ / ٢٨٥) فيه انقطاع بين إبراهيم النخعى وأبى بكر.

ولذلك حرص الصديق على حسن الصلة بالله وكثرة الدعاء، كما أن الدعاء من أعظم وأقوى عوامل النصر على الأعداء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولقد لازم الصديق رسول الله ﷺ ورأى كيف كان رسول الله يستغيث بالله ويستنصره ويطلب المدد منه، وقد حرص الصديق على أن يتعلم هذه العبادة من رسول الله، وأن يكون دعاؤه وتسبيحه على الصيغة التي يأمر بها رسول الله ﷺ، ويرتضيها، إذ ليس للمسلم أن يفضل على الصيغة المأثورة في الدعاء والتسبيح والصلاة على النبي صيغًا أخرى، مهما كانت في ظاهرها حسنة اللفظ، جيدة المعنى، لأن رسول الله ﷺ هو معلم الخير، والهادي إلى الصراط المستقيم، وهو أعرف بالأفضل والأكمل(١)، وقد جاء في الصحيحين: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»(٢).

ففي هذا الدعاء وصف العبد لنفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة، وفيه وصف ربه الذي يوجب، أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه، وفيه بيان المقتضي للإجابة، وهو وصف الرب بالمغفرة، والرحمة، فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب(٣).

وجاء في السنن عن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت، فقال: «**قل: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن اقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك**»(٤).

---

(١) أبو بكر الصديق ، علي طنطاوي، ص ٢٠٧.

(٢) مسلم، الذكر والدعاء رقم (٢٧٠٥) البخاري رقم (٨٤٣).

(٣) الفتاوى (٩/١٤٦).

(٤) أبو داود في الأدب رقم (٥٠٦٧)؛ الترمذي في الدعوات رقم (٣٥٢٩).

فقد تعلم الصديق من رسول الله ﷺ أنه ليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب، بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائمًا قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣] فالإنسان ظالم جاهل وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم. وثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «لن يدخل الجنة أحد بعمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته»(١). وهذا لا ينافى قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. فإن الرسول نفى باء المقابلة والمعادلة والقرآن أثبت باء السبب، وقول من قال: إذا أحب الله عبداً لم تضره الذنوب، معناه: أنه إذا أحب عبدا ألهمه التوبة و الاستغفار فلم يصر على الذنوب، ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة، وإجماع السلف والأئمة، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره(٢).

كان أبو بكر دائم الذكر لله تعالى شديد التضرع كثير التوجه لله، لا ينفك عن الدعاء فى كل أحيانه، وقد نقل إلينا بعض أدعيته وتضرعاته ومنها:

أ – أسألك تمام النعمة فى الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى، وبعد الرضا، والخيرة فى جميع ما تكون إليه الخِيَرَةُ، بجميع ميسور الأمور كلها، لا بمعسورها يا كريم(٣).

ب – وكان يقول فى دعائه: اللهم إنى أسألك الذى هو خير لى فى عاقبة الخير، اللهم اجعل آخر ما تعطينى من الخير رضوانك والدرجات العُلى من جنات النعيم(٤).

---

(١) البخارى فى الرقاق رقم (٦٤٦٣).

(٢) الفتاوى (١١/١٤٢).

(٣) الشكر لابن أبى الدنيا رقم ١٠٩ نقلاً عن خطب أبى بكر، ص ٣٩.

(٤) خطب أبى بكر الصديق، ص ١٣٩.

ج - وكان يقول فى دعائه: اللهم اجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاك(١).

د - وكان إذا سمع أحداً يمدحه من الناس يقول: اللهم أنت أعلم بى من نفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم، اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون(٢).

هذه بعض أهم صفاته وشيء من فضائله مررنا عليها بالإيجاز، وسوف نرى أثر التربية النبوية على الصديق بعد وفاة النبى ﷺ، وكيف قام مقاماً لم يقمه غيره بفضل الله وتوفيقه، ثم تربيته العميقة وإيمانه العظيم وعلمه الراسخ وتتلمذه على يدى رسول الله ﷺ ، فقد أحسن الجندية وقطع مراحلها وأشواطها برفقة قائده العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام، فلما أصبح خليفة للأمة استطاع أن يقود سفينة الإسلام إلى شاطئ الأمان، رغم العواصف الشديدة، والأمواج المتلاطمة، والفتن المظلمة.

* * *

(١) كنز العمال رقم (٥٠٣٠) نقلاً عن خطب أبى بكر، ص ٣٩.

(٢) أسد الغابة (٣/٣٢٤).

الفصل الثانى

وفاة الرسول ﷺ، وسقيفة بنى ساعدة، وجيش أسامة

المبحث الأول

وفاة الرسول وسقيفة بنى ساعدة

أولاً: وفاة الرسول ﷺ:

إن الأرواح الشفافة الصافية لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حجب الغيب بقدرة الله تعالى، والقلوب الطاهرة المطمئنة لتحدِّث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزمان، والعقول الذكية المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات وتلميحات، ولنبينا محمد ﷺ من هذه الصفات الحظ الأوفر، وهو منها بالمحل الأرفع الذى لا يسامى ولا يطاول[١]. ولقد جاءت بعض الآيات القرآنية مؤكدة على حقيقة بشرية النبى ﷺ، وأنه كغيره من البشر، سوف يذوق الموت ويعانى سكراته كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء، ولقد فهم ﷺ من بعض الآيات اقتراب أجله، وقد أشار ﷺ فى طائفة من الأحاديث الصحيحة إلى اقتراب وفاته، منها ما هو صريح الدلالة على الوفاة ومنها ما ليس كذلك، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الآحاد من كبار الصحابة الأجلاء كأبى بكر والعباس ومعاذ رضى الله عنهم[٢].

مرض الرسول ﷺ وبدء الشكوى:

رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع فى ذى الحجة، فأقام بالمدينة بقيته والمحرم وصفراً، من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش أسامة وأمَّرَ عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجهز الناس وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان أسامة ابن زيد ابن ثمانى عشرة سنة، وتكلم البعض فى تأميره وهو مولى وصغير السن على كبار المهاجرين والأنصار، فلم يقبل الرسول ﷺ طعنهم فى إمارة أسامة[٣]، فقال

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/٥٨٧).

(٢) انظر: مرض النبى ووفاته، خالد أبو صالح، ص ٣٣.

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٥٢).

ﷺ : «إن يطعنوا في إمارته فقد طعنوا في إمارة أبيه وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان من أحبَّ الناس إليَّ، وإن ابنه هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده»[1]، وبينما الناس يستعدون للجهاد في جيش أسامة ابتدى رسول الله ﷺ شكواه الذى قُبض فيه، وقد حدثت حوادث ما بين مرضه ووفاته منها: زيارته قتلى أحد وصلاته عليهم[2]، واستئذانه أن يمرض في بيت عائشة، وشدة المرض الذى نزل به[3]، وأوصى ﷺ بإخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد[4]، ونهى عن اتخاذ قبره مسجداً[5]، وأوصى بإحسان الظن بالله[6]، وأوصى بالصلاة وما ملكت أيمانكم[7]، وبين بأنه لم يبقَ من مبشرات النبوة إلا الرؤيا[8]، وأوصى بالأنصار خيرًا[9]، وخطب ﷺ في أيام مرضه فقال: «إن الله خيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ذلك العبد ما عند الله»، فبكى أبو بكر فقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: فعجبنا لبكائه أن يخبر الرسول ﷺ عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّر وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله ﷺ : «إن أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبى بكر»[10].

قال الحافظ ابن حجر: وكأن أبا بكر رضى الله عنه فهم الرمز الذى أشار به النبى ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته فاستشعر منه أنه أراد نفسه فلذلك بكى[11]، ولما اشتد المرض بالنبى ﷺ وحضرته الصلاة فأذن بلال قال النبى ﷺ «مروا أبا بكر فَلْيُصَلِّ» فقيل: إن أبا بكر رجل أسيف[12]، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلى بالناس، وأعاد

---

(١) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى رقم (٤٤٦٩).

(٢) البخارى، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد رقم (١٣٤٤).

(٣) صحيح السيرة النبوية، (ص ٦٩٥).

(٤) البخارى، كتاب الجهاد والسير رقم (٣٠٣٥).

(٥) صحيح السيرة النبوية، ص ٧١٢؛ البخارى، كتاب الصلاة رقم (٤٣٥).

(٦) مسلم، كتاب الجنة رقم (٢٨٨).

(٧) سنن ابن ماجة، كتاب الوصايا (٢/ ٩٠٠، ٩٠١) رقم (٢٦٩٧).

(٨) مسلم، كتاب الصلاة (١/ ٣٤٨).

(٩) البخارى، كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٩٩).

(١٠) البخارى، كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٦٥٤).

(١١) فتح البارى (٧/ ١٦).

(١٢) أسيف: من الأسف وهو شدة الحزن والمراد أنه رقيق القلب.

فأعادوا له، فأعاد الثالثة فقال: «إنكن صواحب يوسف[١]، مروا أبا بكر فليصل». فخرج أبو بكر فوجد النبى ﷺ فى نفسه خفَّة فخرج يهادى بين رجلين، كأنى أنظر إلى رجليه تخطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبى ﷺ أن مكانك، ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه، قيل للأعمش: فكان النبى ﷺ يصلى وأبو بكر يصلى بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبى بكر! فقال برأسه: نعم[٢]، واستمر أبو بكر يصلى بالمسلمين، حتى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوف فى صلاة الفجر، كشف النبى ﷺ ستر الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوف أمام ربهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده، وكيف نشأت أمة تحافظ على الصلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيها وغيبته، وقد قرت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النجاح الذى لم يقدر لنبى أو داع قبله، واطمأن أن صلة هذه الأمة بهذا الدين وعبادة الله تعالى، صلة دائمة، لا تقطعها وفاة نبيها، فملىء من السرور ما الله به عليم واستنار وجهه وهو منير[٣]، يقول الصحابة رضى الله عنهم: كشف النبى ﷺ ستر حجرة عائشة ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح، وظننا أن النبى ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا أن أتموا صلاتكم، ودخل الحجرة، وأرخى الستر[٤]، وانصرف بعض الصحابة إلى أعمالهم، ودخل أبو بكر على ابنته عائشة وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة - إحدى زوجتيه - وكانت تسكن بالسُّنْح[٥]، فركب على فرسه وذهب إلى منزله[٦].

واشتدت سكرات الموت بالنبى ﷺ، ودخل عليه أسامة بن زيد وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة، فعرف أنه يدعو له، وأخذت السيدة عائشة رسول الله وأوسدته إلى صدرها بين سحره[٧]، ونحرها، فدخل عبدالرحمن بن أبى بكر وبيده سواك، فجعل رسول الله ينظر إليه، فقالت عائشة: آخذه

---

(١) والمراد: أنهن مثل صواحب يوسف فى إظهار خلاف ما فى الباطن.

(٢) البخارى، كتاب الأذان رقم (٧١٢).

(٣) السيرة النبوية للندوى، (ص ٤٠١).

(٤) البخارى، كتاب المغازى رقم (٤٤٤٨).

(٥) السنح: خارج المدينة كان للصديق مال فيه وبيت.

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبى شهبة (٢/٥٩٣).

(٧) السحر: الرئة، النحر: الثغرة فى أسفل العنق.

لك، فأشار برأسه نعم، فأخذته من أخيها ثم مضغته ولينته وناولته إياه فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك وكل ذلك وهو لا ينفك عن قوله: «**فى الرفيق الأعلى**»[١]، وكان ﷺ بجانبه ركوة ماء أو علبة فيها ماء، فيمسح بها وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله.. إن للموت سكرات**»، ثم نصب يده فجعل يقول: «**فى الرفيق الأعلى**» حتى قبض ومالت يده[٢]، وفى لفظ أن النبى ﷺ كان يقول: «**اللهم أعنى على سكرات الموت**»[٣].

وفى رواية: أن عائشة سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند الظهر يقول: «**اللهم اغفر لى، وارحمنى وألحقنى بالرفيق الأعلى**»[٤].

وقد ورد أن فاطمة رضى الله عنها قالت: واكرب أباه، فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**»، فلما مات قالت: يا أبتاه.. أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه.. جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه.. إلى جبريل ننعاه، فلما دفن ﷺ قالت لأنس، كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب[٥].

فارق رسول الله الدنيا وهو يحكم جزيرة العرب ويرهبه ملوك الدنيا، ويفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم، وما ترك عند موته ديناراً ولا درهمًا، ولا عبداً، ولا أمة، ولا شيئًا، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه وأرضًا جعلها صدقة[٦] وتوفى ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعًا من شعير[٧]، وكان ذلك يوم الإثنين فى الثانى عشر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة بعد الزوال[٨]، وله ثلاث وستون سنة[٩]، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة ومصابًا على المسلمين، ومحنة كبرى للبشرية، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس[١٠]، يقول أنس رضى الله عنه: كان اليوم الذى

---

(١) البخارى، كتاب المغازى رقم (٤٤٣٧).
(٢) نفس المصدر السابق رقم (٤٤٤٩).
(٣) الترمذى كتاب الجنائز رقم (٩٧٨).
(٤) البخارى، كتاب المغازى رقم (٤٤٤٠).
(٥) البخارى، كتاب المغازى رقم (٤٤٦٢).
(٦) نفس المصدر السابق رقم (٤٤٦١).
(٧) السيرة النبوية للندوى، (ص٤٠٣).
(٨) البداية والنهاية (٤/ ٢٢٣).
(٩) مسلم، كتاب الفضائل (٤/ ٨٢٥).
(١٠) انظر: السيرة النبوية للندوى، (ص٤٠٤).

قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان الذى مات فيه أظلم منها كل شيء[(١)]، وبكت أم أيمن فقيل لها: ما يبكيك على النبى؟ قالت: إنى قد علمت أن رسول الله ﷺ سيموت ولكن إنما أبكى على الوحى الذى رفع عنا[(٢)].

ثانيًا: هول الفاجعة وموقف أبى بكر منها:

قال ابن رجب: ولما توفى رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهش فخولط ومنهم من أقعد فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتُقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية[(٣)].

قال القرطبى مبينًا عظم هذه المصيبة وما ترتب عليها من أمور: من أعظم المصائب المصيبة فى الدين.. قال رسول الله ﷺ: «**إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بى فإنها أعظم المصائب**»[(٤)]، وصدق رسول الله ﷺ، لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة، انقطع الوحى، وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه[(٥)].

وقال ابن اسحاق: ولما توفى رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة فيما بلغنى تقول: لما توفى النبى ﷺ ارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم[(٦)].

وقال القاضى أبو بكر بن العربى: ... واضطربت الحال.. فكان موت النبى ﷺ قاصمة الظهر، ومصيبة العمر، فأما على فاستخفى فى بيت فاطمة، وأما عثمان فسكت، وأما عمر فأهجر وقال: ما مات رسول الله وإنما واعده ربه كما واعد موسى، وليرجعن رسول الله، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم[(٧)]، ولما سمع أبو بكر الخبر أقبل

---

(١) الترمذى (٥/٥٤٩) رقم (٣٦١٨).

(٢) مسلم (٤/١٩٠٧).

(٣) لطائف المعارف، ص١١٤.

(٤) السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (١١٠٦).

(٥) تفسير القرطبى (٢/١٧٦).

(٦) ابن هشام (٤/٣٢٣).

(٧) العواصم من القواصم، (ص٣٨).

على فرس من مسكنه بالسُّنح، حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلِّم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمَّم رسول الله ﷺ وهو مُغشًّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمى، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها[١]، وخرج أبو بكر وعمر يتكلم فقال: اجلس يا عمر، وهو ماضٍ فى كلامه، وفى ثورة غضبه، فقام أبو بكر فى الناس خطيبًا بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

أما بعد: فإن من كان يعبد محمدا فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فنشج الناس يبكون[٢].

قال عمر: فو الله ما إن سمعت أبا بكر تلاها، فهويت إلى الأرض ما تحملنى قدماى، وعلمت أن رسول الله قد مات[٣]، قال القرطبى: هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراءته، فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبى ﷺ، فظهرت شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى على، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنح[٤].

وبهذه الكلمات القلائل، واستشهاد الصديق بالقرآن الكريم خرج الناس من ذهولهم وحيرتهم ورجعوا إلى الفهم الصحيح رجوعًا جميلاً، فالله هو الحى وحده الذى لا يموت، وأنه وحده الذى يستحق العبادة، وأن الإسلام باق بعد موت محمد ﷺ[٥]، كما جاء فى رواية من قول الصديق: إن دين الله قائم، وإن كلمة الله تامة، وإن الله ناصر من نصره، ومعز دينه، وإن كتاب الله بين أظهرنا، وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمداً ﷺ وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نبالى من أجلب علينا من خلق الله، إن

(١) البخارى، كتاب المغازى رقم (٤٤٥٢).
(٢) البخارى، كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٦٦٨).
(٣) البخارى، كتاب المغازى رقم (٤٤٥٤).
(٤) تفسير القرطبى (٤/ ٢٢).
(٥) استخلاف أبو بكر الصديق، جمال عبدالهادى، ص ١٦٠.

سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدنَّ من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله، فلا يبغين أحد إلا على نفسه[1].

كان موت محمد ﷺ مصيبة عظيمة، وابتلاءً شديداً، ومن خلالها وبعدها ظهرت شخصية الصديق كقائد للأمة فذ لا نظير له ولا مثيل[2]، فقد أشرق اليقين فى قلبه وتجلى ذلك فى رسوخ الحقائق فيه، فعرف حقيقة العبودية والنبوة والموت، وفى ذلك الموقف العصيب ظهرت حكمته رضى الله عنه، فانحاز بالناس إلى التوحيد (من كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت) وما زال التوحيد فى قلوبهم غضًا طريًا، فما أن سمعوا تذكير الصديق لهم حتى رجعوا إلى الحق[3]. تقول عائشة رضى الله عنها: فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر رضى الله عنه، فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها[4].

ثالثاً: سقيفة بنى ساعدة:

لما علم الصحابة رضى الله عنهم بوفاة رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة فى اليوم نفسه، وهو يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وتداولوا الأمر بينهم فى اختيار من يلى الخلافة من بعده[5].

والتف الأنصار حول زعيم الخزرج سعد بن عبادة رضى الله عنه، ولما بلغ خبر اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة إلى المهاجرين، وهم مجتمعون مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه لترشيح من يتولى الخلافة[6]، قال المهاجرون لبعضهم: انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار، فإن لهم فى هذا الحق نصيباً[7]، قال عمر رضى الله عنه: فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان، فذكر ما تمالأ عليه القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٧/٢١٨).
(٢) أبو بكر رجل الدولة، مجدى حمدى، ص (٢٥، ٢٦).
(٣) استخلاف أبى بكر الصديق، ص ١٦٠.
(٤) البخارى، كتاب الجنائز رقم (١٢٤١، ١٢٤٢).
(٥) التاريخ الإسلامى (٩/ ٢١).
(٦، ٧) عصر الخلافة الراشدة للعمرى، ص ٤٠.

اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينَّهم[1]، فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة، فقلت: ماله؟ قالوا: يُوعَك. فلما جلسنا قليلاً تشهَّد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم - معشر المهاجرين - رهط، وقد دفت دافة من قومكم[2]، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر[3]، فلما سكت أردت أن أتكلم - وكنت قد زوَّرتُ مقالة أعجبتنى أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر - وكنت أدارى منه بعض الحدِّ، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم منى وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قال فى بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت، فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحىِّ من قريش، هم أوسط العرب نسبًا وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم - فأخذ بيدى ويد أبى عُبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا - فلم أكره مما قال غيرها، والله أن أقدَّم فتضرب عنقى لا يُقربنى ذلك من إثم أحب إلىَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تُسَوِّل إلىَّ نفسى عند الموت شيئًا لا أجده الآن.

فقال قائل من الأنصار: أنا جُذيلها المحكَّك، وعُذيقُها المرجَّب[4]، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار[5].

وفى رواية أحمد: ..... فتكلم أبو بكر رضى الله عنه فلم يترك شيئًا أنزل فى الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا وذكره، وقال: ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: «**لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا سلكت وادى الأنصار**»، ولقد علمت يا سعد[6] أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: «**قريش ولاة هذا الأمر فَبَرُّ الناس**

---

(١) الرجلان هما: عويم بن ساعدة، معن بن عدى رضى الله عنهما.

(٢) أى: عدد قليل.

(٣) أى: يخرجوننا من أمر الخلافة.

(٤) الجُذَيْل: عود ينصب للإبل الجربى لتحتك به، والمحكك: الذى يحتك به كثيرًا، اراد: أنه يستشفى برأيه، والعذيق: النخلة أى: الذى يعتمد عليه.

(٥) البخارى، كتاب الحدود رقم (٦٨٣٠).

(٦) يعنى سعد بن عبادة الخزرجى رضى الله عنه.

تبع لبـرِّهـم، وفـاجـر الناس تبع لفـاجـرهم»، قال: فـقـال له سـعـد: صـدقـت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء[1].

رابعًا: أهم الدروس والعبر والفوائد فى هذه الحادثة.

١- الصديق وتعامله مع النفوس وقدرته على الإقناع:

من رواية الإمام أحـمـد يتـضـح لنا كـيف استطاع الصـديق أبو بكر رضى الله عنه أن يدخل إلى نفوس الأنصار فيقنعهم بما رآه هو الحق، من غير أن يُعرِّض المسلمين للفتنة، فأثنى على الأنصار ببيان ما جاء فى فضلهم من الكتاب والسنة، والثناء على المخالف منهج إسلامى يقصد منه إنصاف المخالف وامتصاص غضبه وانتزاع بواعث الأثرة والأنانية فى نفسه، ليكون مهيّأ لقبول الحق إذا تبين له، وقد كان فى هدى النبى ﷺ الكثير من الأمثلة التى تدل على ذلك، ثم توصل أبو بكر من ذلك إلى أن فضلهم وإن كان كبيراً لا يعنى أحقيتهم فى الخلافة، لأن النبى ﷺ قد نص على أن المهاجرين من قريش هم المُقدَّمون فى هذا الأمر[2]، وقد ذكر ابن العربى المالكى أن أبا بكر استدل على أن أمر الخلافة فى قريش بوصية رسول الله ﷺ: «**بالأنصار خيراً، وأن يقبلوا من محسنهم ويتجاوزوا عن مسيئهم**»احتج به أبو بكر على الأنصار قوله: إن الله سمانا (الصادقين) وسمَّاكم (المفلحين) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[الحشر: ٨، ٩]، وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[التوبة: ١١٩]، إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة والأدلة القوية، فتذكرت الأنصار ذلك وانقادت إليه[3]، وبيَّن الصديق فى خطابه أن من مؤهلات القوم الذين يرشحون للخلافة أن يكونوا ممن يدين لهم العرب بالسيادة وتستقر بهم الأمور، حتى لا تحدث الفتن فيما إذا تولى غيرهم، وأبان أن العرب

(١) مسند أحمد (١/٥)؛ الخلافة والخلفاء، البهنساوى، ص٥٠.

(٢) التاريخ الإسلامى (٩/٢٤).

(٣) العواصم من القواصم، ص ١٠.

لا يعترفون بالسيادة إلا للمسلمين من قريش، لكون النبى ﷺ منهم، ولما استقر فى أذهان العرب من تعظيمهم واحترامهم.

وبهذه الكلمات النيرة التى قالها الصديق اقتنع الأنصار بأن يكونوا وزراء مُعينين وجنوداً مخلصين، كما كانوا فى عهد النبى ﷺ، وبذلك توحد صف المسلمين(١).

٢ - زهد عمر وأبى بكر رضى الله عنهما فى الخلافة وحرص الجميع على وحدة الأمة:

بعد أن أتمَّ أبو بكر حديثه فى السقيفة قدَّم عمر وأبا عبيدة للخلافة، ولكن عمر كره ذلك وقال فيما بعد: فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقى لا يُقَرِّبنى ذلك من إثم أحب إلى من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر(٢).

وبهذه القناعة من عمر بأحقية أبى بكر بالخلافة قال له: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، قال: فبايعته وبايعه المهاجرون والأنصار. وجاء فى رواية قال عمر: .. يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله قد أمر أبا بكر أن يَؤُمَّ الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضى الله عنه؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر(٣).

وهذا ملحظ مهم وُفِّقَ إليه عمر رضى الله عنه، وقد اهتم بذلك النبى ﷺ فى مرض موته فأصرَّ على إمامة أبى بكر، وهو من باب الإشارة بأنه أحق من غيره بالخلافة، وكلام عمر فى غاية الأدب والتواضع والتجرد من حظ النفس، ولقد ظهر زهد أبى بكر فى الإمارة فى خطبته التى اعتذر فيها من قبول الخلافة حيث قال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوما ولا ليلة قط ولا كنت فيها راغبًا ولا سألتها الله عز وجل فى سرٍّ وعلانية، ولكنى أشفقت من الفتنة، وما لى فى الإمارة من راحة، ولكن قلدت أمراً عظيماً ما لى به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكانى(٤).

وقد ثبت أنه قال: وددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين، أبى عبيدة أو عمر فكان أمير المؤمنين وكنت وزيراً(٥)، وقد تكررت خطب أبى بكر فى الاعتذار عن تولى الخلافة وطلبه بالتنحى عنها، فقد قال: ... أيها الناس هذا

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ٢٤).

(٢) البخارى، كتاب المحاربين رقم (٦٨٣٠).

(٣) مسند أحمد (١/ ٢١) وصحح إسناده أحمد شاكر (١/ ٢١٣) رقم ١٣٣.

(٤) المستدرك (٣/ ٦٦) قال الحاكم: حديث صحيح وأقره الذهبى.

(٥) الأنصار فى العهد الراشدى، حامد محمد الخليفة، ص ١٠٨؛ تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ٩١.

أمركم إليكم تولوا من أحببتم على ذلك، وأكون كأحدكم. فأجابه الناس: رضينا بك قسمًا وحظًا وأنت ثانى اثنين مع رسول الله ﷺ[1]، وقد قام باستبراء نفوس المسلمين من أى معارضة لخلافته واستحلفهم على ذلك فقال: أيها الناس أذكر الله أيما رجل ندم على بيعتى لما قام على رجليه، فقال على بن أبى طالب، ومعه السيف، فدنا منه حتى وضع رِجلاً على عتبة المنبر والأخرى على الحصى وقال: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، قدَّمك رسول الله فمن ذا يؤخرك[2]؟ ولم يكن أبو بكر وحده الزاهد فى أمر الخلافة والمسئولية بل إنها روح العصر. ومن هذه النصوص التى تمَّ ذكرها يمكن القول: إن الحوار الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة لا يخرج عن هذا الاتجاه، بل يؤكد حرص الأنصار على مستقبل الدعوة الإسلامية، واستعدادهم المستمر للتضحية فى سبيلها، فما اطمأنوا على ذلك حتى استجابوا سراعًا لبيعة أبى بكر الذى قبل البيعة لهذه الأسباب، وإلا فإن نظرة الصحابة مخالفة لرؤية الكثير ممن جاء بعدهم ممن خالفوا المنهج العلمى، والدراسة الموضوعية، بل كانت دراستهم متناقضة مع روح ذلك العصر، وآمال وتطلعات أصحاب رسول الله من الأنصار وغيرهم، وإذا كان اجتماع السقيفة أدى إلى انشقاق بين المهاجرين والأنصار كما زعمه بعضهم[3]، فكيف قبل الأنصار بتلك النتيجة وهم أهل الديار وأهل العدد والعدة؟ وكيف انقادوا لخلافة أبى بكر ونفروا فى جيوش الخلافة شرقًا وغربًا مجاهدين لتثبيت أركانها؟ لو لم يكونوا متحمسين لنصرتها[4].

فالصواب اتضح من حرص الأنصار على تنفيذ سياسة الخلافة والاندفاع لمواجهة المرتدين، وأنه لم يتخلف أحد من الأنصار عن بيعة أبى بكر فضلاً عن غيرهم من المسلمين، وأن أخوة المهاجرين والأنصار أكبر من تخيلات الذين سطروا الخلاف بينهم فى رواياتهم[5] المغرضة.

٣ - سعد بن عبادة رضى الله عنه وموقفه من خلافة الصديق:

إن سعد بن عبادة رضى الله عنه قد بايع أبا بكر رضى الله عنه بالخلافة فى أعقاب

(١) الخلافة الراشدة للعمرى، ص١٣.

(٢) الأنصار فى العصر الراشدى، ص ١٠٨.

(٣) انظر: الإسلام وأصول الحكم، محمد عمارة، ص (٧١ - ٧٤).

(٤، ٥) الأنصار فى العصر الراشدى، ص١٠٩.

النقاش الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة، إذ أنه نزل عن مقامه الأول فى دعوى الإمارة وأذعن للصديق بالخلافة، وكان ابن عمه بشير بن سعد الأنصارى أول من بايع الصديق رضى الله عنهم فى اجتماع السقيفة، ولم يثبت النقل الصحيح أية أزمات، لا بسيطة ولا خطيرة، ولم يثبت أى انقسام أو فرق لكل منها مرشح يطمع فى الخلافة كما زعم بعض كتاب التاريخ، ولكن الأخوة الإسلامية ظلت كما هى، بل ازدادت توثقًا كما يثبت ذلك النقل الصحيح، ولم يثبت النقل الصحيح تآمرًا حدث بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة لاحتكار الحكم بعد وفاة رسول الله ﷺ[١]، فهم كانوا أخشى لله وأتقى من أن يفعلوا ذلك.

وقد حاول بعض الكُتَّاب من المؤرخين أصحاب الأهواء أن يجعلوا من سعد بن عبادة رضى الله عنه منافسًا للمهاجرين يسعى للخلافة بشره، ويدبر لها المؤامرات، ويستعمل فى الوصول إليها كل أساليب التفرقة بين المسلمين، هذا الرجل، إذا راجعنا تاريخه وتتبعنا مسلكه، وجدنا مواقفه مع الرسول ﷺ تجعله من الصفوة الأخيار، الذين لم تكن الدنيا أكبر همهم، ولا مبلغ علمهم، فهو النقيب فى بيعة العقبة الثانية، حتى لجأت قريش إلى تعقبه قرب مكة وربطوا يديه إلى عنقه وأدخلوه مكة أسيرًا حتى أنقذه منهم جبير بن مطعم بن عدى، حيث كان يجيرهم فى المدينة وهو من الذين شهدوا بدرًا[٢] وحظى بمقام أهل بدر ومنزلتهم عند الله، وكان من بيت جود وكرم وشهد له ذلك رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يعتمد عليه - بعد الله - وعلى سعد بن معاذ كما فى غزوة الخندق، عندما استشارهم فى إعطاء ثلث ثمار المدينة لعيينة بن حصن الفزارى، فكان رد السَّعْدَيْنِ يدل على عمق الإيمان وكمال التضحية[٣]، فمواقف سعد مشهورة ومعلومة، فهذا الصحابى الجليل صاحب الماضى المجيد فى خدمة الإسلام والصحبة الصادقة لرسول الله لا يعقل ولم يثبت أنه كان يريد أن يُحييَ العصبية الجاهلية فى مؤتمر السقيفة لكى يحصل فى غمار هذه الفرقة على منصب الخلافة، كما أنه لم يثبت ولم يصح ما ورد فى بعض المراجع من أنه - بعد بيعة أبى بكر - كان لا يصلى

---

(١) استخلاف أبي بكر، جمال عبدالهادى، ص (٥٠، ٥١ - ٥٣).

(٢) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب (٢/ ٥٩٤).

(٣) الخلافة والخلفاء الراشدون، سالم البهنساوى، ص٤٨.

بصلاتهم ولا يفيض في الحج بإفاضتهم[١]، كأنما انفصل سعد بن عبادة رضي الله عنه عن جماعة المسلمين[٢]، فهذا باطل ومحض افتراء، فقد ثبت من خلال الروايات الصحيحة أن سعداً بايع أبا بكر، فعندما تكلم أبو بكر يوم السقيفة، فذكر فضل الأنصار وقال: ولقد علمتم أن رسول الله قال: «لو سلك الناس واديًا، وسلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار»[٣]، ثم ذكر سعد بن عبادة بقول فصل وحجة لا ترد فقال: ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: «قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم» قال سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء[٤]، فتتابع القوم على البيعة وبايع سعد[٥]، وبهذا تثبت بيعة سعد بن عبادة، وبها يتحقق إجماع الأنصار على بيعة الخليفة أبي بكر، ولا يعود أي معنى للترويج لرواية باطلة، بل سيكون ذلك مناقضاً للواقع واتهاماً خطيراً، أن ينسب لسيد الأنصار العمل على شق عصا المسلمين، والتنكر لكل ما قدمه من نصرة وجهاد وإيثار للمهاجرين، والطعن بإسلامه من خلال ما ينسب إليه من قول: لا أبايعكم حتى أرميكم بما في كنانتي، وأخضب سنان رمحي، وأضرب بسيفي، فكان لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع بجماعتهم ولا يقضي بقضائهم ولا يفيض بإفاضتهم[٦] أي: في الحج.

إن هذه الرواية التي استغلت للطعن بوحدة المهاجرين والأنصار وصدق أخوتهم، ما هي إلا رواية باطلة للأسباب التالية:

أن الراوي صاحب هوى وهو (إخباري تالف لا يوثق به)[٧] ولا سيما في المسائل الخلافية.

(١، ٢) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٤٩.

(٣) البخاري، كتاب التمني، رقم (٧٢٤٤).

(٤) مسند الإمام أحمد رقم ١٨، صحيح لغيره.

(٥) الأنصار في العصر الراشدي، ص١٠٢.

(٦) تاريخ الطبري (٤/ ٤٢).

(٧) ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي (٣/ ٢٩٩٢) والراوي هو لوط بن يحيى أبو مخنف متروك، ولم يعتد بأي مخنف ويعتبر بروايته ويعتمد عليها سوى الشيعة، فقد كان من أعظم مؤرخي الشيعة على قول ابن القمي. انظر: مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري للدكتور يحيى اليحيى، ص (٤٥، ٤٦).

قال الذهبى عن هذه الرواية: وإسنادها كما ترى[١]، أى: فى غاية الضعف أما متنها فهو يناقض سيرة سعد بن عبادة: وما فى عنقه من بيعة على السمع والطاعة، ولما روى عنه من فضائل[٢].

٤ - ما يروى من خلاف بين عمر والحباب بن المنذر:

أما ما يروى عن تنازع فى السقيفة بين عمر والحباب بن المنذر السلمى الأنصارى، فالراجح أنه غير صحيح، وأن عمر لم يُغضب الحباب بن المنذر منذ عهد رسول الله ﷺ، فقد روى عن عمر قال: فلما كان الحباب بن المنذر هو الذى يجيبنى لم يكن لى معه كلام، لأنه كان بينى وبينه منازعة فى حياة رسول الله ﷺ فنهانى عنه فحلفت أن لا أكلمه كلمة تسؤوه أبداً[٣].

كما أن ما يروى عن الحباب فى هذه المنازعة مخالف لما عُهد عنه من حكمة، ومن حسن تأتيه للأمور، إذ كان يلقب: (بذى الرأى)[٤] فى عهد رسول الله ﷺ وذلك لقبول مشورته فى بدر وخيبر[٥]، وأما قول الحباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير، فقد سوغ ذلك وأوضح أنه لا يقصد بذلك الوصول إلى الإمارة، فقال: فإنا والله ما ننفس عليكم هذا الأمر ولكنا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوانهم[٦]، فقبل المهاجرون قوله وأقروا عذره ولا سيما أنهم شركاء فى دماء من قتل من المشركين[٧].

٥- حديث الأئمة من قريش وموقف الأنصار منه:

ورد حديث «**الأئمة من قريش**» فى الصحيحين، وكتب الحديث الأخرى، بألفاظ متعددة، ففى صحيح البخارى عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله فى النار على وجهه ما أقاموا الدين**»[٨]. وفى صحيح

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٧٧).
(٢) الأنصار فى العصر الراشدى، ص (١٠٢، ١٠٣).
(٣) الأنصار فى العصر الراشدى، ص١٠٠.
(٤) الاستيعاب (١/ ٣١٦).
(٥، ٦، ٧) الأنصار في العصر الراشدى، ص ١٠٠.
(٨) البخارى، كتاب الأحكام رقم (٧١٣٩).

مسلم: «لا يزال الإسلام عزيزا بخلفاء كلهم من قريش»[١]. وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[٢]. وقال رسول الله ﷺ: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم»[٣]. وعن بكير بن وهب الجزري قال: قال لي أنس بن مالك الأنصاري: أحدثك حديثًا ما أحدثه كل أحد، كنا في بيت من الأنصار فجاء النبي ﷺ حتى وقف فأخذ بعضادتي الباب[٤]، فقال: «الأئمة من قريش إن لهم عليكم حقا، ولكم عليهم حقا مثل ذلك، ما إن استرحموا فرحموا، وإن عاهدوا أوفوا، وإن حكموا عدلوا»[٥]. وفي «فتح الباري» أورد ابن حجر أحاديث كثيرة تحت باب: الأمراء من قريش، أسندها إلى كتب السنن والمسانيد والمصنفات[٦]، فالأحاديث في هذا الباب كثيرة لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب الحديث، وقد رويت بألفاظ متعددة، إلا أنها متقاربة، تؤكد جميعها أن الإمرة المشروعة في قريش، ويقصد بالإمرة الخلافة فقط، أما ما سوى ذلك فتساوى فيه جميع المسلمين[٧]، وبمثل ما أوضحت الأحاديث النبوية الشريفة أن أمر الخلافة في قريش، فإنها حذرت من الانقياد الأعمى لهم، وأن هذا الأمر فيهم ما أقاموا الدين كما سلف في حديث معاوية، وكما جاء في حديث أنس: إن استرحموا فرحموا، وإن عاهدوا أوفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[٨]. وبهذا حذرت الأحاديث من اتباع قريش إن زاغوا عن الحكم بما أنزل الله فإن لم يمتثلوا ويطبقوا مثل هذه الشروط، فإنهم سيصبحون خطراً على الأمة، وحذرت الأحاديث الشريفة من اتباعهم على غير ما أنزل الله، ودعت إلى اجتنابهم والبعد عنهم واعتزالهم، لما سيترتب على مؤازرتهم آنذاك من مخاطر على مصير الأمة، قال ﷺ: «إن

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة رقم (١٨٢١).

(٢) البخاري، كتاب الأحكام رقم (٧١٤٠).

(٣) مسلم، كتاب الإمارة رقم (١٨١٨).

(٤) الفتح الرباني للساعاتي، باب الخلافة ج٥ (٢٣/٦٥)؛ ابن أبي شيبة (٥/٥٤٤).

(٥) المصنف لأبي شيبة (٥/٥٤٤).

(٦، ٧) الأنصار في العصر الراشدي، ص ١١١.

(٨) مصنف ابن أبي شيبة (٥/٥٤٤).

هلاك أمتي أو فساد أمتي رؤوس أغيلمة سفهاء من قريش»[١]. وعندما سئل ﷺ : فما تأمرنا؟ قال ﷺ : «لو أن الناس اعتزلوهم»[٢].

ومن هذه النصوص تتضح الصورة لمسألة الأئمة من قريش، وأن الأنصار انقادوا لقريش ضمن هذه الضوابط وعلى هذه الأسس، وهذا ما أكدوه فى بيعاتهم لرسول الله: «على السمع والطاعة، والصبر على الأثرة، وأن لا ينازعوا الأمر أهله، إلا أن يروا كفراً بواحًا عندهم من الله فيه برهان»[٣]. فقد كان للأنصار تصور تام عن مسألة الخلافة، وأنها لم تكن مجهولة عندهم، وأن حديث «الأئمة من قريش» كان يرويه كثير منهم، وأن الذين لا يعلمونه سكتوا عندما رواه لهم أبو بكر الصديق، ولهذا لم يراجعه أحد من الأنصار عندما استشهد به، فأمر الخلافة تم بالتشاور والاحتكام إلى النصوص الشرعية والعقلية التى أثبتت أحقية قريش بها، ولم يسمع عن أحد من الأنصار بعد بيعة السقيفة أنه دعا نفسه بالخلافة، مما يؤكد اقتناع الأنصار وتصديقهم لما تمَّ التوصل إليه من نتائج[٤]، وبهذا يتهافت ويسقط قول من قال: إنّ حديث الأئمة من قريش شعار رفعته قريش لاستلاب الخلافة من الأنصار أو أنه: رأى لأبى بكر وليس حديثًا رواه عن الرسول، وإنما كان فكراً سياسيًا قرشيًا، كان شائعًا فى ذلك العصر، يعكس ثقل قريش فى المجتمع العربى فى ذلك الحين، وعلى هذا فإن نسبة هذه الأحاديث إلى أبى بكر وأنها شعار لقريش، ما هى إلا صورة من صور التشويه التى يتعرض لها تاريخ العصر الراشدى وصدر الإسلام، الذى قام أساسًا على جهود المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، وعلى روابط الأخوة المتينة بين المهاجرين والأنصار، حتى قال فيهم أبو بكر: نحن والأنصار كما قال القائل:

أبَــوْا أن يمـــلـــونـــا ولـــو أن أمـــنـــا ... تلاقى الذين يلقـــون منا لملت[٥]

---

(١) البخارى، كتاب الفتن رقم (٧٠٥٨).

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٦/ ٤٦٤)؛ الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان رقم (٦٧١٣).

(٣) البخارى، كتاب الفتن رقم (٧٠٥٦).

(٤، ٥) الأنصار فى العصر الراشدى، ص ١١٦.

٦- الأحاديث التى أشارت إلى خلافة أبى بكر رضى الله عنه :

الأحاديث النبوية التى جاء التنبيه فيها على خلافة أبى بكر رضى الله عنه كثيرة شهيرة متواترة ظاهرة الدلالة، إما على وجه التصريح أو الإشارة، ولاشتهارها وتواترها صارت معلومة من الدين بالضرورة بحيث لا يسع أهل البدعة إنكارها(١)، ومن تلك الأحاديث :

(أ) عن جبير بن مطعم قال : أتت امرأة النبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت : أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت - قال ﷺ :«**إن لم تجدينى فأتى أبا بكر**» (٢).

قال ابن حجر: وفى الحديث أن مواعيد النبى ﷺ كانت على من يتولى الخلافة بعده تنجيزها، وفيه رد على الشيعة فى زعمهم أنه نص على استخلاف على والعباس(٣).

(ب) عن حذيفة قال : كنا عند النبى ﷺ جلوسًا فقال :«**إنى لا أدرى ما قدر بقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى وأشار إلى أبى بكر وعمر، وتمسكوا بعهد عمار وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه**» (٤).

فقوله ﷺ :«**اقتدوا باللذين من بعدى**» أى : بالخليفتين اللذين يقومان من بعدى وهما أبو بكر وعمر، وحث على الاقتداء بهما لحسن سيرتهما وصدق سريرتهما، وفى الحديث إشارة لأمر الخلافة(٥).

(جـ) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال :«**بينما أنا نائم أريت أنى أنزع على حوضى أسقى الناس فجاءنى أبو بكر فأخذ الدلو من يدى ليروحنى فنزع الدلوين وفى نزعه ضعف والله يغفر له، فجاء ابن الخطاب فأخذ منه فلم أر نزع رجل قط أقوى منه حتى تولى الناس والحوض ملآن يتفجر**» (٦).

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة (٢/ ٥٣٩).

(٢) مسلم (٤/ ١٨٥٦، ١٨٥٧)؛ البخارى رقم (٣٦٥٩).

(٣) فتح البارى (٧/ ٢٤).

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى (٣/ ٢٣٣-٢٣٦).

(٥) تحفة الأحوذى بشرح الترمذى (١٠/ ١٤٧).

(٦) مسلم (٤/ ١٨٦١، ١٨٦٢).

قال الشافعي رحمه الله: رؤيا الأنبياء وحي وقوله: وفي نزعه ضعف قصر مدته وعجلة موته وشغله بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والتزيد الذي بلغه عمر في طول مدته[١].

(د) قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكر، وأخاك حتى أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنَّى متمنٍ ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[٢].

دل هذا الحديث دلالة واضحة على فضل الصديق رضي الله عنه، حيث أخبر النبي ﷺ بما سيقع في المستقبل بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، وأن المسلمين يأبون عقد الخلافة لغيره رضي الله عنه، وفي الحديث إشارة أنه سيحصل نزاع، ووقع كل ذلك كما أخبر عليه الصلاة والسلام، ثم اجتمعوا على أبي بكر رضي الله عنه[٣].

(هـ) عن عبيد الله بن عبد الله قال: دخلت على عائشة فقلت لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، ثقُل النبي ﷺ فقال: «أصلى الناس؟». قلنا: لا وهم ينتظرونك يا رسول الله!. قال: «ضعوا لي ماءً في المِخضَب»[٤]. ففعلنا فاغتسل ثم ذهب لينوء[٥]، فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناسُ؟». قلنا: لا وهم ينتظرونك يا رسول الله! فقال: «ضعوا لي ماء في المخضب». ففعلنا فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟». قلنا: لا وهم ينتظرونك يا رسول الله! قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يصلي بالناس فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر، وكان رجلاً رقيقًا: يا عمر صلِّ بالناس قال: فقال عمر: أنت أحق بذلك، قالت: فصلى بهم أبو بكر تلك الأيام، ثم إن رسول الله ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن لا يتأخر، وقال لهما: «أجلساني إلى جنبه». فأجلساه إلى جنب أبي بكر وكان أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ

(١) الاعتقاد للبيهقي، ص ١٧١.

(٢) مسلم (٤/١٨٥٧).

(٣) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/٥٤٢).

(٤) المخضب: هي إجانة تغسل فيها الثياب.

(٥) ينوء: أي: يقوم وينهض (شرح النووي، ٤/١٣٦).

والناس يصلون بصلاة أبى بكر والنبى ﷺ قاعد. قال عبيد الله: فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدثتنى عائشة عن مرض رسول الله ﷺ فقال: هات، فعرضت حديثها عليه فما أنكر منه شيئًا غير أنه قال: أسمَّت لك الرجل الذى كان مع العباس؟ قلت: لا، قال: هو علىٌّ(١).

هذا الحديث اشتمل على فوائد عظيمة منها: فضيلة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وترجيحه على جميع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وتفضيله، وتنبيه على أنه أحق بخلافة رسول الله ﷺ من غيره، ومنها أن الإمام إذا عرض له عذر عن حضور الجماعة استخلف من يصلى بهم، وأنه لا يستخلف إلا أفضلهم، ومنها فضيلة عمر بعد أبى بكر رضى الله عنه، لأن أبا بكر رضى الله عنه لم يعدل إلى غيره(٢).

(و) قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، قال: فأتاهم عمر رضى الله عنه فقال: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضى الله عنه؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر(٣).

(ز) روى ابن سعد بإسناده إلى الحسن قال: قال على: لما قبض النبى ﷺ نظرنا فى أمرنا فوجدنا النبى ﷺ قد قدم أبا بكر فى الصلاة فرضينا لدنيانا من رضى رسول الله ﷺ لديننا، فقدمنا أبا بكر(٤).

وقد علق أبو الحسن الأشعرى على تقديم رسول الله ﷺ لأبى بكر فى الصلاة فقال: وتقديمه له أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام. قال: وتقديمه له دليل على أنه أعلم الصحابة وأقرؤهم لما ثبت فى الخبر المتفق على صحته بين العلماء أن رسول الله ﷺ قال: **«يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنَّة، فإن كانوا فى السنَّة سواء فأكبرهم سنًا، فإن كانوا فى السن سواء فأقدمهم إسلامًا»** – قال ابن كثير –

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة (٢/ ٥٤٢). مسلم رقم (٤١٨)؛ البخارى رقم (٦٨٧).
(٢) شرح النووى (٤/ ١٣٧).
(٣) المستدرك (٣/ ٦٧).
(٤) الطبقات لابن سعد (٣/ ١٨٣).

وهذا من كلام الأشعرى رحمه الله مما ينبغى أن يكتب بماء الذهب، ثم قد اجتمعت هذه الصفات كلها فى الصديق رضى الله عنه وأرضاه[١].

هذا ولأهل السنَّة قولان فى إمامة أبى بكر رضى الله عنه من حيث الإشارة إليها بالنص الخفى أو الجلى، فمنهم من قال: إن إمامة أبى بكر رضى الله عنه ثابتة بالنص الخفى والإشارة، وهذا القول ينسب إلى الحسن البصرى رحمه الله تعالى وجماعة من أهل الحديث[٢]، وهو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل[٣]، رحمة الله عليه، واستدل أصحاب هذا القول بتقديم النبى ﷺ له فى الصلاة وبأمره ﷺ بسد الأبواب إلا باب أبى بكر، ومنهم من قال: إن خلافة أبى بكر رضى الله عنه ثابتة بالنص الجلى وهذا قول طائفة من أهل الحديث[٤]، وبه قال أبو محمد بن حزم الظاهرى[٥]، واستدل هذا الفريق بحديث المرأة التى قال لها: «**إن لم تجدينى فأتى أبا بكر**»[٦]. وبقوله لعائشة رضى الله عنها: «**ادعى لى أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابًا فإنى أخاف أن يتمنى متمنٍ ويقول قائل: أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»[٧]. وحديث رؤياه ﷺ أنه على حوض يسقى الناس فجاء أبو بكر فنزع الدلو من يده ليروحه[٨].

والذى أميل إليه ويظهر لى من خلال البحث: أن المصطفى ﷺ يأمر المسلمين بأن يكون الخليفة عليهم من بعده أبا بكر رضى الله عنه، وإنما دلهم عليها لإعلام الله سبحانه وتعالى له بأن المسلمين سيختارونه لما له من الفضائل العالية التى ورد بها القرآن والسنَّة وفاق بها غيره من جميع الأمة المحمدية رضى الله عنه وأرضاه[٩].

قال ابن تيمية رحمه الله: والتحقيق أن النبى ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبى بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار رضىً بذلك

---

(١) البداية والنهاية (٥/٢٦٥).

(٢) منهاج السنة لابن تيمية (١/١٣٤، ١٣٥).

(٣) نفس المصدر السابق (١/١٣٤).

(٤) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة (٢/٥٤٧).

(٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/١٠٧).

(٦) مسلم (٤/١٨٥٦، ١٨٥٧).

(٧) مسلم (٤/١٨٥٧) حديث رقم (٢٣٨٧).

(٨) مسلم (٤/١٨٦١، ١٨٦٢).

(٩) عقيدة أهل السنة والجماعة (٢/٥٤٨).

حامد له وعزم على أن يكتب بذلك عهداً، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك . . . فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه رسول الله ﷺ بيانًا قاطعًا للعذر، ولكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر هو المتعين وفهموا ذلك حصل المقصود، ولهذا قال عمر بن الخطاب فى خطبته التى خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر . . . إلى أن قال: فخلافة أبى بكر الصديق دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا الله ورسوله ﷺ له بها، وانعقدت بمبايعة المسلمين له واختيارهم إياه اختياراً استندوا فيه إلى ما عملوه من تفضيل الله ورسوله، فصارت ثابتة بالنص والإجماع جميعًا، لكن النص دل على رضا الله ورسوله بها وأنها حق وأن الله أمر بها وقدرها، وأن المؤمنين يختارونها وكان هذا أبلغ من مجرد العهد بها، لأنه حينئذ كان يكون طريق ثبوتها مجرد العهد، وأما إذا كان المسلمون قد اختاروه من غير عهد ودلت النصوص على صوابهم فيما فعلوه ورضا الله ورسوله بذلك، كان ذلك دليلاً على أن الصديق كان فيه من الفضائل التى بان بها عن غيره ما علم المسلمون به أنه أحقهم بالخلافة فإن ذلك لا يحتاج فيه إلى عهد خاص[١].

٧- انعقاد الإجماع على خلافة الصديق رضى الله عنه:

أجمع أهل السنَّة والجماعة سلفًا وخلفًا عل أن أحق الناس بالخلافة بعد النبى ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه، لفضله وسابقته ولتقديم النبى ﷺ إياه فى الصلوات على جميع الصحابة، وقد فهم أصحاب النبى ﷺ مراد المصطفى عليه الصلاة والسلام من تقديمه فى الصلاة، فأجمعوا على تقديمه فى الخلافة ومتابعته ولم يتخلف منهم أحد، ولم يكن الرب جل وعلا ليجمعهم على ضلالة، فبايعوه طائعين وكانوا لأوامره ممتثلين ولم يعارض أحد فى تقديمه[٢]، فعندما سُئل سعيد بن زيد: متى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة[٣]، وقد نقل جماعة من أهل العلم المعتبرين إجماع الصحابة ومن جاء بعدهم من أهل السنَّة والجماعة على أن أبا بكر رضى الله عنه أولى بالخلافة من كل أحد[٤]. وهذه بعض أقوال أهل العلم:

---

(١) منهاج السنة (١/١٣٩-١٤١)؛ مجموع الفتاوى (٣٥/٤٧-٤٩).
(٢) عقيدة أهل السنة فى الصحابة (٢/٥٥٠).
(٣) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم شعوط، ص ١٠١.
(٤) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة (٢/٥٥٠).

(أ) قال الخطيب البغدادى - رحمه الله -: أجمع المهاجرون والأنصار على خلافة أبى بكر قالوا له: يا خليفة رسول الله ولم يسم أحد بعده خليفة، وقيل: إنه قبض النبى ﷺ عن ثلاثين ألف مسلم كل قال لأبى بكر: يا خليفة رسول الله ورضوا به من بعده رضى الله عنهم(١).

(ب) وقال أبو الحسن الأشعرى: أثنى الله - عز وجل - على المهاجرين والأنصار والسابقين إلى الإسلام، ونطق القرآن بمدح المهاجرين والأنصار فى مواضع كثيرة وأثنى على أهل بيعة الرضوان، فقال عز وجل: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾ [الفتح: ١٨]. قد أجمع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم ومدحهم على إمامة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وسموه خليفة رسول الله وبايعوه وانقادوا له وأقروا له بالفضل، وكان أفضل الجماعة فى جميع الخصال التى يستحق بها الإمامة من العلم والزهد وقوة الرأى وسياسة الأمة وغير ذلك(٢).

(جـ) وقال عبد الملك الجوينى: أما إمامة أبى بكر رضى الله عنه فقد ثبتت بإجماع الصحابة فإنهم أطبقوا على بذل الطاعة والانقياد لحكمه ... وما تخرص به الروافض من إبداء على شراسًا(٣)، وشماسًا(٤) فى عقد البيعة له كذب صريح، نعم لم يكن رضى الله عنه فى السقيفة، وكان مستخليًا بنفسه قد استفزه الحزن على رسول الله ﷺ، ثم دخل فيما دخل الناس فيه وبايع أبا بكر على ملأ من الأشهاد(٥).

(د) وقال أبو بكر الباقلانى فى معرض ذكره للإجماع على خلافة الصديق رضى الله عنه: وكان رضى الله عنه مفروض الطاعة لإجماع المسلمين على طاعته وإمامته وانقيادهم له، حتى قال أمير المؤمنين على عليه السلام مجيبًا لقوله رضى الله عنه لما قال: أقيلونى فلست بخيركم، فقال: لا نقيلك ولا نستقيلك، قدمك رسول الله ﷺ لديننا ألا نرضاك لدنيانا، يعنى بذلك حين قدمه للإمامة فى الصلاة مع حضوره وإستنابته فى

---

(١) تاريخ بغداد (١٠ / ١٣٠، ١٣١).

(٢) الإبانة عن أصول الديانة، ص ٦٦.

(٣) الشراس: شدة المعاملة، مختار الصحاح ص ٣٤٦.

(٤) وشماسًا: أى صعب الخلق. لسان العرب (٦ / ١١١).

(٥) كتاب الإرشاد، ص ٣٦١.

إمارة الحج، فأمرك علينا، وكان رضى الله عنه أفضل الأمة وأرجحهم إيمانًا وأكملهم فهمًا وأوفرهم علمًا(١).

٩- منصب الخلافة والخليفة:

الخلافة الإسلامية هى المنهج الذى اختارته الأمة الإسلامية وأجمعت عليه طريقةً وأسلوبًا للحكم تنظم من خلاله أمورها وترعى مصالحها، وقد ارتبطت نشأة الخلافة بحاجة الأمة لها واقتناعها بها، ومن ثم كان إسراع المسلمين فى اختيار خليفة لرسول الله ﷺ، يقول الإمام أبو الحسن الماوردى: إن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيمًا خلف به النبوة وحاط به الملة، وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأى متبوع، فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة، وانتظمت به مصالح العامة حتى استثبتت به الأمور العامة، وصدرت عنه الولايات الخاصة(٢).

لقد كان على الأمة الإسلامية أن تواجه الموقف الصعب الذى نشأ عن انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وأن تحسم أمورها بسرعة وحكمة وألا تدع مجالاً لانقسام قد يتسرب منه الشك إلى نفوس أفرادها، أو للضعف أن يتسلل إلى أركان البناء الذى شيده رسول الله ﷺ(٣).

ولما كانت الخلافة هى نظام حكم المسلمين، فقد استمدت أصولها من دستور المسلمين، من القرآن الكريم ومن سنَّة النبى ﷺ(٤)، وقد تحدث الفقهاء عن أسس الخلافة الإسلامية فقالوا بالشورى والبيعة وهما - أصلاً - قد أشير إليهما فى القرآن الكريم(٥)، ومنصب الخلافة أحيانًا يطلق عليه لفظ الإمامة أو الإمارة، وقد أجمع المسلمون على وجوب الخلافة، وأن تعيين الخليفة فرض على المسلمين يرعى شئون الأمة ويقيم الحدود ويعمل على نشر الدعوة الإسلامية وعلى حماية الدين والأمة بالجهاد

---

(١) «الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به»، ص ٦٥.

وتجدر الإشارة إليه ان الذى ذكرت فيه النصوص التى فيها الإشارة إلى خلافة الصديق، اختصرتها من الكتاب القيم «عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام» للدكتور ناصر بن عائض حسن الشيخ.

(٢) الأحكام السلطانية، ص ٣.

(٣) عصر الخلفاء الراشدين، د. فتحية النبراوى، ص ٢٢.

(٤، ٥) عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٣.

وعلى تطبيق الشريعة وحماية حقوق الناس ورفع المظالم وتوفير الحاجات الضرورية لكل فرد. وهذا ثابت بالقرآن والسنَّة والإجماع[١].

وقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩].

وقال تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقال ﷺ: «من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له[٢]، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[٣].

وأما الإجماع فالصحابة رضوان الله عليهم لم ينتظروا حتى يتم دفن الرسول ﷺ، وتوافدوا للاتفاق على إمام أو خليفة، وعلل أبو بكر قبول هذه الأمانة وهو خوفه أن تكون فتنة أى من عدم تعيين خليفة للمسلمين[٤]. قال الشهرستانى فى ذلك: ما دار فى قلبه ولا فى قلب أحد أنه يجوز خلو الأرض من إمام. فدل ذلك كله على أن الصحابة وهم الصدر الأول كانوا عن بكرة أبيهم متفقين على أنه لابد من إمام، فذلك الإجماع على هذا الوجه دليل قاطع على وجوب الإمام[٥].

هذا وليس صحيحًا ما يروجه الحاقدون أن الطمع فى الرئاسة سبب الانشغال بالخلافة عن دفن النبى ﷺ[٦].

هذا وقد عرف ابن خلدون الخلافة: هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى

---

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٥٨.

(٢) لا حجة له فى فعله ولا تنفعه.

(٣) مسلم (٣/١٤٧٨) رقم (١٨٥١).

(٤) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٥٩.

(٥) الملل والنحل للشهرستانى (٧/٨٣)؛ نظام الحكم، محمود الخالدى، ص (٢٣٧ - ٢٤٨).

(٦) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٤٩.

اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة هذا الدين وسياسة الدنيا به(١).

وقد تحدث العلامة أبو الحسن الندوى عن شروط خلافة النبى ومتطلباتها، وقد أثبت بالأدلة والحجج من خلال سيرة الصديق بأن أبا بكر كانت شروط خلافة النبى متحققة فيه، ونذكر هذه الشروط بإيجاز وبدون ذكر الشواهد التى ذكرها الندوى وقد بينتها فى هذا الكتاب متناثرة، فأهم هذه الشروط:

(أ) يمتاز بأنه ظل طوال حياته بعد الإسلام متمتعًا بثقة رسول الله ﷺ به وشهادته له، واستخلافه إياه فى القيام ببعض أركان الدين الأساسية، وفى مهمات الأمور، والصحبة فى مناسبات خطرة دقيقة لا يستصحب فيها الإنسان إلا من يثق به كل الثقة، ويعتمد عليه كل الاعتماد.

(ب) يمتاز هذا الفرد بالتماسك والصمود فى وجه الأعاصير والعواصف التى تكاد تعصف بجوهر الدين ولبه، وتحبط مساعى صاحب رسالته، وتنخلع لها قلوب كثير ممن قوى إيمانهم وطالت صحبتهم، ولكن يثبت هذا لفرد فى وجهها ثبوت الجبال الراسيات، ويمثل دور خلفاء الأنبياء الصادقين الراسخين، ويكشف الغطاء عن العيون، وينفض الغبار عن جوهر الدين وعقيدته الصحيحة.

(جـ) يمتاز هذا الفرد فى فهمه الدقيق للإسلام، ومعايشته له فى حياة النبى ﷺ على اختلاف أطواره وألوانه من سلم وحرب، وخوف وأمن، ووحدة واجتماع، وشدة ورخاء.

(د) يمتاز بشدة غيرته على أصالة هذا الدين وبقائه على ما كان عليه فى عهد نبيِّه، غيرة أشد من غيرة الرجال على الأعراض والكرامات، والأزواج والأمهات، والبنين والبنات لا يحوله عن ذلك خوف أو طمع أو تأويل أو عدم موافقة من أقرب الناس وأحبهم إليه.

(هـ) يكون دقيقًا كل الدقة وحريصًا أشد الحرص فى تنفيذ رغبات الرسول الذى

---

(١) المقدمة، ص ١٩١.

يخلفه فى أمته بعد وفاته، لا يحيد عن ذلك قيد شعرة، ولا يساوم فيه أحداً، ولا يخاف لومة لائم.

(و) يمتاز بالزهد فى متاع الدنيا والتمتُّع به، زهداً لا يُتصوَّر فوقه إلا عند إمامه وهاديه سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وأن لا يخطر بباله تأسيس الملك والدولة وتوسيعهما لصالح عشيرته وورثَته، كما اعتادت ذلك الأسر الملوكية الحاكمة فى أقرب الدول والحكومات من جزيرة العرب، كالروم والفرس[١].

وقد اجتمعت هذه الصفات والشروط كلها فى سيدنا أبى بكر رضى الله عنه، كما تمثلت فى حياته وسيرته فى حياة الرسول ﷺ، قبل الخلافة وبعد الخلافة إلى أن توفاه الله تعالى، بحيث لا يسع منكراً أن ينكره أو مُشكِّكًا يشكك فى صحته، فقد تحقق بطريق البداهة والتواتر[٢].

هذا وقد قام أهل الحل والعقد فى سقيفة بنى ساعدة ببيعة الصديق بيعة خاصة ثم رشحوه للناس فى اليوم الثانى، وبايعته الأمة فى المسجد البيعة العامة[٣].

وقد أفرز ما دار فى سقيفة بنى ساعدة مجموعة من المبادئ منها: أن قيادة الأمة لا تقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هى أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب ديناً والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلامية، وشخصية، وأخلاقية، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة النسبية أو القبلية، وإن إثارة (قريش) فى سقيفة بنى ساعدة باعتباره واقعًا يجب أخذه فى الحسبان، ويجب اعتبار أى شىء مشابه ما لم يكن متعارضا مع أصول الإسلام، وأن الحوار الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسى السائد بين المسلمين حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات ولا نقض للاتفاق، ولكن تسليم للنصوص التى تحكمهم حيث المرجعية فى الحوار إلى النصوص الشرعية[٤].

---

(١) المرتضى، سيرة أبى الحسن على بن أبى طالب، ص (٦٥، ٦٦).

(٢) سيرة أبى الحسن على بن أبى طالب، ص ٦٧.

(٣) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص (٦٦، ٦٧).

(٤) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع، ص ٢٥٦.

وقد استدل الدكتور توفيق الشاوى على بعض الأمثلة التى صدرت بالشورى الجماعية فى عهد الراشدين من حادثة السقيفة، حيث قال:

- أول ما قرره اجتماع يوم السقيفة هو أن (نظام الحكم ودستور الدولة) يقرر بالشورى الحرة، تطبيقًا لمبدأ الشورى الذى نص عليه القرآن، ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وسند هذا الإجماع النصوص القرآنية التى فرضت الشورى، أى أن هذا الإجماع كشف وأكد أول أصل شرعى لنظام الحكم فى الإسلام وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستورى تقرر بالإجماع بعد وفاة رسولنا ﷺ، ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأييداً وتطبيقًا لنصوص الكتاب والسنَّة التى أوجبت الشورى.

- تقرر يوم السقيفة أيضًا أن اختيار رئيس الدولة أو الحكومة الإسلامية وتحديد سلطاته يجب أن يتم بالشورى، أى: بالبيعة الحرة التى تمنحه تفويضًا ليتولى الولاية بالشروط والقيود التى يتضمنها عقد البيعة الاختيارية الحرة - الدستور فى النظم المعاصرة -، وكان هذا ثانى المبادئ الدستورية التى أقرها الإجماع، وكان قراراً إجماعيًا كالقرار السابق.

- تطبيقًا للمبدأين السابقين، قرر اجتماع السقيفة اختيار أبى بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية[1].

ثم إن هذا الترشيح لم يصح نهائيًا إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أى: موافقة جمهور المسلمين فى اليوم التالى بمسجد الرسول ﷺ، ثم قبوله لها بالشروط التى ذكرها فى خطابه الذى ألقاه[2]، وسنأتى على ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

****

---

(١) فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوى، ص ١٤٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٤٢.

المبحث الثانى

البيعة العامة، وإدارة الشئون الداخلية

أولاً: البيعة العامة:

بعد أن تمت بيعة أبى بكر رضى الله عنه البيعة الخاصة فى سقيفة بنى ساعدة، كان لعمر رضى الله عنه في اليوم التالي موقف فى تأييد أبى بكر، وذلك فى اليوم التالى حينما اجتمع المسلمون للبيعة[١] العامة. قال أنس بن مالك: لما بويع أبو بكر فى السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس إنى كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت وما وجدتها فى كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إلىَّ رسول الله ﷺ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا – يقول: يكون آخرنا – وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى الله ورسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم؛ صاحب رسول الله ﷺ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[٢].

وقال عمر لأبى بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة[٣].

وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، وقد قرر

---

(١) عصر الخلفاء الراشدين، د. فتحية النبراوى، ص٣٠.

(٢) البداية والنهاية (٦/٣٠٥، ٣٠٦) إسناده صحيح.

(٣) البخارى، الأحكام، رقم (٧٢١٩).

الصديق فيها قواعد العدل والرحمة فى التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولى الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد فى سبيل الله لأهميته فى إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك فى حماية المجتمع من الانهيار والفساد[1]، من خلال الخطبة والأحداث التى تمت بعد وفاة الرسول يمكن للباحث أن يستنبط بعض ملامح نظام الحكم فى بداية عهد الخلافة الراشدة والتى من أهمها:

١ - مفهوم البيعة:

عرَّف العلماء البيعة بتعاريف عدة منها تعريف ابن خلدون: العهد على الطاعة لولى الأمر[2]، وعرفها بعضهم بقوله: البيعة على التعاقد على الإسلام[3]، وعرفت كذلك بأنها أخذ العهد والميثاق والمعاقدة على إحياء ما أحياه الكتاب والسنَّة، وإقامة ما أقامه[4]، وكان المسلمون إذا بايعوا الأمير جعلوا أيديهم فى يده، تأكيداً للعهد والولاء، فأشبه ذلك الفعل البائع والمشترى، فسمى هذا الفعل بيعة[5].

ونتعلم من مبايعة الأمة للصديق بأن الحاكم فى الدولة الإسلامية إذا وصل إلى الحكم عن طريق أهل الحل والعقد، وبايعته الأمة بعد أن توفرت فيه الشروط المعتبرة، فيجب على المسلمين جميعًا مبايعته والاجتماع عليه، ونصرته على من يخرج عليه، حفاظًا على وحدة الأمة وتماسك بنيانها أمام الأعداء فى داخل الدولة الإسلامية وخارجها[6].

قال ﷺ: «**من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[7]، فهذا الحديث فيه حث على وجوب إعطاء البيعة والتوعد على تركها، فمن مات ولم يبايع عاش على الضلال ومات على الضلال[8].

وقال رسول الله ﷺ: «**ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فَلْيُطِعْه ما**

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ٢٨).

(٢) المقدمة، ص٢٠٩.

(٣) جامع الأصول فى أحاديث الرسول (١/ ٢٥٢).

(٤) نظام الحكم فى الإسلام، عارف أبو عيد، ص٢٤٨.

(٥، ٦) نفس المصدر السابق، ص٢٥٠.

(٧) مسلم، كتاب الإمارة، رقم ١٨٥١.

(٨) نظام الحكم فى الإسلام، ص٢٥٠.

استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[1].

فالشارع الحكيم قد رتب القتل وأمر به، نتيجة الخروج على الإمام، مما يدل على حرمة هذا الفعل، لأنه يطلب بيعة أخرى بالبيعة الأولى التى هى فرض على المسلمين[2].

والذى يأخذ البيعة فى حاضرة الدولة هو الخليفة، وأما فى الأقاليم فقد يأخذها الإمام، وقد يأخذها نواب الإمام، كما حدث فى بيعة الصديق رضى الله عنه، فبيعة أهل مكة والطائف أخذها نواب الخليفة.

والذى تجب بيعتهم للإمام هم أهل الحل والعقد، وأهل الاختيار من علماء الأمة وقادتها، وأهل الشورى وأمراء الأمصار، وأما سائر الناس وعامتهم فيكفيهم دخولهم تحت بيعة هؤلاء، ولا يمنع العامة من البيعة بعد بيعة أهل الحل والعقد[3]، وهناك من العلماء من قال لابد من البيعة العامة، لأن الصديق لم يباشر مهامه كخليفة المسلمين إلا بعد البيعة العامة له من المسلمين[4].

والبيعة بهذا المعنى الخاص الذى تمَّ للصديق لا تعطى إلا للإمام الأعظم فى الدولة الإسلامية ولا تعطى لغيره من الأشخاص سواء فى ظل الدولة الإسلامية أو عند فقدها، لما يترتب على هذه البيعة من أحكام[5]، وخلاصة القول: إن البيعة بمعناها الخاص هى إعطاء الولاء والسمع والطاعة للخليفة مقابل الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنها فى جوهرها وأصلها عقد وميثاق بين طرفين: الإمام من جهة وهو الطرف الأول، والأمة من جهة ثانية وهى الطرف الثانى، فالإمام يبايع على الحكم بالكتاب والسنَّة والخضوع التام للشريعة الإسلامية عقيدة وشريعة ونظام حياة، والأمة تبايع على الخضوع والسمع والطاعة للإمام فى حدود الشريعة.

فالبيعة خصيصة من خصائص نظام الحكم فى الإسلام تفرد به عن غيره من النظم

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة رقم ١٨٥٢.

(٢، ٣) نظام الحكم فى الإسلام، ص٢٥٣.

(٤) فقه الشورى، د. الشاوى، ص٤٣٩؛ عصر الخلفاء الراشدين، ص٣٠.

(٥) نظام الحكم فى الإسلام، ص٢٥٤.

الأخرى فى القديم والحديث، ومفهومه أن الحاكم والأمة كليهما مقيد بما جاء به الإسلام من الأحكام الشرعية، ولا يحق لأحدهما سواء كان الحاكم أو الأمة ممثلة بأهل الحل والعقد، الخروج على أحكام الشريعة أو تشريع الأحكام التى تصادم الكتاب والسنَّة، أو القواعد العامة فى الشريعة، ويعد فعل مثل ذلك خروجًا على الإسلام، بل إعلان الحرب على النظام العام للدولة الإسلامية، بل أبعد من هذا نجد أن القرآن الكريم نفى عنهم صفة الإيمان[1]، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥].

فهذا مفهوم البيعة من خلال عصر أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

٢- مصدر التشريع فى دولة الصديق:

قال أبو بكر رضى الله عنه: أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم[2]، فمصدر التشريع عند الصديق:

أ- القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[النساء: ١٠٥].

فهو المصدر الأول الذى يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التى تتعلق بشئون الحياة، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكامًا قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

ب- السُّنَّة المطهرة:

هى المصدر الثانى الذى يستمد منه الدستور الإسلامى أصوله، ومن خلالها يمكن معرفة الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن[3].

إن دولة الصديق خضعت للشريعة، وأصبحت سيادة الشريعة الإسلامية فيها فوق كل تشريع وفوق كل قانون، وأعطت لنا صورة مضيئة مشرقة على أن الدولة الإسلامية

---

(١) نظام الحكم فى الإسلام، ص (١٥٢، ١٥٣).

(٢) البداية والنهاية (٦/٣٠٦).

(٣) فقه التمكين فى القرآن الكريم للصّلاّبى، ص٤٣٢.

دولة شريعة، خاضعة بكل أجهزتها لأحكام هذه الشريعة، والحاكم فيها مقيد بأحكامها لا يتقدم ولا يتأخر عنها[1].

ففى دولة الصديق وفى مجتمع الصحابة، الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا قيد الصديق طاعته التى طلبها من الأمة بطاعة الله ورسوله، لأن رسول الله ﷺ قال: «**لا طاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف**»[2].

٣- حق الأمة فى مراقبة الحاكم ومحاسبته:

قال أبو بكر رضى الله عنه: فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى[3].

فهذا الصديق يقرُّ بحق الأمة وأفرادها فى الرقابة على أعماله ومحاسبته عليها، بل وفى مقاومته لمنع كل منكر يرتكبه، وإلزامه بما يعتبرونه الطريق الصحيح والسلوك الشرعى[4]، وقد أقرَّ الصديق فى بداية خطابه للأمة أن كل حاكم معرض للخطأ والمحاسبة، وأنه لا يستمد سلطته من أى امتياز شخصى يجعل له أفضلية على غيره، لأن عهد الرسالات والرسل المعصومين قد انتهى، وإن آخر رسول كان يتلقى الوحى انتقل إلى جوار ربه، وقد كانت له سلطة دينية مستمدة من عصمته كنبى ومن صفته كرسول يتلقى التوجيه من السماء، ولكن هذه العصمة قد انتهت بوفاته ﷺ، وبعد وفاته ﷺ أصبح الحكم والسلطة مستمدة من عقد البيعة وتفويض الأمة له[5].

إن الأمة فى فقه أبى بكر لها إدارة حية واعية لها القدرة على المناصرة والمناصحة والمتابعة والتقويم، فالواجب على الرعية نُصرة الإمام الحاكم بما أنزل الله ومعاضدته ومناصرته فى أمور الدين والجهاد، ومن نصرة الإمام ألا يهان، ومن معاضدته أن يُحترم وأن يُكرم، فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب إجلاله وإكرامه وتبجيله، إجلالاً وإكرامًا لشرع الله الذى ينافح عنه ويدافع عنه. قال رسول الله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير المغالى فيه والجافى**

---

(١) نظام الحكم فى الإسلام، (ص٢٢٧).

(٢) البخارى رقم (٧١٤٥).

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٥).

(٤، ٥) فقه الشورى والاستشارة، (ص٤٤١).

عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط»[1]، والأمة واجب عليها أن تُناصح ولاة أمرها قال ﷺ: «الدين النصيحة» - ثلاثًا - قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله - عز وجل - ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[2]. ولقد استقر فى مفهوم الصحابة أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن باستقامة ولاتها، ولذلك كان من واجبات الرعية تجاه حكامهم نصحهم وتقويمهم، ولقد أخذت الدولة الحديثة تلك السياسة الرائدة للصديق رضى الله عنه، وترجمت ذلك إلى لجان متخصصة ومجالس شورية، تمد الحاكم بالخطط، وتزوده بالمعلومات، وتشير عليه بما يحسن أن يقرره، والشيء المحزن أن كثيراً من الدول الإسلامية تعرض عن هذا النظام الحكيم، فعظم مصيبتها فى تسلط الحكام وجبروتهم، والتخلف الذى يعم معظم ديار المسلمين ما هو إلا نتيجة لتسلط بغيض، (ودكتاتورية) لعينة أماتت فى الأمة روح التناصح والشجاعة، وبذرت فيها وزرعت بها الجبن والفزع إلا من رحم ربى، وأما الأمة التى تقوم بدورها فى مراقبة الحاكم ومناصحته وتأخذ بأسباب القوة والتمكين فى الأرض، فتنطلق إلى آفاق الدنيا تبلغ دعوة الله[3].

٤- إقرار مبدأ العدل والمساواة بين الناس:

قال أبو بكر رضى الله عنه: الضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله[4].

إن من أهداف الحكم الإسلامى الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامى التى تساهم فى إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد: الشورى والعدل، والمساواة والحريات، ففى خطاب الصديق للأمة أقرَّ هذه المبادىء، فالشورى تظهر فى طريقة اختياره وبيعته وفى خطبته فى المسجد الجامع، بمحضر من جمهور المسلمين، وأما عدالته فتظهر فى نص خطابه، ولا شك أن العدل فى فكر أبى بكر هو عدل الإسلام، الذى هو الدعامة الرئيسية فى إقامة المجتمع الإسلامى والحكم الإسلامى، فلا وجود للإسلام فى مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل.

---

(١) صحيح سنن أبى داود رقم (٣٥٠٤).
(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب أن الدين نصيحة رقم(٥٥).
(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٤٩.
(٤) البداية والنهاية (٦/٣٠٥).

إن إقامة العدل بين الناس أفراداً وجماعات ودولاً، ليست من الأمور التطوعية التى تترك لمزاج الحاكم أو الأمير وهواه، بل إن إقامة العدل بين الناس فى الدين الإسلامى تعد من أقدس الواجبات وأهمها، وقد أجمعت الأمة على وجوب العدل[1]. قال الفخر الرازى - رحمه الله -: أجمعوا على أن من كان حاكمًا وجب عليه أن يحكم بالعدل[2].

وهذا الحكم تؤيده النصوص القرآنية والسنة النبوية، إن من أهداف دولة الإسلام إقامة المجتمع الإسلامى الذى تسود فيه قيم العدل والمساواة ورفع الظلم ومحاربته، بجميع أشكاله وأنواعه، وعليها أن تفسح المجال وتيسر السبل أمام كل إنسان يطلب حقه أن يصل إليه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهداً أو مالاً، وعليها أن تمنع أى وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحق من الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق، ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل[3]، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

لقد كان الصديق رضى الله عنه قدوة فى عدله، يأسر القلوب ويبهر الألباب، فالعدل فى نظره دعوة عملية للإسلام فيه تفتح قلوب الناس للإيمان، لقد عدل بين الناس فى العطاء، وطلب منهم أن يكونوا عونًا له فى هذا العدل، وعرض القصاص من نفسه فى واقعة تدل على العدل والخوف من الله سبحانه[4]، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه: أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قام يوم جمعة فقال: إذا كنا بالغداة فأحضروا صدقات الإبل نقسمها، ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن، فقالت امرأة لزوجها: خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جملاً، فأتى الرجل فوجد أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما، فالتفت أبو بكر فقال: ما أدخلك علينا؟ ثم أخذ منه

(١) فقه التمكين فى القرآن الكريم، ص٤٥٥.
(٢) تفسير الرازى (١٠/١٤١).
(٣) فقه التمكين فى القرآن الكريم، ص٤٥٩.
(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء، ص٤١٠.

الخطام فضربه، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا الرجل فأعطاه الخطام، وقال: استقد.. فقال عمر: والله لا يستقد ولا تجعلها سنة، قال أبو بكر: فمن لى من الله يوم القيامة؟ قال عمر: أرضه، فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة وخمسة دنانير فأرضاه بها(١).

وأما مبدأ المساواة الذى أقره الصديق فى بيانه الذى ألقاه على الأمة فيعد أحد المبادىء العامة التى أقرها الإسلام، وهى من المبادىء التى تساهم فى بناء المجتمع المسلم، وسبق به تشريعات وقوانين العصر الحاضر، ومما ورد فى القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

إن الناس جميعًا فى نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين الناس بسبب الجنس أو اللون أو النسب أو الطبقة، والحكام والمحكومون كلهم فى نظر الشرع سواء(٢)، وجاءت ممارسة الصديق لهذا المبدأ خير شاهد على ذلك حيث يقول: وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه(٣).

وكان رضى الله عنه ينفق من بيت مال المسلمين فيعطى كل ما فيه سواسية بين الناس، فقد روى ابن سعد وغيره أن أبا بكر رضى الله عنه، كان له بيت مال بالسُّنْح معروف، ليس يحرسه أحد، فقيل له: ألا تجعل على بيت المال من يحرسه؟ فقال: لا يخاف عليه، قيل له: ولم؟ قال: عليه قفل! وكان يعطى ما فيه حتى لا يُبقى فيه شيئًا، فلما تحوَّل إلى المدينة حوَّله معه فجعله فى الدار التى كان فيها، وقدم عليه مال من معدن من معادن جُهينة، فكان كثيراً، وانفتح معدن بنى سُليم فى خلافته، فقدم عليه منه بصدقة، فكان يضع ذلك فى بيت المال، فيقسمه بين الناس سويًا، بين الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير على السواء. قالت عائشة رضى الله عنها: فأعطى أول

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء، ص٤١١.

(٢) فقه التمكين فى القرآن الكريم، ص(٤٦٠، ٤٦١).

(٣) البداية والنهاية (٦/٣٠٥).

عام الحرَّ عشرة والمملوك عشرة، وأعطى المرأة عشرة، وأمتها عشرة، ثم قسم فى العام الثانى، فأعطاهم عشرين عشرين، فجاء ناس من المسلمين فقالوا: يا خليفة رسول الله: إنك قسمت هذا المال فسوَّيت بين الناس، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل. فقال: أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك، وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جلَّ ثناؤه، وهذا معاش، فالأسوة فيه خير من الأثرة[١]. فقد كان توزيع العطاء فى خلافته على التسوية بين الناس، وقد ناظر الفاروق عمر أبا بكر فى ذلك فقال: أتسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين، وبين من أسلم عام الفتح؟ فقال أبو بكر: إنما عملوا لله، وإنما أجورهم على الله، وإنما الدنيا بلاغ للراكب.

ورغم أن عمر رضى الله عنه غيَّر فى طريقة التوزيع فجعل التفضيل بالسابقة إلى الإسلام والجهاد إلا أنه فى نهاية خلافته قال: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لرجعت إلى طريقة أبى بكر فسويت بين الناس[٢].

وكان يشترى الإبل والخيل والسلاح، فيحمل فى سبيل الله، واشترى عامًا قطائف (القطيفة: كساء مخمل) أتى بها من البادية، ففرقها فى أرامل أهل المدينة فى الشتاء، وقد بلغ المال الذى ورد على أبى بكر فى خلافته مائتى ألف وزعت فى أبواب الخير[٣].

لقد اتبع أبو بكر رضى الله عنه المنهج الربانى فى إقرار العدل، وتحقيق المساواة بين الناس، وراعى حقوق الضعفاء، فرأى أن يضع نفسه فى كفة هؤلاء الواهنة أصواتهم فيتبعهم بسمع مرهف وبصر حاد وإرادة واعية لا تستذلها عوامل القوة الأرضية فتملى كلمتها.. إنه الإسلام فى فقه رجل دولته النابه الذى قام يضع القهر تحت أقدام قومه، ويرفع بالعدل رؤوسهم فيؤمن به كيان دولته، ويحفظ لها دورها فى حراسة الملة والأمة[٤].

لقد قام الصديق منذ أول لحظة بتطبيق هذه المبادىء السامية، فقد كان يدرك أن

---

(١) أبو بكر الصديق، طنطاوى، ص(١٨٧، ١٨٨)؛ ابن سعد (٣/١٩٣).

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى، ص٢٠١.

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥٨.

(٤) أبو بكر رجل الدولة، ص٤٦.

العدل عزٌّ للحاكم والمحكوم، ولهذا وضع الصديق سياسته تلك موضع التنفيذ وهو يردد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

أكان أبو بكر يريد أن يطمئن المسلمون إلى دينهم، وحرية الدعوة إليه، وإنما تتم الطمأنينة للمسلمين ما قام الحاكم فيهم على أساس من العدل المجرد عن الهوى.

والحكم على هذا الأساس يقتضى الحاكم أن يسمو فوق كل اعتبار شخصى، وأن يكون العدل والرحمة مجتمعين، وقد كانت نظرية أبى بكر فى تولى أمور الدولة قائمة على إنكار الذات، والتجرد لله تجرداً مطلقًا جعله يشعر بضعف الضعيف، وحاجة المجتمع ويسمو بعدله على كل هوى، وينسى فى سبيل ذلك نفسه وأبناءه وأهله، ثم يتتبع أمور الدولة جليلها ورقيقها، بكل ما آتاه الله من يقظة وحذر[١].

وبناء على ما سبق يرفع العدل لواءه بين الناس، فالضعيف آمن على حقه، وكله يقين أن ضعفه يزول حينما يحكم العدل، فهو به قوى لا يمنع حقه ولا يضيع، والقوى حين يظلم يردعه الحق، وينتصف منه للمظلوم، فلا يحتمى بجاه أو سلطان أو قرابة لذى سطوة أو مكانة، وذلك هو العز الشامخ، والتمكين الكامل فى الأرض[٢].

وما أجمل ما قاله ابن تيمية رحمه الله: إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة،... بالعدل تستصلح الرجال، وتستغزر الأموال[٣].

٥ - الصدق أساس التعامل بين الحاكم والمحكوم:

قال أبو بكر رضى الله عنه: الصدق أمانة والكذب خيانة[٤]. أعلن الصديق رضى الله عنه مبدأ أساسيًا تقوم عليه خطته فى قيادة الأمة وهو: أن الصدق بين الحاكم والأمة هو أساس التعامل، وهذا المبدأ السياسى الحكيم له الأثر الهام فى قوة الأمة، حيث ترسيخ جسور الثقة بينها وبين حاكمها، إنخ خلق سياسى منطلق من دعوة الإسلام إلى الصدق،

---

(١) الصديق لهيكل باشا، ص٢٢٤.
(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٤٦.
(٣) السياسة الشرعية، ص١٠.
(٤) البداية والنهاية (٦/٣٠٥).

قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة: ١١٩] ومن التحذير منه كقول رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر**»(١).

فهذه الكلمات: (الصدق أمانة) اكتست بالمعانى، فكأن لها روحًا تروح بها وتغدو بين الناس، تلهب الحماس، وتصنع الأمل، (والكذب خيانة) وهكذا يأبى أبو بكر إلا أن يمس المعانى، فيسمى الأشياء بأسمائها، فالحاكم الكذاب هو ذلك الوكيل الخائن الذى يأكل خبز الأمة ثم يخدعها، فما أتعس حاكمًا يتعاطى الكذب فيسميه بغير اسمه، لقد نعته الصديق بالخيانة، وأنه عدو أمته الأول.. وهل بعد الخيانة من عداوة؟ حقا ما زال الصديق يطل على الدنيا من موقفه هذا فيرفع أقوامًا ويسقط آخرين!.. وتظل صناعة الرجال أرقى فنون الحكم! إذ هم عدة الأمة ورصيدها الذى تدفع به عن نفسها ملمات الأيام، ولا شك أن من تأمل كلمات أبى بكر تلك أصدقه الخبر بأن الرجل كان رائداً فى هذا الفن الرفيع، فقد كان يسير على النهج النبوى الكريم(٢). إن شعوب العالم اليوم تحتاج إلى هذا المنهج الربانى فى التعامل بين الحاكم والمحكوم، لكى تقاوم أساليب تزوير الانتخابات وتلفيق التهم، واستخدام الإعلام وسيلة لترويج اتهامات باطلة لمن يعارضون الحكام أو ينتقدونهم، ولا بد من إشراف الأمة على التزام الحكام بالصدق والأمانة من خلال مؤسساتها التى تساعدها على تقويم ومحاسبة الحاكم إذا انحرفوا(٣)، فتمنعهم من سرقة إرادتهم وشرفها وحريتها وأموالها.

٦- إعلان التمسك بالجهاد وإعداد الأمة لذلك:

قال أبو بكر رضى الله عنه: وما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل(٤)، قد تلقى أبو بكر تربيته الجهادية مباشرة من نبيه وقائده العظيم ﷺ، تلقاها تربية حية فى ميادين الصراع بين الشرك والإيمان، والضلال والهدى، والشر والخير، ولقد ذكرت مواقف الصديق فى غزوات الرسول ﷺ، ولقد فهم الصديق رضى الله عنه من حديث رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد**

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٧٢).

(٢) أبو بكر رجل الدولة، مجدى حمدى، ص(٣٦، ٣٧).

(٣) فقه الشورى والاستشارة، ص٤٤٢.

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٥).

سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[١]. إن الأمة تصاب بالذل إذا تركت الجهاد، فلذلك جعل الصديق الجهاد إحدى حقائق الحكم في دولته[٢]، ولذلك حشد طاقات الأمة من أجل الجهاد، لكي يرفع الظلم عن المظلومين، ويزيل الغشاوة عن أعين المقهورين، ويعيد الحرية للمحرومين، وينطلق بدعوة الله في آفاق الأرض يزيل كل عائق ضدها.

٧- إعلان الحرب على الفواحش:

قال أبو بكر رضي الله عنه: ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء[٣]، والصديق هنا يذكر الأمة بقول النبي ﷺ: «**لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...**»[٤] إن الفاحشة هي داء المجتمع العضال الذي لا دواء له وهي سبيل تحلله وضعفه حيث لا قداسة لشيء، فالمجتمع الفاحش لا يغار ويقر الدنية ويرضاها، إنه مجتمع الضعف والعار والأوجاع والأسقام، وحال الناس أدل شاهد. لقد وقف أبو بكر يحفظ قيم الأمة وأخلاقها[٥]، فقد حرص في سياسته على طهر الأمة ونقائها، وبعدها عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وهو رضي الله عنه يريد بذلك أمة قوية لا تشغلها شهواتها، ولا يضلها شيطانها، لتعيش أمة منتجة تعطي الخير، وتقدم الفضل لكل الناس.

إن علاقة الأخلاق بقيام الدول وظهور الحضارة علاقة ظاهرة، فإن فسدت الأخلاق وخربت الذمم، ضاعت الأمم، وعمها الفساد والدمار، والدارس لحياة الأمم السابقة والحضارات السالفة بعين البصيرة، يدرك كيف قامت حضارات على الأخلاق الكريمة والدين الصحيح كالحضارة التي قامت في زمن داود وسليمان عليهما السلام والتي قامت في زمن ذي القرنين، وكثير من الأمم التي التزمت بالقيم والأخلاق فظلت قوية طالما حافظت عليها، فلما دب سوس الفواحش إليها استسلمت للشياطين، وبدلت

---

(١) سنن أبي داود رقم (٣٤٦٢) صححه الألباني.

(٢) أبو بكر رجل الدولة، ص٧٣.

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٥).

(٤) صحيح الألباني (٢/ ٣٧٠) رقم الحديث في ابن ماجة (٤٠١٩).

(٥) أبو بكر رجل الدولة، ص٦٦.

نعمة الله كفرًا، وأحلت قومها دار البوار، فزالت قوتها، وتلاشت حضارتها[1]. إن الصديق رضى الله عنه استوعب سنن الله فى المجتمعات وبناء الدول وزوالها، وفهم أن زوال الدول يكون بالترف والفساد والانغماس فى الفواحش والموبقات قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦]. أى: أمرناهم بالأمر الشرعى من فعل الطاعات وترك المعاصى فعصوا وفسقوا فحق عليهم العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصيانهم. وفى قراءة: ﴿ أَمَّرْنَا ﴾[2] بالتشديد أى: جعلناهم أمراء. والترف وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه، إلا أنه حالة نفسية ترفض الاستقامة على منهج الله وليس كل ثراء تَرَفًا[3].

إن سياسة الصديق فى حربه للفواحش حرى بحكام المسلمين أن يقتدوا به، فالحاكم التقى الذكى العادل هو الذى يربى أمته على الأخلاق القويمة، لأنه حينئذ سيقود شعبًا أحس طعم الآدمية، وجرى فى عروقه دم الإنسانية.. وأما إن سلب الحاكم الذكاء، وصار من الأغبياء.. أشاع الفاحشة فى قومه وعمل على حمايتها بالقوة والقانون، وحارب القيم والأخلاق الحميدة، ودفع بقومه إلى مستنقعات الرذيلة ليصبحوا كالحيوانات الضالة والقطعان الهائمة، لا هم لها إلا المتاع، والزينة الخادعة، فيصبحوا بعد ذلك أقزامًا، قد ودعوا الرجولة والشهامة[4]، ويصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

هذه بعض التعليقات التى فتح الله بها بما ترى على البيان الذى ألقاه الصديق للأمة، والذى رسم فيه سياسة الدولة، فحدد مسئولية الحاكم ومدى العلاقة بينه وبين المحكومين، وغير ذلك من القواعد المهمة فى بناء الدولة وتربية الشعوب، وهكذا قامت الخلافة الإسلامية، وتحدد مفهوم الحكم تحديداً عمليًا، وكان حرص الأمة على منصب الخلافة واختيار الخليفة على هذه الصورة، ومسارعة الناس إلى الرضا بذلك، دليلاً على

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/٥٨).

(٣) منهج كتابة التاريخ الإسلامى، محمد هامل، ص٦٥.

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥٣.

أنهم كانوا يسلمون بأن النظام الذى أنشاه النبى عليه الصلاة والسلام واجب البقاء، وأن النبى ﷺ وإن مات فإنه خلف فيهم ديناً وكتاباً يسيرون على هديه، فرضاء الناس يومئذ يعبر عن إرادة الاستمرار فى ظل النظام الذى أنشأه النبى ﷺ(١).

إن حكومة الصديق رضى الله عنه تمتع بها المسلمون زمنًا ليس بكثير، وعيَّن أبو بكر حد السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الراقية على مستوى أنظمة الحكم فى ذلك العصر وفى هذا الزمن، فهى حكومة شورية قل أن يجد طلاب الحرية والعدل فى كل عصر أحسن لسياسة الأمم منها(٢)، قادها التلميذ الأنجب والأذكى والأعلم والأعظم إيمانًا للحبيب المصطفى ﷺ أبو بكر رضى الله عنه.

وقد بين الإمام مالك بأنه لا يكون أحد إمامًا أبداً إلا على هذا الشرط(٣)؛ يقصد بالمضامين العظيمة التى ألقاها الصديق فى بيانه السياسى الأول.

ثانيًا: إدارة الشئون الداخلية:

أراد الصديق رضى الله عنه أن ينفذ السياسة التى رسمها لدولته واتخذ من الصحابة الكرام أعوانًا يساعدونه على ذلك، فجعل أبا عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة (وزير المالية) فأسند إليه شئون بيت المال، وتولى عمر بن الخطاب القضاء (وزارة العدل)، وباشر الصديق القضاء بنفسه أيضًا، وتولى زيد بن ثابت الكتابة (وزير البريد والمواصلات)(٤) وأحيانًا يكتب له من يكون حاضراً من الصحابة كعلى بن أبى طالب أو عثمان بن عفان رضى الله عنهم، وأطلق المسلمون علي الصديق لقب خليفة رسول الله، ورأى الصحابة ضرورة تفريغ الصديق للخلافة، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه رجلا تاجراً يغدو كل يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع، فلما استُخلف أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالى؟ فقالا: انطلق معنا حتى نفرض لك شيئًا. فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم

(١) دراسات فى الحضارة الإسلامية، أحمد إبراهيم الشريف، ص(٢٠٩، ٢١٠).

(٢) أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة، ص١٢٠.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص٩٢.

(٤) فى التاريخ الإسلامى، د. شوقى أبو خليل، ص٢١٨.

(٥) الرياض النضرة فى مناقب العشرة، ص٢٩١.

شطر شاه[٥]، وجاء فى « الرياض النضرة » أن رزقه الذى فرضوه له خمسون ومائتا دينار فى السنة وشاة يؤخذ من بطنها ورأسها وأكارِعها، فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله، قالوا: وقد كان قد ألقى كل دينار ودرهم عنده فى بيت مال المسلمين، فخرج إلى البقيع فتصافق (بايع)، فجاء عمر رضى الله عنه فإذا هو بنسوة جلوس، فقال: ما شأنكن؟ قلن: نريد خليفة رسول الله ﷺ يقضى بيننا، فانطلق فوجده فى السوق فأخذه بيده فقال: تعال ها هنا. فقال: لا حاجة لى فى إمارتكم[١]، رزقتمونى ما لا يكفينى ولا عيالى. قال: فإنَّا نزيدك. قال أبو بكر: ثلاثمائة دينار والشاة كلها. قال عمر: أما هذا فلا، فجاء على رضى الله عنه وهما على حالهما تلك، قال: أكملها له، قال: ترى ذلك؟. قال: نعم، قال: قد فعلنا[٢]. وانطلق أبو بكر رضى الله عنه فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس فقال: أيها الناس إن رزقى كان خمسين ومائتى دينار وشاة يؤخذ من بطنها ورأسها وأكارِعها، وإن عمر وعليًا كمَّلا لى ثلاثمائة دينار والشاة أفرضيتم؟ قال المهاجرون: اللهم نعم قد رضينا[٣].

وهكذا وقف الصحابة فى فهمهم الراقى لولاية الدين وأمانة الحكم يفرضون لإمامهم رزقًا يغتنى به عن التجارة، بعد إذ صار عاملاً للأمة تملك منه الوقت والجهد والفكر.. ومن ثم يقررون معنى فى الإسلام بديعًا يفصل الذمة المالية للأمة عن ذمة الحاكم.

هذا المعنى الذى لم يعرفه الغرب إلا فى عهوده القريبة، إذا ظلت راية ما لقيصر لقيصر مشرعة خفاقة يقاتل الناس دونها أزمانًا طويلة، إن أصدق تعبير نقف به على دخول الذمة المالية للدولة بأسرها فى ذمة الحاكم لهو مقالة لويس الخامس عشر: أنا الدولة والدولة أنا. لقد كان لويس تاجر غلال معروفًا يتجر فى قوت أمته وهى تتضور جوعًا، ثم لا يرى أحد فى ذلك شيئًا من العار.. أليس هو الأصل والأمة فرع عنه؟[٤].

أين البشرية اليوم من أولئك الصحابة رضوان الله عليهم؟ فإن الخزينة قد أضحت بعدهم بيد أشخاص ينفقون كيف يشاءون، ويتصرفون كما يريدون، كما أصبحت لهم نفقات مستورة لا حصر لها، وفوق هذا فقد تكدست لهم الأموال فى المصارف خارج البلاد، حتى غدت دول أجنبية تعيش على هذه الأموال لكثرتها وأكثرها يعود

(١، ٢، ٣) الرياض النضرة، ص٢٩١.

(٤) أبو بكر رجل الدولة، ص٣٥.

إلى الحكام وأمراء الشعوب المستضعفة، مع أنه قد ظهر أن هذه الأموال مهما بلغت، والعقارات مهما كثرت، فإنها لا تكفى شيئًا، ولا تغنى صاحبها شيئًا، فإن شاه إيران مع ضخامة ما يملك لم يجد أرضًا تقبله ليأوى إليها هذا فى الدنيا، وأما فى الآخرة فالأمر أشد والحساب عظيم[١].

فعلى حكام المسلمين أن يقتدوا بهذا الصحابى الجليل الذى أدار دولة الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، فما أجمل قوله رضى الله عنه: لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مؤونة أهلى وشُغلت بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ويحترف للمسلمين فيه[٢].

إن الصديق يؤكد معانى بديعة، فولاية الدين ليست فى حد ذاتها مغنمًا، أما ما يفرض لها من رزق، فلما تقضى إليه من اشتغال عامل الأمة عن أمر نفسه[٣].

لقد سطر الصديق والصحابة الكرام صفحات رائعة فى جبين الزمن، حتى إنَّ البشرية تسعى فى سلم التطور وتسعى، ثم إذا هى قابعة عند أقدامهم[٤].

سار الصديق فى بناء دولة الإسلام بجد ونشاط واهتم بالبناء الداخلى، ولم يترك أي ثغرة يمكن أن تؤثر فى ذلك البناء الشامخ الذى تركه رسول الله ﷺ، فاهتم بالرعية وله مواقف مشرفة فى هذا الباب، وأعطى للقضاء اهتمامًا خاصًا، وتابع أمر الولاة، وسار على المنهج النبوى الكريم فى كل خطواته، وإليك شيء من التفصيل عن تلك السياسة الرشيدة:

١- الصديق فى المجتمع

عاش الصديق رضى الله عنه بين المسلمين كخليفة لرسول الله ﷺ، فكان لا يترك فرصة تمر إلا علم الناس وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فكانت مواقفه تشع على من حوله من الرعية بالهدى والإيمان والأخلاق، فمن هذه المواقف:

(١) التاريخ الإسلامى، محمود شاكر، ص١١.

(٢) البخارى، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعلمه رقم (٢٠٧٠).

(٣) أبو بكر رجل الدولة، ص٣٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص٣٦.

أ- حلبه للأغنام، والعجوز العمياء، وزيارة أم أيمن :

كان قبل الخلافة يحلب للحى أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة، قالت جارية من الحى : الآن لا يحلب لنا (أغنام) دارنا، فسمعها أبو بكر فقال : لعمرى لأحلبنها لكم، وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهنَّ، وكنَّ إذا أتينه بأغنامهنَّ يقول : أنضح أم ألبد؟ فإن قالت : انضح، باعد الإناء من الضرع حتى تشتد الرغوة، وإن قالت : ألبد، أدناه منه حتى لا تكون له رغوة، فمكث كذلك بالسُّنح ستة أشهر ثم نزل إلى المدينة[1].

ففى هذا الخبر بيان شىء من أخلاق أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فهذا تواضع كبير من رجل كبير، كبير فى سنه، وكبير فى منزلته وجاهه، حيث كان خليفة المسلمين، وكان حريصًا على أن لا تغير الخلافة شيئًا من معاملته للناس، وإن كان ذلك سيأخذ عليه وقتًا هو بحاجة إليه، كما أن هذا العمل يدلنا على مقدار تقدير الصحابة رضى الله عنهم لأعمال البر والإحسان، وإن كلفتهم الجهد والوقت[2].

هذا أبو بكر رضى الله عنه غلب بعزيمته الصادقة، وثباته العجيب الجزيرة العربية، وأخضعها لدين الله، ثم بعث بها فقاتلت تحت ألويته الدولتين الكبريين على وجه الأرض، وغلبت عليها. أبو بكر.. يحلب لجوارى الحى أغنامهنَّ، ويقول : أرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه. وليس الذى دخل فيه بالأمر الهين، بل هو خلافة رسول الله، وسيادة العرب، قيادة الجيوش التى ذهبت لتقلع من الأرض الجبروت الفارسى، والعظمة الرومانية، وتنشىء مكانهما صرح العدل، والعلم والحضارة، ثم يرجو ألاَّ يغيره هذا كله، ولا يمنعه من حلب أغنام الحىّ[3].

إن من ثمار الإيمان بالله تعالى أخلاقًا حميدة، منها خلق التواضع الذى تجسد فى شخصية الصديق فى هذا الموقف وفى غيره من المواقف، وكان عندما يسقط خطام ناقته ينزل ليأخذه، فيقال له : لو أمرتنا أن نناولكه، فيقول : أمرنا رسول الله ﷺ ألا نسأل الناس شيئًا[4]، لقد ترك لنا الصديق مثالاً حيًا فى فهم وتطبيق خلق التواضع المستمد

---

(١) ابن سعد فى الطبقات (٣/ ١٨٦) وله شواهد، فإسناده حسن لغيره.

(٢) التاريخ الإسلامى (١٩/ ٨).

(٣) أبو بكر الصديق رضى الله عنه، طنطاوى، ص١٨٦.

(٤) التاريخ الإسلامى، محمود شاكر، ص٨.

من قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٤٠] ومن قوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»[١]. ولقد دفعه هذا الخلق إلى خدمة المسلمين وبخاصة أهل الحاجة منهم والضعفاء، فعن أبى صالح الغفارى أن عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً كبيرة عمياء فى بعض حواشى المدينة من الليل، فيسقى لها، ويقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة كيلا يسبق إليها – فرصده عمر، فإذا هو أبو بكر الذى يأتيها، وهو يومئذ خليفة[٢]، وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ، فقالت: ما أبكى أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكى أن الوحى قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها[٣].

ب- نصحه لأمرأة نذرت أن لا تحدث أحداً:

كان أبو بكر رضى الله عنه ينهى عن أعمال الجاهلية، والابتداع فى الدين، ويدعو إلى أعمال الإسلام، والتمسك بالسنَّة[٤]، فعن قيس بن أبى حازم: دخل أبو بكر على امرأة من أحمس[٥]، يقال لها زينب، فرآها لا تتكلم، فقال أبو بكر: مالها لا تتكلم؟ قالوا: نوت حجة مصمتة[٦] فقال لها: تكلمى، فإن هذا لا يحل[٧]، هذا من عمل الجاهلية. قال: فتكلمت، فقالت: من أنت؟ قال: أنا امرؤ من المهاجرين. قالت: أىُّ المهاجرين؟ قال: من قريش. قالت: من أىِّ قريش أنت؟ قال: إنك لسئول، أنا أبو بكر. قالت: يا خليفة رسول الله، ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذى جاء الله به بعد الجاهلية؟ فقال: بقاؤكم عليه ما استقامت به أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى، قال: فهم أولئك على الناس[٨].

---

(١) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب رقم (٢٥٨٨).

(٢) أبو بكر الصديق، طنطاوى، ص٢٩.

(٣) مسلم، فضائل الصحبة رقم (٢٤٥٤).

(٤) صحيح التوثيق فى سيرة حياة الصديق، مجدى فتحى السيد ص١٤٠.

(٥) نفس المصدر السابق، وقيل الأحمس: المتشدد على نفسه فى الدين والورع.

(٦) أى: ساكنة.

(٧) أى: ترك الكلام.

(٨) البخارى رقم (٣٨٣٤).

قال الخطابى رحمه الله: كان من نسك الجاهلية الصمت، فكان أحدهم يعتكف اليوم والليلة ويصمت، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالنطق بالخير، وقد استدل بقول أبى بكر هذا من قال بأن من حلف أن لا يتكلم استحب له أن يتكلم، ولا كفارة عليه، لأن أبا بكر لم يأمرها بالكفارة، وقياسه أن من نذر أن لا يتكلم لم ينعقد نذره، لأن أبا بكر أطلق أن ذلك لا يحل، وأنه من فعل الجاهلية، وأن الإسلام هدم ذلك، ولا يقول مثل هذا إلا عن علم من النبى ﷺ، فيكون من حكم المرفوع[١].

وقال ابن حجر: وأما الأحاديث الواردة فى الصمت وفضله، فلا يعارض لاختلاف المقاصد فى ذلك، فالصمت المرغب فيه: ترك الكلام بالباطل، وكذا المباح إن جر إلى شيء من ذلك، والصمت المنهى عنه ترك الكلام فى الحق لمن يستطيعه، وكذا المباح المستوى الطرفين، والله أعلم[٢].

ج- اهتمامه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

كان الصديق رضى الله عنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبين للناس ما التبس عليهم من الفهم، فعن قيس بن أبى حازم قال: سمعت أبا بكر الصديق يقول: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن القوم إذا رأوا المنكر فلم يُغَيِّروه عمهم الله بعقاب**» و فى رواية: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها، وإنا سمعنا النبى ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**»[٣]. قال النووى: وأما قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ . فليس مخالفًا لوجوب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، لأن المذهب الصحيح عند المحققين فى معنى الآية: أنكم إذا فعلتم كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم، مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ فإذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فإذا فعله، ولم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك على الفاعل لكونه أدى ما عليه[٤].

---

(١) فتح البارى (٧/ ١٥٠).

(٢) نفس المصدر السابق (٧/ ١٥١)

(٣) حديث صحيح سنن أبى داود رقم (٤٣٣٨).

(٤) عون المعبود شرح سنن أبى داود (١١/ ٣٢٩).

وكان رضى الله عنه يحث الناس على الصواب، فعن ميمون بن مهران أن رجلاً سلَّم على أبى بكر فقال: السلام عليك يا خليفة رسول الله. قال: من بين هؤلاء أجمعين[1].
وكان رضى الله عنه يترك السنة مخافة أن يظن ما لا علم له أنها فريضة أو واجبة، فعن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه أنه قال: رأيت أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، وما يضحيان مخافة أن يستن بهما، وفى رواية: كراهية أن يقتدى بهما[2]، وكان يوصى ابنه عبد الرحمن بحسن المعاملة لجيرانه، فقد قال له ذات يوم وهو يخاصم جاراً له: لا تماظ جارك، فإنَّ هذا يبقى ويذهب الناس[3]، وكان باراً بوالده، فلما اعتمر فى رجب سنة اثنتى عشرة من الهجرة، دخل مكة ضحوة فأتى منزله، وأبوه أبو قحافة جالس على باب داره، معه فتيان يحوشهم، فقيل له: هذا ابنك فنهض قائماً، وعجل أبو بكر أن ينيخ ناقته فنزل عنها وهى قائمة – ليقابل أباه فى بر وطاعة، وجاء الناس يسلمون عليه، فقال أبو قحافة: يا عتيق هؤلاء الملأ فأحسن صحبتهم، فقال أبو بكر: يا أبة لا حول ولا قوة إلا بالله، طوقت أمراً عظيماً لا قدرة لى به ولا يدان إلا بالله..[4] وكان يهتم بالصلاة والخشوع فيها ويحرص على حسن العبادة، وكان لا يلتفت فى صلاته[5]، وكان أهل مكة يقولون: أخذ ابن جريج الصلاة من عطاء، وأخذها عطاء من ابن الزبير، وأخذها ابن الزبير من أبى بكر، وأخذها أبو بكر من النبى ﷺ، وكان عبد الرزاق يقول: ما رأيت أحداً أحسن صلاة من ابن جريج[6]، وعن أنس رضى الله عنه قال: صلى أبو بكر بالناس الفجر فاقترأ البقرة فى ركعتيه، فلما انصرف قال له عمر: يا خليفة رسول الله ما انصرفت حتى رأينا أن الشمس قد طلعت، قال: لو طلعت لم تجدنا غافلين[7]، وكان يحث الناس على الصبر فى المصائب، ويقول لمن مات له أحد: ليس مع العزاء مصيبة ولا مع الجزع فائدة، الموت أهون مما قبله وأشدُّ مما بعده، اذكروا فقد رسول الله تصغر مصيبتكم، وعظم الله أجركم[8]، وعزَّى عمر رضى الله عنه عن طفل أصيب به فقال: عوَّضك الله منه ما

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع للخطيب (١/ ١٧٢) رقم (٢٥٥).
(٢) إسناده صحيح أخرجه الطبرانى فى الكبير رقم (٣٠٥٧).
(٣) الزهد لابن المبارك (١/٥٥١).
(٤) صفة الصفوة (١/٢٥٨).
(٥) فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٢٥٤).
(٦) نفس المصدر السابق (١/٢٥٥).
(٧) الرياض النضرة فى مناقب العشرة، ص٢٢٤.
(٨) عيون الأخبار (٣/٦٩، ٧٠).

عوضه منك(١)، وكان رضى الله عنه يحذر الناس البغى، والنكث، والمكر ويقول: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: البغى، والنكث، والمكر(٢). وكان يعظ الناس ويذكرهم بالله ومن مواعظه رضى الله عنه: الظلمات خمس والسُّرُج خمس: حب الدنيا ظلمة والسراج له التقوى، والذنب ظلمة والسراج له التوبة، والقبر ظلمة والسراج له لا إله إلا الله محمد رسول الله، والآخرة ظلمة والسراج لها العمل الصالح، والصراط ظلمة والسراج لها اليقين(٣)، وكان رضى الله عنه من خلال منبر الجمعة يحث على الصدق والحياء، ويحث على الاعتبار والاستعداد للقدوم على الله ويحذر من الغرور.

فعن أوسط بن إسماعيل رحمه الله قال: سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله بسنة، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامى هذا عام أول، ثم بكى أبو بكر ثم قال: وفى رواية: ثم ذرفت عيناه، فلم يستطع من العبرة أن يتكلم، ثم قال: «أيها الناس: اسألوا الله العافية، فإنه لم يعط أحد خيراً من العافية بعد اليقين، وعليكم بالصدق فإنه مع البر، وهما فى الجنة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما فى النار ولا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا(٤).

وقال الزبير بن العوام رضى الله عنه: إن أبا بكر قال وهو يخطب الناس: يا معشر المسلمين: استحيوا من الله عز وجل، فو الذى نفسى بيده إنى لأظل حين أذهب الغائط فى الفضاء متقنعاً بثوبى استحياء من ربى عز وجل(٥).

وعن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضى الله عنه فقال: أما بعد: فإنى أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاح بالمسألة، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا و رهبا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ثم اعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، فاشترى القليل الفانى بالكثير الباقى، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، فصدقوا قوله، وانتصحوا

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٦٢).

(٢) مجمع الأمثال للميدانى (٢/ ٤٥٠).

(٣) فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، ص٢٩.

(٤) صحيح التوثيق فى سيرة وحياة الصديق، ص١٧٩.

(٥) نفس المصدر السابق، ص١٨٢.

كتابه، واستوضئوا منه ليوم الظلمة، فإنما خلقكم للعبادة، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون، ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غُيِّبَ عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل لله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا فى مهل آجالكم قبل أن تنقضى آجالكم فيردكم إلى أسوأ أعمالكم، فإن أقوامًا جعلوا آجالهم لغيرهم، ونسوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا مثلهم. فالوحا الوحا(١)، ثم النجا النجا، فإن وراءكم طلبًا حثيثًا مَرُّهُ(٢) سريع، وفى رواية أخرى: أين من تعرفون من إخوانكم ومن أصحابكم؟! قد وردوا على ما قدموا، قدموا ما قدموا فى أيام سلفهم، وحلوا فيه بالشقوة والسعادة. أين الجبارون الذين بنوا المدائن، وحففوها بالحوائط؟، قد صاروا تحت الصخر والآبار، أين الوضاءة الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك؟ وأين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر، فأصبحوا فى ظلمات القبور، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم.

إن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيرًا، ولا يصرفه عن سوءٍ، إلا بطاعته واتباع أمره، وإنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة، واعلموا أنكم ما أخلفتم لله عز وجل فربكم أطعتم، وحقكم حفظتم، وأوصيكم بالله لفقركم وفاقتكم أن تتقوه، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تستغفروه إنه كان غفارًا، أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم(٣).

وهكذا كان الصديق يهتم بالمجتمع فيوعظ المسلمين، ويحثهم على الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فهذا غيض من فيض، وقليل من كثير.

٢- القضاء فى عهد الصديق:

يعتبر عهد الصديق بداية العهد الراشدى الذى تتجلى أهميته بصلته بالعهد النبوى وقربه منه، فكان العهد الراشدى عامة، والجانب القضائى خاصة، امتدادًا للقضاء فى

---

(١) الوحا الوحا: السرعة السرعة، يقال: توحيت أى: أسرعت.

(٢) مره: مروره.

(٣) إسناده حسن لغيره، مصنف ابن أبى شيبة (٧/ ١٤٤)؛ صحيح التوثيق فى سيرة وحياة الصديق، ص١٨١.

العهد النبوى، مع المحافظة الكاملة والتامة على جميع ما ثبت فى العهد النبوى، وتطبيقه بحذافيره وتنفيذه بنصه ومعناه، وتظهر أهمية العهد الراشدى فى القضاء بأمرين أساسيين:

• المحافظة على نصوص العهد النبوى فى القضاء، والتقيد بما جاء فيه، والسير فى ركابه، والاستمرار فى الالتزام به.

• وضع التنظيمات القضائية الجديدة لترسيخ دعائم الدولة الإسلامية الواسعة، ومواجهة المستجدات المتنوعة(١).

كان أبو بكر رضى الله عنه يقضى بنفسه إذا عرض له قضاء، ولم تفصل ولاية القضاء عن الولاية العامة فى عهده، ولم يكن للقضاء ولاية خاصة مستقلة، كما كان الأمر فى عهد رسول الله ﷺ، إذ كان الناس على مقربة من النبوة، يأخذون أنفسهم بهدى الإسلام، وتقوم حياتهم على شريعته، وقلما توجد بينهم خصومة تذكر، ففى المدينة عهد أبو بكر إلى عمر بالقضاء، ليستعين به فى بعض الأقضية ولكن هذا لم يعط لعمر صفة الاستقلال بالقضاء(٢)، وأقر أبو بكر رضى الله عنه معظم القضاة والولاة الذين عينهم رسول الله ﷺ واستمروا على ممارسة القضاء والولاية أو أحدهما فى عهده(٣)، وسوف نأتى على ذكر الولاة وأعمالهم بإذن الله تعالى.

وأما مصادر القضاء فى عهد الصديق رضى الله عنه هى:

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية، ويندرج فيها قضاء رسول الله ﷺ.

٣- الإجماع، باستشارة أهل العلم والفتوى.

٤- الاجتهاد والرأى، وذلك عند عدم وجود ما يحكم به من كتاب أو سنة أو إجماع(٤).

فكان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى، فإن وجد

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام للزحيلى، ص(٨٣، ٨٤).
(٢) وقائع ندوة النظم الإسلامية أبو ظبى (١/ ٣٦٦).
(٣) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص١٣٤.
(٤) وقائع ندوة النظم الإسلامية (١/ ٣٩٠).

فيه ما يقضى به قضى، فإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس، هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء، فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا أو بكذا، فيأخذ بقضاء رسول الله ﷺ، يقول عندئذ: الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا، وإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على الأمر قضى به[1]، ويظهر أن الصديق يرى الشورى ملزمة إذا اجتمع رأى أهل الشورى على أمر، إذ لا يجوز للإمام مخالفتهم.

وهذا ما حكى عنه فى القضاء فإنه كان إذا اجتمع رأى المستشارين على الأمر قضى به وهذا ما أمر به عمرو بن العاص عندما أرسل إليه خالد بن الوليد مدداً حيث قال له: شاورهم ولا تخالفهم[2]، وكان رضى الله عنه يتثبت فى قبول الأخبار، فعن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث فقال: ما أجد لك فى كتاب الله تعالى شيئًا، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال: حضرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال أبو بكر: هل معك أحد؟ فشهد ابن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه[3]، وكان يرى أن القاضى لا يحكم بعلمه الشخصى، إلا إذا كان معه شاهد آخر يعزز هذا العلم، فقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال: لو رأيت رجلاً على حد، لم أعاقبه حتى تقوم البينة عليه، أو يكون معى شاهد آخر[4]، وهذه بعض الأقضية التى صدرت فى عهد أبى بكر رضى الله عنه:

أ- قضية قصاص:

قال على بن ماجدة السهمى: قاتلت رجلاً، فقطعت بعض أذنه، فقدم أبو بكر حاجًا، فرفع شأننا إليه، فقال لعمر: انظر هل بلغ أن يتقص منه، قال: نعم، علىَّ بالحجَّام، فلما ذكر الحجام، قال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إني وهبت لخالتي غُلامًا، أرجو أن يبارك لها فيه، وإني نهيتها أن تجعله حجامًا، أو قصَّابًا، أو صانعًا**[5].

---

(١) موسوعة فقه أبى بكر الصديق، قلعجى، ص١٥٥.

(٢) نفس المصدر السابق، ص١٥٦.

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبى (١/ ٢).

(٤) تراث الخلفاء الراشدين، د. صبحى محمصانى، ص١٨٦.

(٥) أخبار القضاة لوكيع (٢/ ١٠٢) نقلاً عن تاريخ القضاء للزحيلى، ص١٣٦.

٢- نفقة الوالد على الولد:

عن قيس بن حازم قال: حضرت أبا بكر الصديق رضى الله عنه، فقال له رجل: يا خليفة رسول الله، هذا يريد أن يأخذ مالى كله ويجتاحه، فقال أبو بكر رضى الله عنه: إنما لك من ماله ما يكفيك، فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ، أليس قال رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك؟» فقال أبو بكر رضى الله عنه: ارض بما رضى الله به، ورواه غيره عن المنذر بن زياد، وقال فيه: إنما يعنى بذلك النفقة[١].

٣- الدفاع المشروع:

عن أبي مليكة عن جده أن رجلاً عضَّ يد رجل فأنْدَرَ ثنيته (قلع سنه) فأهدرها أبو بكر[٢].

٤- الحكم بالجلد:

روى الإمام مالك عن نافع أن صفية بنت أبى عبيد أخبرته: أن أبا بكر الصديق أتى برجل قد وقع على جارية بكر فأحبلها، ثم اعترف على نفسه بالزنا، ولم يكن أحصن، فأمر به أبو بكر فجلد الحدَّ، ثم نُفى إلى فدك[٣]، وفى رواية: بأنه لم يجلد الجارية ولم ينفها لأنها استكرهت، ثم زوجها إياه أبو بكر وأدخله عليها[٤].

٥- الحضانة للأم ما لم تتزوج:

طلق عمر بن الخطاب امرأته الأنصارية - أم ابنه عاصم - فلقيها تحمله بمُحَسِّر[٥]، ولقيه قد فُطم ومشى، فأخذ بيديه لينتزعه منها، ونازعها إياه حتى أوجع الغلام وبكى، وقال: أنا أحق بابنى منك. فاختصمها إلى أبى بكر، فقضى لها به، وقال: ريحها، وحِجرُها وفرشها خير له منك حتى يشب ويختار لنفسه[٦]. وفى رواية: هى أعطف

---

(١) السنن الكبرى (٧ / ٤٨١) نقلاً عن تاريخ القضاء للزحيلى، ص١٣٦. ضعيف جداً بل قد تكون موضوعة. الألبانى إرواء (٣ / ٣٢٩).

(٢) تاريخ القضاء للزحيلى، ص١٣٧.

(٣) الموطأ، كتاب الحدود رقم ٨٤٨.

(٤) مصنف عبد الرزاق رقم ١٢٧٩٦.

(٥) محسر: موضع بين مكة وعرفة. معجم البلدان (٥ / ٦٢).

(٦) مصنف عبد الرزاق (٧ / ٥٤) رقم ١٢٦٠١.

وألطف وأرحم وأحنُّ وأرأف، وهى أحق بولدها مالم تتزوج[١].

هذه بعض الأقضية والأحكام التى حدثت فى عهد الصديق رضى الله عنه، هذا وقد تميز القضاء فى عهد الصديق بعدة أمور منها:

أ- كان القضاء فى عهد الصديق امتداداً لصورة القضاء فى العهد النبوى، بالالتزام به، والتأسى بمنهجه، وانتشار التربية الدينية، والارتباط بالإيمان والعقيدة والاعتماد على الوازع الدينى، والبساطة فى سير الدعوى، واختصار الإجراءات القضائية، وقلة الدعاوى والخصومات.

ب- أصبحت الأحكام القضائية فى عصر الصديق موئل الباحثين، ومحط الأنظار للفقهاء، وصارت الأحكام القضائية مصدراً للأحكام الشرعية، والاجتهادات القضائية، والآراء الفقهية فى مختلف العصور.

جـ- مارس الصديق وبعض ولاته النظر فى المنازعات، وتولى القضاء بجانب الولاية.

د- ساهمت فترة الصديق فى ظهور مصادر جديدة للقضاء فى العهد الراشدى، وصارت مصادر الأحكام القضائية هى: القرآن الكريم، والسنة الشريفة، والإجماع، والقياس، والسوابق القضائية، والرأى الاجتهادى مع المشورة[٢].

هـ- كانت آداب القضاء مرعية فى حماية الضعيف، ونصرة المظلوم، والمساواة بين الخصوم، وإقامة الحق والشرع على جميع الناس، ولو كان الحكم على الخليفة أو الأمير أو الوالى، وكان القاضى فى الغالب يتولى تنفيذ الأحكام، إن لم ينفذها الأطراف طوعًا واختياراً، وكان التنفيذ عقب صدور الحكم فوراً[٣].

---

(١) مصنف عبد الرازق (٧/ ٥٤) رقم (١٢٦٠٠).

(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص(١٥٧، ١٥٨).

(٣) نفس المصدر السابق، ص١٦٠.

٣- الولاية على البلدان:

كان أبو بكر يستعمل الولاة فى البلدان المختلفة ويعهد إليهم بالولاية العامة فى الإدارة والحكم والإمامة، وجباية الصدقات، وسائر أنواع الولايات، وكان ينظر إلى حسن اختيار الرسول للأمراء والولاة على البلدان، فيقتدى به فى هذا العمل، ولهذا نجده قد اقر بجميع عمال الرسول الذين توفى الرسول ﷺ وهم علي ولايتهم، ولم يعزل أحداً منهم إلا ليعينه فى مكان آخر أكثر أهمية من موقعه الأول، ويرضاه، كما حدث لعمرو بن العاص(١)، وكانت مسئوليات الولاة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالدرجة الأولى امتداداً لصلاحياتهم فى عصر الرسول ﷺ، خصوصًا الولاة الذين سبق تعيينهم أيام الرسول ﷺ، ويمكن تلخيص أهم مسئوليات الولاة فى عصر أبى بكر وهى:

أ- إقامة الصلاة وإمامة الناس وهى المهمة الرئيسية لدى الولاة نظراً لما تحمله من معان دينية ودنيوية سياسية واجتماعية، حيث الولاة يؤمون الناس وعلى وجه الخصوص فى صلاة الجمعة، والأمراء دائمًا كانت توكل إليهم الصلاة سواء كانوا أمراء على البلدان أم أمراء على الأجناد.

ب- الجهاد كان يقوم به أمراء الأجناد فى بلاد الفتح، فكانوا يتولون أموره وما فيه من مهام مختلفة بأنفسهم، أو ينيبون غيرهم فى بعض المهام، كتقسيم الغنائم أو المحافظة على الأسرى، أو غير ذلك، وكذلك ما يتبع هذا الجهاد من مهام أخرى كمفاوضة الأعداء وعقود المصالحة معهم وغيرها، ويتساوى فى المهمات الجهادية أمراء الأجناد فى الشام والعراق، وكذلك الأمراء فى البلاد التى حدثت فيها الردة كاليمن والبحرين وعمان ونجد، نظراً لوجود تشابه فى العمليات الجهادية مع اختلاف الأسباب الموجهة لهذه العمليات.

جـ- إدارة شئون البلاد المفتوحة، وتعيين القضاة والعمال عليها من قبل الأمراء أنفسهم، وبإقرار من الخليفة أبى بكر، أو تعيين من أبى بكر رضى الله عنه، عن طريق هؤلاء العمال(٢).

د- أخذ البيعة للخليفة، فقد قام الولاة فى اليمن وفى مكة والطائف وغيرها، بأخذ

---

(١) الولاية على البلدان، عبد العزيز إبراهيم العمرى (١/ ٥٥).

(٢) نفس المصدر السابق (١/ ٥٩).

البيعة لأبى بكر رضى الله عنه من أهل البلاد التى كانوا يتولون عليها.

هـ- كانت هناك أمور مالية توكل إلى الولاة أو إلى من يساعدهم ممن يعينهم الخليفة أو الوالى لأخذ الزكاة من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، أو أخذ الجزية من غير المسلمين وصرفها فى محلها الشرعى، وهى امتداد لما قام به ولاة الرسول ﷺ فى هذا الخصوص.

و- تجديد العهود القائمة من أيام الرسول ﷺ، حيث قام والى نجران بتجديد العهد الذى كان بين أهلها وبين الرسول ﷺ بناء على طلب نصارى نجران[١].

ز- كانت من أهم مسئوليات الولاة إقامة الحدود وتأمين البلاد، وهم يجتهدون رأيهم فيما لم يكن فيه نص شرعى، كما فعل المهاجر بن أبى أمية بالمرأتين اللتين تغنتا بذم الرسول ﷺ، وفرحتا بوفاته، وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى فى جهاد الصديق لأهل الردة.

ح- كان للولاة دور رئيسى فى تعليم الناس أمور دينهم وفى نشر الإسلام فى البلاد التى يتولون عليها، وكان الكثير من هؤلاء الولاة يجلسون فى المساجد يعلمون الناس القرآن والأحكام، وذلك عملاً بسنة الرسول ﷺ، و تعتبر هذه المهمة من أعظم المهام وأجلها فى نظر الرسول ﷺ، وخليفته أبى بكر، وقد اشتهر عن ولاة أبى بكر ذلك، حيث يتحدث أحد المؤرخين عن عمل زياد والى أبى بكر على حضر موت فيقول: فلما أصبح زياد غدا يقرىء الناس كما كان يفعل قبل ذلك[٢].

وبهذا التعليم كان للولاة دور كبير فى نشر الإسلام فى ربوع البلاد التى يتولونها، وبهذا التعليم تثبت أقدام الإسلام سواء فى البلاد المفتوحة الحديثة العهد بالإسلام أو فى البلاد التى كانت مسلمة وارتدت، وهى حديثة عهد بالردة جاهلة بأحكام دينها، إضافة إلى أن البلاد المستقرة كمكة والطائف والمدينة، كان بها من يقرىء الناس بأمر من الولاة أو الخليفة نفسه، أو من يعينه الخليفة على التعليم فى هذه البلدان[٣].

وقد كان الوالى هو المسئول مسئولية مباشرة عن إدارة الإقليم الذى يتولاه، وفى حالة سفر هذا الوالى فإنه يتعين عليه أن يستخلف أو ينيب عنه من يقوم بعمله حتى يعود

(١) تاريخ الطبرى (٣/١٦٥).
(٢) الولاية على البلدان (١/٦٠).
(٣) نفس المصدر (١/٦١).

هذا الوالى إلى عمله، ومن ذلك أن المهاجر بن أبى أمية عينه الرسول ﷺ على كندة، ثم أقره أبو بكر بعد وفاة الرسول، ولم يصل المهاجر إلى اليمن مباشرة وتأخر نظراً لمرضه فأرسل إلى (زياد بن لبيد) ليقوم عنه بعمله حتى شفائه وقدومه، وقد أقرَّ أبو بكر ذلك[١]، كذلك كان خالد أثناء ولايته للعراق ينيب عنه فى الحيرة من يقوم بعمله حتى عودته.

وكان أبو بكر رضى الله عنه يشاور الكثير من الصحابة قبل اختيار أحد من الأمراء سواء على الجند أو على البلدان، ونجد فى مقدمة مستشارى أبى بكر فى هذا الأمر عمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب وغيرهما[٢]، كما كان أبو بكر رضى الله عنه يشاور الشخص الذى يريد توليته قبل أن يعينه، وعلى وجه الخصوص إذا أراد أن ينقل الشخص من ولاية إلى أخرى كما حدث حينما أراد أن ينقل عمرو بن العاص من ولايته التى ولاه عليها الرسول ﷺ إلى ولاية جند فلسطين، فلم يصدر أبو بكر قراره إلا بعد أن استشاره وأخذ منه موافقة على ذلك[٣]، كذلك الحال بالنسبة للمهاجر بن أمية الذى خيَّره أبو بكر بين اليمن أو حضر موت، فاختار المهاجر اليمن فعينه أبو بكر عليها[٤].

ومن الأمور التى سار عليها أبو بكر رضى الله عنه أنه كان يعمل بسنة النبى ﷺ فى تولية بعض الناس على قومهم إذا وجد فيهم صلحاء، كالطائف وبعض القبائل، وكان أبو بكر رضى الله عنه عندما يريد أن يعين شخصاً على ولاية يكتب للشخص المعين عهداً له على المنطقة التى ولاه عليها، كما أنه فى كثير من الأحيان قد يحدد له طريقه إلى ولايته وما يمر عليه من أماكن، خصوصاً إذا كان التعيين مختصاً بمنطقة لم تفتح بعد، ولم تدخل ضمن سلطات الدولة، ويتضح ذلك فى حروب الردة، وفتوح الشام والعراق، وقام الصديق أحياناً بضم بعض الولايات إلى بعض، خصوصاً بعد الانتهاء من قتال المرتدين فقد ضم أبو بكر كندة إلى زياد بن لبيد البياضى، وكان والياً على حضر موت واستمر بعد ذلك والياً لحضر موت وكندة[٥].

وكانت معاملة أبى بكر للولاة تتسم بالاحترام المتبادل الذى لم تشبه شائبة، وأما عن الاتصالات بين الولاية وبين الخليفة أبى بكر رضى الله عنه، فقد كانت تجرى بصفة

(١، ٢، ٣، ٤) الولاية على البلدان (١ / ٥٥).

(٥) المصدر السابق (١ / ٥٦).

دائمة، وكانت هذه الاتصالات تختص بمصالح الولاية ومهام العمل، فقد كان الولاة كثيراً ما يكتبون لأبى بكر فى مختلف شئونهم يستشيرونه، وكان أبو بكر يكتب لهم الإجابة عن استفساراتهم، أو يوجه لهم أوامره، وكانت الرسل تأتى بالأخبار من الولاة سواء أخبار الجهاد أو قبل ذلك على جبهات حروب المرتدين، كذلك كان الولاة يبعثون بأخبار ولاياتهم من تلقاء أنفسهم[1]، وكان الولاة يتصل بعضهم ببعض عن طريق الرسل أو عن طريق الاتصال المباشر واللقاءات، وتتمثل هذه اللقاءات والاتصالات بالدرجة الأولى بين ولاة اليمن وحضر موت بعضهم مع بعض، وكذلك الحال بالنسبة لولاة الشام، الذين كانوا كثيراً ما يجتمعون لتدارس أمورهم العسكرية بالدرجة الأولى، وكانت كثير من مراسلات أبى بكر رضى الله عنه تختص بحث الولاة على الزهد فى الدنيا وطلب الآخرة، وكانت بعض هذه النصائح تصدر على شكل كتب عامة رسمية من الخليفة نفسه إلى مختلف الولاة وأمراء الأجناد[2]، هذا وقد قسمت الدولة الإسلامية فى عهد أبى بكر إلى عدة ولايات، وهذه أسماء الولايات والولاة:

أ- المدينة: عاصمة الدولة وبها الخليفة أبو بكر رضى الله عنه.

ب- مكة: وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذى ولاه الرسول ﷺ واستمر مدة حكم أبى بكر.

جـ- الطائف: وأميرها عثمان بن أبى العاص الثقفى، ولاه رسول الله ﷺ، وأقره أبو بكر عليها.

د- صنعاء: وأميرها المهاجر بن أبى أمية، وهو الذى فتحها ووليها بعد انتهاء أمر الردة.

هـ- حضرموت: ووليها زياد بن لبيد.

و- زبيد ورقع: ووليها أبو موسى الأشعرى.

ز- خولان: ووليها يعلى بن أبى أمية.

ح- الجند: وأميرها معاذ بن جبل.

(١، ٢) الولاية على البلدان (١/ ٥٧).

ط- نجران: ووليها جرير بن عبد الله البجلى.

ى- جرش: ووليها عبد الله بن ثور.

ك- البحرين: ووليها العلاء بن الحضرمى.

ل- العراق والشام كان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها.

م- عمان: ووليها حذيفة بن محصن.

ن- اليمامة: ووليها سليط بن قيس(١).

٤- موقف على والزبير رضى الله عنهما من خلافة الصديق:

وردت أخبار كثيرة فى شأن تأخر علي عن مبايعة الصديق رضى الله عنهما، وكذا تأخر الزبير بن العوام، وجُلُّ هذه الأخبار ليس بصحيح إلا ماروواه ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن عليا والزبير، ومن كان معهما تخلفوا فى بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ(٢)، فقد كان انشغال جماعة من المهاجرين وعلى رأسهم على بن أبى طالب بأمر جهاز رسول الله ﷺ من تغسيل وتكفين، ويبدو ذلك واضحًا فيما رواه الصحابى سالم ابن عبيد رضى الله عنه من أن أبا بكر قال لأهل بيت النبى، وعلى رأسهم على: عندكم صاحبكم، فأمرهم يغسلونه(٣).

وقد بايع الزبير بن العوام وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما أبا بكر فى اليوم التالى لوفاة الرسول ﷺ وهو يوم الثلاثاء، قال أبو سعيد الخدرى: لما صعد أبو بكر المنبر، نظر فى وجوه القوم، فلم ير الزبير بن العوام فدعا بالزبير فجاء، فقال له أبو بكر: يا ابن عمة رسول الله ﷺ، وحواريَّه، أتريد أن تشقَّ عصا المسلمين؟ فقال الزبير: لا تثريب عليك يا خليفة رسول الله، فقام الزبير، فبايع أبا بكرا، ثم نظر أبو بكر فى وجوه القوم، فلم ير على بن أبى طالب فدعا بعلى، فجاء، فقال له أبو بكر: يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وختنه على ابنته، أتريد أن تشق عصا المسلمين؟

---

(١) الدول العربية الإسلامية، منصور الحرابى، ص(٩٦، ٩٧).

(٢، ٣) صحيح التوثيق فى سيرة وحياة الصديق، ص٩٨.

فقال على : لا تثريب عليك يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام على، فبايع أبا بكر![1].

ومما يدل على أهمية حديث أبى سعيد الخدرى الصحيح أن الإمام (مسلم بن الحجاج) صاحب «الجامع الصحيح» - الذى هو أصح الكتب الحديثية بعد «صحيح البخارى» - ذهب إلى شيخه الإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة - صاحب صحيح ابن خزيمة - فسأله عن هذا الحديث، فكتب له ابن خزيمة الحديث، وقرأه عليه، فقال مسلم لشيخه ابن خزيمة: هذا الحديث يساوى بدنة، فقال ابن خزيمة: هذا الحديث لا يساوى بَدَنَة[2] فقط، إنه يساوى بدرة[3] مال، وعلق على هذا الحديث ابن كثير - رحمه الله - فقال: هذا إسناد صحيح محفوظ، وفيه فائدة جليلة، وهى مبايعة على بن أبى طالب إما فى أول يوم أو فى اليوم الثانى من الوفاة، وهذا حق، فإن على بن أبى طالب لم يفارق الصديق فى وقت من الأوقات، ولم ينقطع فى صلاة من الصلوات خلفه[4]، وفى رواية حبيب بن أبى ثابت، حيث قال: كان على بن أبى طالب فى بيته، فأتاه رجل، فقال له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج علىٌّ إلى المسجد فى قميص له، ما عليه إزار ولا رداء، وهو متعجِّل، كراهة أن يبطىء عن البيعة. فبايع أبا بكر، ثم جلس، وبعث فى ردائه، فجاءوه به، فلبسه فوق قميصه[5]. وقد سأل عمرو بن حريث سعيد بن زيد رضى الله عنه، فقال له: أشهِدْتَ وفاة رسول الله ﷺ؟ قال:نعم. قال له: متى بويع أبو بكر؟ قال سعيد: يوم مات رسول الله ﷺ، كره المسلمون أن يبقوا بعض يوم، وليسوا فى جماعة. قال: هل خالف أحد أبا بكر؟ قال سعيد: لا. لم يخالفه إلا مرتد، أو كاد أن يرتد، وقد أنقذ الله الأنصار، فجمعهم عليه وبايعوه. قال: هل قعد أحد من المهاجرين عن بيعته؟ قال سعيد: لا. لقد تتابع المهاجرون على بيعته!![6].

وأما على رضى الله عنه فلم يفارق الصديق فى وقت من الأوقات، ولم ينقطع عنه فى جماعة من الجماعات، وكان يشاركه فى المشورة، وفى تدبير أمور المسلمين[7].

---

(١) صححه ابن كثير فى البداية والنهاية (٥ / ٢٤٩).

(٢) البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة ولعظمها وضخامتها سميت بدنة.

(٣) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف دينار، والمعنى: أنه كنز ثمين.

(٤) البداية والنهاية (٥ / ٢٤٩).

(٥، ٦، ٧) الخلفاء الراشدون للخالدى، ص٥٦.

ويرى ابن كثير وكثير من أهل العلم أن عليًا جدَّد بيعته بعد ستة أشهر من البيعة الأولى، أى بعد وفاة فاطمة رضى الله عنها، وجاءت فى هذه البيعة روايات صحيحة[١].

وكان على فى خلافة أبى بكر عيبة نصح له، مرجِّحًا لما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين على أى شيء آخر، ومن الدلائل الساطعة على إخلاصه لأبى بكر ونصحه للإسلام والمسلمين، وحرصه على الاحتفاظ ببقاء الخلافة واجتماع شمل المسلمين ما جاء من موقفه من توجه أبى بكر رضى الله عنه بنفسه إلى ذى القصة[٢]، وعزمه على محاربة المرتدين، وقيادته للتحركات العسكرية ضدهم بنفسه، وما كان فى ذلك من مخاطرة وخطر على الوجود الإسلامى[٣]، فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما برز أبو بكر إلى ذى القصة، واستوى على راحلته أخذ على بن أبى طالب بزمامها، وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد: لمَّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدًا فرجع[٤].

فلو كان على رضى الله عنه - أعاذه الله من ذلك - لم ينشرح صدره لأبى بكر وقد بايعه على رغم من نفسه، فقد كانت هذه فرصة ذهبية ينتهزها على، فيترك أبا بكر وشأنه، لعله يحدث به حدث فيستريح منه ويصفو الجو له، وإذا كان فوق ذلك - حاشاه عنه - من كراهته له وحرصه على التخلُّص منه، أغرى به أحدًا يغتاله، كما يفعله الرجال السياسيون بمنافسيهم وأعدائهم[٥].

٥- ﴿إنا معشر الأنبياء لا نُورَثُ ما تركنا صدقة﴾[٦]:

قالت عائشة رضى الله عنها: إن فاطمة والعباس رضى الله عنهما: أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ وهما حينئذ يطلبان أرضيهما من فدك وسهمهما من خيبر، فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا نورث، ما تركنا صدقة،**

---

(١) البداية والنهاية (٥/٢٤٩).

(٢) ذى القصة: من المدينة على مراحل.

(٣) المرتضى سيرة على بن أبى طالب، ص٩٧ للندوى.

(٤) البداية والنهاية (٦/٣١٤، ٣١٥).

(٥) المرتضى سيرة على بن أبى طالب، ص٩٧.

(٦) البخارى رقم (٦٧٢٥).

إنما يأكل آل محمد من هذا المال» (١). وفي رواية: قال أبو بكر رضي الله عنه: ... لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أن أزواج النبي ﷺ، حين توفي رسول الله ﷺ، أردن أن يبعثن عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أبي بكر، يسألنه ميراثهن، فقالت عائشة: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة» (٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لا يقتسم ورثتي دينارًا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة» (٤).

وهذا ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع فاطمة رضي الله عنها، امتثالاً لقوله ﷺ، لذلك قال الصديق: لست تاركًا شيئًا كان رسول الله يعمل به إلا عملت به(٥)، وقال: والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته(٦).

وقد تركت فاطمة رضي الله عنها منازعته بعد احتجاجه بالحديث وبيانه لها، وفيه دليل على قبولها الحق وإذعانها لقوله ﷺ، قال ابن قتيبة(٧): وأما منازعة فاطمة أبا بكر رضي الله عنهما في ميراث النبي ﷺ فليس بمنكر، لأنها لم تعلم ما قاله رسول الله ﷺ، وظنت أنها ترثه كما يرث الأولاد آباءهم، فلما أخبرها بقوله كفت(٨).

وقال القاضي عياض: وفي ترك فاطمة منازعة أبي بكر بعد احتجاجه عليها بالحديث التسليم للإجماع على قضية، وأنها لما بلغها الحديث وبين لها التأويل تركت رأيها، ثم لم يكن منها ولا من ذريتها بعد ذلك طلب ميراث، ثم ولي علي الخلافة فلم يعدل بها عما فعله أبو بكر وعمر رضي الله عنهم(٩).

---

(١) البخاري رقم (٦٧٢٦).
(٢) مسلم رقم ١٧٥٩ بصيغة أخرى وبنفس المعنى.
(٣) البخاري، رقم (٦٧٣٠)؛ مسلم رقم (١٧٥٨).
(٤) البخاري رقم (٦٧٢٩).
(٥) مسلم رقم (١٧٥٨).
(٦) البخاري رقم (٦٧٢٦).
(٧) عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت٢٧٦هـ (شذرات الذهب ٢/١٦٩).
(٨) تأويل مختلف الحديث، ص١٨٩.
(٩) شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/٣١٨).

وقال حماد بن إسحاق: والذى جاءت به الروايات الصحيحة فيما طلبه العباس وفاطمة وعلى لها وأزواج النبى ﷺ من أبى بكر رضى الله عنهم جميعًا إنما هو الميراث، حتى أخبرهم أبو بكر والأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: «لا نورث ما تركنا صدقة». فقبلوا بذلك وعلموا أنه الحق، ولو لم يقل رسول الله ﷺ ذلك كان لأبى بكر وعمر فيه الحظ الوافر بميراث عائشة وحفصة رضى الله عنهما، فآثروا أمر الله وأمر رسوله، ومنعوا عائشة وحفصة، ومن سواهما ذلك، ولو كان رسول يورث، لكان لأبى بكر وعمر أعظم الفخر به أن تكون ابنتاهما وارثتى محمد ﷺ(١).

وأما ما ذكره من الرواة فى كون فاطمة رضى الله عنها غضبت وهجرت الصديق حتى ماتت، فبعيد جداً لعدة أدلة منها:

أ- ما رواه البيهقى من طريق الشعبى: أن أبا بكر عاد فاطمة، فقال لها على: هذا أبو بكر يستأذن عليك، فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له فدخل عليها فترضاها حتى رضيت(٢)، وبهذا يزول الإشكال الوارد فى تمادى فاطمة رضى الله عنها لهجر أبى بكر الصديق رضى الله عنه، كيف وهو القائل: والله لقرابة رسول الله ﷺ، أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى(٣)، وما فعل إلا امتثالاً واتباعًا لأمر رسول الله ﷺ(٤).

ب- لقد انشغلت عن كل شيء بحزنها لفقدها أكرم الخلق، وهى مصيبة تزرى بكل المصائب، كما أنها انشغلت بمرضها الذى ألزمها الفراش عن أى مشاركة فى أى شأن من الشئون، فضلاً عن لقاء خليفة المسلمين المشغول - فى كل لحظة من لحظاته - بشئون الأمة، وحروب الردة وغيرها، كما أنها كانت تعلم بقرب لحوقها بأبيها، فقد أخبرها رسول الله ﷺ بأنها أول من يلحق به من أهله - ومن كان فى مثل علمها لا يخطر بباله أمور الدنيا، وما أحسن قول المهلب الذى نقله العينى: ولم يرو أحد، أنهما التقيا وامتنعا عن التسليم، وإنما لازمت بيتها، فعبر الراوى عن ذلك بالهجران(٥).

هذا ومن الثابت تاريخيًا أن أبا بكر دام أيام خلافته يعطى أهل البيت حقهم فى فيء

---

(١) البداية والنهاية (٥/٢٥٢، ٢٥٣) وقال: إسناده جيد قوى.

(٢) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص١٠٩.

(٣) البخارى رقم ٤٠٣٦.

(٤) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، د. سالم السحيمى، ص٢٩١.

(٥) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص١٠٨.

رسول الله ﷺ فى المدينة، ومن أموال فدك وخمس خيبر، إلا أنه لم ينفذ فيها أحكام الميراث، عملاً بما سمعه من رسول الله ﷺ، وقد روي عن محمد بن على بن الحسين المشهور بمحمد الباقر، وعن زيد بن على أنهما قالا: إنه لم يكن من أبى بكر - فيما يختص بآبائهم - شيء من الجور أو الشطط، أو ما يشكونه من الحيف أو الظلم[١].

ولما توفيت فاطمة رضى الله عنها بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر على الأشهر، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه عهد إليها أنها أول أهله لحوقًا به، وقال لها مع ذلك: «**أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة**»[٢]. وذلك ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة، عن مالك عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده على بن الحسين، قال: ماتت فاطمة بين المغرب والعشاء، فحضرها أبو بكر وعمر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف، فلما وُضعت ليُصلى عليها، قال على: تقدم يا أبا بكر، قال أبو بكر: وأنت شاهد يا أبا الحسن؟ قال: نعم تقدم، فو الله لا يصلى عليها غيرك، فصلى عليها أبو بكر، ودفنت ليلاً، وجاء فى رواية: صلى أبو بكر الصديق على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فكبر عليها أربعًا[٣]، وفى رواية مسلم، صلى عليها على بن أبى طالب[٤].

هذا وقد كانت صلة سيدنا أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ بأعضاء أهل البيت، صلة ودية تقديرية تليق به وبهم، وقد كانت هذه المودة والثقة متبادلتين بين أبى بكر وعلى، فقد سمَّى على أحد أولاده بأبى بكر[٥]، وقد احتضن على ابن أبى بكر محمداً بعد وفاة الصديق وكفله بالرعاية ورشحه للولاية فى خلافته حتى حسب عليه، وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله[٦].

هذه بعض القضايا الداخلية التى عالجها الصديق رضى الله عنه، والتزم فيها بمتابعة الرسول ﷺ بكل دقة وحرص، فرضى الله عنه وعن جميع الصحابة الكرام الطيبين الأبرار.

---

(١) المرتضى لأبى الحسن الندوى، ص (٩٠، ٩١) نقلاً عن نهج البلاغة شرح أبى الحديد.

(٣) المرتضى للندوى، ص٩٤.

(٣) المرتضى للندوى، ص٩٤ نقلاً عن الطبقات الكبرى (٧/٢٩).

(٤) مسلم رقم (١٧٥٩).

(٥، ٦) المرتضى للندوى، ص٩٨.

الفصل الثالث

جيش أسامة وجهاد الصديق لأهل الردة

المبحث الأول

جيش أسامة

أولاً : إنفاذ أبى بكر الصديق جيش أسامة رضى الله عنهما :

كانت الدولة الرومانية إحدى الدولتين المجاورتين للجزيرة العربية فى عهد النبى ﷺ، وكانت تحتل أجزاء كبيرة من شمال الجزيرة، وكان أمراء تلك المناطق يُعيَّنون من قبل الدولة الرومانية وينصاعون لأوامرها.

بعث النبى الكريم ﷺ الدعاة والبعوث إلى تلك المناطق، وأرسل دحية الكلبى بكتاب إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام(١)، ولكنه عاند وأخذته العزة بالإثم، وكانت خطة الرسول ﷺ واضحة المعالم لهز هيبة الروم فى نفوس العرب، ومن ثم تنطلق جيوش المسلمين لفتح تلك الأراضى، فأرسل ﷺ فى العام الثامن للهجرة جيشاً واشتبك مع نصارى العرب والروم فى معركة مؤتة، واستشهد قادة الجيش على التوالى زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبى طالب، ثم عبد الله بن رواحة رضى الله عنه، وتولى قيادة الجيش بعدهم سيف الله خالد بن الوليد رضى الله عنه فعاد بالجيش إلى المدينة النبوية(٢).

وفى العام التاسع للهجرة خرج رسول الله ﷺ بجيش عظيم إلى الشام ووصل إلى تبوك(٣)، ولم يشتبك جيش المسلمين بالروم ولا القبائل العربية وآثر حكام المدن الصلح على الجزية وعاد الجيش إلى المدينة بعدما مكثوا عشرين ليلة بتبوك(٤)، وفى العام الحادى عشر ندب النبى ﷺ الناس لغزو الروم بالبلقاء وفلسطين وفيهم كبار المهاجرين والأنصار، وأَمَّر عليهم أسامة رضى الله عنهم(٥). قال الحافظ ابن حجر: جاء أنه كان

---

(١) البخارى كتاب الوحى رقم (٧).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة للعمرى ص (٢/ ٤٦٧-٤٧٠).

(٣) مسلم كتاب الفضائل (٤ / ٤٧٨٤).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٣٥).

(٥) قصة بعث جيش أسامة د. فضل إلهى ص ٨.

تجهيز جيش أسامة رضى الله عنه يوم السبت قبل موت النبى ﷺ بيومين، وكان ابتداء ذلك قبل مرض النبى ﷺ، فندب الناس لغزو الروم فى آخر صفر ودعا أسامة رضى الله عنه فقال: «**سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش**» [1] وطعن بعض الناس فى إمارة أسامة رضى الله عنه فردَّ عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل وايم الله إن كان لخليقًا للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلىَّ، وإنَّ هذا لمن أحبِّ الناس إلىَّ بعده**» [2]. ومرض النبى ﷺ بعد البدء بتجهيز هذا الجيش بيومين واشتدَّ وجعه عليه الصلاة والسلام فلم يخرج هذا الجيش وظل معسكرًا بالجرف[3] ورجع إلى المدينة بعد وفاة النبى الكريم ﷺ[4]، وتغيرت الأحوال مع انتقال الرسول الكريم ﷺ إلى رحمة ربه، وصارت كما تصف أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنها بقولها: لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة واشرأبَّ[5] النفاق والله! قد نزل بى[6] ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها[7]، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى[8] مطيرة فى حش[9] فى ليلة مطيرة بأرض مسبعة[10][11].

ولما تولى الخلافة الصديق أمر – رضى الله عنه – رجلاً فى اليوم الثالث من مُتَوَفَّى رسول الله ﷺ أن ينادى فى الناس: ليُتمَّ بعث أسامة رضى الله عنه، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة (رضى الله عنه) إلا خرج إلى عسكره بالجرف[12]، ثم قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس: إنما أنا مثلكم وإنى لا أدرى لعلكم تكلفوننى ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه

---

(١) فتح البارى (٨/١٥٢).

(٢) البخارى كتاب المغازى رقم (٤٤٦٩).

(٣) الجرف: بالضم ثم السكون: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٥٢) السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص ٦٨٥.

(٥) اشرأب: ارتفع وعلا. انظر: النهاية فى غريب الحديث (٢/٤٥٥).

(٦) نزل (بى): وفى تاريخ خليفة بن خياط: نزل بأبى ص ١٠٢.

(٧) لهاضها: كسرها. النهاية فى غريب الحديث والأثر (٥/٢٨٨).

(٨) معزى: المعز من الغنم خلاف الضأن، وهو اسم جنس.

(٩) حش: بستان.

(١٠) مسبعة: أرض ذات سباع.

(١١) البداية والنهاية (٦/٣٠٩).

(١٢) نفس المصدر السابق (٦/٣٠٧).

من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعونى وإن زغت فقومونى، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة - ضربة سوط فما دونها - وإن لى شيطانًا يعترينى، فإذا أتانى فاجتنبونى، لا أؤثر فى أشعاركم وأبشاركم وأنتم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضى هذا الأجل إلا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا فى مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قومًا نسوا آجالهم وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجد الجد. والوحا الوحا. والنجاءَ النجاء. فإن وراءكم طالبًا حثيثًا مَرُّه سريع احذروا الموت واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات(١).

وقام أيضًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، فإنما أخلصتم لحين فقركم وحاجتكم، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس وأين هم اليوم، أين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة فى مواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميمًا، قد توالت عليهم العالات الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بعدوا ونسى ذكرهم وصاروا كَلاَ شىء، إلا أن الله عز وجل قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم، وبعثنا خَلَفًا بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن انحدرنا كنا مثلهم، أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ صاروا ترابًا، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية وهم فى ظلمات القبور: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. أين من تعرفون من آبائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ما قدموا فحلوا عليه، وأقاموا للشقاوة أو السعادة بعد الموت، ألا إن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف به عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مدينون وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته، أما آن لأحدكم أن تحسر عنه النار ولا تبعد عنه الجنة(٢).

---

(١) البداية والنهاية (٦/٣٠٧)، تاريخ الطبرى (٢/٢٤١، ٢٤٥) ط. الكتب العلمية.

(٢) نفس المصدرين السابقين.

وفى هذه الخطبة دروس وعبر منها :

(أ) بيان طبيعة خليفة رسول الله ﷺ وأنه ليس خليفة عن الله بل عن رسوله ﷺ، وأنه بشر غير معصوم لا يطيق مقام رسول الله ﷺ بنبوته ورسالته، ولذلك فهو فى سياسته متبع وليس بمبتدع، أى أنه على نهج النبى ﷺ فى الحكم بالعدل والإحسان(١).

(ب) بيان واجب الأمة فى مراقبة الحاكم لتعينه فى إحسانه وصلاحه وتقومه وتنصحه فى غير ذلك، ليظل على الطريق متبعًا غير مبتدع.

(جـ) بيان أن النبى ﷺ عدل بين الأمة فلم يظلم أحدًا، ولذلك ليس لأحد عند النبى ﷺ مظلمة صغيرة أو كبيرة، ومعنى هذا أنه سوف يسير على نفس النهج، ينشر العدل ويبتعد عن الظلم، ومن ثم على الأمة أن تعينه على ذلك، وإذا رآه أحد غاضبًا فعليه أن يجتنبه حتى لا يؤذى أحدًا فيخالف ما رآه فى سياسة الاتباع(٢) للنبى ﷺ، والشيطان الذى يعترى الصديق يعترى جميع بنى آدم، فإنه ما من أحد إلا وقد وكَّل الله به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن(٣). والشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، فقد قال رسول الله ﷺ : «**ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**». قالوا : وإياك يا رسول الله؟ قال : «**وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير**»(٤). وقد جاء فى الحديث أيضًا : لما مرَّ به بعض الأنصار وهو يتحدث مع صفية ليلاً فقال ﷺ : «**على رسلكما إنها صفية بنت حيى**» فقالا : سبحان الله يا رسول الله. قال : «**إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف الشيطان فى قلوبكما سوءًا**»(٥). ومقصود الصديق بذلك : إنى لست معصومًا كالرسول ﷺ وهذا حق(٦).

(د) حرص الصديق على وعظ المسلمين وتذكيرهم بالموت وحال الملوك الذين مضوا، وحثهم على العمل الصالح ليستعدوا للقاء الله عز وجل ويستقيموا فى حياتهم على منهج الله تعالى(٧)، وهنا نلحظ توظيف الصديق لقوة البيان فى خطبه وفى حديثه

(١، ٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام ص٤٢٣.

(٣) أبو بكر الصديق، محمد مال الله ص١٩٦.

(٤) مسلم رقم (٢٨١٤).

(٥) البخارى كتاب بدء الخلق رقم (٣٢٨١).

(٦) أبو بكر الصديق محمد مال الله ص١٩٧.

(٧) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٤٢٣.

للأمة، وقد كان رضى الله عنه أفصح خطباء النبى ﷺ يقول عنه الأستاذ العقاد: أما كلامه فهو من أرجح ما قيل فى موازين الخلق والحكمة، وله من مواقع الكلم أمثلة نادرة تدل الواحدة منها على ملكة صاحبها، فيغنى القليل منها عن الكثير، كما تغنى السنبلة الواحدة عن الجرين الحافل، فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله: (احرص على الموت تُوهَبْ لك الحياة) أو قوله: أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة. الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله. فهى كلمات تتسم بالقصد والسداد كما تتسم بالبلاغة وحسن التعبير، وتنبى عن المعدن الذى نجمت منه فتغنى عن علامات التثقيف التى يستكثر منها المستكثرون، لأن هذا الفهم الأصيل هو اللباب المقصود من التثقيف، وكانت له ﷺ لباقة فى الخطاب إلى جانب البلاغة فى الكلا (١٧٥- ١٧٩)م[1].

ثانيًا: ما تمَّ بين الصديق والصحابة فى أمر إنفاذ الجيش:

اقترح بعض الصحابة على الصديق رضى الله عنه بأن يبقى الجيش فقالوا: إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فليس ينبغى لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين[2]. وأرسل أسامة من معسكره من الجرف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما إلى أبى بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال: إنَّ معى وجوه المسلمين وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وحرم رسول الله ﷺ والمسلمين أن يتخطفهم المشركون[3].

ولكن أبا بكر خالف ذلك وأصر على أن تستمر الحملة العسكرية فى تحركها إلى الشام مهما كانت الظروف والأحوال والنتائج، ولم يسترح أسامة وهيئة أركان حربه لإصرار الخليفة على رأيه، وقد بذلوا لدى الخليفة عدة محاولات كى يقنعوه بصواب فكرتهم، وعندما كثر الإلحاح على أبى بكر دعا عامة المهاجرين والأنصار إلى اجتماع فى المجلس لمناقشة هذا الأمر معهم، وفى هذا الاجتماع دار نقاش طويل متشعب، وكان أشد المعارضين لاستمرار حملة الشام عمر بن الخطاب، مبديًا تخوفه الشديد على الخليفة وحرم رسول الله وكل المدينة وأهلها من أن تقع فى قبضة الأعراب المرتدين المشركين،

---

(١) عبقرية الصديق، ص ١٣٩.

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٨).

(٣) الكامل، لابن الأثير (٢/ ٢٢٦).

وعندما أكثر وجوه الصحابة بهذا الصدد على الخليفة وخوفوه مما ستتعرض له المدينة من أخطار جسام إن هو أصرَّ على تحريك جيش أسامة لغزو الروم، أمر بفض الاجتماع الأول[1] بعد أن سمع الصديق لرأيهم واستوضح منهم إن كان لأحدهم ما يقول، وذلك حتى يعطى إخوانه وأهل الرأى كامل الفرصة لبيان رأيهم[2]. ثم دعاهم إلى اجتماع عام آخر فى المسجد، وفى هذا الاجتماع طلب من الصحابة أن ينسوا فكرة إلغاء مشروع وضعه رسول الله ﷺ بنفسه، وأبلغهم أنه سينفذ هذا المشروع حتى لو تسبب تنفيذه فى احتلال المدينة من قبل الأعراب المرتدين، فقد وقف خطيبًا وخاطب الصحابة[3] قائلاً: والذى نفس أبى بكر بيده! لو ظننت أن السِّباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته[4].

نعم لقد كان أبو بكر مصيبًا فيما عزم عليه من بعث أسامة مخالفًا بذلك رأى جميع المسلمين لأن فى ذلك أمرًا من رسول الله ﷺ وقد أثبتت الأيام والأحداث سلامة رأيه وصواب قراره الذى اعتزم تنفيذه[5].

وطلبت الأنصار رجلاً أقدم سنًا من أسامة يتولى أمر الجيش، وأرسلوا عمر بن الخطاب ليحدث الصديق فى ذلك، فقال عمر رضى الله عنه: فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سنًا من أسامة، رضى الله عنه، فوثب أبو بكر رضى الله عنه وكان جالسًا فأخذ بلحية عمر رضى الله عنه، وقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه[6]. فخرج عمر رضى الله عنه إلى الناس فقالوا: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت فى سببكم من خليفة رسول الله ﷺ[7].

ثم خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب. وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر رضى الله عنهم فقال له أسامة

---

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الزين التميمى ص(٨٢، ٨٣).

(٢) ملامح الشورى فى الدعوة الإسلامية، عدنان النحوى ص٢٥٧.

(٣) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ص٨٣.

(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ٤٥).

(٥) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص٨٣.

(٦، ٧) تاريخ الطبرى (٤/ ٤٦).

رضى الله عنه: يا خليفة رسول الله ﷺ: والله لتركبن أو لأنزلن! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب. و ما عليَّ أن أغبر قدميَّ فى سبيل الله ساعة[١].

ثم قال الصديق رضى الله عنه لأسامة رضى الله عنه: إن رأيت أنْ تعيننى بعمر فافعل. فأذن له[٢]. ثم توجه الصديق رضى الله عنه إلى الجيش فقال: يا أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى:

لا تَخُونوا ولا تُغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا[٣]، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منه شيئًا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقوامًا قد فحصوا[٤] أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فأخفقوهم[٥] بالسيف خفقًا. اندفعوا باسم الله[٦]. وأوصى الصديق أسامة رضى الله عنهما أن يفعل ما أمر به النبى الكريم ﷺ قائلاً: اصنع ما أمرك به نبى الله ﷺ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم إيت آبل[٧] ولا تقصرن فى شىء من أمر رسول الله ﷺ، ولا تعجلنَّ لما خلَّفت عن عهده[٨]. ومضى أسامة رضى الله عنه بجيشه، وانتهى إلى ما أمر به النبى ﷺ من بث الخيول فى قبائل قضاعة والغارة على آبل فسَلِم وغنم[٩]، وكان مسيره ذاهبًا وقافلاً أربعين يومًا[١٠].

وقدم بنعى رسول الله على هِرَقل وإغارة أسامة فى ناحية أرضه خبر واحد فقالت الروم: ما بال هؤلاء يموت صاحبهم ثم أغاروا على أرضنا[١١]؟ وقال العرب: لو لم يكن

(١، ٢) تاريخ الطبرى (٤٦/٤).

(٣) ولا تمثلوا: يقال: مثلت بالحيوان أمثل به تمثيلاً، إذا قطعت أطرافه وشوهت به.

(٤) فحصوا: حلقوا.

(٥) فأخفقوهم: من أخفق فلانًا أى: صرعه.

(٦) تاريخ الطبرى (٤٦/٤).

(٧) آبل: منطقة فى جنوب بلاد الأردن اليوم.

(٨، ٩) تاريخ الطبرى (٤٧/٤).

(١٠) المصدر السابق (٤٧/٤)؛ تاريخ خليفة بن خياط، ص١٠١.

(١١) عهد الخلفاء الراشدين للذهبى، ص٢٠.

لهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش[1]. فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه[2].

ثالثاً: أهم الدروس والعبر والفوائد من إنفاذ الصديق جيش أسامة:

١- الأحوال تتغير وتتبدل والشدائد لا تشغل أهل الإيمان عن أمر الدين:

ما أشد التحول وأخطره! وما أسرعه كذلك! سبحان الله الذى يقلب الأحوال كيفما يشاء: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. تأتى وفود العرب مذعنة منقادة مطيعة وبهذه الكثرة، حتى سمّى العام التاسع عام الوفود، ثم تتقلب الأحوال فيخشى من أن تأتى القبائل العربية للإغارة على المدينة المنورة عاصمة الإسلام[3]، بل قد جاءت للإغارة للقضاء - على حسب زعمها الباطل - على الإسلام والمسلمين[4]، ولا غرابة فى هذا فإن من سنن الله الثابتة فى الأمم أن أيامها لا تبقى ثابتة على حالة بل تتغير وتتبدل وقد أخبر بذلك الذى يقلب الأيام ويُصَرِّفُها عز وجل بقوله: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

قال الرازى فى تفسيره: والمعنى أن أيام الدنيا هى دول بين الناس لا يدوم مسارها ولا مضارها، فيوم يحصل فيه سرور له والغم لعدوه، ويوم آخر بالعكس من ذلك ولا يبقى شىء من أحوالها ولا يستقر أثر من آثارها[5].

وجاءت صيغة المضارعة نُدَاوِلُهَا للدلالة على تجدُّد سنة مداولة الأيام من الأمم واستمرارها. وفى هذا قال القاضى أبو السعود: وصيغة المضارع الدالة على التجدّد والاستمرار للإيذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها[6] وقد قيل: الأيام دول والحرب سجال[7].

وقال الشاعر:

فَيَوْمٌ علينا ويومٌ لنا ... ويوم نُسَاء ويوم نُسَرُّ[8]

---

(١) قصة بعث أبى بكر جيش اسامة، د. فضل إلهى، ص١٤.
(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٢٢٧).
(٣، ٤) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص١٨.
(٥) تفسير الرازى (٩/ ١٥)؛ تفسير القرطبى (٤/ ٢١٨).
(٦) تفسير أبى السعود (٢/ ٨٩)؛ روح المعانى للألوسى (٤/ ٦٨).
(٧) روح المعانى للألوسى (٤/ ٦٨).
(٨) تفسير القرطبى (٤/ ٢١٨).

فالصديق يعلّم الأمة إذا نزلت بها الشدة وألمت بها المصيبة أن تصبر، فالنصر مع الصبر، وأن لا تيأس ولا تقنط من رحمه الله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وليتذكر المسلم دائمًا أن الشدة مهما عظمت والمصيبة مهما اشتدت وكبرت فإن من سنن الله الثابتة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح: ٥، ٦] وإن المسلم لأمره عجيب فى هذه الدنيا، فقد بين رسول الله ﷺ ذلك فى قوله: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[١].

ومن الدروس المستفادة من بعث جيش أسامة: أن الشدائد والمصائب مهما عظمت وكبرت لاتشغل أهل الإيمان عن أمر الدين. إن وفاة الرسول الكريم ﷺ لم تشغل الصديق عن أمر الدين. وأمر ببعث أسامة فى ظروف كالحة مظلمة بالنسبة للمسلمين ولكن ما تعلمه الصديق من رسول الله من الاهتمام بأمر الدين مقدم على كل شيء، وبقى هذا الأمر حتى ارتحل من هذه الدنيا[٢].

٢- المسيرة الدعوية لا ترتبط بأحد ووجوب اتباع النبى ﷺ:

وفى قصة إنفاذ أبى بكر الصديق جيش أسامة رضى الله عنهما نجد أن الصديق رضى الله عنه بيَّن بقوله وعمله أن مسيرة الدعوة لم ولن تتوقف حتى بموت سيد الخلق وإمام الأنبياء وقائد المرسلين ﷺ، وأثبت مواصلة العمل الدعوى بالمبادرة إلى إنفاذ هذا الجيش حيث نادى مناديه فى اليوم الثالث من وفاة رسول الله ﷺ بخروج جند أسامة رضى الله عنه إلى عسكره بالجرف. وقد كان الصديق رضى الله عنه قبل ذلك قد بين فى خطبته التى ألقاها إثر بيعته عن عزمه على مواصلة بذل الجهود لخدمة هذا الدين[٣]، وقد جاء فى رواية قوله: فاتقوا الله أيها الناس! واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم وإن كلمة الله تامة وإن الله ناصر من نصره ومعز دينه، والله! لا نبالى من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد ولَنُجَاهِدَنَّ من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يبغينَّ أحد إلا على نفسه[٤].

---

(١) مسلم (٤/ ٢٢٩٥).

(٢) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٢٤.

(٣) نفس المصدر السابق، ص٢٧.

(٤) البداية والنهاية (٥/ ٢١٣، ٢١٤).

ومن الدروس المستفادة من قصة إنفاذ الصديق جيش أسامة رضى الله عنهما أنه يجب على المسلمين اتباع أمر النبى ﷺ فى السراء والضراء، فقد بَيَّن الصديق من فعله أنه عاضٌ على أوامر النبى ﷺ بالنواجذ ومنفذُها مهما كثرت المخاوف واشتدت المخاطر وقد تجلى هذا أثناء هذه القصة عدة مرات منها:

أ- لما طلب المسلمون إيقاف جيش أسامة رضى الله عنه نظراً لتغير الأحوال وتدهورها أجاب رضى الله عنه بمقولته الخالدة: والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته(١).

ب- ولما استأذنه أسامة رضى الله عنهما فى الرجوع بجيشه من الجرف إلى المدينة خوفًا على الصديق وأهل المدينة لم يأذن له، بل أبدى عزمه وتصميمه على تنفيذ قضاء النبى الكريم ﷺ بقوله: لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أردَّ قضاء قضى به رسول الله(٢). وقدَّم رضى الله عنه بموقفه هذا صورة تطبيقية لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

ج- وعندما طُلب منه تعيين رجل أقدم سنًا من أسامة رضى الله عنه أبدى غضبه الشديد على الفاروق رضى الله عنه بسبب جرأته على نقل مثل هذا الاقتراح(٣)، وقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه(٤).

د- وتجلّى اهتمام أبى بكر الصديق رضى الله عنه باتباع النبى الكريم ﷺ كذلك فى خروجه لتشييع الجيش ومشيه مع أسامة رضى الله عنه الذى كان راكبًا(٥). ولقد كان الصديق رضى الله عنه فى عمله هذا مقتديًا بما فعله سيد الأولين والآخرين رسولنا الكريم

(١) تاريخ الطبرى (٤/٤٥).
(٢) تاريخ الطبرى (٤/٤٦).
(٣) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٣٠.
(٤) تاريخ الطبرى (٤/٤٦).
(٥) تاريخ الطبرى (٤/٤٦).

صلوات ربى وسلامه عليه مع معاذ بن جبل رضى الله عنه لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن(١) فقد روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ومعاذ - رضى الله عنه - راكب، ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته(٢).

قال الشيخ أحمد البنا تعليقًا على هذا الحديث: وقد فعل ذلك أبو بكر رضى الله عنه بأسامة بن زيد رضى الله عنهما مع صغر سنه، فقد عقد له النبى ﷺ قبل وفاته لواء على جيش ولم يسافر إلا بعد وفاة النبى ﷺ، فشيعه أبو بكر رضى الله عنه ماشيًا وأسامة رضى الله عنه راكبًا، اقتداءً بما فعله النبى ﷺ بمعاذ رضى الله عنه(٣).

هـ- وظهرت عناية أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالاقتداء بالرسول الكريم ﷺ أيضًا فى قيامه بتوصية الجيش عند توديعهم، حيث كان رسول الله ﷺ يوصى الجيوش عند توديعهم، ولم يقتصر الصديق على هذا، بل إن معظم ما جاء فى وصيته لجيش أسامة كان مقتبسًا من وصايا النبى ﷺ للجيوش(٤).

ولم يقف أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى الاقتداء بالرسول الكريم ﷺ فيما قاله وفعله فحسب، بل أمر أمير الجيش أسامة رضى الله عنه بتنفيذ أمره ﷺ، ونهاه عن التقصير فيه(٥)، فقد قال له رضى الله عنهما: اصنع ما أمرك به نبى الله ﷺ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم إيت آبل، ولا تقصرنَّ شيئًا من أمر رسول الله ﷺ(٦). وفى رواية أخرى أنه قال ﷺ: امض يا أسامة للوجه الذى أُمرت به ثم اغز حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة فإن الله سيكفى ما تركت(٧). وفى رواية عند ابن الأثير: وأوصى أسامة رضى الله عنه أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ(٨).

لقد انقاد الصحابة رضى الله عنهم لرأى الصديق وشرح الله صدورهم لذلك وتمسكوا

---

(١) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٣٦.

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى (٢١/ ٢١٥).

(٣) بلوغ الأمانى (٢١/ ٢١٥).

(٤، ٥) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٣٢.

(٦) تاريخ الطبرى (٤/ ٤٧).

(٧) عهد الخلفاء الراشدين للذهبى، ص٢٠.

(٨) الكامل (٢/ ٢٣٧).

بأمر الرسول الكريم ﷺ وبذلوا المستطاع لتحقيقه، فنصرهم الله تعالى ورزقهم الغنائم والقى فى قلوب الناس هيبتهم وكف عنهم كيد الأعداء وشرهم[1].

وقد تحدث توماس آرنولد عن بعث جيش أسامة فقال: بعد وفاة محمد ﷺ أرسل أبو بكر رضى الله عنه الجيش الذى كان النبى ﷺ قد عزم على إرساله إلى مشارف الشام، على الرغم من معارضة بعض المسلمين بسبب الحالة المضطربة فى بلاد العرب إذ ذاك، فأسكت احتجاجهم بقوله: قضاءً قضى به رسول الله، ولو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت جيش أسامة رضى الله عنه كما أمر النبى ﷺ[2]. . . . ثم قال: وكانت هذه هى أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التى اجتاح العرب فيها سورية وفارس وإفريقية الشمالية، فقوضوا دولة فارس القديمة، وجردوا الامبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها[3].

وهكذا نرى أن الله تعالى قد ربط نصر الأمة وعزها باتباع النبى الكريم ﷺ فمن أطاعه فله النصر والتمكين ومن عصاه فله الذل والهوان، فسر حياة الأمة فى طاعتها لربها واقتدائها بسنَّة نبيها ﷺ[4].

٣- حدوث الخلاف بين المؤمنين ورده إلى الكتاب والسنَّة:

ومما نستفيد من هذه القصة أنه قد يحدث الخلاف بين المؤمنين الصادقين حول بعض الأمور، فقد اختلفت الآراء حول إنفاذ جيش أسامة رضى الله عنه فى تلك الظروف الصعبة، وقد تعددت الأقوال حول إمارته، ولم يجرهم الخلاف فى الرأى إلى التباغض والتشاجر والتدابر والتقاطع والتقاتل، ولم يصر أحد على رأى بعد وضوح فساده وبطلانه[5]، وعندما ردَّ الصديق الخلاف إلى ما ثبت من أمر النبى ﷺ ببعث أسامة وبين رضى الله عنه أنه ما كان ليفرّط فيما أمر به رسول الله ﷺ مهما تغيرت الأحوال وتبدلت، استجاب بقية الصحابة لحكم النبى ﷺ بعدما وضحه لهم الصديق، كما أنه لاعبرة لرأى الأغلبية إذا كان مخالفًا للنص فقد رأى عامة الصحابة حبس جيش أسامة

(١) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٣٦.
(٢، ٣) الدعوة إلى الإسلام، ص٦٣.
(٤) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٣٩.
(٥) نفس المصدر السابق، ص(٤٧، ٤٨).

وقالوا للصديق: إن العرب قد انتقضت عليك وإنك لا تصنع بتفريق الناس شيئًا[١]، فأولئك الناس لم يكونوا كعامة الناس بل كانوا من الصحابة الذين هم خير البشر وجدوا على الأرض بعد الأنبياء والرسل عليهم السلام، لكن الصديق رضى الله عنه لم يستجب لهم مبينًا أن أمر رسول الله ﷺ أجل وأكرم وأوجب وألزم من رأيهم كلهم[٢]، وقد تجلت هذه الحقيقة فى حادثة وفاة النبى ﷺ حيث رأى عامة الصحابة رضى الله عنهم وفيهم عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ لم يمت، ورأى عدد قليل من الصحابة رضى الله عنهم أنه ﷺ قد مات، منهم أبو بكر رضى الله عنه، وقد رأينا أن أبا بكر تمسك بالنص وبين خطأ من قال إن رسول الله ﷺ لم يمت[٣].

قال الحافظ ابن حجر: تعليقًا على رأى الأكثرين حول وفاته ﷺ: فيؤخذ منه أن الأقل عددًا فى الاجتهاد قد يصيب ويخطىء الأكثرية فلا يتعين الترجيح بالأكثر[٤].

فخلاصة الكلام أن مما نستفيده من قصة تنفيذ الصديق جيش أسامة رضى الله عنهما أن تأييد الكثرة لرأى ليس دليلاً على إصابته[٥]، ومما يستفاد من هذه القصة انقياد المؤمنين وخضوعهم للحق إذا اتضح لهم، فعندما ذكرهم الصديق أن النبى ﷺ قد أمر بتنفيذ جيش أسامة وهو الذى عين أسامة أميرًا على الجيش ، انقاد أولئك الأبرار للأمر النبوى الكريم[٦].

٤- جعل الدعوة مقرونة بالعمل ومكانة الشباب فى خدمة الإسلام:

لما أصر أبو بكر رضى الله عنه على إبقاء أسامة بن زيد رضى الله عنه أميرًا للجيش حرصًا منه على التمسك بما قرره رسول الله ﷺ، لم يقتصر على الإصرار على إمارته فحسب، بل قدم اعترافًا عمليًا بإمارته وقد تجلى ذلك فى أمرين:

أ- مشى أبو بكر رضى الله عنه مع أسامة رضى الله عنه وهو راكب، وقد كان ابن عشرين سنة أو ثمانى عشرة سنة، وكان الصديق رضى الله عنه قد تجاوز ستين سنة من

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ص١٠٠.
(٢، ٣) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، (ص٤٤، ٤٥).
(٤) فتح البارى (١٤٦/٨)
(٥) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٤٦.
(٦) نفس المصدر السابق، ص٥٢.

عمره، وأصر على المشى مع أسامة رضى الله عنه، كما أصر على بقاء أسامة رضى الله عنه راكبًا لما طلب منه أسامة رضى الله عنه إما أن يركب هو أو يأذن له بالنزول، فلم يوافق رضى الله عنه لا على هذا ولا على ذاك، وبهذا قدّم رضى الله عنه باستمراره فى مشيه ذلك دعوة لجيش أسامة رضى الله عنه إلى الاعتراف بإمرة أسامة رضى الله عنه ورفع الحرج عنها من صدورهم، وكأن الصديق رضى الله عنه بمشيه ذلك يخاطب الجيش فيقول: انظروا أيها المسلمون أنا أبو بكر رغم كونى خليفة رسول الله ﷺ أمشى مع أسامة وهو راكب، إقرارًا وتقديرًا لإمارته حيث أمَّره رسولنا الكريم إمامنا الأعظم وقائدنا الأعلى صلوات ربى وسلامه عليه فكيف تجرَّأتم أنتم على الانتقاد على إمارته(١).

ب- كان أبو بكر الصديق يرغب فى بقاء عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بالمدينة نظرًا لحاجته إليه. لكنه لم يأمره بذلك بل استأذن من أسامة رضى الله عنه فى تركه إياه بالمدينة إن رأى هو ذلك مناسبًا، وبهذا قدّم الصديق رضى الله عنه صورة تطبيقية أخرى لاعترافه واحترامه لإمارة أسامة رضى الله عنه، وفيها بلا شك دعوة قوية للجيش إلى الإقرار والانقياد لإمارته.

وهذا الذى اهتم به الصديق رضى الله عنه من جعل دعوته مقرونة بالعمل هو الذى أمر به الإسلام، ووبَّخ الرب عز وجل أولئك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم(٢)، قال تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ٤٤].

ومما يتجلى فى هذه القصة كذلك منزلة الشباب العظيمة فى خدمة الإسلام فقد عين رسول الله ﷺ الشاب أسامة بن زيد رضى الله عنهما أميرًا على الجيش المعد لقتال الروم – القوة العظيمة فى زعم الناس فى ذلك الوقت – وكان عمره آنذاك عشرين سنة أو ثمانى عشرة سنة، وأقره أبو بكر الصديق رضى الله عنه على منصبه رغم انتقاد الناس، وعاد الأمير الشاب بفضل الله تعالى من مهمته التي أسندت إليه غانمًا ظافرًا، وفى هذا توجيه للشباب فى معرفة مكانتهم فى خدمة الإسلام، و لو نعيد النظر فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى المرحلتين المكية والمدنية لوجدنا شواهد كثيرة تدل على ما قام به شباب

(١، ٢) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٦٦.

الإسلام فى خدمة القرآن والسنَّة، وإدارة أمور الدولة، والمشاركة فى الجهاد فى سبيل الله والدعوة إلى الله تعالى[1].

٥- صورة مشرقة من آداب الجهاد فى الإسلام:

ومن فوائد قصة بعث أبى بكر رضى الله عنه لجيش أسامة أنها تقدم لنا صورة مشرقة للجهاد الإسلامى، وقد تجلت تلك الصورة فى وصية أبى بكر الصديق لجيش أسامة عند توديعه إياهم، ولم يكن أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى وصاياه للجيوش إلا مستنًا بسنَّة المصطفى ﷺ، حيث كان عليه الصلاة والسلام يوصى الأمراء والجيوش عند توديعهم[2]، ومن خلال فقرات الوصية التى جاءت فى البحث تظهر الغاية من حروب المسلمين فهى دعوة إلى الإسلام فإذا ما رأت الشعوب جيشًا يلتزم بهذه الوصايا لا تملك إلا الدخول فى دين الله طواعية واختياراً:

أ- إنها ترى جيشًا لا يخون، بل يصون الأمانة ويفى بالعهد ولا يسرق مال الناس أو يستولى عليه دون حق.

ب- جيشًا لا يمثل بالآدميين بل هو يحسن القتل كما يحسن العفو، يحترم الطفل ويرحمه، ويبر الشيخ الكبير ويكرمه، ويصون المرأة ويحفظها.

ج- جيشًا لا يبدد ثروة البلاد المفتوحة، بل تراه يحفظ النخيل ولا يحرقه، ولا يقطع شجرة مثمرة، ولا يدمر المزروعات أو يخرب الحقول.

د- وإذا ما حافظ على الثروة الآدمية فلم يغدر ولم يخن ولم يغل ولم يمثل بقتيل ولم يقتل طفلاً ولا شيخًا كبيراً ولا امرأة، وحافظ على الثروة الزراعية فلم يعقر نخلاً أو يقطع شجرة مثمرة، فهو يحافظ فى نفس الوقت على الثروة الحيوانية فلا يذبح شاة أو بقرة أو بعيراً إلا للأكل فقط، فهل تحافظ الجيوش على واحد من هذه الأشياء؟ أم أنها تحوِّل البلاد التى تحاربها إلى خراب ودمار؟ والمثال قائم فى العدوان الشيوعى الملحد على أفغانستان[3]، وفى البوسنة من قبل الصرب وكذلك كوسوفا وفى كشمير من قبل الهند

---

(١) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٧٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٨٠.

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٦٩.

على المسلمين وفى الشيشان وفى فلسطين من قبل اليهود، ألا ما أعظم الفرق بين هداية الله وضلال الملحدين.

هـ- وهو جيش يحترم العقائد والأديان السابقة عليه، فيحافظ على العباد فى صوامعهم ولا يتعرض لهم بأذى.. وتلك دعوة عملية تدل على سماحة الإسلام وعدالته، أما من يعيثون فى الأرض فساداً ويحاربون الحق فجزاؤهم القتل ليكونوا عبرة لغيرهم[1].

وما جاء فى وصية الصديق رضى الله عنه لم يكن كلمات قيلت بل طبقها المسلمون فى عصره وبعده[2] وسنرى ذلك بإذن الله فى فتوحاته رضى الله عنه.

٦- أثر جيش أسامة على هيبة الدولة الإسلامية:

عاد جيش أسامة ظافراً غانمًا بعدما أرهب الروم حتى قال لهم هرقل وهو بحمص بعدما جمع بطارقته: هذا الذى حذرتكم فأبيتم أن تقبلوا منى!! قد صارت العرب تأتى مسيرة شهر فتغير عليكم، ثم تخرج من ساعتها ولم تكْلَم. قال أخوه (يناف) فابعث رباطًا (جنداً مرابطين) تكون بالبلقاء. فبعث رباطًا واستعمل عليهم رجلاً من أصحابه، فلم يزل مقيمًا حتى تقدمت البعوث إلى الشام فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما[3]. ثم تعجب الروم بأجمعهم وقالوا: ما بال هؤلاء يموت صاحبهم ثم أغاروا على أرضنا؟[4]، وأصاب القبائل العربية فى الشمال الرعب والفزع من سطوة الدولة[5]، وعندما بلغ جيش أسامة الظافر إلى المدينة تلقاه أبو بكر وكان قد خرج فى جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقائه، وكلهم خرج وتهلل وتلقاه أهل المدينة بالإعجاب والسرور والتقدير، ودخل أسامة المدينة وقصد مسجد رسول الله ﷺ وصلى لله شكرًا على ما أنعم به عليه وعلى المسلمين، وكان لهذه الغزوة أثر فى حياة المسلمين وفى حياة العرب الذين فكروا فى الثورة عليهم، وفى حياة الروم الذين تمتد بلادهم على

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٦٩.

(٢) قصة بعث أبى بكر جيش أسامة، ص٨١.

(٣) المغازى (٣/١١٢٤)؛ طبقات ابن سعد (٢/١٩٢).

(٤) تهذيب ابن عساكر (١/١٢٥)؛ تاريخ ابن عساكر (١/٤٣٩).

(٥) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧٠.

حدودهم[1]، فقد فعل هذا الجيش بسمعته ما لم يفعله بقوته وعدده، فأحجم من المرتدين من أقدم، وتفرق من اجتمع، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح[2].

حقًا لقد كان إرسال هذا الجيش نعمة على المسلمين، إذ أمست جبهة الردة فى الشمال أضعف الجبهات، ولعل من آثار هذا أن هذه الجبهة فى وقت الفتوحات كان كسرها أهون على المسلمين من كسر جبهة العدو فى العراق، كل ذلك يؤكد أن أبا بكر رضى الله عنه كان فى الأزمات من بين جميع الباحثين عن الحل أثقبهم نظراً وأعمقهم فهماً[3].

* * *

(١) الصديق لهيكل باشا، ص١٠٧.

(٢) عبقرية الصديق للعقاد، ص١٠٩.

(٣) حركة الردة، د. على العتوم، ص١٦٨.

المبحث الثانى

جهاد الصديق لأهل الردة

أولاً: الردة اصطلاحًا وبعض الآيات التى حذرت من الردة:

١- الردة اصطلاحًا:

عرف النووى الردة بأنها: قطع الإسلام بنية أو قول كفر أو فعل سواء قاله استهزاءً أو عناداً أو اعتقاداً، فمن نفى الصانع أو الرسل أو كذب رسولاً أو حلل محرمًا بالإجماع كالزنا وعكسه، أو نفى وجوب مجمع عليه أو عكسه، أو عزم على الكفر أو تردد فيه كفر(١).

وعرفها عليش المالكى: بأنها كفر المسلم بقول صريح أو لفظ يقتضيه أو بفعل يتضمنه(٢).

وعرف ابن حزم الظاهرى (المرتد) بأنه: كل من صح عنه أنه كان مسلمًا متبرئًا من كل دين حاشا دين الإسلام ثم ثبت عنه أنه ارتد عن الإسلام وخرج إلى دين كتابى أو غير كتابى أو إلى غير دين(٣).

وعرفه عثمان الحنبلى: بأنه لغة: الراجع. قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] وشرعًا: من أتى بما يوجب الكفر بعد إسلامه(٤).

ومعنى هذا أن المرتد هو كل من أنكر معلومًا من الدين بالضرورة كالصلاة والزكاة والنبوة وموالاة المؤمنين، أو أتى بقول أو فعل لا يحتمل تأويلاً غير الكفر(٥).

٢- بعض الآيات التى أشارت إلى المرتدين:

أطلق الله سبحانه وتعالى على المرتدين عن دينه عبارات تشير إلى هذا المرتكس الوبى

---

(١) محمد الزهرى الغمراوى شرح على متن المنهاج، لشرف الدين النووى، ص٥١٩.

(٢) احكام المرتد للسامرائى، ص٤٤.

(٣) المحلى (١١ / ١٨٨)، المطبعة المنيرية ١٣٥٢هـ.

(٤) أحكام المرتد للسامرائى، ص٤٤.

(٥) حركة الردة، د. على العتوم، ص١٨. وهو من أهم المراجع فى بحث الردة.

الذى تحولوا إليه، منها الردة على الأعقاب أو على الأدبار والانقلاب بالخسران وطمس الوجوه ورد الأيدى فى الأفواه والارتياب والتردد واسوداد الوجوه[1]. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] وجاء فى تفسير ابن كثير: وطمسها أن تعمى وقوله: فنردها على أدبارها أى: نجعل لأحدهم عينين من قفاه، وهذا أبلغ فى العقوبة والنكال، وهذا مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم[2].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

نقل القرطبى فيها جملة آراء منها رأى قتادة أنها فى المرتدين، كما نقل حديثًا لأبى هريرة وقال عنه قد يستشهد به بأن الآية فى الردة وهو: «**يرد على الحوض يوم القيامة رهط من أصحابى فيجلون عن الحوض فأقول: يا رب أصحابى! فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى**»[3]. وفى رواية أخرى لهذا الحديث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات اليمين فأقول: أصحابى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم**»[4].

ثانيًا: أسباب الردة وأصنافها:

إن الردة التى قامت بها القبائل العربية بعد وفاة رسول الله ﷺ لها أسباب منها: الصدمة بموت رسول الله ﷺ، ورقة الدين والسقم فى فهم نصوصه، والحنين إلى الجاهلية

(١) حركة الردة، ص١٨.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٧، ٥٠٨) طبعة الحلبى.

(٣) تفسير القرطبى (٤/ ١٦٦).

(٤) الخصائص الكبرى للسيوطى (٢/ ٤٥٦).

ومقارفة موبقاتها، والتفلت من النظام والخروج على السلطة الشرعية، والعصبية القبلية والطمع فى الملك، والتكسب بالدين والشح بالمال، والتحاسد، والمؤثرات الأجنبية[١] كدور اليهود والنصارى والمجوس، وسنتحدث عن كل سبب بإذن الله تعالى.

وأما أصنافها فمنهم من ترك الإسلام جملة وتفصيلاً وعاد إلى الوثنية وعبادة الأصنام، ومنهم من ادعى النبوة، ومنهم من دعا إلى ترك الصلاة، ومنهم من بقى يعترف بالإسلام ويقيم الصلاة ولكنه امتنع عن أداء زكاته، ومنهم من شمت بموت الرسول وعاد أدراجه يمارس عاداته الجاهلية، ومنهم من تحير وتردد وانتظر على من تكون الدبرة، وكل ذلك وضحه علماء الفقه والسير[٢].

قال الخطابى: إن أهل الردة كانوا صنفين: صنفًا ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعادوا إلى الكفر، وهذه الفرقة طائفتان: إحداهما أصحاب مسيلمة من بني حنيفة وغيرهم الذين صدقوه على دعواه فى النبوة، وأصحاب الأسود العنسى ومن كان من مستجيبيه من أهل اليمن وغيرهم، وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة سيدنا محمد ﷺ مدعية النبوة لغيره، والطائفة الأخرى ارتدوا عن الدين وأنكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين وعادوا إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية، والصنف الآخر هم الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة فأقروا بالصلاة وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها إلى الإمام[٣]... وقد كان ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح (بها) ولا يمنعها إلا أن رؤساءهم صدُّوهم عن ذلك وقبضوا أيديهم على ذلك[٤].

وقريب من هذا التقسيم لأصناف المرتدين تقسيم القاضى عياض غير أنهم عنده ثلاثة: صنف عادوا إلى عبادة الأوثان وصنف تبعوا مسيلمة والأسود العنسى، وكل منهما ادعى النبوة، وصنف ثالث استمروا على الإسلام ولكنهم جحدوا الزكاة، وتأولوا بأنها خاصة بزمن النبى ﷺ[٥].

---

(١) حركة الردة، على العتوم، ص١١٠ إلى ١٣٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٢٠.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووى (١/ ٢٠٢).

(٤) نفس المصدر السابق (١/ ٢٠٣).

(٥) فتح البارى (١٢/ ٢٧٦).

وقسم الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود المرتدين إلى أربعة أصناف: صنف عادوا إلى عبادة الأوثان والأصنام، و صنف اتبعوا المتنبئين الكذبة الأسود العنسي ومسيلمة وسجاح، وصنف أنكروا وجوب الزكاة وجحدوها، وصنف لم ينكروا وجوبها ولكنهم أبوا أن يدفعوها إلى أبى بكر[١].

ثالثًا: الردة أواخر عصر النبوة:

بدأت هذه الردة منذ العام التاسع للهجرة المسمى بعام الوفود، وهو العام الذى أسلمت فيه الجزيرة العربية قيادها للرسول ﷺ ممثلة بزعمائها الذين قدموا عليه من أصقاعها المختلفة، وكانت حركة الردة فى هذه الأثناء لما تستَعلن بشكل واسع، حتى إذا كان أواخر العام العاشر الهجرى وهو عام حجة الوداع التى حجها رسول الله ﷺ، ونزل به وجعه الذى مات فيه وتسامع بذلك الناس، بدأ الجمر يتململ من تحت الرماد، وأخذت الأفاعى تطل برؤوسها من جحورها، وتجرأ الذين فى قلوبهم مرض على الخروج، فوثب الأسود العنسى باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، وطليحة الأسدى فى بلاد قومه[٢]. ولما كان أخطر متمردين على الإسلام وهما الأسود العنسى ومسيلمة وأنهما مصممان - كما يبدو - على المضى فى طريق ردتهما قدمًا دون أن يفكرا فى الرجوع، وأنهما مشايعان بقوى غفيرة وإمكانيات وفيرة فقد أرى الله نبيه ﷺ من أمرهما ما تقر به عينه، ومن ثم ما تقر به عيون أمته من بعده، فقد قال يومًا وهو يخطب الناس على منبره: **«أيها الناس إنى قد أريت ليلة القدر ثم أُنسيتها، ورأيت أن فى ذراعى سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فأولتهما هذين الكذابين :صاحب اليمن وصاحب اليمامة»**[٣].

وقد فسر أهل العلم بالتعبير هذه الرؤيا على هذه الصورة فقالوا: إن نفخه ﷺ لهما يدل على أنهما يقتلان بريحه لأنه لا يغزوهما بنفسه، وإن وصفه لهما بأنهما من ذهب دلالة على كذبهما لأن شأنهما زخرف وتمويه، كما دل لفظ السوارين على أنهما ملكان لأن الأساورة هم الملوك، ودلا بكونهما يحيطان باليدين أن أمرهما يشتد على المسلمين فترة لكون السوار مضيقًا على الذراع[٤].

---

(١) الحكم بغير ما أنزل الله، د. عبد الرحمن المحمود، ص٢٣٩.

(٢) حركة الردة، ص٦٥.

(٣) مسند أحمد رقم (١١٤٠٧) باقى مسند المكثرين، وأصله في الصحيحين.

(٤) حركة الردة، ص٦٦.

وعبر الدكتور على العتوم بقوله: ... بأن طيرانهما بالنفخ دلالة على ضعف كيدهما مهما تضاخم، فشأنهما زَبَدٌ لابد أن يؤول إلى جُفاء ما دام هذا الكيد مستمداً من الشيطان فهو واهن لا محالة، إذ أقل هجمة مركزة فى سبيل الله تحيلهما أثرًا بعد عين، وكونهما من ذهب دلالة على أنهما يقصدان من عملهما الدنيا لأن الذهب رمز لحطامها الذى يسعى المغترون بها خلفه، وأنهما سواران إشارة إلى محاولتهما الإطاحة بكيان المسلمين عن طريق الإحاطة بهم من كل جانب تماماً كما يحيط السوار بالمعصم(١).

رابعًا: موقف الصديق من المرتدين

لما كانت الردة قام أبو بكر رضى الله عنه فى الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذى هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إن الله بعث محمداً ﷺ والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد رثَّ حبله وخلق ثوبه وضل أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيرًا لخير عندهم، ولا يصرف عنهم شرًا لشر عندهم، وقد غيروا كتابهم وألحقوا فيه ما ليس منه، والعرب الآمنون يحسبون أنهم فى منعة من الله لا يعبدونه ولا يدعونه، فأجهدهم عيشًا وأظلهم دينًا، فى ظلف من الأرض مع ما فيه من السحاب، فختمهم الله بمحمد وجعلهم الأمة الوسطى، ونصرهم بمن اتبعهم، ونصرهم على غيرهم، حتى قبض الله نبيه فركب منهم الشيطان مركبه الذى أنزل عليه ، وأخذ بأيديهم، وبغى هلكتهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إن من حولكم من العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا فى دينهم - وإن رجعوا إليه - أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا فى دينكم أقوى منكم يومكم هذا على ما قد تقدم من بركة نبيكم، وقد وكلكم إلى المولى الكافى الذى وجده ضالاً فهداه وعائلاً فأغناه: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفى لنا عهده ويقتل من قتل منا شهيداً من أهل الجنة، ويبقى من بقى منها خليفته وذريته فى أرضه، قضاء الله الحق،

---

(١) حركة الردة للعتوم، ص٦٦.

وقوله الذى لا خلف له: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾(١) [النور: ٥٥].

وقد أشار بعض الصحابة ومنهم عمر على الصديق بأن يترك ما نعى الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ثم هم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق عن ذلك وأباه(٢).

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه**(٣)، **وحسابه على الله**». فقال: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقًا(٤) كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. وفى رواية: والله لو منعونى عقالاً(٥)، كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر فعرفت أنه الحق(٦)، ثم قال عمر بعد ذلك: والله لقد رجح إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة جميعًا فى قتال أهل الردة(٧). وبذلك يكون أبو بكر قد كشف لعمر (وهو يناقشه) عن ناحية فقهية مهمة أجلاها له وكانت قد غابت عنه، وهى أن جملة جاءت فى الحديث النبوى الشريف الذى احتج به عمر هى الدليل على وجوب محاربة من منع الزكاة حتى وإن نطق بالشهادتين، وهى قول النبى ﷺ: «**فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»(٨). وفعلاً كان رأى أبى بكر فى حرب المرتدين رأيًا ملهمًا وهو الرأى الذى تمليه طبيعة الموقف لمصلحة الإسلام والمسلمين، وأى موقف غيره سيكون فيه الفشل والضياع

---

(١) البداية والنهاية (٦/٣١٦).

(٢) نفس المصدر السابق، (٦/٣١٥).

(٣) بحقه: حق الإسلام.

(٤) عناقًا: الأنثى من ولد المعز.

(٥) عقالاً: هو الحبل الذى يعقل به البعير.

(٦) البخارى، رقم (١٤٠٠)؛ مسلم رقم (٢٠).

(٧) حروب الردة، محمد احمد باشميل، ص٢٤.

(٨) مسلم رقم ٢١.

والهزيمة والرجوع إلى الجاهلية، ولولا الله ثم هذا القرار الحاسم من أبى بكر لتغير وجه التاريخ وتحولت مسيرته ورجعت عقارب الساعة إلى الوراء، ولعادت الجاهلية تعيث فى الأرض فساداً(١).

لقد تجلى فهمه الدقيق للإسلام وشدة غيرته على هذا الدين وبقاؤه على ما كان عليه فى عهد نبيه فى الكلمة التى فاض بها لسانه ونطق بها جنانه وهى الكلمة التى تساوي خطبة بليغة طويلة وكتابًا حافلاً، وهي قوله عندما امتنع كثير من قبائل العرب أن يدفعوا الزكاة إلى بيت المال أو منعوها مطلقًا وأنكروا فرضيتها: قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حى؟(٢) وفى رواية: قال عمر: فقلت: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم. فقال لى: أجبَّار فى الجاهلية خوَّار فى الإسلام، قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حى؟(٣).

لقد سمع أبو بكر وجهات نظر الصحابة فى حرب المرتدين، وما عزم على خوض الحرب إلا بعد أن سمع وجهات النظر بوضوح، إلا أنه كان سريع القرار حاسم الرأى، فلم يتردد لحظة واحدة بعد ظهور الصواب له، وعدم التردد كان سمة بارزة من سمات أبى بكر - هذا الخليفة العظيم - فى حياته كلها(٤)، ولقد اقتنع المسلمون بصحة رأيه ورجعوا إلى قوله واستصوبوه.

لقد كان أبو بكر رضى الله عنه أبعد الصحابة نظراً وأحقهم فهمًا وأربطهم جنانًا، فى هذه الطامة العظيمة(٥)، والمفاجأة المذهلة، ومن هنا أتى قول سعيد بن المسيب رحمه الله: وكان أفقههم، يعنى الصحابة، وأمثلهم رأيًا(٦).

إن أبا بكر كان أنفذ بصيرة من جميع من حوله، لأنه فهم بإيمانه الذى فاق إيمانهم جميعا أن الزكاة لا تنفصل عن الشهادتين، فمن أقر لله بالوحدانية لابد أن يقر له بما يفرض من حق فى ماله، الذى هو مال الله أصلاً وأن لا إله إلا الله بغير زكاة لا وزن لها فى

---

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص٨٦.
(٢) المرتضى لأبى الحسن الندوى، ص٧٠.
(٣) مشكاة المصابيح، كتاب المناقب رقم (٦٠٣٤).
(٤) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص٨٧.
(٥) حركة الردة للعتوم، ص١٦٥.
(٦) البدء والتاريخ للمقدسى (٥/١٥٣).

حياة الشعوب، وأن السيف يشرع دفاعًا عن أدائها تمامًا كما يشرع دفاعًا عن لا إله إلا الله تمامًا هذه كتلك. هذا هو الإسلام وغير هذا ليس من الإسلام[1]، فقد توعد الله أولئك الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

كان موقف أبى بكر رضى الله عنه الذى لا هوادة فيه ولا مساومة فيه ولا تنازل موقفًا ملهمًا من الله يرجع إليه الفضل الأكبر – بعد الله تعالى – فى سلامة هذا الدين وبقائه على نقائه وصفائه وأصالته، وقد أقر الجميع وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد وقف فى مواجهة الردة الطاغية ومحاولة نقض عرى الإسلام عروة عروة، موقف الأنبياء والرسل فى عصورهم، وهذه خلافة النبوة التى أدى أبو بكر حقها، واستحق بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلى أن يرث الله الأرض وأهلها[2].

خامسًا: خطة الصديق لحماية المدينة:

انصرفت وفود القبائل المانعة للزكاة من المدينة بعدما رأت عزم الصديق وحزمه وقد خرجت بأمرين:

أ- أن قضية منع الزكاة لا تقبل المفاوضة، وأن حكم الإسلام فيها واضح، ولذلك لا أمل فى تنازل خليفة المسلمين عن عزمه ورأيه، وخاصة بعدما أيده المسلمون وثبتوا على رأيه بعد وضوح الرؤية وظهور الدليل.

ب- أنه لابد من اغتنام فرصة ضعف المسلمين – كما يظنون – وقلة عددهم لهجوم كاسح على المدينة يسقط الحكم الإسلامى فيها ويقضى على هذا الدين[3].

قرأ الصديق فى وجوه القوم ما فيها من الغدر، ورأى فيها الخسة وتفرس فيها اللؤم، فقال لأصحابه: إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهارًا! وأدناهم منكم على بريد وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم

---

(١) حياة أبى بكر، محمود شلبى، ص١٢٣.

(٢) المرتضى للندوى، ص٧٢.

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٨٠.

ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم فاستعدوا وأعدوا[1]. ووضع الصديق خطته على الوجه التالي:

أ- ألزم أهل المدينة بالمبيت في المسجد حتى يكونوا على أكمل استعداد للدفاع.

ب- نظم الحرس الذين يقومون على أنقاب المدينة ويبيتون حولها، حتى يدفعوا أى غارة قادمة.

ج- عين على الحرس أمراءهم: على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم[2].

د- وبعث أبو بكر رضى الله عنه إلى من كان حوله من القبائل التى ثبتت على الإسلام من أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب يأمرهم بجهاد أهل الردة فاستجابوا له حتى امتلأت المدينة المنورة بهم، وكانت معهم الخيل والجمال التى وضعوها تحت تصرف الصديق[3]، ومما يدل على كثرة رجال هذه القبائل وكبر حجم دعمها للصديق أن جهينة وحدها قدمت إلى الصديق فى أربعمائة من رجالها ومعهم الظهر والخيل، وساق عمرو بن مرة الجهنى مائة بعير لإعانة المسلمين فوزعها أبو بكر فى الناس[4].

هـ- ومن ابتعد من المرتدين عن المدينة وأبطأ خطره حاربه بالكتب يبعث بها إلى الولاة المسلمين فى أقاليمهم، كما كان رسول الله يفعل يحرضهم على النهوض لقتال المرتدين ويأمر الناس للقيام معهم فى هذا الأمر، ومن أمثلة ذلك رسالته لأهل اليمن حيث المرتدة من جنود الأسود العنسى التى قال فيها: (أما بعد فأعينوا الأبناء علي من ناوأهم وحوطوهم واسمعوا من فيروز وجدوا معه فإنى قد وليته)[5]، وقد أثمرت هذه الرسالة وقام المسلمون من أبناء الفرس بزعامة فيروز يعاونهم إخوانهم من العرب بشن غارة شعواء على العصاة المارقين حتى رد الله كيدهم إلى نحورهم، وعادت اليمن

(١، ٢) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٤).

(٣، ٤) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة، د. مهدى رزق الله، ص٢١.

(٥) البدء والتاريخ للمقدسى (٥/ ١٥٧).

بالتدرج إلى جادة الحق[1].

و- وأما من قرب منهم من المدينة واشتد خطره كبنى عبس وذبيان فإنه لم ير بدأ من محاربتهم على الرغم من الظروف القاسية التى كانت تعيشها مدينة رسول الله ﷺ، فكان أن آوى الذرارى والعيال إلى الحصون والشعاب محافظة عليهم من غدر المرتدين[2]، واستعد للنزال بنفسه ورجاله.

سادسًا: فشل أهل الردة فى غزو المدينة:

بعد ثلاثة أيام من رجوع وفود المرتدين طرقت بعض قبائل أسد وغطفان وعبس وذبيان وبكر المدينة ليلاً وخلفوا بعضهم بذى حُسَى ليكونوا لهم ردءًا، وانتبه حرس الأنقاب لذلك وأرسلوا للصديق بالخبر، فأرسل إليم أن الزموا أماكنكم ففعلوا، وخرج فى أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفش العدو فأتبعهم المسلمون على إبلهم، حتى بلغوا ذا حُسَى فخرج عليهم الرِّدْءُ بأنحاء[3] قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال ثم دهدهوها[4] بأرجلهم فى وجوه الإبل فتدهده كل نحى فى طوله[5]، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها - ولا تنفر الإبل فى شىء نفارَها من الأنحاء - فعاجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة فلم يُصْرَع مسلم ولم يُصَب[6]. وقال عبد الله الليثى: وكانت بنو عبد مناة من المرتدة - وهم بنو ذبيان - فى ذلك الأمر بذى القصة وبذى حسى:

أطعنا رسولَ الله ما كان بيننا	فيا لعباد الله ما لأبى بكر
أيورثها بكرًا إذا مات بعده	وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا بزمانه	وهلا خشيتم حس راغية البكر

(1، 2) حركة الردة للعتوم، ص174.

(3) الأنحاء: هى القرب.

(4) أى: دفعوها.

(5) أى: فى حبله.

(6) تاريخ الطبرى (4/ 65).

وإنَّ التى ســـالُوكُمُ فـــمنعـــتُمُ لكالتـمر أو أحلى إلىَّ من التـمر[1]

فظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل ذى القصة بالخبر، فقدموا عليهم اعتماداً فى الذين أخبروهم وهم لا يشعرون لأمر الله عز وجل الذى أراده وأحب أن يبلغه فيهم، فبات أبو بكر ليلته يتهيأ فعبَّى الناس، ثم خرج على تعبية من أعجاز ليلته يمشى، وعلى ميمنته النعمان بن مُقَرِّن وعلى ميسرته عبد الله بن مُقَرِّن وعلى الساقة سُويد بن مُقَرِّن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو فى صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين همسًا ولا حسًا حتى وضعوا فيهم السيوف فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذرَّ قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامَّة ظهرهم، وقتل حبالُ - أخو طليحة الأسدى - وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة - وكان أول الفتح - ووضع بها النعمان بن مُقَرِّن فى عدد، ورجع إلى المدينة فذل بها المشركون، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، وعزَّ المسلمون بوقعة أبى بكر، وحلف أبو بكر ليقتلن فى المشركين كل قتلة، وليقتلن فى كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة[2].

وفى ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمى:

غـــداة ســـعى أبو بكر إليـــهم كـــمـــا يـسـعى لموتتـــه جـــلال

أراح على نواهقـــهـــا عليـــا ومج لهن مـــهـــجـــتـــه حـــبـــال[3]

وصمم الصديق رضى الله عنه على أن ينتقم للمسلمين الشهداء، وأن يؤدب هؤلاء الحاقدين، ونفذ قسمه وازداد المسلمون فى بقية القبائل ثباتًا على دينهم، وازداد المشركون ذلاً وضعفًا وهوانا، وبدأت صدقات القبائل تفد على المدينة فطرقت المدينة صدقات نفر: صفوان ثم الزبرقان، ثم عدىّ، صفوان فى أول الليل والثانى فى وسطه، والثالث[4] فى آخره، وفى ليلة واحدة أثرت المدينة بأموال زكاة ستة أحياء من العرب وكان كلما طلع على المدينة أحد جباة الزكاة قال الناس: (نذير) فيقول أبو بكر: (بل بشير) وإذا بالقادم يحمل معه صدقات قومه فيقول الناس لأبى بكر: طالما بشرتنا

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/٦٥).

(٢، ٣، ٤) نفس المصدر السابق (٤/٦٦).

بالخير(١)، وخلال هذه البشائر التى تحمل معها بعض العزاء وشيئًا من الشراء، عاد أسامة ابن زيد بجيشه ظافراً، وصنع كل ما كان الرسول قد أمره به وما أوصاه به أبو بكر الصديق(٢)، فاستخلفه أبو بكر على المدينة وقال له ولجنده: أريحوا وأريحوا ظهركم(٣)، ثم خرج فى الذين خرجوا إلى ذى القصة والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر، فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تُعرض نفسك! فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً فإن أصيب أمّرت آخر فقال: لا والله لا أفعل ولأواسينَّكم بنفسى(٤).

لقد ظهر معدن الصديق النفيس فى محنة الردة على أجلى صورة للقائد المؤمن الذى يفتدى قومه بنفسه، فالقائد فى فهم المسلمين قدوة فى أعماله، فكان من آثار هذه السياسة الصديقية أن تقوَّى المسلمون وتشجعوا لحرب عدوهم واستجابوا لتطبيق الأوامر الصادرة إليهم من القيادة(٥)، لقد خرج الصديق فى تعبيته إلى ذى حُسَى وذى القصة والنُعمان وعبد الله وسُويد على ماكانوا عليه، حتى نزل على أهل الرَّبَذة بالأبرق فهزم الله الحارث وعوفًا وأخذ الحطيئة أسيراً، فطارت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أيامًا وقد غلب بنو ذبيان على البلاد. وقال: حرام على ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غنمناها الله وأجلاها، فلما غلب أهل الردة ودخلوا فى الباب الذى خرجوا منه وسامح الناس جاءت بنو ثعلبة، وهى كانت منازلهم لينزلوها فمنعوا منها فأتوه فى المدينة فقالوا: علام نمنع من نزول بلادنا! فقال: كذبتم ليست لكم ببلاد ولكنها مَوهبى ونَقَذى(٦)، ولم يُعتبهم(٧)، وحمى الأبرق لخيول المسلمين، وأرعى سائر بلاد الرَّبَذة الناس على بنى ثعلبة، ثم حماها كلها لصدقات المسلمين لقتال كان وقع بين الناس وأصحاب الصدقات، وقال فى يوم الأبرق زياد بن حنظلة:

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٧).

(٢) الصديق أول الخلفاء للشرقاوى، ص٧٥.

(٣) تاريخ الطبرى (٤/ ٣٧).

(٤) نفس المصدر السابق، (٤/ ٦٧).

(٥) حركة الردة للعتوم، ص٣١٩.

(٦) النقذ: ما استنقذ من الأعداء.

(٧) أى: لم يقل عثرتهم.

ويوم بالأبارق قد شهدنا ... على ذبيان يلتهب التهابا
أتيناهم بداهيةٍ نَسُوفٍ[1] ... مع الصديق إذ ترك العتابَا[2]

وهكذا يتعلم المسلمون من سيرة الصديق بأنه لم يكن يرغب بنفسه عن نفوس أتباعه بأى أمر من أمور الدنيا، وما اضطربت أمور المسلمين منذ زمن إلا لأنهم كانوا يعدون الرئاسة وسيلة للجاه وبابًا لجلب المغانم ودرء المغارم، وإيثاراً للعافية والاكتفاء بالكلمات تزجى من وراء أجهزة الإعلام أو من غرف العمليات، بعيداً عن المشاركة مشاركة حقيقية فى قضايا الأمة المختلفة[3].

إن خروج الصديق رضى الله عنه للجهاد ثلاث مرات متتالية يعتبر تضحية كبيرة وفدائية عالية، فقد ناشده المسلمون أن يبقى فى المدينة ويبعث قائداً على الجيش فلم يقبل بل قال: لا والله لا أفعل ولأواسينَّكم بنفسى. وهذا يدل على تواضعه الجمَّ واهتمامه الكبير بمصلحة الأمة، وتجرده من حظ النفس، وقد أصبح بذلك قدوة صالحة لغيره، فلا شك أن خروجه للجهاد ثلاث مرات متتاليات وهو الشيخ الذى بلغ الستين من عمره، قد أعطى بقية الصحابة دفعات قوية من النشاط والحيوية[4].

وقد جاء فى إحدى هذه الروايات أن ضرار بن الأزور حينما أخبر أبا بكر الصديق بخبر تجمع طليحة الأسدى قال: فما رأيت أحداً – ليس رسول الله – أملأ بحرب شعواء من أبى بكر، فجعلنا نخبره ولكأنما نخبر بما له ولا عليه[5].

وهذا وصف بليغ لما كان يتصف به أبو بكر من اليقين الراسخ والثقة التامة بوعد الله تعالى لأوليائه بالنصر على الأعداء والتمكين فى الأرض، فأبو بكر لم يَفُق الصحابة بكبير عمل، وإنما فاقهم بحيازة الدرجات العلى من اليقين رضى الله عنهم أجمعين[6].

وقد روى أنه لما قيل له: لقد نزل بك ما لو نزل بالجبال لهاضها وبالبحار لغاضَها وما نراك ضعفت. فقال: ما دخلى قلبى رعب بعد ليلة الغار، فإن النبى ﷺ لما رأى حزنى

---

(١) أى: شاقة.

(٢) أى: ترك إقالة العثرات؛ تاريخ الطبرى (٤ / ٦٧).

(٣) حركة الردة للعتوم، ص٣٢١.

(٤، ٥، ٦) التاريخ الإسلامى للحميدى (٩ / ٤٨).

قال: لا عليك يا أبا بكر فإن الله قد تكفل لهذا الأمر بالتمام[١]، فكان له رضى الله عنه مع الشجاعة الطبيعية شجاعة دينية وقوة يقينية فى الله عز وجل وثقة بأن الله ينصره والمؤمنين، وهذه الشجاعة لا تحصل إلا لمن كان قوى القلب، وتزيد بزيادة الإيمان وتنقص بنقص ذلك، فقد كان الصديق أقوى قلبًا من جميع الصحابة لا يقاربه فى ذلك أحد منهم[٢].

* * *

---

(١) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، ص٦٩ وليس هذا بلفظ نبوى.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٧٠.

المبحث الثالث

الهجوم الشامل على المرتدين

تمهيد :

تعددت وسائل وطرق التصدى والمواجهة للمرتدين، فكان للثابتين دور فى مواجهة أقوامهم، فوقف بعض الثابتين فى وجه أقوامهم واعظين لهم ومنبهين إلى خطورة ما هم مقدمون عليه من نقض ما يؤمنون به، وكانت الخطوة الأولى بالكلمة، ولم تكن الكلمة فى يوم من الأيام هى أضعف المواقف وإنما هى أقواها، لأنها تستتبع مواقف جادة لتحديد مصداقية الكلمة، وقد تؤدى الكلمة بصاحبها إلى الذبح من أجل الشهادة للكلمة التى قالها، ففى كل قبيلة حصلت فيها ردة كانت هناك بعض المواقف للذين انفعلت قلوبهم للحق وتغذت به وعاشت عليه، هى التى رأت باطل ما يفعله كل قوم، ولهذا وقفوا لهم بالمرصاد يحذرون أقوامهم من سوء المصير الذى ينتظرهم، فما كان من قومهم إلا أن وقفوا فى وجوههم ساخرين مستهزئين، ثم تمادوا إلى مطاردتهم وإخراجهم بل وقتلهم فى بعض الأحيان، ونجح بعضهم بالكلمة كعدى بن حاتم مع قومه والجارود مع أهل البحرين[١]، وسترى تفاصيل ذلك بإذن الله، وعندما فشل بعض المسلمين فى وعظ أقوامهم تحولوا إلى تجمعات مسلمة ثابتة على إسلامها، واتخذت لها الموقف المناسب ضد أقوامهم المرتدين، وكثير من المواقف بدأت بالكلمة ثم انتهت إلى العمل، كما حصل لمن ثبت من بنى سليم فقد حذرهم قومهم فانقسموا إلى قسمين ثابت ومرتد .

فتجمع الثابتون وصاروا يجالدون قومهم المرتدين، وقام الأبناء فى اليمن سراً بتدبير قتل الأسود العنسى - كما سيأتى تفصيله - بعد أن كان موقفهم سلبيًا فى بطش الأسود العنسى، ووقف مسعود أو مسروق القيسى ابن عابس الكندى ينصح الأشعث ابن قيس ويدعوه لعدم الردة، ودخل بينهما حوار طويل وتحد متبادل، وهكذا صارت بعض المواقف سببًا فى إرجاع قومهم عن الردة، أو فى تسهيل مهمة جيوش الدولة الإسلامية القادمة للقضاء على الردة[٢] .

---

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع ، ص (٣١٣، ٣١٤) .

(٢) نفس المصدر السابق، ص٣١٤ ولقد اعتمد الشجاع على كتاب الكلاعى الأندلسى فى الردة .

لقد اعتمدت سياسة الصديق فى القضاء على الردة على الله تعالى، ثم على ركائز قوية من القبائل والزعماء والأفراد الذين انبثوا فى جميع أنحاء الجزيرة العربية وثبتوا على إسلامهم، وقاموا بأدوار هامة ورئيسية فى القضاء على فتنة الردة، ولقد أخطأ بعض الكتاب عندما تناول فتنة الردة بشيء من التعميم أو عدم الدقة أو عدم الموضوعية أو سوء الفرض أو النظرة الجزئية(١).

إن من الحقائق الأساسية حول هذه الفتنة أنها لم تكن شاملة لكل الناس كشمولها الجغرافى، بل إن هناك قادة وقبائل وأفراداً وجماعات، وأفرادا تمسكوا بدينهم فى كل منطقة من المناطق التى ظهرت فيها الردة(٢)، ولقد قام الدكتور مهدى رزق الله أحمد بدراسة عميقة وأجاب عن سؤال طرحه وهو: هل كانت الردة فى عهد الخليفة أبى بكر رضى الله عنه شاملة لكل القبائل العربية والأفراد والزعماء الذين كانوا مسلمين؟ أم أن هذه الفتنة قد وقعت فيها بعض القبائل وبعض الزعماء وبعض الأفراد فى مناطق جغرافية مختلفة؟ وبعد البحث قال: إن أول حقيقة تستخلص من المصادر التى أشرت إليها سابقًا: هى أننى لم أجد ما يدل على أن القبائل والزعماء والأفراد قد ارتدوا جميعًا عن الإسلام كما ذكر أولئك النفر الذين جعلناهم مثالاً(٣)، بل وجدت أن الدولة الإسلامية اعتمدت على قاعدة صلبة من الجماعات والقبائل والأفراد الذين ثبتوا على الإسلام، وانبثوا فى جميع أنحاء الجزيرة، وكانوا سنداً قويًا للإسلام ودولته فى قمع حركة المرتدين منهم(٤).

---

(١) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة، ص٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص١٩.

(٣) التاريخ السياسى للدولة العربية للدكتور عبدالمنعم ماجد ص ١٤٦؛ التاريخ الإسلامى العام ـ الجاهلية: الدولة العربية الدولة العباسية على إبراهيم حسن ص٢١٩؛ تاريخ الدولة العربية السيد عبدالعزيز سالم ص٤٣٢؛ جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين الدكتور محمد السيد الوكيل ص٢١؛ الخلفاء الراشدون محمد أسعد طلس ص ٢٠، أبو بكر الصديق لعلى الطنطاوى ص ١٦؛ إتمام الوفاء فى سير الخلفاء محمد الخضرى بك ص٢١؛ عصر الصديق شبير أحمد محمد على الباكستانى ص ١٥٩؛ ظاهرة الردة فى المجتمع الإسلامى الأول محمد بريغش ص (١٠٠، ١٠١)؛ الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل ص ١٧٣.

(٤) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة، ص ١٩.

أولاً: المواجهة الرسمية من الدولة:

١ - وسيلة الإحباط من الداخل:

كان رسول الله ﷺ قد استعمل هذه الوسيلة، فقام بمراسلة وبعث الرسل إلى قبائل المتنبئين لتجميع الثابتين على الإسلام، وليشكل بهم جماعة تحارب الردة، وسار الصديق رضى الله عنه على نفس المنهج، وحاول أن يحجم ويقضى على ما يمكن القضاء عليه من بؤر المرتدين، وقام بالتوعية ضدها والتخذيل منها وتنفير الناس عنها، واستطاع أن يتصل بالثابتين على الإسلام وجعل منهم رصيداً للجيوش المنظمة، فقد كان يعد الأمة لمواجهة منظمة مع المرتدين بعد عودة جيش أسامة، فقد راسل الصديق زعماء الردة والثابتين على الإسلام ليحقق بعض الأهداف ككسب الوقت حتى يرجع جيش أسامة فكتب إلى من كتب إليهم رسول الله ﷺ باليمن وغيرها[١]، ليبذلوا جهدهم لدعوة الثابتين إلى الإسلام، وطلب من الثابتين التجمع فى مناطق حددها لهم حتى يأتيهم أمره، وكان هذا الترتيب بداية للخطة العسكرية القادمة[٢]، وقد حالف التوفيق بعض الثابتين بالوصول إلى المدينة ومعهم صدقاتهم مثل عدى بن حاتم الطائى والزبرقان بن بدر التميمى[٣]، وتمكن الثابتون من إفشال حركة قيس بن مكشوح المرادى وبعض التجمعات القبلية فى تهامة وبلاد السراة ونجران، وقد حققت هذه الوسيلة بعض النتائج منها:

أ - نجحت خطة الصديق فى تحقيق حملات التوعية والدعاية والتعضيد للمسلمين والتخذيل لقوى المرتدين؛ تمهيداً لاتخاذ الوسيلة الأخرى حينما تتوافر لها الإمكانات: وهى أداة الجيوش المنظمة.

ب - أنها حققت أغراضها من حيث التربية وإعداد الثابتين على الإسلام ليكونوا قواداً فى حركة الفتوح الإسلامية فيما بعد: كعدى بن حاتم الطائى أحد قواد فتوح العراق.

ج - تكوين قوى مسلمة مرابطة فى بعض المراكز التى حددها لهم الصديق لتنضم بعد ذلك إلى الجيوش القادمة.

(١، ٢) دراسات فى عهد النبوة للشجاع، ص٣١٩.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٣١٩ نقل عن الكلاعى: تاريخ الردة، ص (١٠ - ١٢).

د - القضاء على بعض مناطق الردة ولو بمحدودية ضيقة مثلما حصل فى جنوب الجزيرة العربية.

٢ - إرسال الجيوش المنظمة:

لما وصل جيش أسامة بعد شهرين وقيل أربعين يومًا - من مسيرهم واستراحوا، خرج أبو بكر الصديق بالصحابة رضى الله عنهم إلى (ذى القَصَّة) وهى على مرحلة من المدينة، وذلك لقتال المرتدين والمتمردين، فعرض عليه الصحابة أن يبعث غيره على القيادة وأن يرجع إلى المدينة ليتولى إدارة أمور الأمة، وألحُّوا عليه بذلك، ومما رُوى في هذا الموضوع ما قالته عائشة: خرج أبى شاهرًا سيفه راكبًا راحلته إلى وادى ذى القصة، فجاء على بن أبى طالب رضى الله عنه فأخذ بزمام راحلته، فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد[١]، شِمْ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا، فرجع[٢]، وقد قسم أبو بكر الجيش الإسلامى إلى أحد عشر لواء وجعل على كل لواء أميرًا[٣]، وأَمَرَ كل أمير جند باستنفار من مرَّ به من المسلمين التابعين من أهل القرى التى يمر بها وهم:

١ - جيش خالد بن الوليد إلى بنى أسد ثم إلى تميم ثم إلى اليمامة.

٢ - جيش عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة فى بنى حنيفة، ثم إلى عمان والمهرة فحضرموت فاليمن.

٣ - جيش شُرَحْبِيل بن حَسَنة إلى اليمامة فى إثر عكرمة، ثم حضرموت.

٤ - جيش طُرَيْفَةَ بن حَاجِر إلى بنى سليم من هوازن.

٥- جيش عمرو بن العاص إلى قضاعة.

٦ - جيش خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام.

٧ - جيش العَلاَء بن الحَضْرمى إلى البحرين.

٨ - جيش حذيفة بن محصن الغلفائى إلى عمان.

---

(١) يقصد قوله لأبى بكر لما أراد أن يبارز ابنه عبدالرحمن: « شم سيفك وارجع إلى مكانك ».

(٢) البداية والنهاية (٦ / ٣١٩).

(٣) التاريخ الإسلامى (٩ / ٤٩).

٩ - جيش عرفجة بن هرثمة إلى مهرة.

١٠ - جيش المهاجر بن أبى أمية إلى اليمن (صنعاء ثم حضرموت).

١١ - جيش سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن[١].

وهكذا اتخذت قرية (ذى القَصَّة) مركز انطلاق أو قاعدة تحرك للجيوش المنظمة التى ستقوم بالتحرك إلى مواطن الردة للقضاء عليها، وتنبىء خطة الصديق رضى الله عنه عن عبقرية فذة وخبرة جغرافية دقيقة[٢]، ومن خلال تقسيم الألوية وتحديد المواقع يتضح أن الصديق رضى الله عنه كان جغرافيًا دقيقًا خبيراً بالتضاريس والتجمعات البشرية وخطوط مواصلات جزيرة العرب، فكأن الجزيرة العربية صورت مجسمًا واضحًا نصب عينيه فى غرفة عمليات مجهزة بأحدث وسائل التقنية، فمن يتمعَّن تسيير الجيوش ووجهة كل منها واجتماعها بعد تفرّقها وتفرقها لتجتمع ثانية، يرى تغطية سليمة رائعة صحيحة مثالية لجميع أرجاء الجزيرة مع دقة فى الاتصال مع هذه الجيوش، فأبو بكر فى كل ساعة يعلم أين مواقع الجيوش ويعلم دقائق أمورها وتحركاتها وما حققت، وما عليها فى غدٍ من واجبات، والمراسلات دقيقة وسريعة تنقل أخبار الجبهات إلى مقرِّ القيادة فى المدينة حيث الصديق، وكان على صلة مستمرة مع جيوشه كلها، وبرز من المراسلين العسكريين ما بين الجبهات وبين مقرِّ القيادة: أبو خيثمة النَّجَّارى الأنصارى وسلمة بن سلامة وأبو برزة الأسلمى وسلمة بن وقش[٣].

وكانت الجيوش التى بعثها الصديق متماسكة وهى أحد إنجازات الدولة الهامة، إذ جمعت تلك الجيوش بين مهارة القيادة وبراعة التنظيم فضلاً عن الخبرة فى القتال، صهرتها الأعمال العسكرية فى حركة السرايا والغزوات التى تعدى بعضها شبه الجزيرة فى زمن النبى ﷺ، فقد كان الجهاز العسكرى لدولة الصديق متفوقًا على كل القوى العسكرية فى الجزيرة[٤]، وكان القائد العام لهذه الجيوش سيف الله المسلول خالد بن الوليد صاحب العبقرية الفذة فى حروب الردة والفتوحات الإسلامية، كان هذا التوزيع

---

(١) تاريخ الطبرى (٤ / ٦٨)؛ دراسات فى عصر النبوة، ص ٣٢١.

(٢) دراسات فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين، ص ٣٢١.

(٣) فى التاريخ الإسلامى، شوقى أبو خليل، ص (٢٢٦، ٢٢٧).

(٤) من دولة عمر إلى دولة عبدالملك، إبراهيم بيضون، ص ٢٨.

للجيوش وفق خطة استراتيجية هامة مفادها أن المرتدين لازالوا متفرقين، كلٌّ في بلده، ولم يحصل منهم تحزب ضد المسلمين بالنسبة للقبائل الكبيرة المتباعدة في المكان أولاً، لأن الوقت لم يكن كافياً للقيام بعمل كهذا، حيث لم يمضِ على ارتدادهم إلا ما يقرب من ثلاثة شهور، وثانيًا لأنهم لم يدركوا خطر المسلمين عليهم وأنهم باستطاعتهم أن يكتسحوهم جميعًا في شهور معدودة، ولذلك أراد الصديق أن يعاجلهم بضربات مفاجئة تقضي على شوكتهم وقوتهم قبل أن يجتمعوا في نصرة باطلهم[1]، فعالجهم قبل استفحال فتنتهم، ولم يترك لهم فرصة يطلون منها برؤوسهم ويمدون ألسنتهم يلذعون بها الجسم الإسلامي وبذلك طبق الحكمة القائلة:

لا تقطَعَنْ ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهمًا فأتبع رأسها الذنب[2]

فقد أدرك حجم الحدث وأبعاده ومدى خطورته، وعلم أنه إن لم يفعل كذلك فسيوشك الجمر أن ينتفض من تحت الرماد فيحرق الأخضر واليابس، كما قال الأول:

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام[3]

فقد كان رضي الله عنه السياسي الماهر والعسكري المحنَّك الذي يقدر الأمور ويضع لها الخطط المباشرة.

انطلقت الألوية التي عقدها الصديق ترفرف عليها أعلام التوحيد، مصحوبة بدعوات خالصة من قلوب تعظم المولى عز جل وتشربت معاني الإيمان، ومن حناجر لم تلهج إلا بذكر الله تعالى، فاستجاب الله جل وعلا هذه الدعوات النقية، فأنزلَ عليهم نصره وأعلى بهم كلمته وحمى بهم دينه،حتى دانت جزيرة العرب للإسلام في شهور معدودة[4].

هذا وقد كتب أبو بكر الصديق كتابًا واحداً إلى قبائل العرب من المرتدين والمتمردين فدعاهم إلى العودة إلى الإسلام وتطبيقه كاملاً، كما جاء من عند الله تعالى ثم حذرهم من سوء العاقبة فيما لو ظلوا على ما هم عليه في الدنيا والآخرة، وكان قويًا في إنذارهم،

---

(١) التاريخ الإسلامي (٩ / ٥١).

(٢) حركة الردة، ص ٣١٢ للعتوم.

(٣) نفس المصدر السابق، ص٣١٣.

(٤) التاريخ الإسلامي (٩ / ٥١).

وهذا هو المناسب لشدة انحرافهم وقوة تصلبهم فى التمسك بباطلهم، فكان لابد من إنذار شديد يتبعه عمل جرىء قوى لإزالة الطغيان الذى عشَّش فى أفكار زعماء تلك القبائل، والعصبية العمياء التى سيطرت على أفكار أتباعهم[1].

٣ - نص الخطاب الذى أرسله للمرتدين والعهد الذى كتبه للقادة:

بعد التنظيم الدقيق، وحسن الإعداد للجيوش الإسلامية التى عقد لها الصديق الألوية نجد الدعوة البيانية القولية تطل لتقوم بدورها وتدلى بدلوها، فقد حرر الصديق كتاباً عاماً ذا مضمون محدد، سعى إلى نشره على أوسع نطاق ممكن فى أوساط من ثبتوا على الإسلام ومن ارتدوا عنه جميعاً، قبل تسيير قواته لمحاربة الردة، وبعث رجالاً إلى محل القبائل، وأمرهم بقراءة كتابه فى كل مجتمع، وناشد من يصله مضمون الكتاب بتبليغه لمن لم يصل إليه، وحدد الجمهور المخاطب به بأنه: العامة والخاصة من أقام على إسلامه أو رجع عنه[2]، وهذا نص الكتاب الذى بعثه الصديق:

بسم الله الرحمن الرحيم: من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابى هذا من عامة وخاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه: سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، نُقرُّ بما جاء به ونكفر من أبى ونجاهده، أما بعد فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه وضرب رسول الله ﷺ بإذنه[3] من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعًا وكَرهاً، ثم توفى الله رسوله ﷺ وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذى عليه، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فمن كان إنما يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ٥٥).

(٢) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، السيد عمر، ص٢٦٢.

(٣) بإذن الله تعالى.

وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد، حى قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم، حافظ لأمره منتقم من عدوه، بحزبه، وإنى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله، وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهُداه وأن تعتصموا بدين الله، فإن كل من لم يهده الله ضال، وكل من لم يعافه مُبتلى، وكل من لم يُعنه الله مخذول، فمن هداه الله كان مهتديًا ومن أضله كان ضالاً، قال الله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يُقَر به ولم يقبل منه فى الآخرة صرف ولا عدل، وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرَّ بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦] وإنى بعثت إليكم فلانًا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر وكفَّ وعمل صالحًا قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يُبقى على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن تبعه فهو خير له ومن تركه فلن يُعجز الله، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الأذان: فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم، وإن أذّنوا اسألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقرُّوا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم[١].

ونلحظ فى خطاب أبى بكر أنه كان يدور حول محورين:

أ - بيان أساس مطالبة المرتدين بالعودة إلى الإسلام.

ب - بيان عاقبة الإصرار على الردة[٢].

وقد أكد الكتاب على عدة حقائق هى:

● أن الكتاب موجه إلى العامة والخاصة ليسمع الجميع دعوة الله.

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/٦٩، ٧٠، ٧١).

(٢) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص ٢٦٢.

• بيان أن الله بعث محمداً بالحق فمن أقرَّ به كان مؤمنًا، ومن أنكر كان كافرًا يُجاهد ويُقاتل.

• بيان أن محمداً بشر قد حق عليه قول الله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ وأن المؤمن لا يعبد محمداً ﷺ وإنما يعبد الله الحي الباقي الذي لايموت أبداً، ولذلك لا عذر لمرتد[1].

• إن الرجوع عن الإسلام جهل بالحقيقة واستجابة لأمر الشيطان وهذا يعني أن يتخذ العدو صديقًا، وهو ظلم عظيم للنفس السوية، إذ يقودها صاحبها بذلك إلى النار عن طواعية.

• إن الصفوة المختارة من المسلمين وهم المهاجرون والأنصار وتابعوهم، هم الذين ينهضون لقتال المرتدين غيرة منهم على دينهم وحفاظًا عليه من أن يهان.

• إن من رجع إلى الإسلام وأقر بضلاله وكف عن قتال المسلمين وعمل من الأعمال ما يتطلبه دين الله، فهو من مجتمع المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم.

• إن من يأبى الرجوع إلى صف المسلمين ويثبت على ردته، إنما هو محارب لابد من شن الغارة عليه: تقتله أو تحرقه وتسبى نساءه وذراريه، ولن يعجز الله بأية حال، لأنه أنى ذهب في ملكه.

• إن الشارة التي ينجو بها المرتدون من غارة المسلمين أن يعلن فيهم الأذان وإلا فالمعالجة بالقتال هي البديل[2]، وحتى لا يترك الخليفة الأمر للقادة والجند بغير انضباط كتب للقواد جميعًا كتابًا واحداً يدعوهم فيه إلى الالتزام بمضمون كتابه السابق هذا نصه:..

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنَّ غارته عليهم حتى يقرُّوا له، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم، لا يُنظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٩٠.

(٢) حركة الردة للعتوم، ص(١٧٦، ١٧٧).

الله عز وجل وأقرَّ له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يتقبل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب داعية الله قُتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغَمهُ، لا يقبل من أحد شيئًا أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقرَّ قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليهم إلا الخُمس فإنه يبلغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وألا يُدخل فيهم حَشواً حتي يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيونًا، ولئلا يُؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم، ولا يُعجِل بعضهم عن بعض، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول[١].

وفى هذا العهد الذى ألزم به قوَّاده يظهر حرص الصديق على إلزام أمرائه فى حرب الردة بتعليمات أساسية مكتوبة موحدة نصت بوضوح لا يحتمل اللبس على حظر القتال قبل الدعوة إلى الإسلام، والإمساك عن قتال من يجيب، والحرص على إصلاحهم، وحظر مواصلة القتال بعد أن يقروا بالإسلام والتحول عند هذه النقطة من القتال إلى تعليمهم أصول الإسلام وتبصيرهم بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات وحظر المهادنة أو رد الجيش عن محاربة المرتدين ما لم يفيئوا إلى أمر الله.

والتزم الجيش الإسلامى فى التنفيذ مبدأ الدعوة قبل القتال والإمساك عن القتال بمجرد إجابة الدعوة باعتبار أن الغاية الوحيدة هى عودة المرتدين إلى الذى خرجوا منه وتلمسًا لتَحقيق أقصى درجة من التوافق فى صفوف القوات الإسلامية التى نيط بها القضاء على ظاهرة الردة، أمضى الصديق هذا العهد مع أمراء الجيوش الإسلامية يطلب من الجيش أن يكون سلوكه ذاته خير دعوة للمهمة المسندة إليه وأن يتطابق تمامًا مع هدف واحد هو الدفاع عن الإسلام[٢].

إن اقتداء أبى بكر رضى الله عنه برسول الله ﷺ، علمه فن القيادة ونجاح القائد فى قيادته يتوقف على مدى نجاحه فى جنديته، ولقد كان أبو بكر نعم الجندى فى جيش المسلمين مخلصًا فى ولائه لرسول الله ﷺ، يطبق ما يقوله بحذافيره مضحيًا فى سبيله،

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ٧١، ٧٢).

(٢) الدور السياسى للصفوة، ص٢٦٣.

لم يَفرَّ عنه فى معركة قط، ونستطيع أن ندرك دقة آرائه القيادية وبُعد مرماها من وصاياه لقواده وخططه العامة التى رسمها لهم أثناء تحركهم لضرب قوات العدو[1] لقد كانت أول وصية أوصاهم بها تتركز على النقاط التالية:

● أن يلزموا أنفسهم تقوى الله عز وجل ومراقبته فى السر والعلن وهذا عين الصواب فى هذه السياسة الرشيدة، لأن القائد إذا ألزم نفسه تقوى الله عز وجل كان معه ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨].

● الجد والاجتهاد وإخلاص النية لله سبحانه وتلك أخلاق المنصورين الفائزين[2] ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩].

● أن لا يقبل من المرتدين إلا الإسلام أو القتل، إذ لا مهادنة فى أمر العقيدة.

● تقسيم الغنائم بين الجند مع الاحتفاظ بحق بيت المال منها وهو خمسها.

● أن لا يتعجلوا فى التصرف حيال القضايا التى تواجههم حتى لا تأتى حلولهم فجة.

● أن يحذروا من أن يدخل بينهم غريب ليس منهم، كيلا يكون جاسوساً عليهم.

● أن يرفقوا بجندهم ويتفقدوهم فى المسير والنزول، وأن لا ينفرط بعضهم عن بعض.

● وأن يستوصوا بهؤلاء الجند خيراً فى الصحبة[3].

ويمكننا من خلال الدراسة أن نستخلص الخطة العامة بعد أن عقد الصديق الألوية لقادة الجيوش والتى تتلخص فى النقاط الآتية:

أ - ضمنت الخطة إحكام التعاون بين هذه الجيوش جميعها، بحيث لا تعمل كأنها منفصلة تحت قيادة مستقلة، وإنما هى رغم تباعد المكان جهاز واحد، وقد تلتقى - أو يلتقى بعضها ببعض - لتفترق، ثم تفترق لتلتقى، كان ذلك والخليفة بالمدينة يدير حركة القتال ومعاركه.

---

(١) حركة الردة للعتوم، ص١٧٩.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص (٢٩١، ٢٩٢).

(٣) حركة الردة للعتوم، ص ١٧٩.

ب - احتفظ الصديق بقوة تحمى المدينة - عاصمة الخلافة - واحتفظ بعدد من كبار الصحابة ليستشيرهم وليشاركوه فى توجيه سياسة الدولة.

ج - أدرك الصديق أن هناك جيوشًا من المسلمين داخل المناطق التى شملتها حركة العصيان والردة، وقد حرص على هؤلاء المسلمين من أن يتعرضوا لنقمة المشركين، ولذلك فإنه أمر قادته باستنفار من يمرون بهم من أهل القوة من المسلمين من جهة، وبضرورة تخلف بعضهم لمنع بلادهم وحمايتها من جهة أخرى.

د- طبق الخليفة مبدأ الحرب خدعة مع المرتدين، حتى أظهر أن الجيوش تنوى شيئًا، وهى فى حقيقة الأمر كانت تستهدف شيئًا آخر زيادة فى الحيطة والحذر من اكتشاف خطته[١]، وهكذا تظهر الحنكة السياسية والتجربة العملية والعلم الراسخ والفتح الربانى فى قيادة الصديق.

ثانيا :القضاء على فتنة الأسود العنسى وطليحة الأسدى ومقتل مالك بن نويرة

١ - القضاء على الأسود العنسى وردة اليمن الثانية :

اسمه : عبهلة بن كعب ويكنى بذى الخمار لأنه كان دائمًا معتمًا متخمرًا بخمار[٢]، ويعرف بالأسود العنسى لاسوداد فى وجهه، وتكمن قوة الأسود فى ضخامة جسمه وقوته وشجاعته، واستخدم الكهانة والسحر والخطابة البليغة، فقد كان كاهنًا مشعوذًا، يُرى قومه الأعاجيب، ويسبى قلوب من سمع منطقه واستخدم الأموال للتأثير على الناس[٣].

أ- الأسود العنسى فى عهد الرسول ﷺ.

وما أن انتشر خبر مرض رسول الله ﷺ بعد مقدمه من حجة الوداع حتى ادعى الأسود العنسى النبوة وقيل: إنه أطلق على نفسه (رحمان اليمن) كما تسمى (مسيلمة) (رحمان اليمامة)[٤]، وأنه كان يدعى النبوة ولا ينكر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وكان يزعم أن ملكين يأتيانه بالوحى وهما: سحيق وشقيق - أوشريق[٥] - وكان قبل أن يظهر مخفيًا أمره يجمع حوله من يراه مناسبًا حتى فاجأ

---

(١) الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن فى الإسلام، مصطفى محمود منجود، ص١٦٩.

(٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ١٧).

(٣) عصر الخلافة الراشدة للعمرى، ص ٣٦٤.

(٤) اليمن فى صدر الإسلام للشجاع، ص ٢٥٦.

(٥) البدء والتاريخ (٥/ ١٥٤).

الناس بظهوره[١] وكان أول من تبعه: أبناء قبيلته وهم (عنس)[٢]، ثم كاتب زعماء قبيلة (مَذحج) فتبعه العوام منهم[٣]، وبعض زعمائهم من طالبى الزعامة، وقد عمل على إثارة العصبية القبلية لأنه من (عنس) وهى بطن من بطون قبيلة (مذحج)، وقد راسله بنو الحارث بن كعب من أهل نجران وهم يومئذ - مسلمون - فطلبوا منه أن يأتيهم فى بلادهم، فجاءهم فاتبعوه لكونهم لم يسلموا رغبة، وتبعه أناس من (زبيد) و(أود) (مَسْلِيَة) و(حكم بنى سعد العشيرة) ثم أقام بنجران بعض الوقت، وقوى أمره بعد أن انضم إليه عمرو بن معد يكرب الزبيدى وقيس بن مكشوح المرادى. وتمكن من طرد فروة بن مسيك من مراد وعمرو بن حزم من نجران، واستهوته فكرة السيطرة على صنعاء فخرج إليها بست مئة - أو سبع مئة - فارس معظمهم من بنى الحارث بن كعب) و(عنس)[٤].

فتقابل مع أهل صنعاء وعليهم (شهر بن باذان الفارسى)، وكان قد أسلم مع أبيه - فى منطقة خارج صنعاء تسمى منطقة (شعوب)، فتقاتلوا قتالاً شديداً فقتل (شهر بن باذان) وانهزم أهل صنعاء أمام الأسود العنسى، فغلب عليها ونزل قصر (غمدان) بعد خمسة وعشرين يوماً من ظهوره[٥].

وكان له مواقف بشعة فى تعذيب المستمسكين بالإسلام، فقد أخذ أحد المسلمين ويسمى - النعمان - فقطعه عضواً عضواً[٦]، ولهذا تعامل معه المسلمون الذين كانوا فى المناطق التى يديرها بالتقية[٧].

أما بقية المسلمين خارج نطاق سيطرته فقد حاولوا التجمع وإعادة الانتظام إلى صفوفهم، فكان فروة بن مسيك المرادى قد انحاز إلى مكان يسمى (الأحسية)[٨]، وانضم إليه من انضم من المسلمين، وكتب إلى رسول الله ﷺ بخبر الأسود العنسى فكان

---

(١) اليمن فى صدر الإسلام، ص٢٥٧.

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى (١/ ١٢٥).

(٣، ٤) تاريخ الردة للكلاعى، ص (١٥١، ١٥٢).

(٥) البدء والتاريخ (٥/ ٢٢٩).

(٦) ابن سعد فى الطبقات (٥/ ٥٣٥).

(٧) اليمن فى صدر الإسلام للشجاع، ص ٢٥٨.

(٨) الأحسية: موضع باليمن، انظر: ياقوت: المعجم (١/ ١١٢).

أول من أبلغ الرسول ﷺ بذلك، وانحاز كل من أبى موسى الأشعرى، ومعاذ بن جبل إلى حضرموت فى جوار (السَّكاسك والسَّكون)[١].

وقد راسل رسول الله ﷺ الثابتين على الإسلام لمواجهة ردة الأسود، وأمرهم بالسعى للقضاء عليه إما مصادمة أو غيلة، ووجه كتبه ورسله إلى بعض زعماء (حمير) و(همدان) بأن يتكاتفوا ويتوحدوا ويساعدوا (الأبناء)[٢] ضد (الأسود العنسى) فأرسل (وبر بن يخنس) إلى (فيروز الديلمى وجُشَيْش الديلمى وداذويه الإصطخرى) وبعث (جرير البجلى) إلى (ذى الكلاع وذى ظليم) الحميريين، وبعث (الأقرع بن عبدالله الحميرى) إلى (ذى زود وذى مران) الهمدانيين، وكذلك كتب إلى أهل نجران من الأعراب وساكنى الأرض من غيرهم[٣]، وبعث (الحارث بن عبدالله الجهنى) إلى اليمن قبيل وفاته، فبلغته وفاة الرسول ﷺ وهو فى اليمن[٤]، ولم تبين المصادر إلى أين بعث، إلا أنه من الممكن أنه بعث إلى (معاذ بن جبل) لأنه تلقى كتابًا من رسول الله ﷺ يأمره فيه بأن يبعث الرجال لمحاولة ومصاولة (الأسود العنسى) للقضاء عليه[٥]، كما تلقى (أبو موسى الأشعرى) و(الطاهر بن أبى هالة) كتابًا من رسول الله ليواجهوا (الأسود) بالغَيْلَة أو المصادمة[٦]، وكان لهذا العمل من جانب الرسول ﷺ أثر كبير، فقد تماسك من بعث إليهم فى حياته وبعد موته، فلم يُعْهَد عنهم أنهم ارتدوا أو تزلزلوا، فقد كتب زعماء (حمير) وزعماء (همدان) إلى الأبناء باذلين لهم العون والمساعدة، وفى الوقت نفسه تجمع أهل (نجران) فى مكان واحد للتصدى لأى حركة من جانب (الأسود العنسى)، وحينئذ أيقن هذا أنه إلى هلاك[٧].

وظلت المكاتبات تتوالى بين (الهمدانيين) و(الحميريين) وبين (معاذ بن جبل) وبعض الزعماء اليمنيين، ومن المحتمل أن بعض المكاتبات تمت بين (الأبناء) وبين (فروة

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/٤٩، ٥٠).
(٢) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٧١.
(٣) تاريخ الطبرى (٤/٥٢).
(٤) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٧١.
(٥) نفس المصدر السابق، ص٢٧٢.
(٦) تاريخ الطبرى (٤/٥١).
(٧) اليمن فى صدر الإسلام، ص٢٧٢.

ابن مسيك) لأنه كان له دور فى قتل (الأسود العنسى)[١]، ولكن كان أول من اعترض على (العنسى) هو (عامر بن شهر الهمدانى).

وهكذا تجمعت كل قوى الإسلام فى اليمن للقضاء على (الأسود العنسى)، ويظهر أنهم كانوا مجمعين على أن يقوموا بمقتله، لعلمهم أنه بمجرد أن يقتل لن يبقى لأتباعه أى كيان فيسهل التخلص منهم حينئذ، ولهذا وافقوا على خطة (الأبناء) بأن لا يقوموا بأى شيء حتى يبرموا الأمر من داخلهم.

واستطاع (الأبناء) فيروز وداذويه أن يتفقا مع (قيس بن مكشوح المرادى) – وكان قائد جند العنسى – للتخلص من (الأسود العنسى) لأنه كان على خلاف معه، ويخشى أن يتغير عليه[٢]، وقد ضموا إلى صفهم زوجة (الأسود العنسى) (آزاد الفارسية) والتى كانت زوج شهر بن باذان وابنة عم فيروز الفارسى، فقد اغتصبها كذّاب اليمن بعد أن قتل زوجها، فهبت لإنقاذ دينها من براثن وحوش الجاهلية بكل عزم وتصميم، فدبرت مع المسلمين المناوئين للأسود خطة اغتيال هذا الطاغية المتأله[٣]، ومهدت لهم السبيل لقتله على فراش نومه[٤]، وحينما قتل (الأسود) ألقى برأسه بين أصحابه فانتابهم الرهبة وعمهم الخوف، ففروا هاربين[٥].

وأتى الخبر النبى ﷺ من السماء الليلة التى قتل فيها العنسى ليبشرنا فقال: «**قُتل العنسى البارحة قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين**» قيل: ومن هو؟ قال: «**فيروز**»[٦].

وقد فصل خطة اغتيال الأسود العنسى الدكتور صلاح الخالدى فى كتابه: «صور من جهاد الصحابة . . عمليات جهادية خاصة تنفذها مجموعة خاصة من الصحابة»[٧].

وظل أمر (صنعاء) مشتركًا بين (فيروز وداذويه وقيس بن مكشوح) إلى أن جاء

---

(١) اليمن فى صدر الإسلام، ص٢٧٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص (٢٧٢، ٢٧٣).

(٣) حركة الردة للعتوم، ص٣٠٩.

(٤، ٥) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٧٣.

(٦) تاريخ الطبرى (٤/ ٥٥).

(٧) صور من جهاد الصحابة للخالدى، ص (٢١١ – ٢٢٨).

معاذ بن جبل إلى (صنعاء)، فارتضوا أن يكون هو الأمير عليهم، ولكنه لم يمكث إلا ثلاثة أيام يصلى بهم حتى بلغهم خبر وفاة رسول الله ﷺ[1]، وكانت تفاصيل مقتل (العنسى) قد خرجت من صنعاء فوصلت إلى الصديق بعد أن خرج جيش أسامة وكان هذا أول فتح أتى أبا بكر وهو فى المدينة[2].

ب - وعين أبو بكر (فيروز الديلمى) واليًا على صنعاء وكتب إليه بذلك، ولم يول (أبو بكر) (قيسًا) لأنه كان ممن مالأ الأسود العنسى وتابعه مخلصًا - عصبية لمذحج أو رغبة فى الزعامة - وكان مبدأ أبى بكر عدم الاستعانة بمن ارتد[3]، وجعل كل من داذويه وجشيش وقيس بن مكشوح مساعدين لفيروز، فتغيرت نفس قيس بن مكشوح المرادى فعمل على قتل زعماء الأبناء الثلاثة، وقد تمكن من قتل (داذويه) سواء بنفسه أو بإيعاز منه - فتنبه لذلك (فيروز) فهرب إلى أخواله فى (خولان)[4]، فما كان من قيس إلا أن أثارها عصبية جنسية فحاول جمع زعماء بعض القبائل ضد (الأبناء) مدعيًا أنهم متحكمون فيهم، وأنه يرى قتل رؤسائهم وإجلاء بقيتهم، ولكن أولئك الزعماء وقفوا على الحياد فلم ينحازوا إليه ولا إلى الأبناء، وقالوا له : أنت صاحبهم وهم أصحابك، فلما يئس منهم عاد فكاتب فلول (الأسود العنسى) سواء الذين بقوا متذبذبين بين صنعاء ونجران أو ممن انحاز إلى لحج، فطلب منهم الالتقاء بهم ليكونوا - جميعًا - على أمر واحد وهو نفى (الأبناء)، فلم يشعر أهل صنعاء إلا وهم محاطون بتلك الفلول ثم حرص (قيس) على تجميع (الأبناء) تمهيداً لنفيهم[5].

وعندما وصل فيروز الديلمى إلى خولان كتب من هناك إلى أبى بكر يخبره بما حصل من قيس، فما كان منه إلا أن كتب إلى الزعماء الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ، وكانت صيغة الكتاب واضحة صريحة وهى : (أعينوا الأبناء على من ناوأهم وحوطوهم واسمعوا من فيروز وجدوا معه فإنى قد وليته)[6].

---

(١) تاريخ الطبرى (٤ / ٥٦).

(٢) البلاذرى فتوح البلدان (١ / ١٢٧).

(٣) اليمن فى صدر الإسلام، ص٢٧٥ .

(٤) تاريخ الطبرى (٤ / ١٤٠).

(٥) تاريخ الطبرى (٤ / ١٤٠)؛ اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٦٤ .

(٦) تاريخ الطبرى (٤ / ١٤٠).

كان الصديق فى نهجه هذا يستهدف أمرين متلازمين:

● أنه جعله خطة حربية حيث كان جيش أسامة بن زيد قد خرج إلى الشام، وكان الخليفة ينتظر عودته حتى يتسنى له مواجهة أعنف موجات الردة فى اليمامة والبحرين وعمان وتميم، وهى أشد وأعنف من موجات الردة فى اليمن التى اكتفى بمعالجة بعضها بالرسائل والرسل.

● وأما الهدف الآخر فهو إعطاء الفرصة لمن ثبت على الإسلام لكى يبرهن على صدق إسلامه، ولكى يزداد ثباتًا واستمساكًا بدينه ما دام هو صاحب المسئولية والمتحمل لأمانة إقرار الإسلام فيمن حوله، خاص أن من راسلهم أبو بكر كانوا هم الذين راسلهم رسول الله ﷺ من قبل، وقد ثبتوا وقاموا بما طُلب منهم[١]، وقام فيروز بالاتصال ببعض القبائل يستمدهم ويستنصرهم وعلى رأس هؤلاء (بنو عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) ثم أرسل إلى قبيلة (عك) للغرض نفسه، وكان أبو بكر قد أرسل الى الطاهر ابن أبى هالة[٢]، وإلى مسروق العكى - وكانا بين عك والأشعريين أن يمدا الأبناء بالمعونة فخرج كل من جهته وعملوا جميعاً للحيلولة دون تنفيذ مخطط قيس وهو طرد الأبناء وإخراجهم من اليمن، فأنقذوهم ثم تكتلوا وتوجهوا نحو صنعاء جميعًا فاصطدموا به حتى اضطر إلى ترك صنعاء، وعاد إلى ما كان عليه أصحاب الأسود العنسى وهو التذبذب بين نجران وصنعاء ولحج، إلا أنه انضم إلى عمرو بن معد يكرب الزبيدى، وبهذا عادت صنعاء للمرة الثانية إلى الهدوء والاستقرار عن طريق الرسل والكتب[٣].

ج- **واستمر الصديق يتابع سياسة الإحباط من الداخل** وهى ما يعبر عنها المؤرخون بقولهم: (ركوب من ارتد بمن لم يرتد وثبت على الإسلام)[٤].

ففى ردة (تهامة اليمن) تم القضاء عليها بدون مجهود يذكر من قبل الخليفة، فقد تولاها المسلمون من أبناء تهامة مثل (مسروق) العكى الذى قاتل المرتدين بقومه من عك، وكان على رأس من قضى على ردة تهامة (الطاهر بن أبى هالة) الذى كان واليًا

---

(١) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٧٥.

(٢) تاريخ الطبرى (٤/١٤٤).

(٣) نفس المصدر السابق (٤/١٤٢).

(٤) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٧٧.

للرسول ﷺ على جزء من تهامة، وهى موطن (عك والأشعريين)[1] ثم أمر أبو بكر (عكاشة بن ثور) أن يقيم فى (تهامة) ليجمع حوله أهلها حتى يأتيه أمره[2]، وأما بجيلة فإن أبا بكر رد جرير بن عبدالله[3]، وأمره أن يستنفر من قومه من ثبت على الإسلام ويقاتل بهم من ارتد عن الإسلام، وأن يأتى خثعم فيقاتل من ارتد منهم، فخرج جرير وفعل ما أمره به الصديق رضى الله عنه، فلم يقم له أحد إلا نفر يسير فقتلهم وتتبعهم[4].

وكان بعض (بنى الحارث بن كعب) بنجران قد تابعوا الأسود العنسى، وبعد وفاة رسول الله ﷺ بقوا مترددين فخرج إليهم (مسروق العكى) وهو يزمع مقاتلتهم فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا من غير قتال، فأقام فيهم ليعمل على استتباب الأمور فلم يأته (المهاجر بن أبى أمية) إلا وقد ضبط نجران[5].

وقد نجحت سياسة الإحباط من الداخل وتوجه الصديق بإرسال الجيوش بعد عودة جيش أسامة.

د - جيش عكرمة:

بعد أن شارك فى القضاء على ردة أهل عمان، توجه نحو مهرة حسب أمر أبى بكر، وكان معه سبع مئة فارس[6]، فوق ما جمع حوله من قبائل عمان، وحينما دخل مهرة وجدها مقسمة بين زعيمين متناحرين: أحدهما يسمى شخريت ويتمركز فى السهل الساحلى، وهو أقل الجمعين عدداً وعدة، والآخر يسمى المصبح ونفوذه على المناطق المرتفعة وهو أكبر الجمعين، فدعاهما عكرمة إلى الإسلام فاستجاب صاحب السهل الساحلى وأما الآخر فقد اغتر بجموعه فأبى فصادمه عكرمة ومعه (شخريت) فلحقته الهزيمة، وقتل ومعه الكثير من أصحابه، ثم أقام عكرمة فيهم يجمعهم ويقيم شئونهم

(١، ٢) اليمن فى صدر الإسلام ، ص ٢٧٧ .

(٣) البجلى، يكنى أبو عمرو : أسلم فى السنة العاشرة من الهجرة.

(٤) الثابتون على الإسلام فى أيام فتنة الردة، ص ٤٢ .

(٥) تاريخ الردة للكلاعى، ص ١٥٦ .

(٦) نفس المصدر السابق، ص ١٧٧ .

حتى جمعهم على الذى يجب، حيث بايعوا على الإسلام وأمنوا واستقروا[1]. وكان قد تلقى كتاباً من أبى بكر يأمره بالاجتماع مع المهاجر بن أبى أمية القادم من (صنعاء) ليتوجها معًا إلى كندة، فخرج من مهرة حتى نزل أبين وبقى هناك ينتظر المهاجر، وعمل وهو هناك على جمع (النَّخع) وحمير وتثبيتهم على الإسلام[2]، وكان لوصول عكرمة الى أبين أثر على بقية فلول الأسود العنسى وعلى رأسهم قيس بن المكشوح وعمرو بن معد يكرب، فبعد هروب قيس من صنعاء بقى متردداً بينها وبين نجران، وكان (عمرو بن معد يكرب) قد انضوى إلى فلول العنسى التى أطلق عليها الفلول اللحجية لأن وجهتهم كانت إلى لحج، فلما جاء عكرمة انضم قيس إلى عمرو وقد اجتمعا للقتال ولكن ما لبث أن نشب الخلاف بينهما فتعايرا ففارق كل واحد الآخر، فلما جاء المهاجر ابن أمية أسرع عمرو لتسليم نفسه ولحقه قيس فأوثقهما المهاجر وبعث بهم إلى أبى بكر، وبعد أن عاتبهما اعتذر كل واحد منهما عن فعله فأطلقهما ورجعا بعد أن تابا وأصلحا[3].

وهكذا كان لقدوم عكرمة من الشرق دور فى القضاء على فلول المرتدين الموجودين فى لحج سواء بالمواجهة أو الخوف من هذا الجيش القادم ، بينما هم يواجهون جيشاً آخر فى الشمال بقيادة المهاجر[4].

هـ- جيش المهاجر بن أبى أمية للقضاء على ردة حضرموت وكندة:

كان آخر من خرج من المدينة من الجيوش الأحد عشر جيش المهاجر بن أبى أمية وكان معه سرية من المهاجرين والأنصار، فمر على مكة فانضم إليه (خالد بن أسيد) - أخو (عتاب بن أسيد) أمير مكة، ومر على الطائف، فلحقه عبدالرحمن بن أبى العاص ومن معه، ولما التقى (بجرير بن عبدالله البجلى) بنجران ضمه إليه، وضم عكاشة بن ثور الذى جمع بعض أهل تهامة. ثم دخل فى جموعه (فروة بن مسيك المرادى) الذى كان فى أطراف بلاد مذحج، ومر على بنى الحارث بن كعب بنجران فوجد عليهم مسروق

(١) تاريخ الردة للكلاعى ، ص ١٥٥.
(٢) اليمن فى صدر الإسلام ، ص ٢٨١.
(٣) الطبقات لابن سعد (٥/٥٣٤، ٥٣٥).
(٤) اليمن فى صدر الإسلام ، ص ٢٨٢.

العكى فضمه إليه(١).

وفى نجران قسم جيشه إلى فرقتين: فرقة تولت القضاء على فلول (الأسود العنسى) المتناثرة بين نجران وصنعاء وكان المهاجر نفسه على هذه الفرقة، أما الفرقة الأخرى فكان عليها أخوه (عبدالله) وكانت مهمتها تطهير منطقة تهامة اليمن من بقية المرتدين(٢).

وحينما استقر المهاجر فى صنعاء كتب إلى أبى بكر بما قام به و بما استقر عليه وبقى ينتظر الرد منه، وفى الوقت نفسه كتب معاذ بن جبل وبقية عمال اليمن الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ – ما عدا زياد بن لبيد – إلى أبى بكر يستأذنونه بالعودة إلى المدينة، فجاءت كتب أبى بكر مُطلقةً حق الاختيار لمعاذ ومن معه من العمال بالبقاء أو العودة، والاستخلاف على عمل كل من رجع فرجعوا جميعا(٣)، وأما المهاجر فقد تلقى الأمر بالتوجه لملاقاة عكرمة وأن يسيرا معاً إلى حضرموت لمعاونة زياد بن لبيد وإقراره على ما هو عليه، وأمره أن يأذن لمن معه من الذين قاتلوا بين مكة واليمن فى العودة إلا أن يؤثر قوم الجهاد(٤).

كان زياد بن لبيد الأنصارى والياً لرسول الله على كندة بحضرموت، وأقره الصديق رضى الله عنه على ذلك، وكان حازمًا شديداً وكان لحزمه وشدته سبب كبير فى أن يتمرد عليه حارثة بن سراقة، وخلاصة ذلك كما يذكر الكلاعى أن زياداً أعطى من ضمن الصدقة ناقة معينة لفتى من كندة على سبيل الخطأ، فلما أراد صاحبها استبدالها بأخرى لم يقبل منه ذلك زياد، فاستنجد الفتى بزعيم لهم هو حارثة بن سراقة، وعندما طلب ابن سراقة من زياد استبدال الناقة أصر زياد على موقفه، فغضب ابن سراقة وأطلق الناقة عنوة، فوقعت الفتنة بين أنصار زياد وأنصار ابن سراقة، ودارت الحرب وانهزم ابن سراقة وقتل ملوك كندة الأربعة وأسر زياد عدداً من جماعة ابن سراقة، واستنجد الأسرى وهم فى طريقهم إلى المدينة بالأشعث بن قيس فنجدهم حمية وعبية، واتسعت رقعتها

(١) تاريخ الردة للكلاعى، ص (٥٤–٥٨).

(٢) طبقات فقهاء اليمن، ص ٣٦.

(٣) طبقات فقهاء اليمن، ص ٣٦.

(٤) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٨٣.

وتكاثر جمع الأشعث وحصروا المسلمين(١)، فأرسل زياد الى المهاجر وعكرمة يستعجلهما النجدة وكانا قد التقيا بمأرب، فما كان من المهاجر إلا أن ترك (عكرمة) إلى الجيش وأخذ أسرع الناس وغالباً من الفرسان - ليكون بجانب زياد، وقد استطاع أن يفك الحصار عنه فهربت كندة إلى حصن من حصونها يسمى النجير، وكان لهذا الحصن ثلاث طرق لا رابع لها، فنزل زياد على إحداها والمهاجر على الثانية وبقيت الثالثة تحت تصرف كندة، حتى قدم عكرمة فنزل عليها فحاصروهم من جميع الجهات، ثم بعث (المهاجر) الطلائع إلى قبائل كندة والمتفرقة فى السهل والجبل يدعوهم إلى الإسلام ومن أبى قاتلوه، و لم يبق إلا فى الحصن المحاصر(٢).

وكان جيشا زياد والمهاجر يزيدان على خمسة آلاف رجل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من القبائل، وقد عملا على التضييق على من فى الحصن حتى ضجوا بالشكوى إلى زعمائهم متبرمين من الجوع، وفضلوا الموت بالسيف بدلاً من ذلك، فاتفق زعماؤهم على أن يقوم الأشعث بن قيس بطلب الأمان والنزول على حكم المسلمين(٣)، وبعد أن فوض الأشعث من قومه لمفاوضة المسلمين لم يوفق لأن الروايات تضافرت على أنه لم يطلب الأمان لجميع من فى الحصن، أو أنه لم يصر على ذلك ولم يطلبه إلا لعدد تراوح حسب الروايات بين السبعة والعشرة وكان الشرط هو فتح أبواب حصن (النُّجَيْر)، وكان من جراء ذلك أن قتل من (كندة) فى الحصن سبعمائة قتيل، فأشبه موقفهم موقف يهود بنى قريظة(٤).

وتم القضاء على ردة كندة وعاد عكرمة بن أبى جهل ومعه السبايا والأخماس، وبرفقتهم الأشعث بن قيس الذى صار مبغضاً إلى قومه ولا سيما نساؤهم لأنهم عدوه سبب ذلتهم، ولأنه عندما صالح المسلمين كان أول ما بدأ به اسمه، فكانت نساء قومه يسمينه عُرف النار ومعناه بلغتهم: الغادر(٥)، ولما قدم الأشعث على أبى بكر قال: ماذا ترانى أصنع بك فإنك قد فعلت ما علمت! قال: تمنُّ عليَّ فتفكنى من الحديد وتزوجنى

(١) الكامل فى التاريخ (٢/٤٩) الثابتون على الإسلام، ص ٦٦.

(٢) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٨٤؛ تاريخ الطبرى (٤/١٥٢).

(٣) تاريخ الطبرى (٣/١٥٢).

(٤) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٨٦؛ تاريخ الردة، ص ١٦٧.

(٥) حركة الردة للعتوم، ص ١٠٧.

أختك فإني قد راجعت وأسلمت. فقال أبو بكر: قد فعلت فزوجه أم فروة ابنة أبي قحافة، فكان بالمدينة حتى فتح العراق[1]. وفي رواية جاء فيها: فلما خشي أن يقع به قال: أو تحتسب فيَّ خيراً فتطلق إساري وتقيلني عثرتي وتقبل إسلامي وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي وترد عليَّ زوجتي - وقد كان خطب أم فروة بنت أبي قحافة مقدمه على رسول الله ﷺ فزوجه، وأخرها إلى أن يقدم الثانية فمات رسول الله ﷺ، وفعل الأشعث ما فعل فخشي ألا ترد عليه - تجدني خير أهل بلادي لدين الله! فتجافى له عن دمه وقبل منه ورد عليه أهله وقال: انطلق فليبلغني عنك خير، وخلى عن القوم، فذهبوا وقسم أبو بكر في الناس الخمس[2].

و- دروس وعبر وفوائد:

● المرأة بين الهدم والبناء:

في حروب الردة باليمن تظهر صورتان مختلفتان للنساء: صورة المرأة الطاهرة العفيفة التي تقف مع الإسلام وتحارب الرذيلة، وتقف مع المسلمين لكبح جماح شياطين الإنس والجن، فهذه (آزاد) الفارسية زوج شهر بن باذان وابنة عم فيروز الفارسي تقف مع الصف الإسلامي بكل عزم وتصميم، وتدبر مع المسلمين خطة محكمة لاغتيال الأسود العنسي كذاب اليمن، فالمسلم في كل عصر يكبر في آزاد المسلمة غيرتها على دينها، وينظر باستهجان إلى ما مجه قلم الدكتور محمد حسين هيكل عندما تحدث عن موقف آزاد من كذاب اليمن، وحاول أن يرجع ما قامت به المرأة المسلمة آزاد الفارسية إلى عصبية شهوانية وذلك في قوله عن الأسود: ولما استغلظ أمره وأثخن في الأرض استخف بقيس وبفيروز وجعل يرى في الأخيرين وفي سائر الفرس من تنطوي أضالعهم على المكر به، وعرفت زوجته الفارسية ذلك منه، فثار في عروقها دم قومها، وتحركت في نفسها عوامل الحقد على الكاهن القبيح قاتل زوجها الشاب الفارسي الذي كانت تحبه من أعماق قلبها، ولقد استطاعت بسجيتها النسوية أن تخفي ذلك عنه وأن تسخو في البذل له من أنوثتها سخاءً جعله يركن إليها ويطمع في وفائها[3].

(١، ٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٥٥).

(٣) الصديق أبو بكر، ص ٧٩.

إنه أسلوب فيه لمز بالفارسية المؤمنة آزاد، وكأنه يتهمها بالغدر لفارسيتها بالأسود العربى، ويأخذ عليها هذا الصنيع الذى كانت تظهر له فيه ما لا تخفى، إنه توجيه لحدث فى غير محله(١)، وهذه المرأة الصالحة المسلمة، قتل الأسود زوجها المسلم وتزوجها غصبًا، وهى التى وصفت الأسود الكذاب بقولها: والله ما خلق الله شخصًا أبغض إلىَّ منه، ما يقوم لله على حق ولا ينتهى عن محرم(٢)، وهى التى جعلها الله تعالى سببًا لهلاك الطاغية الأسود العنسى، فلولا الله ثم جهودها الميمونة ما استطاع فيروز وأصحابه قتل الأسود(٣)، فالذى حركها لذلك العمل العظيم الذى فيه حتفها وموتها، هو حبها لدينها وعقيدتها وإسلامها، وبغضها للأسود العنسى الكذاب الذى أراد أن يقضى على الإسلام فى اليمن، فهذه صورة مشرقة مضيئة لما قامت به المرأة المسلمة فى اليمن من الجهاد من أجل دينها.

أمّا الصورة الكالحة المظلمة التى قامت به بعض بنات اليمن من يهود أو من لف لفهن فى حضرموت، فقد طرن فرحًا بموت رسول الله ﷺ فأقمن الليالى الحمراء مع المجّان والفسّاق يشجعن على الرذيلة ويزرين بالفضيلة، فقد رقص الشيطان فيها معهنّ وأتباعه طربًا لنكوص الناس عن الإسلام والدعوة إلى التمرد عليه وحرب أهله(٤)، لقد حنت تلك البغايا إلى الجاهلية وما فيها من المنكرات، وانجذبن إليها انجذاب الذباب إلى أكوام من الأقذار، فقد تعودن على الفاحشة فى حياتهن الجاهلية، فلما جاء الإسلام حجزتهن نظافته عنها، فشعرن وكأنهن بسجن ضيق يكدن يختنقن فيه، ولذا ما إن سمعن بموته ﷺ، حتى أظهرن الشماتة فخضبن أيديهن بالحناء، وقمن يضربن بالدفوف ويغنين فرحتهن، فقد تحقق لهن ما كنّ يتمنينه على السلطة الجديدة، وكان معظمهن من علية القوم هناك وبعضهن يهوديات، وقد كان لكلا الطرفين: أشراف القوم من العرب واليهود مصلحة فى الانتقاض على مبادئ الإسلام والانقضاض على كيانه، لقد عرفت هذه الحركة فى التاريخ بحركة البغايا وكن نيفًا وعشرين بغيًا متفرقات فى قرى حضرموت، وأشهرهن هر بنت يامن اليهودية التى ضرب المثل بها فى الزنا، فقيل: أزنى من هر،

(١، ٢) الكامل فى التاريخ (٢/٣١٠).

(٣) حركة الردة للعتوم، ص ٣٠٨.

(٤) حركة الردة للعتوم، ص ١١٩.

ويذكر التاريخ أن الفساق كانوا يتناوبونها لهذا الغرض فى الجاهلية، ولكن هؤلاء السواقط لم يتركن وشأنهن يفسدن فى المجتمع كما يحلو لهنَّ(١)، فقد وصل الخبر إلى الصديق، وأرسل رجل من أهل اليمن إليه هذه الأبيات :

أبلغ أبا بكر إذا ماجئته ... أن البغايا رُمنَ أىَّ مَرامِ

أظهرن من موت النبى شماتة ... وخضبن أيديهن بالعُلاَّم(٢)

فاقطع هُديت أكُفَّهُنَّ بصارم ... كالبرق أمضى من متون غَمامِ(٣)

فكتب أبو بكر رضى الله عنه إلى عامله هناك المهاجر بن أبى أمية كتاباً فى منتهى الحزم والصرامة جاء فيه : (فإذا جاءك كتابى هذا فسر إليهن بخيلك ورجلك حتى تقطع أيديهن، فإن دفعك عنهن دافع، فاعذر إليه باتخاذ الحجة عليه، و أعلمه عظيم ما دخل فيه من الإثم والعدوان، فإن رجع فاقبل منه وإن أبى فنابذه على سواء إن الله لا يهدى كيد الخائنين....) فلما قرأ المهاجر الكتاب جمع خيله ورجله وسار إليهنَّ فحال بينه وبينهن رجال من كندة وحضرموت فأعذر إليهم، فأبوا إلا قتاله، ثم رجع عنه عامتهم، فقاتلهم فهزمهم وأخذ النسوة فقطع أيديهن فمات عامتهنَ وهاجر بعضهن إلى الكوفة(٤). لقد نلن جزاءهن فى محكمة الإسلام العادلة إذ أخذهن عامل أبى بكر على تلك البلاد وطبق عليهن حد الحرابة(٥).

ونقلت الأخبار للخليفة فى امرأتين من بلاد حضرموت تغنتا بهجاء رسول الله ﷺ والمسلمين ، وكان قد عاقبهما المهاجر بن أبى أمية والى تلك البلاد بقطع يديهما ونزع ثنيتيهما، فلم يرضَ أبو بكر، وعدها عقوبة خفيفة فى حق هاتين المجرمتين، وقد وجه إليه كتاباً بهذا الخصوص قال فيه بحق الناعقة بشتم صاحب الرسالة : بلغنى الذى سرت به فى المرأة التى تغنت وزمرت بشتيمة رسول الله ﷺ فلولا ما قد سبقتنى فيها لأمرتك

(١) حركة الردة للعتوم ، ص ١١٩ .

(٢) العلاّم : الحنّاء .

(٣) عيون الأخبار (٣/١٣٣) .

(٤) حركة الردة للعتوم، ص ١٨٤ .

(٥) نفس المصدر السابق، ص ١١٩ .

بقتلها لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر(١). وقال فى الأخرى: بلغنى إنك قطعت يد امرأة فى أن تغنت بهجاء المسلمين ونزعت ثنيتها، فإن كانت ممن تدعى الإسلام فأدب وتقدمة دون المثلة، وإن كانت ذمية لعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم، ولو كنت تقدمت إليك فى مثل هذا لبلغت مكروهًا فاقبل الدعة وإياك والمثلة فى الناس فإنها مأثم ومنفرة إلا فى قصاص(٢).

● **من خطباء الإيمان:**

كان بعض أهل اليمن لهم مواقف عظيمة فى الثبات على الحق والدعوة إلى الإسلام وتحذير قومهم من خطورة الردة، ومن هؤلاء كان مران بن ذى عمير الهمدانى أحد ملوك اليمن الذى كان قد أسلم ممن أسلم من أهل اليمن، فلما ارتد الناس هناك وتكلم سفهاؤهم بما لا يليق وقف فيهم خطيبًا وقال لهم: يا معشر همدان إنكم لم تقاتلوا رسول الله ﷺ ولم يقاتلكم فأصبتم بذلك الحظ ولبستم به العافية، ولم يعمكم بلعنة تفضح أوائلكم وتقطع دابرهم، وقد سبقكم قوم إلى الإسلام وسبقتم قومًا، فإن تمسكتم لحقتم من سبقكم وإن أضعتموه لحقكم من سبقتموه، فأجابوا إلى ما أحب، وأنشد أبياتا رثى فيها النبى ﷺ يقول فيها:

إن حزنى على الرسول طويل ... ذاك منى على الرسول قليل

بكت الأرض والسماء عليه ... وبكاه خديمه جبريل(٣)

وقام عبدالله بن مالك الأرحبىُّ وكان من أصحاب النبى ﷺ له هجرة وفضل فى دينه فاجتمع إليه همدان فقال: يا معشر همدان إنكم لم تعبدوا محمداً إنما عبدتم رب محمد وهو الحى الذى لا يموت، غير أنكم أطعتم رسوله بطاعة الله واعلموا أنه استنقذكم من النار، ولم يكن الله ليجمع أصحابه على ضلالة وذكر له خطبة طويلة يقول فيها:

لعمرى لئن مات النبى محمدٌ ... لما مات يا ابن القَيلِ ربُّ محمد

(١، ٢) تاريخ الطبرى (٤/١٥٧).

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة (٦/٢٢٣) رقم ٨٤٠٠.

دعـــاه إليـــه ربُّه فـــأجـــابه فيا خيْرَ غَوْرِىٍّ[1] ويا خير منجد[2]

ووقف شرحبيل بن السِّمط وابنه فى بنى معاوية من كندة عندما أطبقوا كلهم على منع الصدقة وقالا لبنى معاوية: إنه لقبيح بالأحرار التنقل، إن الكرام ليلزمون الشُّبْهَة فيتكرمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق إلى الباطل القبيح؟ اللهم إنا لا نمالىء قومنا على ذلك. وانتقل ونزل مع زيد ومعهما امرؤ القيس بن عابس وقالا له: بَيِّتِ القوم فإن أقوامًا من السكاسك والسَّكون قد انضموا إليهم وكذلك شُذّاذ من حضرموت، فإن لم تفعل خشينا أن تتفرق الناس عنا إليهم فأجابهم إلى تبييت القوم فاجتمعوا وطرقوهم فى محاجرهم فوجدوهم جلوسًا حول نيرانهم فأكبوا على بنى عمرو وبنى معاوية وفيهم العدد والشوكة من خمسة أوجه فأصابوا الملوك الأربعة من كندة وأختهم العَمَرَّدة وقتلوا فأكثروا، وهرب من أطاق الهرب وعاد زياد بن لبيد بالأموال والسبى[3]، فهذه بعض النماذج من أهل الإيمان الذين كانت لهم مواقف تدل على عمق إيمانهم وشدة انتمائهم إلى الإسلام فكانوا من خطباء الإيمان.

● كرامات الأولياء:

عندما تمكن الأسود العنسى باليمن وتنبأ بالنبوة بعث إلى أبى مسلم الخولانى فلما جاء قال له: أتشهد أنى رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فردد ذلك عليه، وفى كله يقول مثل قوله الأول قال: فأمر به فألقى فى نار عظيمة فلم تضره، فقيل له: انفه عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك، قال: فأمره بالرحيل فأتى المدينة وقد قُبِضَ رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، ودخل المسجد فقام يصلى إلى سارية، وبصر به عمر بن الخطاب فقام إليه فقال: ممن الرجل؟ قال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الرجل الذى أحرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبدالله بن ثوب، قال: أنشدك الله أنت هو؟ قال: اللهم نعم.

---

(١) غورى: نسبة إلى الغور وهى أرض تهامة ما بين البحر والحجاز.

(٢) ديوان الردة للعتوم، ص ٨١؛ منجد: نسبة إلى نجد وهى الأرض المرتفعة.

(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٨٤).

فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به فأجلسه فيما بينه وبين أبى بكر وقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد من فعل به ما فعل بإبراهيم خليل الله(١)، فهذه كرامة لهذا العبد الصالح الذى التزم بحدود الله وأحب فى الله وأبغض فى الله وتوكل على الله فى كل شيء، وبذلك وفقه الله فى القول والعمل ورزقه الأمن والطمأنية وأجرى الله على يديه هذه الكرامة قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

● العفو عند الصديق:

كان لأبى بكر بُعد نظر وبصيرة نافذة ونظر بعواقب الأمور ولذلك كان يستعمل الحزم فى محله، والعفو عندما تقتضى إليه الحاجة، فقد كان حريصًا على جمع شتات القبائل تحت راية الإسلام، فكان من سياسته الحكيمة عفوه عن زعماء القبائل المعاندة بعد رجوعهم إلى الحق، فإنه لما استخضع قبائل اليمن المرتدة وأراهم سطوة دولة المسلمين وقوة شكيمتهم ومضاء عزيمتهم، واعترفت القبائل بما أنكرت واستكانت لحكم الإسلام، وأطاعوا خليفة رسول الله رأى أبو بكر أنه من تأليف القلوب ترك استعمال القوة مع زعماء هذه القبائل، بل اللين هنا والرفق أوفق، فرفع العقوبة عنهم وألان القول لهم ووظف نفوذهم فى قبائلهم لصالح الإسلام والمسلمين(٢)، فعفا عن زلتهم وأحسن إليهم، فقد فعل ذلك مع قيس بن يغوث المرادى وعمرو بن معد يكرب فقد كانا من صناديد العرب و فرسانهم وأكثرهم شجاعة، فعزَّ على أبى بكر أن يخسرهما وحرص على أن يستخلصهما للإسلام ويستنقذهما من التردد بين الإسلام والردة، فقد قال أبو بكر لعمرو: أما تخزى أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله، فقال عمرو: لاجرم لأفعلن ولن أعود. فأطلقه الصديق ولم يرتد عمرو بعدها قط بل أسلم وحسن إسلامه و نصره الله، وأصبح له بلاء عظيم فى الفتوحات. وندم قيس على ما فعل، فعفا عنه الصديق، وكان للعفو عن هذين البطلين من أبطال عرب اليمن آثاره العميقة والعريضة، فقد تألف به الصديق قلوب أقوام قد عادوا إلى الإسلام بعد الردة

(١) أسد الغابة (٦/ ٣٠٤) رقم ٦٢٤٧؛ الاستيعاب (٤/ ١٧٥٨).

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٦.

خوفًا أو طمعًا، وعفا عن الأشعث بن قيس، وبذلك أسر الصديق قلوبهم وامتلك أفئدتهم، فكانوا فى مستقبل الأيام نصراً للإسلام وقوة للمسلمين وأصبحت لهم يد عظيمة فى هذا المجال[١].

• وصية الصديق لعكرمة ومحاسبته لمعاذ :

كان أبو بكر رضى الله عنه حين بعث عكرمة بن أبى جهل إلى مُسيلمة وأتبعه شرحبيل بن حسنة عجَّل عكرمة فوافته بنو حنيفة فنكبوه، فكتب عكرمة إلى أبى بكر بالذى كان من أمره، فكتب إليه أبو بكر: يا ابن أم عكرمة لا أرينَّك ولا تراني على حالها، لا ترجع فتوهن الناس، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عُمان ومَهرة، وإن شغلا فامضِ أنت ثم تسير وتُسيِّر جندك تستبرئون ممن مررتم به، حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت[٢].

ونلحظ أن الصديق حينما وجه الجيوش لقتال المرتدين وجه إلى مسيلمة الكذاب جيشين أحدهما بقيادة عكرمة بن أبى جهل والثانى بقيادة شرحبيل بن حسنة، وهذا دليل على خبرة أبى بكر الدقيقة بدرجات القوة عند الأعداء ومقدار مقدرتهم على الصمود، وحينما تعجل عكرمة لحرب مسيلمة فنُكب هو وجيشه أرسل إليه أبو بكر يقول له : (لا أرينّك ولا ترانى على حالها لا ترجع فتوهن الناس) وهذا أيضًا من خبرة أبى بكر الحربية فإن الروح المعنوية لها أثر كبير فى نتائج المعارك، فإذا قدم هؤلاء المنهزمون فقابلوا الجيش المتوجه لقتال الأعداء، فإن نفوس أفراد هذا الجيش سيكون فيها شيء من التخوف والضعف، خصوصًا فيما إذا رَوَى لهم المنهزمون شيئًا عن ضخامة جيش الأعداء وقوته[٣]، وقد كان البعد الحربى عند الصديق واضحًا فأرسل عكرمة وجيشه إلى مناطق أخرى وحقق نجاحًا باهرًا، فارتفعت معنويته وجيشه.

وعندما رجع معاذ من اليمن إلى المدينة واستقبله الصديق وكان من عادته مراقبة عماله ومحاسبتهم بعد فراغهم من عملهم، قال الصديق لمعاذ: ارفع حسابك، فقال

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٦.

(٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ٣٤)، البداية والنهاية (٦/ ٣٣٤).

(٣) التاريخ الإسلامى للحميدى (٩/ ٨٣).

معاذ: أحساباً: حساب الله وحساب منكم؟ والله لا آلى لكم عملاً أبداً[١].

● توحيد اليمن ووضوح الإسلام عند أهله وطاعتهم للخليفة:

وبعد انتهاء حروب الردة تجمعت اليمن تحت قيادة مركزية عاصمتها المدينة المنورة وقسم اليمن إلى أقسام إدارية لا وحدات قبلية، فقد قسم إلى ثلاثة أقسام إدارية: صنعاء والجند وحضرموت، ولم تعد العصبية القبلية أساساً فى الزعامة أو فى التولية، ولم تعد القبيلة سوى وحدة عسكرية لا سياسية، وأصبحت المقاييس المعتبرة هى المقاييس الإيمانية، التقوى والإخلاص والعمل الصالح[٢].

وتخلصت اليمن من بقايا الشرك ومن جميع مظاهره - شرك فى الاعتقاد أو شرك فى القول أو شرك فى الفعل: تركًا أو إتيانًا - وأدركوا أن النبوة أرفع من أن يدعيها مدع عابث ويتخذها وسيلة إلى غرضه ورغبته[٣]، وأيقنوا أن الإيمان لا يلتقى مع المطامع، وأن الإسلام لا يتفق مع الجاهلية، عرفوا ذلك بالدماء والألم والحسرات، فقتل من كلا الطرفين الكثير وتعلم منهم الكثير[٤]، ورجع من كان قد ارتد إلى الإسلام يرجو التكفير عما بدر[٥]، وأذن لهم بالجهاد فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد برزت قيادات يمنية إسلامية فى الفتوحات قد تربت وانصهرت فى أحداث الردة، وكانوا من الثابتين على الإسلام كجرير بن عبدالله البجلى وذو الكلاع الحميرى ومسعود بن العكى وجرير بن عبدالله الحميرى وغيرهم، وكان لهذه القيادات أدوار بارزة فى الفتوحات الإسلامية وفى عمران مدن جديدة فى الكوفة والبصرة والعراق والفسطاط بمصر، وبرزت - أيضاً - شخصيات يمنية عينت فى اليمن وغير اليمن قضاة وولاة مثل: حشك عبدالحميد وسعيد بن عبدالله الأعرج وشرحبيل بن السمط الكندى وغيرهم[٦].

---

(١) عيون الأخبار (١/١٢٥).

(٢) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٩٠.

(٣) الخلافة الراشدة والخلفاء الراشدون، يوسف على، ص ٣٩.

(٤) ظاهرة الردة، محمد بريغش، ص ١٥٩.

(٥) اليمن فى صدر الإسلام، ص ٢٨٩.

(٦) نفس المصدر السابق، ص ٢٩١.

والتحم أهل اليمن بالدولة الإسلامية وبقيادتها سواء التى عليهم مباشرة أو القيادة العامة (الخليفة) فى المدينة، ولهذا حينما دعاهم الخليفة للجهاد سارعوا طواعية ورغبة فى الجهاد - كما سيأتى تفصيله بإذن الله تعالى.

لقد تربوا فى أحداث الردة تربية كافية جعلتهم موصولين بالقيادة واثقين بها، ولذا ساد الهدوء والاستقرار وأصبحوا خير مدد للإسلام والمسلمين(١).

٢- القضاء على فتنة طليحة الأسدى:

طليحة الأسدى هو المتنبىء الثالث من المتنبئة الذين ظهروا فى الإسلام أواخر عهد رسول الله ﷺ بالحياة، وطليحة هذا هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدى، ولقد قدم مع وفد قومه أسد على رسول الله ﷺ فى عام الوفود سنة تسع للهجرة فسلموا عليه، وقالوا له ممتنين: جئناك نشهدُ أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ولم تبعث إلينا ونحن لمن وراءنا، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [الحجرات: ١٧]. ولما عادوا ارتد طليحة وتنبأ(٢)، وعسكر فى سميراء (منطقة فى بلادهم) ، واتبعه العوام واستكشف أمره (وأول ما صدر عنه - وكان سببًا لضلال الناس - أنه كان مع بعض قومه فى سفر فأعوزهم الماء وغلب العطش على الناس فقال: اركبوا أعلالاً (اسم فرسه) واضربوا أميالاً تجدوا بلالاً. ففعلوا فوجدوا الماء، فكان ذلك سبب وقوع الأعراب فى الفتنة)(٣).

ومن خزعبلاته أنه رفع السجود من الصلاة، وكان يزعم أن الوحى يأتيه من السماء، ومن أسجاعه التى ادعى أنه يوحى له بها قوله: (والحمام واليمام والصُّرد الصَّوام قد صمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكُنا العراق والشام)(٤) وغرته نفسه واشتد أمره وقوت شوكته، فبعث رسول الله ﷺ ضرار بن الأزور الأسدى لمقاتلته لما سمع من أمره، ولكن

---

(١) اليمن فى صدر الإسلام ، ص ٢٩١.

(٢) أسد الغابة (٣/ ٩٥).

(٣) حروب الردة، لمحمد أحمد باشميل، ص ٧٩.

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٣).

ضراراً لم يكن له به قبل، وذلك لتعاظم قوته مع الزمن ، ولا سيما بعد أن آمن به الحليفان : أسد وغطفان[١]، وتقول عنه دائرة المعارف الإسلامية : ويروى عنه أنه كان يرتجل الشعر ويخطب عفو الساعة فى ميدان القتال . . ويبدو أنه كان مثالاً – حقًا – للزعيم القبلى الجاهلى. وقد اجتمعت فيه صفات : العرَّاف والشاعر والخطيب والمقاتل[٢] . ويشمُّ من هذا النص رائحة المدح المبطن لطليحة من قبل هذه الموسوعة الشهيرة، فهو فى نظرها الزعيم القبلى المثال يرتجل الشعر والخطابة، وهما أهم ما كان يحرص عليه العربى آنذاك، ولا يستغرب هذا الاتجاه من هذه الموسوعة التى جعلت من اللمز فى الإسلام ديدنها، سواء أعرفت أن طليحة عاد فأسلم وحسن إسلامه أم لم تعرف .

وتوفى رسول الله ولم يُحسم أمر طليحة[٣] وتولى الخلافة الصديق رضى الله عنه، وعقد الألوية للجيوش والأمراء للقضاء على المرتدين، وكان من ضمنهم طليحة، ووجه إليه الصديق جيشًا بقيادة خالد بن الوليد ، روى الإمام أحمد : . . . أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «نِعْمَ عبدالله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سَلَّه الله على الكفار والمنافقين»[٤] . ولما توجه خالد من ذى القصة وفارقه الصديق، واعده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء، وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب، وأمره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدى، ثم يذهب بعده إلى بنى تميم، وكان طليحة بن خويلد فى قومه بنى أسد وفى غطفان، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان، وبعث إلى بنى جَديلة والغوث من طئ يستدعيهم إليه، فبعثوا أقواماً منهم بين أيديهم ليلحقوهم على أثرهم سريعًا، وكان الصديق قد بعث عدى بن حاتم قبل خالد بن الوليد وقال له : أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم . فذهب عدى إلى قومه بنى طىء فأمرهم أن يبايعوا الصديق[٥]، وأن يراجعوا أمر الله فقالوا : لا نبايع أبا الفَصيل[٦] أبداً – يعنون أبا بكر

---

(١) أسد الغابة (٣/٩٥) .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (طليحة) نقلاً عن حركة الردة، ص ٧٨ .

(٣) حركة الردة للعتوم، ص ٧٨ .

(٤) مسند أحمد (١/١٧٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٥) ترتيب وتهذيب كتاب البداية والنهاية، خلافة أبى بكر، د. محمد بن صامل السلمى، ص ١٠١ .

(٦) الفصيل : ولد الناقة .

رضى الله عنه – فقال: والله ليأتينكم جيشه فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر، ولم يزل عدى يَفتِل لهم فى الذروة والغارب حتى لانوا، وجاء خالد فى الجنود وعلى مقدمة الأنصار الذين معه: ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم وعكاشة ابن محصن طليعة، فتلقاهما حيَال – ابن أخى طليحة – فقتلاه، فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة، فلما وجدا ثابتًا وعُكاشة تبارزوا وحمل طليحة على عُكاشة فقتله وقتل سلمة ثابت بن أقرم، وجاء خالد بمن معه فوجودهما صريعين، فشق ذلك على المسلمين، ومال خالد إلى بنى طىء فخرج إليه عدى بن حاتم فقال: أنظرنى ثلاثة أيام فإنهم قداستنظرونى حتى يبعثوا إلى من تعجَّل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم، وهذا أحبٌّ إليك من أن يعجلهم إلى النار، فلما كان بعد ثلاث جاءه عدى فى خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق، فانضافوا إلى جيش خالد، وقصد خالد بنى جَديلة فقال له: يا خالد أجِّلنى أياما حتى آتيهم فلعل الله أن ينقذهم كما أنقذ الغوث(١) فأتاهم عدى فلم يزل بهم حتى تابعوه فجاء بإسلامهم ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان عدى خير مولود وأعظمه بركة على قومه رضى الله عنه(٢).

أ – معركة بُزَاخَة والقضاء على بنى أسد:

ثم سار خالد حتى نزل بأجأ وسلمى وعَبَّى جيشه هنالك، والتقى مع طليحة الأسدى بمكان يقال له: «بُزَاخة» ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة، وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن التف معهم و انضاف إليهم، وقد حضر معه عيينة بن حِصْن فى سبعمائة من قومه بنى فزارة واصطف الناس وجلس طليحة ملتفاً فى كساء له يتنبأ لهم ينظر ما يوحى إليه فيما يزعم، وجعل عيينة يقاتل حتى إذا ضجر من القتال جاء إلى طليحة وهو ملتف فى كسائه وقال له: أجاءك جبريل؟ فيقول: لا، فيرجع فيقاتل، ثم يرجع فيقول له مثل ذلك ويرد عليه مثل ذلك، فلما كان فى الثالثة قال له: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم، قال: فما قال لك؟ قال: قال لى: إن لك رحا كرحاه وحديثًا لا تنساه، قال: يقول عيينة: أظن أنه قد علم الله سيكون لك حديث

---

(١) البداية والنهاية، تهذيب محمد السلمى ص: ١٠٢.

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٢).

لا تنساه، ثم قال: يا بنى فزارة انصرفوا وانهزم وانهزم الناس عن طليحة، فلما جاءه المسلمون ركب على فرس كان قد أعدها له وأركب امرأته النَّوَار على بعير له، ثم انهزم بها إلى الشام وتفرق جمعه وقد قتل الله طائفة ممن كان معه(١).

وقد كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد حين جاءه أنه كسر طليحة ومن كان فى صفه وقام بنصره فكتب إليه: ليزدك ما أنعم الله به خيراً واتق الله فى أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جدَّ فى أمرك ولا تلن ولا تظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نَكَّلْتَ به، فأقام خالد ببزاخة شهراً يُصَعِد عنها ويصوِّب ويرجع إليها فى طلب الذى وصاه الصديق، فجعل يتردد فى طلب هؤلاء شهراً يأخذ بثأر من قتلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا، فمنهم من حرَّقه بالنار و منهم من رَضَخه بالحجارة، ومنهم من رَمَى به من شواهق الجبال، كل هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب(٢).

ب- وفد بنى أسد وغطفان إلى الصديق وحكمه عليهم:

لما قدم وفد بزاخة – أسد وغطفان – على أبى بكر يسألونه الصلح خيَّرهم أبو بكر بين حرب مُجلية أو خطة مخزية. فقالوا: يا خليفة رسول الله أما الحرب المجلية فقد عرفناها فما الخطة المخزية؟ قال: تؤخذ منكم الحلقة والكُرَاع وتتركون أقواماً تتبعون أذناب الإبل حتى يُرِىَ الله خليفة نبيه و المؤمنين أمراً يعذرونكم به، وتودون ما أصبتم منا ولا نودى ما أصبنا منكم، وتشهدون أن قتلانا فى الجنة وأن قتلاكم فى النار، وتدون قتلانا ولا ندى قتلاكم، فقال عمر: أما قولك تدون قتلانا فإن قتلانا قتلوا على أمر الله لا ديات لهم، فامتنع عمر، وقال عمر فى الثانى: نعم ما رأيت(٣).

ج – قصة أم زِمل:

كان قد اجتمع طائفة كثيرة من الضُّلاَّل من أصحاب طليحة من بنى غطفان إلى امرأة يقال لها: أم زِمل– سلمى بنت مالك بن حذيفة فى مكان يسمى ظَفَر(٤) – وكانت من

(١) البداية والنهاية (٢/ ٣٢٢).

(٢، ٣) نفس المصدر السابق (٢/ ٢٢٣).

(٤) ظَفَر: اسم موضع قرب الحوأب فى طريق البصرة إلى المدينة.

سيدات العرب كأمها أم قِرْفة[١]، وكان يضرب بأمها المثل فى الشرف لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها، فلما اجتمعوا إليها ذمرتهم لقتال خالد فهاجوا لذلك، وناشب إليهم آخرون من بنى سُلَيم وطئ وهوازن وأسد فصاروا جيشًا كثيفًا، وتفحل أمر هذه المرأة، فلما سمع بهم خالد بن الوليد سار إليهم واقتتلوا قتالاً شديداً وهى راكبة على جمل أمها الذى كان يقال له: من نخسه فله مائة من الإبل وذلك لعزها، فهزمهم خالد وعقر جملها وقتلها، وبعث بالفتح إلى الصديق[٢].

د - دروس وعبر وفوائد:

● **ثقة الصديق بالله وخبرته الحربية:**

قول الصديق لعدى بن حاتم: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم. فيه مثال على قوة يقين أبى بكر رضى الله عنه وثقته بنصر الله، فقد حكم على نتيجة المعركة مع طيء قبل الدخول فيها ، وفى أمر أبى بكر خالداً رضى الله عنهما بأن يبدأ بحرب قبيلة طيء مع أنها أبعد من تجمع طليحة خطة حربية ناجحة، وذلك ليحول دون انضمام طيء إلى طليحة، وليضطر من انضم إليه منهم إلى التخلى عنه للدفاع عن قبيلتهم، ثم فى إظهار أبى بكر أنه خارج جهة خيبر ليلاقى خالداً ببلاد طيء تخطيط حربى بارع وذلك لإرهاب تلك القبيلة والقبائل المجاورة، وتظهر براعة الصديق فى اختيار الرجال أن اختار لهذه المهمة التى لها ما بعدها أبا سليمان خالد بن الوليد الذى لم تنتكس له راية[٣]، وفى خطاب الصديق لخالد بعد انتهاء معركة بزاخة فوائد منها: الدعاء لخالد الذى يفهم منه الثناء عليه بإحسان، كما يتضمن أمره بتقوى الله وذلك فيه العصمة من الوقوع فى الزلل واتباع الهوى، كما أمره بالجد والحزم مع الأعداء لأنهم مازالوا فى فورة طغيانهم، وهذا موقف قوى يدل على حزم الصديق رضى الله عنه وبصيرته النافذة، فهناك قبائل لا تزال متحيرة ومترددة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، والإيمان والكفر، بحاجة إلى تأديب وردع، حتى يزول طغيانهم، فالموقف من أبى بكر يقتضى أعلى درجات القوة والحزم والسرعة، فكانت منه القوة فى محل القوة، كما كان منه اللين فى محل اللين.

(١، ٢) البداية والنهاية (٦/٣٢٣).

(٣) التاريخ الإسلامى للحميدى (٩/٦٠ - ٦٣).

قال الشاعر:

ووضع النَّدَى فى موضع السيف للندى   مُضرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى[1]

وفى موقف الصديق فى عدم قبول استسلام هؤلاء المحاربين وعدم قبول الصلح إلا بحرب مجلية أو خطة مخزية إظهار عزة الإسلام وهيبة دولته، فكانت شروطه فى الصلح قوية وكان من أشدها عليهم مصادرة أسلحتهم وخيولهم، وكان هذا الشرط مؤقتا بظهور صدق توبتهم وخضوعهم لدولة الإسلام، وقد كان لابد منه لضمان عدم عودتهم إلى التمرد مرة أخرى[2].

● **نصح عدى بن حاتم لقومه والحرب النفسية التى شنها عليهم:**

قدم عدى على قومه طيء فدعاهم للرجوع للإسلام فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل أبداً[3]، فقال: لقد أتاكم قوم ليُبيحُنَّ حريمكم ولتَكْنُنَّهُ بالفحل الأكبر فشأنكم به. فقالوا له: فاستقبل الجيش فنهنهه[4] عنا حتى نستخرج من لحق بالبُزاخة منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم فى يديه قتلهم أو ارتهنهم. فاستقبل عدىٌّ خالداً وهو بالسُّنْح فقال: يا خالد أمسك عنى ثلاثًا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك وذلك خير من أن تُعْجلهم إلى النار وتتشاغل بهم، ففعل، فعاد عدى بإسلامهم إلى خالد[5]، فهذا موقف استطاع فيه عدى أن يقنع قبيلته بفرعيها بنى الغوث وبنى جديلة بالتخلى عن معسكر طليحة والانضمام إلى جيش خالد بن الوليد وهذا تحوُّل مهم فى تقرير نتائج معركة بزاخة الحاسمة، فهذا موقف عظيم يسجل لعدى رضى الله عنه إلى جانب موقفه الأول حينما قدم على الصديق بصدقات قومه، وكان المسلمون بأمس الحاجة إلى المال آنذاك، ولقد كان إسلامه من أول يوم إسلام رجل العلم والفهم، فكان عن قناعة واختيار، وكان واثقًا من انتصار الإسلام والمسلمين فى النهاية، كما بشره بذلك النبى ﷺ يوم إسلامه، فكان لإيمانه القوى أثر فى إقناع قومه فى العدول عما توجهوا إليه من

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ٦٤، ٦٥).

(٢) نفس المصدر السابق (٩/ ٦٦).

(٣) يريدون بذلك أبا بكر رضى الله عنه، والبكر والفصيل: اسمان لولد الناقة.

(٤) أى: ادفعه وكفه.

(٥) التاريخ الإسلامى (٩/ ٥٧).

مناصرة أعداء الإسلام، ولم تكن قناعتهم إلى حد الحياد والانتظار حتى يروا لمن تكون الدائرة، بل انضم منهم ألف وخمسمائة إلى جيش المسلمين، مما يدل على مبلغ أثره فيهم(١). وجاء في رواية: أن قومه طلبوا من خالد بأن يقاتلوا قيسًا لأن بني أسد حلفاؤهم فقال لهم خالد: والله ما قيس بأوهن الشوكتين، اصمدوا إلى أي القبيلتين أحببتم، فقال عدي: لو ترك هذا الدين أسرتي الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه فأنا أمتنع من جهاد بني أسد لحلفهم! لا لعمر الله لا أفعل. فقال له خالد: إن جهاد الفريقين جميعًا جهاد لا تخالف رأي أصحابك، امضِ إلى أحد الفريقين وامضِ بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط(٢). وفي إنكار عدي على قومه دليل على قوة إيمانه وغزارة علمه حيث والى أولياء الله وإن كانوا بعيدين عنه في النسب، وتبرأ من أعداء الله وإن كانوا من أقاربه(٣)، كما تظهر خبرة خالد بن الوليد الحربية حينما أمر عديًا بأن لا يخالف قومه في تمنعهم في مواجهة حلفائهم بني أسد، وأن يوجههم إلى الوجه الجهادي الذي يكونون فيه أنشط على القتال(٤).

لقد كان الدور الذي قام به عدي في دعوة قبيلته إلى الانضمام إلى جيش المسلمين عظيمًا، فكان دخول طيء في جيش خالد أول وهن أصيب به الأعداء، لأن قبيلة طيء من أقوى قبائل جزيرة العرب، وممن كانت القبائل تحسب لها حسابًا وتنظر إليها باعتبارها على درجة من القوة بحيث كانت مرهوبة الجانب عزيزة في بلادها، تتقرب إليها جاراتها بالتحالف معها. لقد التقى الجمعان بعد أن دب الوهن في نفوس الأعداء، فكتب الله النصر لجيش المسلمين، فسرعان ما طفقوا يقتلون ويأسرون حتى أبادوا جميع أعدائهم وهرب قائدهم طليحة على فرسه، ولم يسلم منهم إلا من استسلم أو هرب، وبعد هذه الوقعة انتشر الضعف في نفوس المرتدين من قبائل الجزيرة فأصبح الجيش الإسلامي لا يجد عناء في هزيمة من تجمع منهم في أماكن أخرى(٥).

---

(١) التاريخ الإسلامي (٩/٦١).

(٢) تاريخ الطبري (٤/٧٥).

(٣، ٤) التاريخ الإسلامي (٩/٦١).

(٥) الحرب النفسية من منظور إسلامي، د. أحمد نوفل (٢/١٤٣، ١٤٤).

أسباب هزيمة طليحة بن خويلد الأسدى:

كانت هناك مجموعة من الأسباب ساهمت فى هزيمة طليحة الأسدى منها:

● إن المسلمين كانوا يقاتلون مدفوعين بعقيدة راسخة ويقين بنصر الله وحب فى الشهادة، فكان حب الموت فى سبيل الله تعالى سلاحًا معنويًا فتاكًا، فكان خالد يرسل للمرتدين هذه الكلمات القلائل: لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة(١)، ولقد عرف العدو نفسه من خلال تعامله مع قوات المسلمين فى المعارك التى خاضوها معه صدقهم فى تنفيذ هذا المبدأ، فقد سأل طليحة الأسدى قومه لما انهزموا فى موقعة بزاخة مع جيش خالد بشىء كبير من الحنق والتعجب: (ويلكم ما يهزمكم؟) فقال رجل منهم: أنا أخبركم إنه ليس رجل (منّا) إلا وهو يحب أن يموت قبله صاحبه، وإنا نلقى أقواماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه(٢).

● كان لانضمام طىء أثره فى تقوية المسلمين وإضعاف أعدائهم، كما كان مقتل الصحابيين عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم قد زاد من غيظ المسلمين ودفعهم إلى قتال أعدائهم، كما كان لتورية أبى بكر الصديق تأثير على طىء فى عدم التعاون مع حلفائها وبقائها فى مواضعها الأصلية، وأما التورية المشار إليها فإن الصديق أوهم الناس أنه متوجه إلى خيبر بدلاً من الجهة الأصلية التى حُدِّدت للجيش، كما كان لإفساح المجال لطىء كى تقاتل قيسًا كما أرادت شجعها على الاستقلال فى الحرب، إذ لو أمر خالد على أن يقاتلوا حلفاءهم من بنى أسد كما أراد عدى بن حاتم لقصرت طىء فى حربها أيما تقصير(٣)، وغير ذلك من الأسباب.

● من نتائج معركة بزاخة:

القضاء على قوة أحد الأدعياء الأقوياء وعودة فريق كبير من العرب إلى حظيرة الإسلام، فقد أقبلت بنو عامر بعد هزيمة بزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، فبايعهم خالد على ما بايع عليه أهل بزاخة من أسد وغطفان وطىء قبلهم، وأعطوه بأيديهم على الإسلام، ولم يقبل أحد من أسد ولا غطفان ولا هوازن ولا سليم ولا طىء

---

(١) حركة الردة للعتوم، ص ٢٨٩.

(٢) تاريخ الخمسين للديار بكرى (٢/ ٢٠٧) نقلاً عن حركة الردة للعتوم، ص ٢٨٩.

(٣) خالد بن الوليد، شيت خطاب، ص (٩٦، ٩٧) نقلاً عن حروب الردة، أحمد سعيد، ص ١٢٤.

إلا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على أهل الإسلام فى حال ردتهم . فأتوه بهم... فمثل خالد ابن الوليد بالذين عدوا على الإسلام فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم فى الجبال ونكسهم فى الآبار، وخَرَّقَهم بالنبال، وبعث بقرة بن هبيرة والأسارى، وكتب إلى أبى بكر: إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت فى الإسلام بعد تربص، وإنى لم أقبل من أحد قاتلنى أو سالمنى شيئًا حتى يجيئونى بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة وبعثت إليك بقرة وأصحابه[1]، وكان عيينة بن حصن من بين الأسرى فأمر خالد بشد وثاقه تنكيلاً به، وبعثه إلى المدينة ويداه إلى عنقه إزراء عليه وإرهابًا لسواه، فلما دخل المدينة على هيئته تلقاه صبيان المدينة مستهزئين، وأخذوا يلكزونه بأيديهم الصغيرة قائلين: (أى عدو الله! ارتددت عن الإسلام!!) فيقول: والله ما كنت آمنت قط، وجيء به إلى خليفة رسول الله ولقى من الخليفة سماحة لم يصدقها، وأمر بفك يديه ثم استتابه، فأعلن عيينة توبة نصوحًا واعتذر عما كان منه وأسلم وحسن إسلامه[2].

ومضى طليحة حتى نزل كلب [3] على النقع فأسلم، ولم يزل مقيمًا فى كلب حتى مات أبو بكر وكان إسلامه هنالك حين بلغه أن أسداً وغطفان وعامرًا قد أسلموا، ثم خرج نحو مكة معتمرًا فى إمارة أبى بكر ومرَّ بجنبات المدينة فقيل لأبى بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به! خلوا عنه فقد هداه الله للإسلام [4]، وقد جاء عند ابن كثير: وأما طليحة فإنه راجع الإسلام بعد ذلك أيضًا وذهب إلى مكة معتمرًا أيام الصديق، واستحيا أن يواجهه مدة حياته، وقد منع الصديق المرتدين من المشاركة فى فتوحاته بالعراق والشام، ويحتمل أن يكون ذلك من باب الاحتياط لأمر الأمة، لأن من كان له سوابق فى الضلال والكيد للمسلمين لا يُؤمن أن يكون رجوعه من باب الاستسلام لقوة المسلمين، فأبو بكر رضى الله عنه من الأئمة الذين يرسمون للناس خط سيرهم، ويتأسى بهم الناس بأقوالهم وأفعالهم، فهو لذلك يأخذ بمبدأ الاحتياط لما فيه صالح الأمة وإن كان فى ذلك وضع من شأن بعض الأفراد [5]، وهذا درس عظيم تتعلمه الأمة فى عدم وضع

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ٨٢).

(٢) الصديق أول الخلفاء، ص ٨٧.

(٣) أى: نزل فى قبيلة كلب.

(٤) التاريخ الإسلامى (٩/ ٥٩).

(٥) نفس المصدر السابق (٩/ ٦٧).

الثقة بمن كانت لهم سوابق فى الإلحاد ثم ظهر منهم العودة إلى الالتزام بالدين.

إن وضع الثقة الكاملة بهؤلاء وإسناد الأعمال القيادية لهم قد جرَّ على الأمة أحيانا ويلات كثيرة، وأوصلها إلى مآزق خطيرة، على أن أخذ الحذر من مثل هؤلاء لا يعنى اتهامهم فى دينهم ولا نزع الثقة منهم بالكلية، وهذا معلم من سياسة الصديق فى التعامل مع أمثال هؤلاء[١].

هذا وقد حسن إسلام طليحة وأتى عمر إلى البيعة حين استخلف وقال له عمر: أنت قاتل عكاشة وثابت[٢]، والله لا أحبُّك أبداً، فقال: يا أمير المؤمنين ما تهتم من رجلين أكرمهما الله بيدى ولم يُهنِّى بأيديهما! فبايعه عمر ثم قال له: يا خُدَع ما بقى من كهانتك؟ قال: نفخة أو نفختان بالكير، ثم رجع إلى دار قومه فأقام بها حتى خرج إلى العراق[٣]، وقد كان إسلامه صحيحًا ولم يُغْمض[٤] عليه فيه، وقال يعتذر ويذكر ما كان منه:

ندمت على ما كان من قتل ثابت	وعُكَّاشة الغُنْمِيِّ ثم ابن معبد
وأعظم من هاتين عندى مصيبةً	رجوعى عن الإسلام فعل التعمُّد
وتركى بلادى والحوادث جَمَّةٌ	طريداً وقِدْمًا كنتُ غير مطرَّد
فهل يقبل الصديق أنى مراجع	ومُعطٍ بما أحدثتُ من حدثٍ يدى
وأنى من بعد الضلالة شاهد	شهادة حقٍّ لست فيها بملحد
بأن إله الناس ربى وأننى	ذليل وأن الدين دينُ محمد[٥]

هـ - قصة الفجاءة:

واسمه إياس بن عبدالله بن عبد ياليل بن عميرِ بن خُفَاف من بنى سُليم قاله ابن اسحاق، وقد كان الصديق حرَّق الفجاءة بالبقيع فى المدينة، وكان سببه أنه قدم عليه

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩ / ٦٧).

(٢) عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم رضى الله عنهما.

(٣) التاريخ الإسلامى (٩ / ٥٩)؛ تاريخ الطبرى (٤ / ٨١).

(٤) بطعن فيه.

(٥) ديوان الردة للعتوم، ص ٨٦.

فزعم أنه أسلم، وسأل منه أن يجهز معه جيشًا يقاتل به أهل الردة فجهز معه جيشًا فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله، فلما سمع الصديق بعث وراء جيشًا فردَّه، فلما أمكنه الله منه بعث به إلى البقيع، فجمعت يداه إلى قفاه وألقى فى النار فحرقه وهو مقموط[١][٢]، وكان الذى ألقى القبض عليه طريفة بن حاجز، وهذا يظهر لنا دور مسلمى سليم فى محاربة المفسدين فى الأرض والمرتدين[٣].

وهذه العقوبة بسبب غدر الفجاءة، أو لأنه قد يكون ارتكب فى ضحاياه من المسلمين جريمة الإحراق مرة أو مرات[٤].

و - ما قاله حسان فيمن قال لا نطيع أبا الفصيل يعنون أبا بكر:

ما البكرُ إلا كالفصيل وقد ترى ... أن الفصيل عليه ليس بعار

إنا وما حجّ الحجيج لبيته ... ركبان مكة معشر الأنصار

نفرى جماجمكم بكلّ مهند ... ضرب القُدار[٥] مبادىء الأيسار[٦]

حتى تُكَنُّوه بفحل هنيدة[٧] ... يحمى الطروقة بازل هدّار[٨]

٣ - سجاح وبنو تميم ومقتل مالك بن نويرة اليربوعى:

أ - كانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردة، منهم من ارتد ومنع الزكاة، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الصديق، ومنهم من توقف لينظر فى أمره، فبينما هم كذلك إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عُقفان التغلبية من الجزيرة وهى من نصارى العرب، وقد ادعت النبوة ومعها جنود من قومها ومن التف بهم، وقد عزموا

(١) أى: شدت يداه ورجلاه كهيئة المهاد للطفل.

(٢) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص١٠٦.

(٣) الثابتون على الإسلام، ص ٢٧.

(٤) حركة الردة للعتوم، ص١٨٥.

(٥) القدار: الجزار.

(٦) المبادئ: الظواهر وهى مفاصل الجزور وما عليها من اللحم - جمع بدء، الأيسار: جمع يسر وهو الجزور.

(٧) هنيدة: اسم لمئة ناقة من الإبل.

(٨) ديوان الردة للعتوم، ص ١٣٧.

على غزو أبى بكر الصديق، فلما مرت ببلاد بنى تميم دعتهم إلى أمرها فاستجاب لها عامتهم، وكان ممن استجاب لها مالك بن نويرة التميمى وعطارد بن حاجب وجماعة من سادات أمراء بنى تميم، وتخلَّف آخرون منهم عنها، ثم اصطلحوا على أن لا حرب بينهم، إلا أن مالك بن نويرة لما وادعها ثناها عن عزمها وحرَّضها على بنى يربوع، ثم اتفق الجميع على قتال الناس وقالوا: بمن نبدأ؟ فقالت لهم فيما تسجعه: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب[1] فليس دونها حجاب، ثم استطاع بنو تميم إقناعهم بقصد اليمامة لتأخذها من مسيلمة بن حبيب الكذاب فهابه قومها، وقالوا: إنه قد استفحل أمره وعظم، فقالت لهم فيما تقوله: عليكم باليمامة دفوا دفيف الحمامة فإنها غزوة صرَّامة لا تلحقكم بعدها ملامة، فعمدوا لحرب مسيلمة فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده، وذلك أنه مشغول بمقاتلة ثمامة بن أثال، وقد ساعده عكرمة بن أبى جهل بجنود المسلمين وهم نازلون ببعض بلاده ينتظرون قدوم خالد، فبعث إليها يستأمنها ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذى كان لقريش لو عدلت، فقد رده الله عليك فحباك به، وراسلها ليجتمع بها فى طائفة من قومه، فركب إليها فى أربعين من قومه، وجاء إليها فاجتمعا فى خيمة فلما خلا بها وعرض عليها ما عرض من نصف الأرض وقبلت ذلك، قال مسيلمة: سمع الله لمن سمع وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره فى كل ما يسر مجتمع، ثم قال لها: هل لك أن أتزوجك وآكل بقومى وقومك العرب؟ قالت: نعم، وأقامت عنده ثلاثة أيام ثم رجعت إلى قومها، فقالوا: أصدقك؟ فقالت: لم يصدقنى شيئًا، فقالوا: إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق فبعثت إليه تسأله صداقًا، فقال: أرسلى إلىَّ مؤذنك فبعثته إليه وهو شبث بن ربعى الرياحى – فقال: ناد فى قومك: أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد – يعنى صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة – فكان هذا صداقها عليه –، ثم انثنت سجاح راجعة إلى بلادها وذلك حين بلغها دنو خالد من أرض اليمامة فكرَّت راجعة إلى الجزيرة بعدما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت فى قومها بنى تغلب إلى زمان معاوية فأجلاهم منها عام الجماعة[2].

كان مالك قد صانع سجاح حين قدمت من أرض الجزيرة فلما اتصلت بمسيلمة ثم ترحلت إلى بلادها ندم مالك بن نويرة على ما كان من أمره وتلوم فى شأنه وهو نازل

---

(١) الرباب: فرع من بنى تميم.

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٦).

بمكان يقال له: البُطاح[1]، فقصده خالد بجنوده وتأخرت عنه الأنصار وقالوا: إنا قد قضينا ما أمرنا به الصديق، فقال لهم خالد: إن هذا أمر لابد من فعله وفرصة لابد من انتهازها، وإنه لم يأتنى فيها كتاب وأنا الأمير وإلىَّ ترد الأخبار، ولست بالذى أجبركم على المسير وأنا قاصد البُطاح فسار يومين ثم لحقه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار فلحقوا به، فلما وصل البطاح وعليها مالك بن نويرة بَثَّ خالد السرايا فى البُطاح يدعون الناس فاستقبله أمراء بنى تميم بالسمع والطاعة، وبذلوا الزكوات إلا ما كان من مالك بن نويرة فإنه متحير فى أمره متنح عن الناس فجاءته السرايا فأسروه وأسروا معه أصحابه، واختلفت السرية فيهم فشهد أبو قتادة - الحارث بن ربعى الأنصارى - أنهم أقاموا الصلاة، وقال آخرون: إنهم لم يؤذنوا ولا صلوا فيقال: إن الأسارى باتوا فى كبولهم فى ليلة شديدة البرد، فنادى منادى خالد: أن أدفئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوهم وقتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة، فلما سمع خالد الواعية خرج وقد فرغوا منهم. فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه، ويقال: بل استدعى خالد مالك بن نويرة فأنَّبه على ما صدر منه من متابعة سجاح وعلى منعه الزكاة وقال: ألم تعلم أنها قرينة الصلاة؟ فقال مالك: إن صاحبكم كان يزعم ذلك، فقال: أهو صاحبنا وليس بصاحبك؟ يا ضرار اضرب عنقه، فضربت عنقه وقد تكلم أبو قتادة مع خالد فيما صنع وتقاولا فى ذلك، حتى ذهب أبو قتادة فشكاه إلى الصديق وتكلم عمر مع أبى قتادة فى خالد وقال للصديق: اعزله فإن فى سيفه رَهقًا، فقال أبو بكر: لا أشيم سيفًا سلَّه الله على الكفار، وجاء متمم بن نويرة فجعل يشكو إلى الصديق خالداً وعمر يساعده وينشد الصديق ما قال فى أخيه من المراثى، فوداه الصديق من عنده[2].

دروس وعبر وفوائد:

أ - من ثبت على الإسلام من بنى تميم:

لم يرتد عن الإسلام كل قبائل أو كل أفراد أو كل رؤساء بنى تميم، كما حاول أن يصور ذلك بعض من المؤرخين المحدثين، والحقيقة أنه لقوة إسلام وثبات بعض بطون وأفراد ورؤساء بنى تميم، فقد استطاع مالك بن نويرة إقناع سجاح التميمية بقتالهم قبل قتالها أبا بكر الصديق، وعندما واجهت مسلمى تميم تلقت على أيديهم هزيمة نكراء

---

(١) البطاح: ماء من ديار بنى أسد بأرض نجد.

(٢) البداية والنهاية (٦/٣٢٧).

فعدلت بعدها عن الذهاب إلى المدينة، وتوجهت إلى اليمامة، وقد تضافرت الروايات التاريخية لتؤكد هذه الحقيقة التي ذكرناها[1]، بل إن التدقيق في الروايات يبين أن من ثبت على الإسلام من بني تميم كان أكثر من المترددين والمرتدين، وتعكس بعض الروايات دور قبيلة الرباب بصفة خاصة في الوقوف في وجه المرتدين، ولذلك استحقت من سجاح وجماعتها الحرب.

وتشير بعض الروايات إلى المواجهة العظيمة التي وقعت بين الرباب وسجاح وانتهت أخيراً بالصلح عندما فشلت سجاح في إخضاع مسلمي تميم، وإلى ندم قيس بن عاصم على متابعة المرتدين، وسوقه صدقات قومه إلى المدينة وكانت الدائرة على سجاح وجماعتها[2].

ب - خالد ومقتل مالك بن نويرة:

اختلفت الآراء في مقتل مالك بن نويرة اختلافًا كثيراً: أقتل مظلومًا أم مستحقًا أي أكافراً قتل أم مسلمًا؟ وقام الدكتور علي العتوم بتحقيق هذه المسألة في كتابه «حركة الردة» وتعرض الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه «نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم» لهذه القضية[3]، وقام الشيخ محمد زاهد الكوثري بالدفاع عن خالد في كتابه مقالات الكوثري[4]، وغير ذلك من الباحثين، واخترت من بين من بحث هذا الموضوع ما ذهب إليه الدكتور علي العتوم لأنه حقق المسألة تحقيقًا علميًا متميزاً، واهتم بأحداث الردة اهتمامًا لم أجده - على حسب اطلاعي - عند أحد من الباحثين المعاصرين، وخرج بنتيجة أوافقه عليها: أن الذي أردى مالكًا: كبره وتردده فقد بقي للجاهلية في نفسه نصيب وإلا لما ماطل هذه المماطلة في التبعية للقائم بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ وفي تأدية حق بيت مال المسلمين عليه المتمثل بالزكاة، وفي تصوري أن الرجل كان يحرص على زعامته ويناكف - في الوقت نفسه - بعض أقربائه من زعماء بني تميم الذين وضعوا عصا الطاعة للدولة الإسلامية، وأدوا ما عليهم لها من واجبات،

---

(١) الثابتون على الإسلام، ص٤٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٤٨.

(٣) نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم، ص٣٣.

(٤) مقالات الكوثري، ص٣١٢ نقلاً عن الخلفاء الراشدون للذهبي، ص٣٦.

ولقد كانت أفعاله وأقواله على السواء تؤيد هذا التصور، فارتداده ووقوفه بجانب سجاح وتفريقه إبل الصدقة على قومه، بل ومنعهم من أدائها لأبى بكر وعدم إصاخته لنصائح أقربائه المسلمين فى تمرده، كل ذلك يديته ويجعل منه رجلاً أقرب إلى الكفر منه إلى الإسلام.

ولو لم يكن مما يحتج به على مالك إلا منعه للزكاة لكفى ذلك مُسَوِّغًا لإدانته، وهذا المنع مؤكد عند الأقدمين فقد جاء فى «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام قوله: والمجمع عليه: أن خالداً حاوره وراده وإن مالكًا سمح بالصلاة والتوى بالزكاة[1]، جاء فى «شرح النووى لصحيح مسلم» قوله عن المرتدين: كان فى ضمن هؤلاء من يسمح بالزكاة ولا يمنعها إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك، وقبضوا على أيديهم فى ذلك كبنى يربوع فإنهم قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوها إلى أبى بكر رضى الله عنه، فمنعهم مالك ابن نويرة من ذلك وفرّقها[2].

ج - زواج خالد بأم تميم:

أم تميم هى ليلى بنت سنان المنهال زوج مالك بن نويرة، وهذا الزواج حدث حوله جدل كثير واتهم من لهم أغراض خالداً بعدة تهم لا تصح ولا تثبت أمام البحث العلمى النزيه، وخلاصة القصة فهناك من اتهم خالداً بأنه تزوج أم تميم فور وقوعها فى يده لعدم صبره على جمالها ولهواه السابق فيها، وبذلك يكون زواجه منها - حاشا لله - سفاحًا، فهذا القول مستحدث لا يعتد به[3]، إذ خلت المصادر القديمة من الإشارة إليه، بل هى على خلافه فى نصوصها الصريحة، يذكر الماوردى أن الذى جعل خالداً يقوم على قتل مالك هو منعه للصدقة التى استحل بها دمه، وبذلك فسد عقد المناكحة بينه وبين أم تميم[4]، وحكم نساء المرتدين إذا لحقن بدار الحرب أن يسبين ولا يقتلن، كما يشير إلى ذلك الإمام السرخسى[5]، فلما صارت أم تميم فى السبى اصطفاها خالد لنفسه فلما

---

(١) طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، ص١٧٢.

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (١/٢٠٣).

(٣) ما قاله الجنرال الباكستانى أكرم: ففى نفس الليلة تزوجها خالد، ص ١٩٨ كتابه سيف الله خالد.

(٤) الأحكام السلطانية، ص ٤٧ نقلاً عن حركة الردة، ص ٢٢٩.

(٥) المبسوط (١١١/١٠) نقلاً عن حركة الردة، ص ٢٢٩.

حلّت بنى بها[١]، ويعلق الشيخ أحمد شاكر على هذه المسألة بقوله: إن خالداً أخذها هى وابنها ملك يمين بوصفها سبية، إذ إن السبية لا عدة عليها، وإنما يحرم حرمة قطعية أن يقربها مالكها إن كانت حاملاً قبل أن تضع حملها، وإن كانت غير حامل حتى تحيض حيضة واحدة، ثم دخل بها، وهو عمل مشروع جائز لا مغمز فيه ولامطعن إلا أن أعداءه والمخالفين عليه رأوا فى هذا العمل فرصتهم فانتهزوها، وذهبوا يزعمون أن مالك بن نويرة مسلم وأن خالداً قتله من أجل امرأته[٢]، وقد اتهم خالد بأنه فى زواجه هذا خالف تقاليد العرب فقد قال العقاد: قتل خالد مالك بن نويرة وبنى بامرأته فى ميدان القتال على غير ما تألفه العرب فى جاهلية وإسلام، وعلى غير ما يألفه المسلمون وتأمر به الشريعة[٣]، فهذا القول بعيد عن الصحة فقد كان يحصل كثيراً فى حياة العرب قبل الإسلام إثر حروبهم وانتصاراتهم على أعدائهم أن يتزوجوا من السبايا، وكانوا يفخرون بذلك، ولذلك كثر فيهم أولاد السبايا، وهذا حاتم الطائى يقول:

ومـا أنكحـونا طائعـين بناتِهم	ولكن خطبناها بأسيافنا قسـراً
وكـائن ترى فـينا من ابن سَـبِـيَّـةٍ	إذا لقى الأبطال يطعنُهم شـزراً
ويأخـذ رايات الطعـان بكفِّـه	فيوردها بيضًا ويصدُرها حمرا[٤]

وأما من الناحية الشرعية فقد أتى خالد أمرًا مباحًا وسلك إليه سبيلاً مشروعة أتاه من هو أفضل منه، فإذا كان قد أخذ عليه زواجه إبَّان الحرب أو فى أعقابها، فإن رسول الله ﷺ تزوج بجويرية بنت الحارث المصطلقية إثر غزوة المريسيع، وقد كانت فى سبايا بنى المصطلق فقضى عنها كتابتها وتزوجها، وكان بها طابع يمن وبركة على قومها، إذ أعتق لهذا الزواج مائة رجل من أسراهم لأنهم أصبحوا أصهاراً لرسول الله ﷺ، وكان من آثاره المباركة كذلك إسلام أبيها الحارث بن ضرار[٥]، كما أنه عليه الصلاة والسلام تزوج بصفية بنت حيى بن أخطب اليهودى إثر غزوة خيبر وبنى بها فى خيبر أو ببعض

---

(١) البداية والنهاية (٦/٣٢٦).

(٢) حركة الردة للعتوم، ص٢٣٠.

(٣) عبقرية الصديق، ص ٧٠.

(٤) العقد الفريد لابن عبدربه (٧/١٢٣).

(٥) سيرة ابن هشام (٢/٢٩٠ – ٢٩٥).

الطريق[١]، وإذا كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فقد توارى العتاب وانقطع الملام[٢]، ودفاع الدكتور محمد حسين هيكل عن خالد اتبع فيه منهجية غير مقبولة لأنه ينبغى لنا أن لا نغض الطرف عن مخالفات خالد على حساب الإسلام، فخالد وغيره محكوم بالشرع الذى يعلو ولا يعلى عليه، وإن تنزيه الأشخاص لا يساوى تشويه المنهج بأية حال، فقد قال الدكتور هيكل: وما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب بل ما الدخول بها قبل أن يتم تطهيرها إذا وقع ذلك من فاتح غزا فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبايا يصبحن ملك يمينه!! إن التزمت فى تطبيق التشريع لا ينبغى أن يتناول النوابغ العظماء من أمثال خالد، وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة أو يعرضها للخطر[٣]، ورد الشيخ أحمد شاكر بهذا الخصوص فقال: لشد ما أخشى أن يكون المؤلف تأثر بما قرأ من أخبار نابليون وغيره من ملوك أوربة فى مباذلهم وإسفافهم، وبما كتب الكاتبون من الإفرنج فى الاعتذار عنهم لتخفيف آثامهم بما كان لهم من عظمة وبما أسدوا إلى أممهم من فتوح وأياد،حتى يظن بالمسلمين الأولين أنهم أمثال هؤلاء فيقول: إن التزمت فى تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ العظماء من أمثال خالد،وهذا قول يهدم كل دين وخلق[٤].

د - دعم الصديق للقيادة الميدانية:

كان بعض رجال من جيش خالد قد شهدوا أن القوم أذَّنوا حين سمعوا أذان المسلمين، وأنهم بذلك قد حقنوا دماءهم، وأن قتلهم لا يحل، ومن أولئك القوم أبو قتادة رضى الله عنه، فأكبر الأمر وزاد ذلك عنده أنه رأى خالد بن الوليد قد تزوج امرأة مالك بن نويرة ففارق أبو قتادة خالداً، وقدم على أبى بكر ليشكو إليه خالداً فيما خالف فيه، فرأى أبو بكر أن فراق أبى قتادة لخالد خطأ لا ينبغى أن يرخص فيه له ولا لغيره، لأنه يكون سبباً للفشل والجيش فى أرض العدو، فاشتد على أبى قتادة ورده إلى خالد، ولم يرض منه إلا أن يعود فينخرط تحت لوائه[٥]، وعمل أبى بكر من أحكم السياسات الحربية.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٣٩).

(٢) حركة الردة للعتوم، ص٢٣٧.

(٣) الصديق أبو بكر، ص١٤٠.

(٤) حركة الردة للعتوم، ص٢٣٢.

(٥) نفس المصدر السابق، ص٢٣١.

وقد قام الصديق بالتحقيق فى مقتل ابن نويرة وانتهى إلى براءة ساحة خالد من تهمة قتل مالك بن نويرة[١]، وأبو بكر فى هذا الشأن أكثر اطلاعًا على حقائق الأمور، وأبعد نظرًا فى تصريفها من بقية الصحابة، لأنه الخليفة وإليه تصل الأخبار كما أنه أرجح إيمانًا منهم، وهو فى معاملته لخالد يحتذى على سنن رسول الله: إذ أنه عليه الصلاة والسلام لم يعزل خالداً عما ولاه فى الوقت الذى كان يقع منه ما قد لا يرتاح له، وكان يعذره إذ يعتذر، ويقول: «**لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار**»[٢].

إن من كمال الصديق توليته لخالد واستعانته به لأنه كان شديداً ليعتدل به أمره ويخلط الشدة باللين، فإن مجرد اللين يفسده ومجرد الشدة تفسده، فكان يقوم باستشارة عمر وباستنابة خالد، وهذا من كماله الذى صار به خليفة رسول الله ﷺ ولهذا اشتد فى قتال أهل الردة شدة برَّز بها على عمر وغيره، فجعل الله فيه الشدة ما لم يكن فيه قبل ذلك، وأما عمر فكان شديداً فى نفسه فكان من كماله – فى خلافته – استعانته باللين ليعتدل أمره – فكان يستعين بأبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيد الثقفى والنعمان بن مقرن وسعيد بن عامر وأمثال هؤلاء من أهل الصلاح والزهد الذين هم أعظم زهداً وعبادة من خالد بن الوليد وأمثاله، وقد جعل الله فى عمر من الرأفة – بعد الخلافة – ما لم يكن فيه قبل ذلك تكميلاً له حتى صار أمير المؤمنين[٣].

وقد ذكر ابن تيمية كلاما نفيسًا عن ذلك فقال: .... وهكذا أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ مازال يستعمل خالداً فى حرب أهل الردة وفى فتوح العراق والشام، وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى فلم يعزله من أجلها بل عاتبه عليها، لرجحان المصلحة على المفسدة فى بقائه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه، لأن المتولى الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين فينبغى أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة فينبغى أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين ليعتدل الأمر، ولهذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يؤثر استنابة خالد،

---

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون للبهنساوى، ص١١٢؛ الخلفاء الراشدون للنجار، ص٥٨.

(٢) فتح البارى (٧/ ١٠١).

(٣) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، ص (١٩٣، ١٩٤).

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يؤثر عزل خالد واستنابة أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، لأن خالداً كان شديداً كعمر بن الخطاب وأبا عبيدة كان لينًا كأبى بكر، وكان الأصلح لكل منهما أن يولى من ولاه ليكون أمره معتدلاً، ويكون بذلك من خلفاء رسول الله الذى هو معتدل[1]، حتى قال النبى ﷺ : «أنا نبى الرحمة أنا نبى الملحمة»[2].

٤ - ردة أهل عُمان والبحرين:

أ- ردة أهل عُمان:

كان أهل عُمان قد استجابوا لدعوة الإسلام، وبعث إليهم رسول الله ﷺ عمرو بن العاص، ثم بعد وفاته ﷺ نبغ فيهم رجل يقال له: (ذو التاج) لقيط بن مالك الأزدى وكان يسامى فى الجاهلية الجُلَنْدَى ملك عمان[3]، فادعى النبوة وتابعه الجهلة من أهل عُمان، فتغلب عليها، وعليها جَيْفر وعبّاد ابنا الجُلَنْدى[4]، وألجأهما إلى أطرافها من نواحى الجبال والبحر فبعث جيفر إلى الصديق فأخبره الخبر واستجاشه، فبعث إليه الصديق بأميرين وهما: حذيفة بن محصن الغلفانى من حِمْير وعرفجة إلى مَهرة، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويبدآ بُعمان وحذيفة هو الأمير، فإذا ساروا إلى بلاد مَهرة، فعرفجة الأمير، وأرسل عكرمة بن أبى جهل مدداً لهم وكتب الصديق إلى عرفجة وحذيفة أن ينتهيا إلى رأى عكرمة بعد الفراغ من السير إلى عُمان أو المقام بها، فساروا فلما اقتربا من عُمان راسلوا جيفراً وبلغ لقيط بن مالك مجىء الجيش، فخرج فى جموعه فعسكر بمكان يقال له: دَبَا وهى مصر تلك البلاد وسوقها العظمى، وجعل الذرارى والأموال وراء ظهورهم ليكون أقوى لحربهم، واجتمع جيفر وعباد بمكان يقال له صُحار، فعسكروا فيه وبعثا إلى أمراء الصديق فقدموا على المسلمين، فتقابل الجيشان هناك وتقاتلوا قتالاً شديداً وابتلى المسلمون وكادوا أن يولوا، فمن الله بكرمه ولطفه أن بعث إليهم مدداً فى الساعة الراهنة من بنى ناجية وعبدالقيس فى جماعة من الأمراء، فلما وصلوا إليهم كان الفتح والنصر، فولى المشركون مدبرين وركب المسلمون ظهورهم، فقتلوا منهم عشرة آلاف مقاتل وسبوا الذرارى وأخذوا الأموال والسوق بحذافيرها،

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ١٤٤).

(٢) مسند أحمد (٤/٣٩٥ - ٤٠٤ - ٤٠٧).

(٣، ٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٤)

وبعثوا بالخمس إلى الصديق مع أحد الأمراء وهو عرفجة[١]، وكان السبب في هذا النصر العظيم وقوف الجماعة الإسلامية في عُمان مع أميرها جَيفَر وأخيه عباد ضد ذي التاج لقيط بن مالك الأزدي، واعتصامها بالأماكن الحصينة، حتى أدركتها جيوش المسلمين، كما كان لمواقف بني جُذيد وبني ناجية وبني عبد القيس في ثبوتهم على الإسلام ودخولهم في المعركة في الوقت المناسب أثر في نصر المسلمين[٢].

ب - ردة أهل البحرين:

أسلم أهل البحرين بعد ما أرسل النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى ملكها وحاكمها المنذر بن ساوى العبدي، وقد أسلم هو وقومه وأقام فيهم الإسلام والعدل، وقد كان رد المنذر بن ساوى: قد نظرت في هذا الأمر الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرده، وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم[٣].

فلما توفي رسول الله ﷺ وتوفي المنذر بعده بمدة قصيرة ارتدَّ أهل البحرين وملَّكوا عليهم المنذر بن النعمان الغرور[٤].

أين هي أرض البحرين؟

أرض البحرين هي شقة ضيقة من الأرض تتشاطيء مع هجر خليج العرب، وتمتد من القطيف إلى عُمان والصحراء في بعض أنحائها، تكاد تتصل بماء الخليج وهي تتصل باليمامة في جزئها الأعلى لا يفصل بينهما إلا سلسلة من التلال يهون لانخفاضها اجتيازها[٥].

فهي إذا تشمل إمارات الخليج العربي والجزء الشرقي من المملكة العربية السعودية عدا الكويت[٦].

---

(١) البداية والنهاية (٦/٣٣٥).

(٢) الثابتون على الإسلام، ص (٥٩، ٦٠).

(٣) التراتيب الإدارية (١/١٩).

(٤) حروب الردة، احمد سعيد، ص (١٤٦).

(٥، ٦) نفس المصدر السابق، ص ١٤٧.

هذا وقد كان لمن ثبت على الإسلام فى البحرين دور كبير فى إخماد هذه الفتنة، وكان للجارود بن المُعَلَّى دور متميز ، فقد صحب رسول الله ﷺ وتفقه فى الدين، ثم رجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأجابوه كلهم، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات النبى ﷺ ، فقالت عبد القيس: لو كان محمد نبيا لما مات، وارتدوا، وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم، ثم قام فخطبهم . فقال: يا معشر عبدالقيس إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى به إن علمتموه ولا تجيبونى إن لم تعلموا . قالوا: سل عما بدا لك . قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترون؟ قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا . وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا وثبتوا على إسلامهم، فهذا موقف يُذكر للجارود بن المُعَلَّى رضى الله عنه، فقد ثبت الله به قومه عبدالقيس فثبتوا على إسلامهم، وقد ألهمه الله تعالى بضرب المثل بالأنبياء السابقين عليهم السلام، حيث كان نهايتهم الموت، فكذلك رسول الله ﷺ ، فاقتنع قومه وزال عنهم الشك، وهذا مما يبين مزية التفقه فى الدين وأثر ذلك فى توجيه الاعتقاد والسلوك، وخاصة عند حدوث الفتن(١).

وقد بقت بلدة جُواثا على الإسلام وكانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة كما ثبت ذلك فى البخارى عن ابن عباس، وقد حاصرهم المرتدون و ضيقوا عليهم ومنعوا عنهم الأقوات وجاعوا جوعًا شديداً حتى فرج الله عنهم، وقد قال رجل منهم يقال له عبدالله بن حذف أحد بنى بكر بن كلاب وقد اشتد الجوع:

ألا أبلغ أبا بكر رسولاً ... وفتيان المدينة أجمعينا

فهل لكمُ إلى قوم كرامٍ ... قعودٍ فى جواثا مُحصَرينا

كأن دماءهم فى كل فج ... شعاع الشمس يُغْشى الناظرينا

توكلنا على الرحمن إنا ... وجدنا النصر للمتوكلينا(٢)

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ٩٧).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٢).

فهذا موقف يذكر فى الثبات على الحق لهؤلاء المسلمين الذين حصرهم الأعداء فى (جُواثا) حتى كادوا يهلكون من الجوع، وفى الأبيات المذكورة فى الرواية التى قالها عبدالله بن حذف دليل على عمق إيمان هؤلاء المحصورين وقوة توكلهم على الله تعالى وثقتهم بنصره(١).

بعث الصديق بجيش إلى البحرين بقيادة العلاء بن الحضرمى، فلما دنا من البحرين انضم إليه ثُمامة بن أُثَال فى محفل كبير من قومه بنى سحيم، واستنهض المسلمين فى تلك الأنحاء، وأمد الجارود بن المعلى العلاء برجال من قومه فاجتمع إليه جيش كبير قاتل به المرتدين ونصر الله به المؤمنين، وكان ممن آزر العلاء لقمع فتنة البحرين قيس بن عاصم المِنْقَرى وعفيف بن المنذر والمثنى بن حارثة الشيبانى(٢).

● كرامة للعلاء بن الحضرمى:

كان العلاء من سادات الصحابة العلماء العباد مجابى الدعوة، اتفق له فى هذه الغزوة أنه نزلا منزلاً(٣)، فلم يستقر الناس على الأرض حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شىء سوى ثيابهم - وذلك ليلاً - ولم يقدروا منها على بعير واحد، فركب الناس من الهم و الغم مالا يُحَدُّ ولا يُوصَف، وجعل بعضهم يوصى إلى بعض، فنادى منادى العلاء فاجتمع الناس إليه، فقال: أيها الناس ألستم المسلمين؟ ألستم فى سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟ قالوا: بلى قال: فابشروا فوالله لا يخذل الله من كان فى مثل حالكم، ونودى لصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى الناس، فلما قضى الصلاة جثا على ركبتيه وجثا الناس ونصب فى الدعاء ورفع يديه، وفعل الناس مثله حتى طلعت الشمس وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرة بعد أخرى، وهو يجتهد فى الدعاء ويكرره، فلما بلغ الثالثة إذا قد خلق الله إلى جانبهم غديراً عظيماً من الماء القراح، فمشى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل من كل فج بما عليها، لم يفقد الناس من أمتعتهم سِلْكًا،

(١) التاريخ الإسلامى للحميدى (٩/ ٩٨).
(٢) الثابتون على الإسلام، ص ٦٣.
(٣) فى طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦٣): حدد منزله بالدهناء وهى صحراء رملية بين نجد والأحساء.

فسقوا الإبل عَلَلاً بعد نَهَلٍ(١)، فكان هذا مما عاين الناس من آيات الله بهذه السرية(٢).

● **هزيمة المرتدين:**

ثم لما اقترب من جيوش المرتدة - وقد حشدوا وجمعوا خلقًا عظيمًا - نزل ونزلوا وباتوا مجاورين فى المنازل، فبينما المسلمون فى الليل إذ سمع العلاء أصواتًا عالية فى جيش المرتدين، فقال: من رجل يكشف لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبدالله بن حذف فدخل فيهم فوجدهم سُكارى لا يعقلون من الشراب فرجع إليه فأخبره، فركب العلاء من فورهم والجيش معه فكبسوا أولئك فقتلوهم قتلاً عظيماً وقل من هرب منهم ، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم، فكانت غنيمة عظيمة جسيمة، وكان الحُطَم ابن ضُبيعَة أخو بنى قيس بن ثعلبة من سادات القوم نائمًا فقام دَهِشًا حين اقتحم المسلمون عليهم، فركب جواده فانقطع ركابه فجعل يقول: من يصلح لى ركابى؟ فجاء رجل من المسلمين فى الليل فقال: أنا أصلحها لك ارفع رجلك فلما رفعها ضربه بالسيف فقطعها مع قدمه، فقال: أجهز عليَّ فقال: لا أفعل، فوقع صريعاً وكلما مر به أحد يسأله أن يقتله فيأبى، حتى مر به قيس بن عاصم فقال له: أنا الحُطم فاقتلنى فقتله، فلما وجد رجله مقطوعة ندم على قتله، و قال: واسوأتاه لو أعلم ما به لم أحركه، ثم ركب المسلمون فى آثار المنهزمين يقتلونهم بكل مرصد، وطريق، وذهب من فر منه أو أكثر إلى دارين(٣)، ركبوا إليها السفن، ثم شرع العلاء الحضرمى فى قسمة الغنيمة ونَفَل الأنفال، ولما فرغ من ذلك قال للمسلمين: اذهبوا بنا إلى دارين لنغزو من بها من الأعداء، فأجابوا إلى ذلك سريعًا، فسار بهم حتى أتى ساحل البحر ليركبوا فى السفن، فرأى أن الشُّقة بعيدة لا يصلون إليهم فى السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول: يا أرحم الراحمين يا حكيم يا كريم يا أحد يا صمد يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت يا ربنا(٤). وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا ذلك فأجاز بهم الخليج بإذن الله على مثل رملة دمثة فوقها ماء لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى رُكب الخيل، ومسيرته لسفن يوم وليلة فقطعه إلى الجانب الآخر

---

(١) العَلَلُ: الشربة الثانية، والنهل: شرب الإبل أول ما ترد الماء.

(٢) البداية والنهاية (٦/٣٣٣).

(٣) دارين: بكسر الراء هى فرضة بالبحرين.

(٤) البداية والنهاية (٦/١٢١).

فعاد إلى موضعه الأول وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبراً وساق الذرارى والأنعام والأموال، ولم يفقد المسلمون فى البحر شيئًا إلاّ عُليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها، ثم قسم غنائم المسلمين فيهم فأصاب الفارس ستة آلاف والرجل ألفين مع كثرة الجيشين، وكتب إلى الصديق فأعلمه بذلك، فبعث الصديق يشكره على ما صنع، وقد قال رجل من المسلمين فى مرورهم فى البحر وهو عفيف بن المنذر:

ألم تر أن الله ذَلَّلَ بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل(١)

دعونا الى شقّ البحار فجاءنا بأعجب من فلق البحار الأوائل(٢)

وكان مع المسلمين فى هذه المواقف والمشاهد التى رأوها من أمر العلاء وما أجرى الله على يديه من الكرامات، رجل من أهل هجر راهب فأسلم حينئذ، فقيل له: ما دعاك إلى الإسلام؟ فقال: خشيت إن لم أفعل أن يمسخنى الله لما شاهدت من الآيات. قال: وقد سمعت فى الهواء وقت السَّحَرِ دعاء. قالوا: وما هو؟ قال: اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك والبديع ليس قبلك شيء والدائم غير الغافل والذى لا يموت وخالق ما يرى وما لا يرى وكل يوم أنت فى شأن، وعلمت اللهم كل شيء علماً، قال: فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله، فحسن إسلامه وكان الصحابة يسمعون منه(٣).

وبعد هزيمة المرتدين رجع العلاء بن الحضرمى إلى البحرين وضرب الإسلام بجرانه، وعزّ الإسلام وأهله وذل الشرك وأهله(٤)، ولولا تدخل بعض العناصر الأجنبية لصالح المرتدين ما تجرأ المرتدون على الموقف فى وجه المسلمين مدة طويلة، إذ أن الفرس قد أمدّوا المرتدين بتسعة آلاف من المقاتلين، وكان عدد المرتدين من العرب ثلاثة آلاف وعدد المسلمين أربعة آلاف(٥) وكان للمثنى بن حارثة دور كبير فى إخماد فتنة البحرين والوقوف بقواته بجانب العلاء بن الحضرمى، وقد سار بجنوده من البحرين شمالاً ووضع يده على القطيف وهجر حتى بلغ مصب دجلة وقضى فى سيره هذا على قوات الفرس

(١) الجلائل: العظائم.
(٢، ٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٤).
(٤) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٠٥).
(٥) فتوح ابن أعثم، ص ٤٧.

وعمالهم ممن أعانوا المرتدين بالبحرين، وأنه انضم إلى العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين على رأس من بقى على الإسلام من أهل هذه النواحى، ومنه تابع مسيره مع الساحل شمالاً حتى نزل فى قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين ، فتحدث إليهم وتعاهد معهم ، وعندما سأل الخليفة الصديق عن المثنى قال له قيس بن عاصم المنقرى: هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيبانى(١).

وقد أصدر الصديق رضى الله عنه أمره إلى المثنى بن حارثة أن يتابع دعوته للعرب فى العراق إلى الحق، وقد اعتبر أن ما قام به المثنى من قبل ما هو إلا الخطوة الأولى فى تحرير العراق، وأما الخطوة الحاسمة فهى توجيه خالد بن الوليد ليتولى قيادة الجيوش الإسلامية هناك(٢).

لقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يغتنم الفرص ويستنفد الطاقات ويستحث الهمم ليصل من الأعمال المقدَّمة إلى أعلى النتائج ، وكان يسخر الطاقات الكامنة فى الرجال ويوجهها لسحق الطغيان الذى عشش فى رؤوس زعماء الكفر والطغيان(٣).

* * *

(١) فتوح البلدان للبلاذرى، ص ٢٤٢ نقلاً عن أبو بكر الصديق، خالد جاسم، ص ٤٤ .

(٢) أبو بكر الصديق، ص ٤٤ ، خالد الجنابى، نزار الحديثى .

(٣) التاريخ الإسلامى (٩/ ٩٨).

المبحث الرابع

مسيلمة الكذاب وبنو حنيفة

أولاً: التعريف به ومقدمة عنه:

هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفى أبو شامة، متنبئ من المعمرين وفى الأمثال: أكذب من مسيلمة، ولد ونشأ باليمامة فى القرية المسماة اليوم بالجبلية بقرب العيينة بوادى حنيفة فى نجد، وتلقب فى الجاهلية بالرحمن وعرف برحمان اليمامة(١)، وأخذ يطوف فى ديار العرب والعجم يتعلم الأساليب التى يستطيع بها استغفال الناس واستجرارهم لجانبه، كجبل السدنة والحوّاء وأصحاب الزجر والخط ومذاهب الكهان والعيّاف والسحرة وأصحاب الجن الذين يزعمون أن لهم تابعات إلى غيرها من الخزعبلات، ومن هذه الشعوذات أنه كان يصل جناح الطائر المقصوص فى الظاهر ويدخل البيضة فى القارورة(٢)، وكان مسيلمة يدعى النبوة ورسول الله بمكة، وكان يبعث بأناس إليها ليسمعوا القرآن ويقرؤوه على مسامعه، فينسج على منواله أو يسمعه هو نفسه للناس زاعمًا أنه كلامه(٣)، وفى العام التاسع للهجرة الذى عم فيه الإسلام ربوع الجزيرة العربية أقبل وفد بنى حنيفة على مدينة الرسول ﷺ يعلنون إسلامهم، وكان مسيلمة معهم فقد ذكر ابن إسحاق: إن مسيلمة كان ضمن المجموعة التى قابلت الرسول ﷺ، من وفد بنى حنيفة جاءوا به يسترونه بالثياب، فلما قابله كلمه، وكان مع رسول الله ﷺ عسيب من سعف النخل فقال له رسول الله ﷺ: **«لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتكه»**(٤) ويبدو أنه سأله الشركة فى النبوة أو الخلافة من بعده. وفى رواية: إن مسيلمة لم يكن فى الوفد الذى قابل رسول الله ﷺ لأنه تخلف يحرس رحال القوم، فلما قسم ﷺ الأعطيات أخرج له نصيبًا مثل أنصبائهم، وقال لهم: **«إنه ليس بشرّكم مكانًا»** وذلك لقيامه على حراسة متاعهم(٥).

---

(١) حروب الردة وبناء الدولة، أحمد سعيد، ص ١٢٣؛ الزركلي (٢/ ١٢٥).

(٢) حركة الردة للعتوم، ص ٧١.

(٣) البدء والتاريخ (٥/ ١٦٠) للمقدسى نقلاً عن حركة الردة، ص ٧١.

(٤) السيرة النبوية (٢/ ٥٧٦، ٥٧٧).

(٥) نفس المصدر السابق (٢/ ٥٧٧).

وفى الرواية الأولى يبدو مسيلمة الكذاب شخصًا مريبًا مما استدعى ستره بهذه الثياب، وكأنه يخفى فى نفسه وتقاطيع وجهه شيئًا مدخولاً. وقد كان الرجل كذلك فى حياته وفى قوله ﷺ: «ليس بشركم». لاتعنى أنه خيرهم بل قد تعنى أنهم أشرار وليس هو بأكثر شراً منهم بل هو شرير مثلهم، والحقيقة التى كشفتها الأيام أن بنى حنيفة كان جلهم أشراراً، وكان هو الذى يتولى كبر هذا الشر فيهم.

١ - رجوع وفد بنى حنيفة:

ولما رجع وفد بنى حنيفة إلى اليمامة حيث ديارهم ادعى مسيلمة النبوة، وأعلن شركته لرسول الله ﷺ فيها اعتماداً على قوله ﷺ: «إنه ليس بشركم». وطفق يتنبأ لقومه ويسجع ويحلل ويحرم كما يشتهى، فكان مما زعم أنه قرآن يأتيه: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى[١]، فمنهم من يموت ويدس إلى الثرى، ومنهم من يبقى إلى أجل مسمى، والله يعلم السر وأخفى[٢].

ومما قاله مسيلمة: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقى ماتنقين، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين[٣]، وقد حاول مسيلمة الكذاب أن يسرق أساليب القرآن مع إحالة معانيه بحيث تخرج شوهاء ممسوخة مثل قوله: فسبحان الله إذا جاء الحياة كيف تحيون؟ وإلى ملك السماء ترقون، فلو أنها حبة خردلة لقام عليها شهيد يعلم ما فى الصدور، ولأكثر الناس فيها ثبور[٤]. لقد كان هذا الهراء غير خاف على أحد بمن فيهم هم أنفسهم قبل غيرهم، وقد ذكر ابن كثير أن عمرو بن العاص - قبل إسلامه - قابل مسيلمة الكذاب فسأله هذا ماذا أنزل على محمد من القرآن؟ فقال له عمرو: إن الله أنزل عليه سورة العصر، فقال مسيلمة: وقد أنزل الله علىَّ مثلها وهو قوله: يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر، وسائر حفر نقر[٥]، فقال له عمرو بن العاص: والله إنك تعلم أنى أعلم أنك تكذب[٦]، وعلق ابن كثير رحمه الله على قول عمرو هذا

---

(١) حركة الردة للعتوم، ص ٧٣ للعتوم.

(٢) البدء والتاريخ للمقدسى (٥/١٦٢).

(٣) تاريخ الطبرى (٤/١٠٢).

(٤) حركة الردة للعتوم، ص ٢٧١ للعتوم.

(٥، ٦) تفسير ابن كثير (٤/٥٤٧) ط/ الحلبى.

من قرآن مسيلمة المزعوم: فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان[1].

وقال أبو بكر الباقلاني - رحمه الله -: فأما كلام مسيلمة الكذاب وما زعم أنه قرآن فهو أخسُّ من أن ننشغل به وأسخف من أن نفكر فيه، وإنما نقلنا منه طرفًا ليتعجب القارىء وليتبصر الناظر، فإنه على سخافته قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل وميدان الجهل واسع[2].

٢ - كتاب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ والجواب عنه:

وفي العام العاشر للهجرة عندما أصيب رسول الله ﷺ بمرض موته، تجرأ الخبيث فكتب رسالة إلى رسول الله ﷺ يزعم لنفسه فيها الشركة معه في النبوة كتبها له عمرو ابن الجارود الحنفي، وبعثها إليه مع عبادة بن الحارث الحنفي المعروف بابن النواحة هذا نصها: من مسيلمة رسول الله (كذب) إلى محمد رسول الله: أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشًا لا ينصفون[3]. فرد عليه رسول الله ﷺ برسالة كتبها له أبي بن كعب رضي الله عنه نصها: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي إلى مسيلمة الكذاب أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين والسلام على من اتبع الهدى**»[4]. وكان مسيلمة قد بعث برسالته إلى الرسول ﷺ مع رجلين أحدهما ابن النواحة المذكور فلما اطلع عليها رسول الله ﷺ قال لهما: وماذا تقولان أنتما؟ فقالا: نقول كما قال. فقال ﷺ: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكم[5].

٣ - موقف حبيب بن زيد الأنصاري حامل رسالة رسول الله إلى مسيلمة:

حمل حبيب بن زيد الأنصاري ابن أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية رضي الله عنها رسالة رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب فعندما سلمه الرسالة قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله فيقول: نعم، فيقول له: أو تشهد أني رسول الله؟

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٤٧).

(٢) إعجاز القرآن، تحقيق سيد صقر، ص ١٥٦.

(٣) تاريخ الطبري (٣/٣٨٦).

(٤) نفس المصدر السابق (٣/٣٨٧).

(٥) نفس المصدر السابق (٣/٣٨٦).

فيقول: أنا أصم لا أسمع، ففعل ذلك مراراً وكان فى كل مرة لا يجيبه فيها حبيب إلى طلبه يقتطع من جسمه عضواً ويبقى حبيب محتسبًا صابرًا إلى أن قطعه إربًا إربًا فاستشهد رضى الله عنه بين يديه[1]، ولننظر إلى رسول الله ﷺ كيف كانت سيرته، فلا يقتل الرسل ولو كانوا من قبل أعدائه الألداء الكفار، وحتى ولو كفروا أمامه وما دام لهم هذه الحصانة. أما مسيلمة فيتعامى عن العهود والمواثيق فيقتل السفراء لا قتلاً عاديًا بل قتل تشويه وتمثيل وتَشَفٍّ. إنه الفارق بين الإسلام الذى يحترم الكلمة ويحترم الإنسان ويخاصم بشرف ورجولة، وبين الجاهلية التى لا تعرف إلا الفساد فى الأرض وتحكيم الهوى[2].

٤ - الرَّجال بن عُنفوة الحنفى:

استفحل أمر مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة ويبدو أنهم كانوا على استعداد للتجاوب مع زيفه وخداعه، وافتتن به الرجَّال بن عُنفُوة الذى هاجر إلى النبى ﷺ وأسلم وقرأ القرآن وحفظ بعض سوره، كان قد بعثه رسول الله ﷺ إلى مسيلمة ليخذل عنه الأتباع، وليوضح جلية الأمر للناس فى هذه الفتنة الغاشية، فما كان منه عندما وصل إليه إلا أن انقلب على وجهه وأخذ يشهد لمسيلمة أمام الناس أن رسول الله أشركه معه فى النبوة فكان هذا الشقى أشدَّ فتنة على الناس من مسيلمة نفسه[3].

وقد ألمح رسول الله ﷺ فى حياته إلى سوء منقلب الرَّجال، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه قال: جلست مع النبى ﷺ فى رهط معنا الرجال بن عُنْفُوَة فقال: «إن فيكم لرجلاً ضرسه فى النار أعظم من أحد». فهلك القوم وبقيت أنا والرجال فكنت متخوفًا لها، حتى خرج الرجال مع مسيلمة، فشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الرجال أعظم من فتنة مسيلمة[4].

ثانيًا: الثابتون على الإسلام من بنى حنيفة:

طغت أخبار ردة مسيلمة الكذاب باليمامة على غيرها من أخبار ثبات جماعات من

---

(١) أسد الغابة رقم الترجمة ١٠٤٩.

(٢) حركة الردة للعتوم، ص ٧٤.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٧٥.

(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ١٠٦).

المسلمين الصادقين باليمامة بصفة عامة، وفى بنى حنيفة - قوم مسيلمة بصفة خاصة - ولم يتعرض كثير من الكتَّاب المحدثين لذكر المسلمين الذين تمسكوا بإسلامهم فى فتنة مسيلمة ووقفوا فى وجهه، وساندوا جيوش الخلافة للقضاء على فتنته، وقد وجدت[1] روايات معتبرة تلقى الضوء على هذه الحقيقة التى غابت عن الكثيرين[2].

يذكر ابن أعثم أن ممن ثبت على الإسلام فى اليمامة ثمامة بن أُثال[3]، الذى كان من مشاهير بنى حنيفة ولذا اجتمعت إليه عندما علموا بمسير خالد إليهم لأنه كان واحداً من أكابرهم، وكان ذا عقل وفهم ورأى، وكان مخالفًا لمسيلمة على ما هو عليه من الردة، وكان مما قاله لمن تابع مسيلمة: ... ويحكم يا بنى حنيفة اسمعوا قولى تهتدوا وأطيعوا أمرى ترشدوا واعلموا أن محمداً ﷺ كان نبيًا مرسلاً لا شك فى نبوته ومسيلمة رجل كذَّاب لا تغتروا بكلامه وكذبه فإنكم قد سمعتم القرآن الذى أتى به محمد ﷺ وآلى عن ربه إذ يقول: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ - ٣] فأين هذا الكلام من كلام مسيلمة الكذاب؟ فانظروا فى أموركم ولا يذهبن هذا عنكم، ألا وإنى خارج إلى خالد بن الوليد فى ليلتى هذه طالبًا منه الأمان على نفسى ومالى وأهلى وولدى.. وكان جواب من هُدى إليه من قومه: (نحن معك يا أبا عامر فكن من ذلك على علم). ثم خرج ثمامة بن أثال فى جوف الليل فى نفر من بنى حنيفة حتى لحق بخالد بن الوليد، واستأمن إليه فأمنه وأمن أصحابه[4]، وجاء فى رواية الكلاعى قوله لهم: بأن لا نبى مع محمد ﷺ ولا بعده وتذكر طرفًا من قرآن مسيلمة للتدليل على سخفه[5]، وتروى شعراً ينسب إلى ثمامة منه قوله:

مسيلمة ارجع ولا تمحك ... فإنك فى الأمر لم تشرك
كذبت على الله فى وحيه ... فكان هواك هوى الأنوك[6]

---

(١) وجدتها فى «كتاب الثابتون على الإسلام» للدكتور مهدى رزق الله.

(٢) الثابتون على الإسلام، ص ٥١.

(٣) وقع فى الأسر فى زمن النبى لما كان مشركًا فعفا عنه رسول الله وحسن إسلامه.

(٤) الثابتون على الإسلام، ص ٥٢.

(٥، ٦) الكلاعى فى حروب الردة، ص ١١٧.

ومنَّاك قومُك أن يمنعوك وإن يأتِهِمْ خالد تُتركِ

فما لك من مصعد في السماء ولا لك في الأرض من مسلك[1]

وقد جاء في رواية: دور ثمامة في حرب مسيلمة ومساعدة عكرمة بن أبي جهل له في هذه المهمة[2].

وقد ساهم ثمامة بن أثال في مساعدة العلاء بن الحضرمي في حربه للمرتدين بالبحرين، وكان معه مسلمو بني حنيفة من بني سُحيم ومن أهل القرى من سائر بني حنيفة، وكان ثمامة من أهل البلاء في قتال المرتدين مع العلاء الحضرمي[3].

وممن ثبت على الإسلام في اليمامة معمر بن كلاب الرُّماني فقد وعظ مسيلمة وبني حينفة الذين تابعوه ونهاهم عن الردة، وكان جاراً لثمامة بن أثال وشهد قتال اليمامة مع خالد بن الوليد، ومن سادات اليمامة الذين كانوا يكتمون إسلامهم: ابن عمرو اليشكري الذي كان من أصدقاء الرَّجَّال بن عنفوة، وقال شعراً فشا في اليمامة وأنشده الناس، ومن هذا الشعر قوله:

إن ديني دين النبي وفي القو م رجال على الهدى أمثالي

أهلك القوم مُحكم بن طُفيل ورجال ليسوا لنا برجال

إن تكن ميتتي على فطرة الله حنيفاً فإنني لا أبالي

فبلغ ذلك مسيلمة ومحكما وأشراف أهل اليمامة فطلبوه، ولكنه فاتهم ولحق بخالد ابن الوليد وأخبره بحال أهل اليمامة ودله على عوراتهم[4].

وممن ثبت على الإسلام في اليمامة أيضًا: عامر بن مَسْلَمَة ورهطه[5].

ولقد أكرم أبو بكر الثابتين على الإسلام من بني حنيفة وذلك في أشخاص ذوي قرابتهم ومن ذلك تعيينه لمطرف بن النعمان بن مسلمة ابن أخي كل من ثمامة بن أثال

---

(١) الثابتون على الإسلام، ص ٥٣.

(٢) البداية والنهاية (٦ / ٣٦١).

(٣) الثابتون على الإسلام، ص ٥٤.

(٤) حروب الردة، ص (١٠٤ - ١٠٦) للكلاعي.

(٥) الثابتون على الإسلام، ص ٥٧.

وعامر بن مسلمة اللذين كان لهما ثباتٌ فى فتنة الردة - عينه واليًا على اليمامة[١].

ثالثا: تحرك خالد بن الوليد بجيشه إلى مسيلمة الكذاب باليمامة:

كان أبو بكر رضى الله عنه قد أمر خالداً إذا فرغ من أسد وغطفان ومالك بن نويرة أن يقصد اليمامة وأكد عليه فى ذلك، قال شريك الفزارى[٢]، كنت ممن حضر بزاخة فجئت أبا بكر فأمرنى بالمسير إلى خالد وكتب معى إليه: أما بعد فقد جاءنى فى كتابك مع رسولك تذكر ما أظفرك الله بأهل بزاخة وما فعلت بأسد وغطفان وأنك سائر إلى اليمامة، وذلك عهدى إليك فاتق الله وحده لا شريك له وعليك بالرفق بمن معك من المسلمين، كن لهم كالوالد وإياك يا خالد بن الوليد ونخوة بنى المغيرة فإنى قد عصيت فيك من لم أعصه فى شىء قط فانظر إلى بنى حنيفة إذا لقيتهم إن شاء الله فإنك لم تلقَ قومًا يشبهون بنى حنيفة كلهم عليك ولهم بلاد واسعة، فإذا قدمت فباشر الأمر بنفسك واجعل على ميمنتك رجلاً وعلى ميسرتك رجلاً[٣]، واجعل على خيلك رجلاً واستشر من معك من الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار واعرف لهم فضلهم، فإذا لقيت القوم وهم على صفوفهم فالقهم إن شاء الله وقد أعددت للأمور أقرانها، فالسهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف واحمل أسيرهم على السيف[٤]، وهوِّل فيهم القتل وأحرقهم بالنار وإياك أن تخالف أمرى والسَّلام عليك[٥]. فلما انتهى الكتاب إلى خالد وقرأه قال: سمعًا وطاعة[٦].

سار خالد إلى قتال بنى حنيفة باليمامة وعبَّى معه المسلمين، وكان على الأنصار ثابت ابن قيس بن شماس فسار لا يمر بأحد من المرتدين إلا نكَّل به، وسيَّر الصديق جيشًا كثيفًا مجهزًا بأحدث سلاح ليحمى ظهر خالد حتى لا يوقع به أحد من خلفه وكان خالد فى طريقه إلى اليمامة قد لقى أحياء من الأعراب قد ارتدت، فغزاها وردها

---

(١) الثابتون على الإسلام، ص ٥٨.

(٢) شريك بن عبدة: صحابى قام بالمراسلة الحربية بين الصديق وخالد.

(٣، ٤) حروب الردة، شوقى أبو خليل، ص ٧٨.

(٥) مجموعة الوثائق السياسية، ص (٣٤٨، ٣٤٩)؛ حروب الردة، أبو خليل، ص ٧٩.

(٦) حروب الردة، د. شوقى أبو خليل، ص ٧٩.

إلى الإسلام، ولقى مؤخرة جيش سجاح ففتك به ونكبه، ثم زحف إلى اليمامة[١].

ولما سمع مسيلمة بقدوم خالد عسكر بمكان يقال له: عقرباء[٢] فى طرف اليمامة، وندب الناس وحثَّهم على لقاء خالد، فأتاه أهل اليمامة وجعل على مجنبتى جيشه: المحكم بن الطفيل والرَّجَّال بن عنفوة (شاهد زور).

والتقى خالد بعكرمة وشرحبيل فتقدم وقد جعل على مقدمة الجيش شرحبيل بن حسنة وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة[٣].

أ - مجاعة بن مرارة الحنفى يقع فى أسر المسلمين:

مرَّت مقدمة جيش خالد بنحو من أربعين - وقيل ستين - فارسًا عليهم مجاعة بن مرارة الحنفى، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له فى بنى تميم وبنى عامر، وفى طريق عودته إلى قومه أسرهم المسلمون، فلما جىء بهم إلى خالد قال لهم: ماذا تقولون يا بنى حنيفة؟ قالوا: نقول منا نبى ومنكم نبى فقتلهم[٤]، وفى رواية: سألهم خالد: متى شعرتم بنا؟ قالوا: ما شعرنا بك! إنما خرجنا لنثأر فيمن حولنا من بنى عامر وتميم. فلم يصدقهم خالد بل حسبهم جواسيس عليه لمسيلمة الكذاب، فأمر بقتلهم جميعًا فقالوا له: إن ترد بأهل اليمامة غداً شراً أو خيراً فاستبق هذا وأشاروا إلى رئيسهم مجَّاعة، فاستبقى مجاعة وقتل الآخرين[٥].

وكان مجاعة بن مرارة سيداً فى بنى حنيفة شريفًا مطاعًا، فكان خالد كلما نزل منزلاً واستقر به دعا مُجاعة فأكل معه وحدثه، فقال له ذات يوم: أخبرنى عن صاحبك - يعنى مسيلمة - ما الذى يقرأكم؟ هل تحفظ منه شيئًا؟ قال: نعم، فذكر له شيئًا من رجزه، فقام خالد وضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: يا معشر المسلمين اسمعوا إلى عدو الله كيف يعارض القرآن، ثم قال: ويحك يا مجاعة أراك رجلاً سيداً عاقلاً اسمع إلى كتاب الله عز وجل، ثم انظر كيف عارضه عدو الله فقرأ عليه خالد: ﴿سَبِّحِ

---

(١) الصديق أول الخلفاء، ص ١٠٥.

(٢، ٣) حروب الردة، د. شوقى أبو خليل، ص ٨٠.

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٨).

(٥) تاريخ الطبرى (٤/ ١٠٦)؛ الصديق أول الخلفاء، ص ١٠٥.

اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فقال مجاعة: أما إن رجلاً من أهل البحرين كان يكتب، أدناه مسيلمة وقرَّبه حتى لم يكن يُعدُّ له فى القُرب عنده أحد، فكان يخرج إلينا فيقول: ويحكم يا أهل اليمامة صاحبكم والله كذّاب وما أظنكم تتهمونى عليه، إنكم لترون منزلتى عنده وحالى، هو والله يكذبكم ويايعكم على الباطل، قال خالد: فما فعل ذلك البحرانى؟ قال: هرب منه كان لا يزال يقول هذا القول حتى بلغه، فخافه على نفسه فهرب فلحق بالبحرين، قال خالد: هات زدنا من كذب الخبيث فقال مجاعة بعض رجز مسيلمة، فقال خالد: وهذا كان عندكم حقًا وكنتم تصدقونه؟ قال مجاعة: لو لم يكن عندنا حقًا لما لقيتك غداً أكثر من عشرة آلاف سيف يضاربونك فيه حتى يموت الأعجل، قال خالد: إذاً يكفيناكم الله ويعز دينه، ففى سبيله يقاتلون ودينه يريدون[1]، فهذا رد يدل على عظمة إيمان خالد وثقته بالله، فقد كان إيمانه بالله وثقته المطلقة فى نصر الله لدينه هما اللذين فجرا فى شخصيته كنوز المواهب الحربية وفنون المهارات القيادية، لقد قاتل يوم بزاخة بسيفين حتى قطعهما، فقد كان يملأ الإيمان قلبه ويعتز بالله وحده، وكان ذلك كفيلاً بإسقاط هيبة عدوه من نفسه وغرس هيبته فى قلب عدوه وذلك أول الطريق لإحراز النصر الحاسم عليه وإلحاق الهزيمة الساحقة به[2].

ب - شن الحرب النفسية قبل المعركة:

وضع خالد بن الوليد خطته على أساس استخدام الحرب النفسية ثم تحكيم السيف، فبعث زياد بن لبيد وكان صديقًا لمحكم بن طفيل سيد أهل اليمامة بقصد أن يكسبه إلى جانبه، فقال خالد لزياد: لو لقيت إلى محكم شيئًا تكسره به فكتب زياد إليه أبياتًا من الشعر جاء فيها:

ويل اليمامة ويلاً لا فراق له ... إن جالت الخيل فيها بالقنا الصادى

والله لا تنثنى عنكم أعنتها ... حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

واتجه خالد كذلك إلى عمير بن صالح اليشكرى وكان قد أسلم وكتم إسلامه على قومه، وكان قوى العقيدة راسخ الإيمان، وقال له: تقدم إلى قومك، فأتاهم وقال: أظلكم خالد فى المهاجرين والأنصار، إنى رأيت قومًا إن غالبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر وإن

---

(١) حروب الردة، ص ٨٢.

(٢) حركة الردة للعتوم، ص (٢١٨، ٢١٩).

غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد، ولستم والقوم سواء الإسلام مقبل والشرك مدبر، وصاحبهم نبى وصاحبكم كذاب، ومعهم السرور ومعكم الغرور فالآن والسيف فى غمده والنبل فى جفيره، قبل أن يسل السيف ويرمى بالسهم[١].

ثم باشر خالد المهمة مع ثمامة بن أثال الحنفى، فمشى إلى قومه يدعوهم إلى الاستسلام، ويحطم عندهم روح القتال: (إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد، إن محمداً ﷺ لا نبى بعده ولا نبى مرسل معه، لقد بعث إليكم (يقصد أبا بكر) رجلاً لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه يقال له: (سيف الله) معه سيوف كثيرة، فانظروا فى أمركم[٢].
واهتم خالد بتدبير الخطط المحكمة وكان رضى الله عنه لا يستخف بعدوه وكان فى ميدان المعركة على أهبة وحذر دائمين مخافة أن يفجأه عدوه بغارة غادرة والتفاف مكر، وقد وُصِفَ رضى الله عنه بأنه: كان لا ينام ولا يبيت إلا على تعبية، ولا يخفى عليه من أمر عدوه شيء[٣]، وفى محاربته لمسيلمة – قبل معركة عقرباء – جعل طليعته مكنف ابن زيد الخيل وأخاه حريثًا لجمع المعلومات اللازمة للمعركة، وقد حان ترتيب أمور جيشه فالموقف شديد الخطورة، ولا بد من أخذ الترتيبات اللازمة فقد كان حامل الراية فى هذه المعركة عبد الله بن حفص بن غانم ومن ثم تحولت إلى سالم[٤] مولى أبى حذيفة، ومعلوم أن الناس براياتهم – كما قالت العرب – فإذا زالت زالوا، وقد قدم خالد فى هذه المعركة شرحبيل بن حسنة، وقسم الجيش أخماساً على المقدمة خالد المخزومى وعلى الميمنة أبو حذيفة وعلى الميسرة شجاع وفى القلب زيد بن الخطاب وجعل أسامة ابن زيد على الخيالة ووضع الظعن فى المؤخرة وفيها الخيام والنساء[٥]، وهذا الترتيب الأخير قبل المعركة.

رابعًا: المعركة الفاصلة:

ولما توجه الجيشان قال مسيلمة لأتباعه وقومه قبيل المعركة الفاصلة: اليوم يوم الغيرة اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيَّات وينكحن غير حظيات، فقاتلوا على أحسابكم

---

(١) الحرب النفسية، أحمد نوفل، ص (١٤٤، ١٤٥).

(٢) الحرب النفسية، د. أحمد نوفل (٢/١٤٥)؛ فن إدارة المعركة، محمد فرج، ص(١٣٨– ١٤٠).

(٣) حركة الردة للعتوم، ص ١٩٩.

(٤، ٥) نفس المصدر السابق، ص٢٠٠.

وامنعوا نساءكم[1].

وتقدم خالد رضى الله عنه بالمسلمين حتى نزل بهم على كثيب يشرف على اليمامة فضرب به عسكره، واصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة وانهزمت الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد، وهموا بقتل أم تميم حتى أجارها مجاعة وقال: نعمت الحرة هذه وقد قُتل الرَّجَّال بن عنفوة لعنه الله فى هذه الجولة قتله زيد بن الخطاب، ثم تذامر الصحابة بينهم وقال ثابت بن قيس بن شماس: لبئس ما عودتم أقرانكم ونادوا من كل جانب: أخلصنا يا خالد فخلصت ثلة من المهاجرين والأنصار وحَمِىَ وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن فلم يزل ثابتًا حتى قتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبى حذيفة: أتخشى أن نؤتى من قبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قدمًا وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى فقتل شهيداً رضى الله عنه، وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زيِّنوا القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتى أبعدهم، وأصيب رضى الله عنه، وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم وسار لقتال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز، وقال: أنا ابن الوليد العود أنا ابن عامر وزيد، ثم نادى بشعار المسلمين - وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه - وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله ولا يدنو منه شىء إلا أكله، وقد ميز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكل بنى أب على رايتهم يقاتلون تحتها حتى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبر الصحابة فى هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم وولَّى الكفار الأدبار واتبعوهم يقتلون فى أقفائهم ويضعون السيوف فى رقابهم حيث شاءوا، حتى ألجأوهم إلى حديقة الموت وقد أشار عليهم مُحكم اليمامة - وهو محَكم بن الطفيل لعنه الله - بدخولها فدخلوها وفيها عدو الله مسيلمة لعنه الله وأدرك عبد الرحمن بن أبى بكر محكم بن الطفيل فرماه بسهم فى عنقه وهو يخطب فقتله،

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٨).

وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم وأحاط بهم الصحابة[١].

خامساً: بطولات نادرة:

١ - قال البراء بن مالك:

يا معشر المسلمين ألقونى عليهم فى الحديقة، فاحتملوه فوق الجحف[٢]، ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه ودخل المسلمون الحديقة من الباب الذى فتحه البراء، وفتح الذين دخلوا الأبواب الأخرى وحوصر المرتدون وأدركوا أنها القاضية، وأن الحق جاء وزهق باطلهم[٣].

٢ - مصرع مسيلمة الكذاب:

وخلص المسلمون إلى مسيلمة لعنه الله وإذا هو واقف فى ثلمة جدار كأنه جمل أورق، وهو يريد يتساند لا يعقل من الغيظ وكان إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه، فتقدم إليه وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم - قاتل حمزة - فرماه بحربته فأصابه، وخرجت من الجانب الآخر وسارع إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فضربه بالسيف فسقط، فنادت امرأة من القصر: وا أمير الوضاءة قتله العبد الأسود، فكان جملة من قتلوا فى الحديقة وفى المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل وقيل: إحدى وعشرون ألفاً وقتل من المسلمين ستمائة وقيل: خمسمائة فالله أعلم، وفيهم من سادات الصحابة وأعيان الناس من يذكر بعد، وخرج خالد وتبعه مجاعة بن مرارة يرسف فى قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرفه بمسيلمة فلما مروا بالرجال بن عنفوة قال له خالد: أهذا هو؟ قال: لا والله هذا خير منه هذا الرَّجال بن عنفوة. ثم مروا برجل أصفر أخنس فقال: هذا صاحبكم فقال خالد: قبحكم الله على اتباعكم هذا ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى[٤].

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٩).

(٢) الجحف: المراد بها التروس.

(٣) حروب الردة، لشوقى أبو خليل، ص٩٢.

(٤) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٠).

٣ - أبو عقيل: عبد الرحمن بن عبد الله البلوى الأنصارى الأوسى:

كان أبو عقيل من أول من جُرح يوم اليمامة رمى بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده فجرح فى غير مقتل فأخرج السهم ووهن شقُّه الأيسر فأخذ إلى معسكر المسلمين فلما حمى القتال وتراجع المسلمون إلى رحالهم ومعسكرهم وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدى يصيح: يا للأنصار الله والكرة على عدوكم وتقدم معن القوم ونهض أبو عقيل يريد قومه فقال له بعض المسلمين: يا أبا عقيل ما فيك قتال، قال: قد نوّه المنادى باسمى فقيل له: إنما يقول يا للأنصار لا يعنى الجرحى فقال أبو عقيل: فأنا من الأنصار وأنا أُجيب ولو حبواً فتحزَّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى مجرداً ثم جعل ينادى: يا للأنصار كرَّة كيوم حُنين فاجتمعوا جميعًا وتقدموا بروح معنوية عالية يطلبون الشهادة أو النصر حتى أقحموا عدوَّهم الحديقة وفى هذا الهجوم قطعت يد أبى عقيل من المنكب ووجدت به أربعة عشر جُرحًا كلها قد خلصت إلى مقتل ومرَّ ابن عمر بأبى عقيل وهو صريع بآخر رمق فقال: يا أبا عقيل فقال: لبيك بلسان ثقيل ثم قال: لمن الدبرة فقال ابن عمر: أبشر قد قُتل عدو الله فرفع أبو عقيل إصبعه إلى السماء بحمد الله، قال عنه عمر رضى الله عنه: رحمه الله مازال ينال الشهادة ويطلبها وإنه لمن خيار أصحاب نبينا[١].

٤ - نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية:

خرجت فى جيوش خالد الذاهبة لليمامة وباشرت القتال بنفسها وأقسمت أن لا تضع السلاح حتى يقتل دجال بنى حنيفة وبرت بفضل الله بقسمها وقتل مسيلمة ورجعت إلى المدينة وبها اثنا عشر جرحًا ما بين طعنة برمح وضربة بسيف، وكلها أوسمة شرف لهذه الصحابية المجاهدة التى ضربت لبنات جنسها مثلاً رائعًا فى الدفاع عن الدين والعقيدة، ولو أدى ذلك لأن تتحمل ما لا يتحمله فى العادة مثيلاتها من ربات الخدور[٢]، وقد قام خالد بن الوليد بعد هذه المعركة برعايتها. فقد قالت نسيبة رضى الله عنها: فلما انقطعت الحرب ورجعت إلى منزلى جاءنى خالد بن الوليد بطبيب فداوانى بالزيت المغلى، وكان والله أشد على من القطع، وكان خالد كثير التعهد لى،

---

(١) حروب الردة، ص (٩٣، ٩٤) شوقى أبو خليل نقلاً عن الاكتفاء (١٣/٢).

(٢) حركة الردة، للعتوم ص ٣٠٩.

حسن الصحبة لنا، يعرف لنا حقنا ويحفظ فينا وصية نبينا ﷺ(١).

سادساً: من شهداء معركة اليمامة:

١ - ثابت بن قيس بن شماس الذى أجاز الصديق وصيته بعد موته:

هو أبو محمد خطيب الأنصار، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ بشره بالشهادة، وقتل يوم اليمامة شهيداً، وكانت راية الأنصار يومئذ بيده، وقد رأى رجل من المسلمين ثابت ابن قيس فى منامه فقال: إنى لما قتلت بالأمس مر بى رجل من المسلمين فانتزع منى درعًا نفيسة، ومنزله فى أقصى العسكر وعند خبائه فرس يستَنُّ فى طوله، وقد كفأ على الدرع بُرْمَة وفوق البرمة رحل، فأتِ خالداً فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله - يعنى أبا بكر - فقل له: إن علىَّ من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقى عتيق، وإياك أن تقول: هذا حلم فتضيعه، قال: فأتى خالداً فوجهه إلى الدرع فوجدها كما ذكر، وقدم على أبى بكر فأخبره، فأنفذ أبو بكر وصيته بعد موته، فلا يعلم أحد جازت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس بن شماس(٢).

٢ - زيد بن الخطاب رضى الله عنه:

هو أخو عمر بن الخطاب لأبيه وكان أكبر من عمر، أسلم قديمًا وشهد بدراً وما بعدها، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين معن بن عدى الأنصارى وقد قتلا جميعًا باليمامة، وقد كانت راية المهاجرين يومئذ بيده فلم يزل يتقدم بها حتى قتل فسقطت، فأخذها سالم مولى أبى حذيفة وقد قَتل زيد يومئذ الرَّجال بن عنفوة الذى كانت فتنته على بنى حنيفة أشد من فتنة مسيلمة فكان مصرعه على يد زيد رضى الله عنه، والذى قتل زيداً رجل يقال له أبو مريم الحنفى، وقد أسلم بعد ذلك وقال لعمر: يا أمير المؤمنين إن الله أكرم زيداً بيدى ولم يهنى على يده، وقد قال عمر لما بلغه مقتل زيد بن الخطاب: رحم الله أخى زيد سبقنى إلى الحسنيين أسلم قبلى واستشهد قبلى، وقال لمتمم بن نويرة حين جعل يرثى أخاه مالكًا بالأشعار: لو كنت أحسن الشعر لقلت كما قلت، فقال له متمم: لو أن أخى ذهب على ما ذهب عليه أخوك ما حزنت عليه فقال له: ما عزانى

---

(١) الأنصار فى العصر الراشدى، ص ١٩٠.

(٢) البداية والنهاية (٦/٣٣٩).

أحد بمثل ما عزيتنى به، ومع هذا كان عمر يقول: ما هبت الصبا إلا ذكرتنى زيداً رضى الله عنه[1].

٣ - معن بن عدى البلوى:

شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد، وكان قد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن الخطاب فقتلا جميعًا يوم اليمامة رضى الله عنهما، وكان لمعن بن عدى موقف متميز عند وفاة رسول الله ﷺ، فعندما بكى الناس على رسول الله ﷺ حين مات، وقالوا: والله وددنا أنا متنا قبله ونخشى أن نفتتن بعده، فقال معن بن عدى: لكنى والله ما أحب أن أموت قبله، لأصدقه ميتًا كما صدقته حيًا[2].

٤ - عبد الله بن سهيل بن عمرو:

أسلم قديمًا وهاجر ثم استضعف بمكة، فلما كان يوم بدر خرج معهم، فلما تواجهوا فرَّ إلى المسلمين فشهدها معهم، وقتل يوم اليمامة، فلما حج أبو بكر عزى أباه فيه فقال سهيل: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «**يشفع الشهيد لسبعين من أهله**»[3]. فأرجو أن يبدأ بى[4]، وقد كان لسهيل بن عمرو رضى الله عنه موقف عظيم بمكة حين توفى رسول الله ﷺ فقد همَّ أكثر أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم والى مكة عتاب بن أسيد، فتوارى، فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به فظهر عتاب بن أسيد. فهذا المقام الذى أراد رسول الله ﷺ فى قوله لعمر بن الخطاب - يعنى حين أشار بقلع ثنيته حين وقع فى الأسارى يوم بدر -: «**إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمَّنَّهُ**»[5].

٥ - أبو دُجانة سِماك بن خرشة:

كانت عليه يوم بدر عصابة حمراء، قيل: آخى النبى ﷺ بينه وبين عتبة بن غزوان وثبت أبو دجانة يوم أحد مع النبى ﷺ وبايعه على الموت، وهو ممن اشترك فى قتل

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٢٤٠).

(٢) نفس المصدر السابق (٦/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٣) سنن أبى داود فى الجهاد، باب الشهيد يشفع، ٢٥٢٢.

(٤) تاريخ الذهبى، الخلفاء الراشدون، ص ٦١.

(٥) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، خلافة أبى بكر، ص ٨٢.

مسيلمة وقتل يومئذ، وقال زيد بن أسلم: دُخل على أبى دجانة وهو مريض - وكان وجهه يتهلل - فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما لى من عملى شيء أوثق عندى من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنينى، والأخرى فكان قلبى للمسلمين سليمًا[١]، وكان أبو دجانة يوم اليمامة من أبطال المسلمين، فقد رمى بنفسه إلى داخل الحديقة فانكسرت رجله فقاتل وهو مكسور الرجل حتى قتل[٢].

٦ - عباد بن بسر:

من فضلاء الصحابة عاش خمسًا وأربعين سنة، وهو الذى أضاءت عصاه ليلة حين انقلب إلى منزله، وكان قد سُمر عند النبى ﷺ[٣]، أسلم عبَّاد على يد مصعب بن عمير وكان فيمن قتل كعب بن الأشرف[٤]، واستعمله النبى ﷺ على صدقات مزينة وبنى سليم وعلى حرسه بتبوك، وأبلى يوم اليمامة بلاءً حسنًا وكان من الشجعان، وعن عائشة قالت: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً كلهم من بنى عبد الأشهل: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعبَّاد بن بشر، وعن عائشة قالت: تهجَّد رسول الله ﷺ فى بيتى فسمع صوت عبَّاد يصلى فى المسجد فقال: «**يا عائشة هذا صوت عباد؟**» قلت: نعم، قال: «**اللهم ارحم عبَّادًا**»[٥]. وقد استشهد باليمامة، ويحدثنا أبو سعيد الخدرى عنه حيث قال: سمعته يقول حين فرغنا من بزاخة: يا أبا سعيد، رأيت الليلة كأن السماء فرجت لى ثم أطبقت علىَّ فهى إن شاء الله الشهادة. قلت: خيرًا والله رأيت[٦]، وقد كان له يوم اليمامة مواقف مشهودة، فقد وقف على نشز مرتفع من الأرض ثم صاح بأعلى صوته: أنا عباد بن بشر يا للأنصار يا للأنصار ألا إلىَّ ألا إلىَّ، فأقبلوا إليه جميعًا وأجابوه: لبيك لبيك.. ثم حطم جفن سيفه فألقاه وحطمت الأنصار جفون سيوفهم ثم قال جملة صادقة: اتبعونى، فخرج حتى ساقوا بنى حنيفة منهزمين حتى انتهوا بهم إلى الحديقة فأغلق عليهم[٧]، ولما تمكن المسلمون من

---

(١) عهد الخلفاء الراشدين للذهبى، ص ٧٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٧١.

(٣) البخارى، مناقب الأنصار رقم (٣٨٠٥).

(٤) البخارى فى المغازى رقم (٤٠٣٧).

(٥) البخارى معلقًا رقم (٢٦٥٥).

(٦) الطبقات لابن سعد (٢/٢٣٤).

(٧) غزوات ابن حبيش (١/١٢١).

اقتحام باب الحديقة، ألقى درعه على بابها، ثم دخل بالسيف صلتًا يجالدهم، حتى قتل شهيداً باليمامة وهو ابن خمس وأربعين سنة، ولم يعرف إلا بعلامة فى جسده لكثرة ما فيه من الجراح رضى الله عنه(١)، وقد اشتهرت مواقف عباد بن بشر فى اليمامة حتى أصبحت مضرب المثل(٢)، وبقيت بنو حنيفة تذكر عباد بن بشر، فإذا رأت الجراح بالرجل منهم تقول: هذا ضرب مجرب القوم عباد بن بشر(٣).

لقد كان للأنصار مواقف عظيمة و إقدام منقطع النظير فى حروب الردة وخصوصًا باليمامة، وقد شهد للأنصار بالإقدام والصبر فى ذلك اليوم مجَّاعة بن مرارة الحنفى عند الخليفة أبو بكر، فقال: يا خليفة رسول الله لم أر قومًا قط أصبر لوقع السيوف ولا أصدق كرة من الأنصار... فلقد رأيتنى وأنا أطوف مع خالد بن الوليد أعرفه قتلى بنى حنيفة وإنى لأنظر إلى الأنصار وهم صرعى، فبكى أبو بكر حتى بل لحيته(٤).

٧- الطفيل بن عمرو الدَّوسى الأزدىّ:

استشهد باليمامة وكان شريفًا شاعرًا لبيبًا، وقد رأى الرؤيا قبل استشهاده حيث قال: خرجت ومعى ابنى عمرو فرأيت كأن رأسى حُلِقَ وخرج من فمى طائر وكان امرأة أدخلتنى فرجها فأوَّلتها: حلق رأسى قطعه وأمَّا الطائر فروحى، وأما المرأة فالأرض أدفن فيها، فاستشهد يوم اليمامة(٥).

وقد استشهد كثير من المهاجرين والأنصار فى هذه المعركة الفاصلة.

وكانت المدينة على الرغم من فرحها بانتصار المسلمين على المرتدين ما زالت تبكى شهداءها، ففى حرب اليمامة وحدها قتل من المسلمين مائتان وألف، منهم عدد من كبار الصحابة وفيهم أكثر حفاظ القرآن: نحو أربعين من القراء، وعصرت الأحزان قلب المدينة، وغمرت الدموع ابتسامات الفرح بالنصر وضاقت الصدور وثقلت المحنة على

---

(١) الاكتفاء للكلاعى (٣/٥٣).
(٢) الأنصار فى العهد الراشدى، ص ١٨٦.
(٣) الاكتفاء للكلاعى (٣/٥٣)
(٤) نفس المصدر السابق (٣/٦٥).
(٥) عهد الخلفاء الراشدين للذهبى، ص(٦٢، ٦٣).

القلوب بقدر ما أضاء انتصار المسلمين غيابات النفوس وقوى من إيمانهم وغرس الثقة في أعماقهم(١).

سابعًا: خدعة مجاعة وزواج خالد من ابنته ورسائل بينه وبين الصديق:

أ - خدعة مجاعة:

بعد انتصار جيش المسلمين في حديقة الموت، بعث خالد رضي الله عنه الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبي، ثم عزم على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ الكبار، فخدعه مجاعة فقال: إنها ملأى رجالاً مقاتلة فهلم فصالحني عنها، فصالحه خالد لما رأى بالمسلمين من الجهد وقد كَلُّوا من كثرة الحروب والقتال، فقال: دعني حتى أذهب إليهم ليوافقوني على الصلح، فقال: اذهب، فسار إليهم مجاعة فأمر النساء أن يلبسن الحديد ويبرزن على رؤوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشُّرفات ممتلئة من رؤوس الناس فظنهم كما قال مجاعة، فانتظر الصلح ودعاهم خالد إلى الإسلام فأسلموا عن آخرهم ورجعوا إلى الحق وردَّ عليهم خالد بعض ما كان من السبي وساق الباقين إلى الصديق، وقد تسرى علي بن أبي طالب بجارية منهم وهي أم ابنه محمد الذي يقال له: محمد بن الحنفية(٢).

وكانت وقعة اليمامة في سنة إحدى عشرة وقال الواقدي وآخرون: كانت في سنة ثنتي عشرة، والجمع بينهما أن ابتداءها في سنة إحدى عشرة والفراغ منها في سنة ثنتي عشرة(٣).

ب - زواجه بابنة مجاعة والرسائل بينه وبين الصديق:

طلب خالد بن الوليد من مجاعة بعدما تم الصلح أن يزوجه بابنته فقال له مجاعة: مهلاً إنك قاطع ظهرك وظهري معك عند صاحبك. فقال خالد: أيها الرجل زوجني ابنتك، فزوجه مجاعة ابنته(٤).

وكان الصديق قد أرسل سلمة بن وقش إلى خالد إن أظفره الله أن يقتل من جرت

---

(١) الصديق أول الخلفاء، ص ١١٧.

(٢، ٣) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، خلافة أبي بكر، ص ١١٥.

(٤) الصديق أول الخلفاء، ص ١١٠.

عليه الموسى[١] من بنى حنيفة، فوجده قد صالحهم وأتم خالد عقده معهم ووفى لهم[٢].

وكان الصديق يستروح الخبر من اليمامة، وينتظر رسول خالد، فخرج يومًا بالعشى ومعه نفر من المهاجرين والأنصار إلى ظهر الحرَّة فلقى أبا خيثمة النجَّارى قد أرسله خالد فلما رآه أبو بكر قال له: ما وراءك يا أبا خيثمة؟ قال: خير يا خليفة رسول الله قد فتح الله علينا اليمامة وهذا كتاب خالد، فسجد الصديق شكرًا لله وقال: أخبرنى عن الوقعة كيف كانت؟ فجعل أبو خيثمة يخبره كيف صنع خالد وكيف صفَّ أصحابه ومن استشهد من الصحابة، وقال أبو خيثمة: يا خليفة رسول الله: أُتينا من قبل الأعراب انهزموا بنا وعوَّدونا ما لم نكن نُحْسِن[٣].

ولما علم الصديق بزواج خالد كتب إليه: يا ابن أم خالد إنك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجف بعد، ثم خدعك مجاعة عن رأيك فصالحك عن قومه وقد أمكن الله منهم[٤]، وإزاء هذا التعنيف الذى وصل إلى خالد من الخليفة بسبب مصالحته لمجَّاعة وزواجه بابنته بعث خالد إليه كتابًا جوابيًا مع أبى برزة الأسلمى يدافع فيه عن موقفه دفاعًا يتسم بوضوح الحجة وقوة المنطق[٥]، يقول فيه: أما بعد فلعمرى ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور وقرت بى الدار، وما تزوجت إلا إلى أمرى لو عملت إليه من المدينة خاطبًا لم أبل، دع أنى استثرت خطبتى إليه من تحت قدمى، فإن كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو لدنيا أعتبتك، وأما حسن عزائى عن قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حيًا أو يرد ميتًا لأبقى حزنى الحىَّ ورد الميت، ولقد اقتحمت حتى أيست من الحياة وأيقنت بالموت، وأما خدعة مجاعة إياى عن رأيى فإنى لم أخطىء رأيى يومى ولم يكن لى علم بالغيب وقد صنع الله للمسلمين خيرًا: أورثهم الأرض والعاقبة للمتقين[٦]. فلما قدم الكتاب على أبى بكر رضى الله عنه رقَّ بعض الرقة وقام رهط من قريش فيهم أبو برزة الأسلمى فعذروا خالدًا وقال أبو برزة:

---

(١) أى: بلغ الحلم.

(٢) الكامل (٢/ ٣٨).

(٣) حروب الردة، شوقى أبو خليل، ص ٩٧.

(٤) حروب الردة، ص٩٧ نقلاً عن الاكتفاء (٢/ ١٤).

(٥) حركة الردة للعتوم، ص٢٣٣.

(٦) حروب الردة، شوقى أبو خليل، ص ٩٨ نقلاً عن الاكتفاء (٢/ ١٥).

يا خليفة رسول الله ما يوصف خالد بجبن ولا خيانة، ولقد أقحم فى طلب الشهادة حتى أُعذر وصبر حتى ظفر، وما صالح القوم إلا على رضاه، وما أخطأ رأيه بصلح القوم إذ هو لا يرى النساء فى الحصون إلارجالاً. فقال لأبو بكر: صدقت لكلامك هذا أولى بعذر خالد من كتابه إلىَّ(١).

ونلحظ فى رسالة خالد إلى أبى بكر بعض النقاط التى دافع بها عن نفسه والتى تمثلت بما يلى:

١ – إنه لم يتزوج إلا بعد أن كسب النصر واطمأن به المقام.

٢ – إنه أصهر إلى رجل من زعماء قومه وأشرافهم.

٣ – إنه لم يتكلف أدنى مشقة فى هذا الإصهار.

٤ – إن هذا الزواج ليس فيه مخالفة دينية أو دنيوية.

٥ – إن الامتناع بسبب الحزن على قتلى المسلمين تصرف غير مجد، لأن الحزن لا يبقى حيا ولا يرد ميتا.

٦ – إنه لم يكن يقدم على الجهاد أى أمر آخر، ولقد أبلى فيه بلاء لم يعد – بسببه – بينه وبين الموت أى حاجز.

٧ – إنه فى مصالحته لمجَّاعة لم يأل جهداً فى تحقيق الخير للمسلمين، وإذا كان مجاعة لم ينقل له الصورة عن قومه على حقيقتها، فعذره إنه إنسان لا يدرى من أمر الغيب شيئًا، وعلى كل فالعاقبة كانت فى صالح المسلمين، إذ استولوا على أرض بنى حنيفة ومن ثم فاءت بقيتهم إلى الإسلام دون قتال، وعلى هذا فإن الزواج ببنت مجاعة كان أمرًا طبيعيًا لا على خالد فيه بأس، وليس صحيحًا أنه كان ناشئًا عن إعجابه بمجاعة لغيرته على قومه، ولذا: أحب أن يصهر إليه ويوثق الصلة بينه وبينه، وطاب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب(٢)، كما يقول العقاد ذلك لأن خالداً لم يكن ليقدم على رابطة الدين أو يجمع إليها فى التعامل مع الناس رابطة أخرى(٣).

وأما أسلوب الدكتور محمد حسين هيكل فى الاعتذار لخالد فإنه مرفوض لأنه

---

(١) حروب الردة، ص٩٨.

(٢) عبقرية خالد (العبقريات الإسلامية) ص ٩٢٢.

(٣) حركة الردة للعتوم، ص٢٣٥.

يتنافى مع أحكام الإسلام، فقد قال هيكل: ومن تكون بنت مجاعة فى أعياد النصر التى يجب أن تقام لخالد؟! إنها لن تزيد على قربان يطرح على قدمى هذا العبقرى الفاتح الذى روى أرض اليمامة بالدماء لعلها تطهر من رجسها[1].

فهذه الكلمات تصور خالداً - الصحابى الكريم - وكأنه أخيل أو هكتور أو أغاممنون من قادة حرب طروادة الوثنيين، الذين لا يحارب الواحد منهم إلا إذا أشير إليه بالبنان أو أمطر بالقبلات والتوسلات، لأنه لا يحارب إلا للزعامة والوجاهة، أو كأنه أحد أصنام العرب الذين تسفح على جنباتهم دماء القرابين تقرباً وتذللاً، أو كأنه إله النيل الذى كان يعتقد المصريون أنه لن يفيض عليهم بالخير إلا إذا قذفوا فى بحره أجمل بنات مصر، فحاشا أبا سليمان ثم حاشاه من قبل ومن بعد من مثل هذه الروح وتلك النفسية، فخالد مؤمن موحد لا يحارب إلا لإعلاء كلمة الله لا يبغى عليها جزاء ولا شكوراً من أحد من خلق الله، ومرفوض أيضاً ما ذهب إليه الجنرال أكرم فى تعليله لما وقع فيه خالد من ملامات من جراء قصص زواجه فى حروب الردة، إذ يعيدها إلى لياقته البدنية: التى سببت له كثيراً من المشاكل بين حسناوات شبه الجزيرة العربية[2]، على حد زعمه، وكأن خالداً تحول إلى زير نساء أو دون جوان غوان وهو الذى لم يكن يهوى شيئًا هواه الجهاد فى سبيل الله، ولكنها التوجيهات الباطلة التى تفسر الأمور بعيداً عن طبيعة الظروف ومعطيات المبادئ وشواهد الأخبار[3].

إن خالداً رضى الله عنه كان يقاتل عن دين، ويحتسب الأجر عند الله تعالى، وكان يقتحم المعامع بنفسه، وقد وصف بأنه له أناة القطة ووثوب الأسد[4]، وما كان يومًا بالذى يؤثر نفسه عن جنده بل كانوا يجدونه أمامهم فى كل معترك، ففى معركة بزاخة: ضرَّس فى القتال فجعل يقحم فرسه ويقولون له: الله الله! فإنك أمير القوم ولا ينبغى لك أن تقدم، فيقول: والله إنى لأعرف ما تقولون ولكن ما رأيتنى أصبر وأخاف هزيمة المسلمين[5].

---

(١) الصديق أبو بكر، ص ١٥٧.

(٢) سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة العميد الركن صبحى الجابى، ص٢٠.

(٣) حركة الردة للعتوم، ص٢٣٦.

(٤) تاريخ اليعقوبى (٢/١٠٨).

(٥) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص ٧٤٤

وفى معركة اليمامة لما اشتد القتال ولم يزد بنى حنيفة ما قتل منهم إلا عنفًا وضراوة، برز حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى المبارزة ونادى الناس بشعارهم يومئذ وكان: يا محمداه، فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله ولا شيء إلا أكله(١)، فقد كان يرغب فى النصر ويتحرى الشهادة، ولنترك لخالد يصف لنا جولة من المصارعة بينه وبين أحد جنود مسيلمة داخل حديقة الموت قال: ولقد رأيتنى فى الحديقة وعانقنى رجل منهم وأنا فارس وهو فارس فوقعنا عن فرسينا ثم تعانقنا بالأرض، فأجؤه بخنجر فى سيفى وجعل يجؤنى بمعول فى سيفه فجرحنى سبع جراحات، وقد جرحته جرحًا أثبته به فاسترخى فى يدى وما بى حركة من الجراح وقد نزفت من الدم إلا أنه سبقنى بالأجل فالحمد لله على ذلك(٢)، وقد شهد خالد لبنى حنيفة على قوتهم وشدة بأسهم فقال: شهدت عشرين زحفًا فلم أر قومًا أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقدامًا من بنى حنيفة يوم اليمامة.. وما بى حركة من الجراح، ولقد أقحمت حتى أيست من الحياة وتيقنت الموت(٣).

ثامنًا: محاولة قتل خالد بن الوليد وقدوم وفد بنى حنيفة للصديق رضى الله عنه:

١ - محاولة قتل خالد بن الوليد:

على الرغم من وضوح باطل الجاهلية وزيفه فإنها لا تتخلى عنه بسهولة لأن به ديمومة حياتها، ولذا ما إن تواجه بالحقيقة حتى تأخذ فى الدفاع عن نفسها بشراسة ولا تلقى سيف القتال من يدها إلا بعد أن يسقط بالقوة(٤)، وبعد ذلك تحاول الغدر ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً فهذا سلمة بن عمير الحنفى يدلل بفعله على صحة ما ذهبت إليه، فقد حاول اغتيال خالد بن الوليد بعد الصلح الذى أجراه خالد مع بنى حنيفة بشكل عام، إلا أنه من حقده الناقع للمسلمين فقد دبر خطة اغتيال خالد بن الوليد كجزء من سياسته فى رفض التصالح معهم، ولما قبض عليه أول مرة وعاهد بنى حنيفة ألا يعود لمثلها نكث بعده، إذ أفلت ليلاً من وثاقه الذى أوثقوه به مخافة غدره، فعمد إلى عسكر خالد فصاح به الحرس وفزعت بنو حنيفة فاتبعوه فأدركوه فى بعض الحوائط

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٢٩).

(٢، ٣) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص١٨٠.

(٤) حركة الردة للعتوم، ص٢٩٢.

(الحدائق)، فشد عليهم بالسيف فاكتنفوه بالحجارة، وأجال السيف على حلقه فقطع أوداجه، (عروق رقبته)، فسقط فى بئر فمات[1]، فهذا مثال على عناد الجاهلية فى الدفاع عن باطلها[2].

٢ - قدوم وفد بنى حنيفة على الصديق:

ولما قدمت وفود بنى حنيفة على الصديق قال لهم: أسمعونا شيئًا من قرآن مسيلمة فقالوا: أو تعفينا يا خليفة رسول الله؟ فقال: لابد من ذلك فقالوا: كان يقول: يا ضفدع بنت الضفدعين نقى لكم تنقين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين رأسك فى الماء وذنبك فى الطين، وكان يقول: والمبذرات زرعًا والحاصدات حصداً والذاريات قمحًا والطاحنات طحنًا والخابزات خبزًا والثاردات ثرداً واللاقمات لقمًا إهالة وسمنًا، يقول: لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه والمعتر فآووه والناعى فواسوه[3]، وذكروا أشياء من هذه الخرافات التى يأنف من قولها الصبيان وهم يلعبون، فيقال: إن الصديق قال لهم: ويحكم أين كان يذهب بعقولكم؟ إن هذا الكلام لم يخرج من إل[4] ولا بر.

وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبى ﷺ، وبلغه أن رسول الله ﷺ بصق فى بئر فغزر ماؤه، فبصق فى بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفى أخرى فصار ماؤه أجاجًا وتوضأ فسقى بوضوئه نخلاً فيبست وهلكت، وأتى بولدان يبرك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم فمنهم من قرع رأسه ومنه من لثغ لسانه، ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع فى عينيه فمسحهما فعمى[5].

تاسعًا: جمع القرآن الكريم:

كان من ضمن شهداء المسلمين فى حرب اليمامة كثير من حفظة القرآن، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضى الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بجمع

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ١١٧، ١١٨).

(٢) حركة الردة للعتوم، ص (٢٩٢ - ٢٩٥)

(٣) عند الطبرى: والباغى فناوئوه تاريخ الطبرى، (٤/ ١٠٢ - ١٠٤).

(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ١١٨)؛ إل من إله (البداية والنهاية ٦/ ٣٣١).

(٥) البداية والنهاية (٦/ ٣٣١).

القرآن حيث جمع من الرقاع والعظام والسعف ومن صدور الرجال[١]، وأسند الصديق هذا العمل العظيم إلى الصحابى الجليل زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه، يروى زيد بن ثابت رضى الله عنه فيقول: بعث إلىَّ أبو بكر رضى الله عنه لمقتل أهل اليمامة[٢]، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر[٣] يوم اليمامة بقراء القرآن وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن[٤] كلها فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ[٥]؟!! فقال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر عمر، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: وإنك رجل شاب عاقل لا نتهمك[٦]، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه[٧] قال زيد: فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علىَّ مما كلفنى به من جمع القرآن، فتتبعت القرآن من العسب[٨]، واللخاف[٩]، وصدر الرجال والرقاع[١٠]، والأكتاف[١١] قال: حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، وكانت الصحف عند أبى بكر حياته حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهم[١٢].

---

(١) حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، أحمد سعيد ص ١٤٥.

(٢) يعنى: واقعة يوم اليمامة ضد مسيلمة الكذاب وأعوانه.

(٣) استحر: كثر واشتد.

(٤) أى: فى الأماكن التى يقع فيها القتال مع الكفار.

(٥) يحتمل ان يكون ﷺ إنما لم يجمع القرآن فى المصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين بذلك. (سيرة وحياة الصديق، ص١٢٠).

(٦) هذه الصفات جعلت زيداً يتقدم على غيره فى هذا العمل.

(٧) أى: من الأشياء التى عندى وعند غيرك.

(٨) العسب: هو جريد النخل.

(٩) اللخاف: جمع لخفة: وهى صفائح الحجارة.

(١٠) الرقاع: جمع رقعة وهى قطع الجلود.

(١١) الأكتاف: جمع كتف، وهو العظم الذى للبعير أو الشاة

(١٢) البخارى رقم (٤٩٨٦).

وعلق البغوى على هذا الحديث فقال: فيه البيان الواضح فالصحابة - رضى الله عنهم - جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ من غير أن يزادوا فيه أو ينقصوا منه شيئًا، والذى حملهم على جمعه ما جاء فى الحديث، وهو أنه كان مفرقًا فى العسب واللخاف وصدور الرجال فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته، ففزعوا فيه إلى خليفة رسول الله ودعوه إلى جمعه، فرأى فى ذلك رأيهم فأمر بجمعه فى موضع واحد باتفاق من جميعهم، فكتبوه كما سمعوه من رسول الله من غير أن قدموا شيئًا أو أخروا، أو وضعوا له ترتيبًا لم يأخذوه من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يلقى أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا بتوقيف جبريل صلوات الله عليه إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقيب آية كذا فى السور التى يذكر فيها كذا[١]، وهكذا يتضح للقارئ الكريم أن من أوليات أبى بكر الصديق رضى الله عنه: أنه أول مَن جمع القرآن الكريم، يقول صعصعة بن صوحان رحمه الله: أول من جمع بين اللوحين وورث الكلالة[٢]، أبو بكر[٣].

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: يرحم الله أبا بكر هو أول من جمع بين اللوحين[٤].

وقد اختار أبو بكر رضى الله عنه زيد بن ثابت لهذه المهمة العظيمة، وذلك لأنه رأى فيه المقومات الأساسية للقيام بها وهى:

١ - كونه شابًا حيث كان عمره ٢١ سنة فيكون أنشط لما يطلب منه.

٢ - كونه أكثر تأهيلاً، فيكون أوعى له، إذ من وهبه الله عقلاً راجحًا فقد يسر له سبيل الخير.

٣ - كونه ثقة فليس هو موضعًا للتهمة، فيكون عمله مقبولاً وتركن إليه النفس ويطمئن إليه القلب.

---

(١) شرح السنة (٥٢٢/٤) للبغوى.

(٢) الكلالة فى رأى أبو بكر الصديق: من لا ولد له ولا والد، فقال رضى الله عنه: رأيت فى الكلالة رأيًا فإن يك صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمن قبَلى والشيطان، الكلالة ما عدا الولد والوالد، أى: هم الأخوة انظر: موسوعة فقه أبى بكرالصديق، ص٣٦.

(٣، ٤) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبى شيبة (١٩٦/٧).

٤ - كونه كاتبًا للوحى فهو بذلك ذو خبرة سابقة فى هذا الأمر وممارسة عملية له، فليس غريبًا عن هذا العمل ولا دخيلاً عليه(١).

هذه الصفات الجليلة جعلت الصديق يُرَشح زيداً لجمع القرآن، فكان به جديراً وبالقيام به خبيراً.

٥ - ويضاف لذلك أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبى ﷺ، فعن قتادة قال: سألت أنس بن مالك رضى الله عنه: من جمع القرآن على عهد النبى ﷺ؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد(٢)، وأما الطريقة التى اتبعها زيد فى جمع القرآن فكان لا يثبت شيئًا من القرآن إلا إذا كان مكتوبًا بين يدى النبى ﷺ ومحفوظًا من الصحابة، فكان لايكتفى بالحفظ دون الكتابة خشية أن يكون فى الحفظ خطأ أو وهم، وأيضًا لم يقبل من أحد شيئًا جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ، وأنه من الوجوه التى نزل بها القرآن(٣)، وعلى هذا المنهج استمر زيد رضى الله عنه فى جمع القرآن حذراً متثبتًا مبالغاً فى الدقة والتحرى.

كما كان زيد فى طليعة من وَحَّدَ المصاحف فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه(٤)، وسيأتى تفصيل ذلك بإذن الله فى موضعه.

* * *

---

(١) التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد العجمى، ص ٧٣.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣١).

(٣، ٤) التفوق والنجابة على نهج الصحابة، ص٧٤.

المبحث الخامس

أهم الدروس والعبر والفوائد من حروب الردة

أولاً: تحقيق شروط التمكين وأسبابه وآثار شرع الله وصفات المجاهدين:

١- تحقيق شروط التمكين:

إن الاستخلاف فى الأرض والتمكين لدين الله وإبدال الخوف أمنًا، وعد من الله تعالى متى حقق المسلمون شروطه، ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح إلى شروط التمكين ولوازم الاستمرار فيه قال تعالى: ﴿ وعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ومَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[النور: ٥٥، ٥٦]. ولقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهى: الإيمان بكل معانيه وبجميع أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه، والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة، ومحاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه.

وأما لوازم التمكين فهى: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ(١)، وقد تحققت هذه الشروط واللوازم كلها فى عهد الصديق والخلفاء الراشدين من بعده، وكان للصديق الفضل بعد الله فى تذكير الأمة بهذه الشروط، ولذلك رفض طلب الأعراب فى وضع الزكاة عنهم، وأصرَّ على بعث جيش أسامة، والتزم بالشرع كاملاً، ولم يتنازل عن صغيرة ولا كبيرة. قال عبد الله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كدنا نهلك فيه لولا أن منَّ علينا بأبى بكر، أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم، فوالله ما رضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المُجلية(٢).

---

(١) فقه التمكين فى القرآن الكريم للصّلاّبى، ص ١٥٧.

(٢) الكامل فى التاريخ (٢ / ٢١).

٢- الأخذ بأسباب التمكين:

قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقد لاحظت أن الصديق رضى الله عنه كان إعداده شاملاً معنويا وماديا، فجيَّش الجيوش وعقد الألوية واختار القادة لحروب الردة وراسل المرتدين، وحرض الصحابة على قتالهم وجمع السلاح والخيل والإبل وجهز الغزاة، وحارب البدع والجهل والهوى، وحكَّم الشريعة وأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع، وأخذ بمبدأ التفرغ، وساهم فى إحياء مبدأ التخصص، فخالد لقيادة الجيوش وزيد بن ثابت لجمع القرآن وأبو برزة الأسلمى للمراسلات الحربية وهكذا، واهتم بالجانب الأمنى والإعلام وغير ذلك من الأسباب.

٣ - آثار تحكيم الشرع:

تظهر آثار تحكيم شرع الله فى عصر الصديق فى تمكين الله للصحابة، فقد حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله فى تحاكمهم إلى شرعه، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم ونصرهم على المرتدين، ورزقهم الأمن والاستقرار قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]. وتحققت فيهم سنة الله فى نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وما حدث قط فى تاريخ البشرية أن استقامت مجموعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة فى نهاية المطاف....)[١].

وقد انتشرت الفضائل وانحسرت الرذائل فى عهد الصديق رضى الله عنه.

٤ - صفات جيل التمكين:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

(١) فى ظلال القرآن (٤ / ٢٧٠).

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] هذه الصفات المذكورة فى هذه الآية الكريمة أول من تنطبق عليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وجيوشه من الصحابة الذين قاتلوا المرتدين، فقد مدحهم الله بأكمل الصفات وأعلى المبرات(١)، فهذه الصفات:

أ - ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾:

مذهب السلف فى المحبة المسندة له سبحانه وتعالى أنها ثابتة له تعالى بلا كيف ولا تأويل، ولا مشاركة للمخلوق فى شىء من خصائصها(٢). لقد أحب المولى عز وجل ذلك الجيل لما بذلوه من أجل دينهم، وبما تطوعوا به بما لم يفرض عليهم فرضًا تقربًا إلى الله وحبًا لرسوله واتخاذهم المندوبات والمستحبات كأنها فروض واجبة التنفيذ(٣)، ولقد اتصف هذا الجيل بصفات الإحسان والتقوى والصبر التى ذكر المولى عز وجل بأنه يحبها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦] ولقد أحب الصحابة المولى عز وجل حبًا عظيمًا فقدموا محابه على كل شىء، وبغضوا ما أبغضه، ووالوا ماوالاه وعادوا من عاداه، واتبعوا رسوله واقتفوا أثره، لقد أحب الصحابة ربهم وخالقهم ورازقهم لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وأى إحسان كإحسان من خلق فقدر، وشرع فيسر، وجعل الإنسان فى أحسن تقويم، ووعد من أطاعه بجنة الخلد التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لهذا كله ولأكثر منه أحب ذلك الجيل ربهم حبًا لا مثيل له، فقدموا أنفسهم وأهليهم وأموالهم فى سبيل الله بلا تردد أو منة، بل اعتبروا ذلك تفضلاً من الله عليهم، أن فتح لهم باب الجهاد والاستشهاد فى سبيله ويسر لهم أسبابه فقاموا بذلك الواجب خير قيام(٤).

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام (٢/ ٥٣٤).

(٢) تفسير القاسمى (٦/ ٢٥٣).

(٣) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، لمحمد قطب، ص ٩٠.

(٤) الإيمان وأثره فى الحياة للقرضاوى، ص (٥ - ١٢).

ب – قوله تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾:

فهذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه متعززاً على خصمه وعدوه[١]، ولذلك قام الصديق وجنوده الكرام بمناصرة المسلمين وخرج بنفسه يقاتل المرتدين، وسير أحد عشر لواء لرفع الظلم عن المؤمنين وكسر شوكة المرتدين، ولم يقبل من المرتدين الذين عذبوا المستضعفين من مواطنيهم المسلمين إلا أن يأخذ بحقهم منهم فيفعل بهم كما فعلوا بهم، وكذلك فعل قادة جيوشه، وكان رضى الله عنه حريصًا على مراعاة أحوال الرعية فى المجتمع، فقد مر بنا كيف كان يعامل الجوارى والعجائز وكبار السن رضى الله عنه، لقد سادت هذه الصفات فى عصر الصديق وتجسدت فى حياة الناس.

ج – ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾:

وقد ظهرت صفة المجاهدة لأعداء الله فى عصر الصديق فى حربهم للمرتدين وكسرهم لشوكتهم، ومن بعد فى الفتوحات الإسلامية التى سيأتى تفصيلها بإذن الله تعالى، لقد جاهد الصحابة أعداءهم من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا، وتحقيق عبادة الله وحده، وإقامة حكم الله، ونظام الإسلام فى الأرض، ودفع عدوان المرتدين، ومنع الظلم بين الناس، وبالجهاد في سبيل الله تحقق إعزاز المسلمين وإذلال المرتدين، ورجع الناس إلى دين الله، واستطاعت القيادة الإسلامية بزعامة الصديق رضى الله عنه أن تجعل من الجزيرة العربية قاعدة للانطلاق لفتح العالم أجمع، وأصبحت الجزيرة هى النبع الصافى الذى يتدفق منه الإسلام ليصل إلى أصقاع الأرض، بواسطة رجال عركتهم الحياة وأصبحوا من أهل الخبرات المتعددة فى مجالات التربية والتعليم والجهاد وإقامة شرع الله الشامل لإسعاد بنى الإنسان حيثما كان[٢].

لقد كان الجهاد الذى خاضه الصحابة فى حروب الردة إعداداً ربانيًا للفتوحات الإسلامية، حيث تميزت الرايات، وظهرت القدرات، وتفجرت الطاقات، واكتشفت قيادات ميدانية، وتقنن القادة فى الأساليب والخطط الحربية، وبرزت مؤهلات الجندية الصادقة المطيعة المنضبطة الواعية التى تقاتل وهى تعلم على ماذا تقاتل، وتقدم كل

---

(١) تفسير القاسمى (٦/٢٥٥).

(٢) فقه التمكين فى القرآن الكريم، ص ٤٩١.

شىء وهى تعلم من أجل ماذا تضحى وتبذل، ولذا كان الأداء فائقًا والتفانى عظيمًا[١].

لقد توحدت شبه الجزيرة العربية بفضل الله ثم جهاد الصحابة مع الصديق، تحت راية الإسلام لأول مرة فى تاريخها بزوال الرؤوس أو انتظامها ضمن المد الإسلامى، وبسطت عاصمة الإسلام – المدينة – هيمنتها على ربوع الجزيرة، وأصبحت الأمة تسير بمبدأ واحد، بفكرة واحدة، فكان الانتصار انتصاراً للدعوة الإسلامية ولوحدة الأمة بتضامنها وتغلبها على عوامل التفكك والعصبية، كما كانت برهانًا على أن الدولة الإسلامية بقيادة الصديق قادرة على التغلب على أعنف الأزمات[٢].

وهكذا كان الصحابة يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لوم أحد واعتراضه ونقده، لصلابتهم فى دينهم ولأنهم يعملون لإحقاق الحق وإبطال الباطل[٣].

د – ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾:

الإشارة إلى ما ذكر من حب الله إياهم وحبهم لله وذلتهم للمؤمنين وعزتهم على الكافرين، وجهادهم فى سبيل الله وعدم مبالاتهم للوم اللوَّام، فالمذكور كله فضل الله الذى فضل به أولياءه، يؤتيه من يشاء أى: ممن يريد به مزيد إكرام من سعة جوده والله واسع، كثير الفواضل جل جلاله[٤]، عليم بمن هو أهلها فهو تعالى واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرم منه[٥].

ثانيا: وصف المجتمع فى عصر الصديق:

حين ندرس المجتمع المسلم فى صدر الخلافة الراشدة تتضح لنا مجموعة من السمات منها:

١ – أنه – فى عمومه – مجتمع مسلم بكامل معنى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق لتعاليم الإسلام بجدية واضحة، والتزام ظاهر، وبأقل قدر من المعاصى وقع فى أى مجتمع فى التاريخ، فالدين بالنسبة له هو الحياة وليس شيئًا هامشيًا يفىء

---

(١) تاريخ صدر الإسلام للشجاع، ص(١٤٢، ١٤٣).

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية، د. جميل المصرى، ص٢٥٦.

(٣) تفسير المنير (٦/٢٣٣).

(٤) تفسير القاسمى (٦/٢٥٨).

(٥) تفسير المنير (٦/٢٣٣).

إليه بين الحين والحين، إنما هو حياة الناس وروحهم ليس فقط فيما يؤدونه من شعائر تعبدية يحرصون على أدائها على وجهها الصحيح، وإنما من أخلاقياتهم وتصوراتهم واهتماماتهم وقيمهم وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة وعلاقات الجوار والبيع والشراء والضرب فى مناكب الأرض والسعى وراء الأرزاق، وأمانة التعامل وكفالة القادرين لغير القادرين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والرقابة على أعمال الحكام والولاة، ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقق فى الحياة الدنيا ولا فى أى مجتمع من البشر. وقد كان فى مجتمع الرسول ﷺ – كما ورد فى كتاب الله – منافقون يتظاهرون بالإسلام، وهم فى دخيلة أنفسهم من الأعداء، وكان فيه ضعاف الإيمان والمعوقون والمتثاقلون والمبطئون والخائنون، ولكن هؤلاء جميعًا لم يكن لهم وزن فى ذلك المجتمع ولا قدرة على تحويل مجراه، لأن التيار الدافق هو تيار أولئك المؤمنين الصادقى الإيمان المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم الملتزمين بتعاليم هذا الدين[1].

٢ – أنه المجتمع الذي تحقق فيه أعلى مستويات المعنى الحقيقى (للأمة)، فليست الأمة مجرد مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة المصالح، فتلك هى الروابط التي تربط البشر فى الجاهلية، فإن تكونت منهم أمة فهى أمة جاهلية، أما الأمة بمعناها الربانى – فهى الأمة التى تربط بينها رابطة العقيدة بصرف النظر عن اللغة والجنس واللون ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقق فى التاريخ وحده كما تحققت فى الأمة الإسلامية، فالأمة الإسلامية هى التى حققت معنى الأمة أطول فترة من الزمن عرفتها الأرض، أمة لا تقوم على عصبية الأرض ولا الجنس ولا اللون ولا المصالح الأرضية، إنما هو رباط العقيدة يربط بين العربى والحبشى والرومى والفارسى، يربط بين البلاد المفتوحة والأمة الفاتحة على أساس الأخوة الكاملة فى الدين، ولئن كان معنى الأمة قد حققته هذه الأمة أطول فترة عرفتها الأرض، فقد كانت فترة صدر الإسلام أزهى فترة تحققت فيها معانى الإسلام كلها بما فيها معنى الأمة على نحو غير مسبوق[2].

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص١٠٠.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٠١.

٣ - أنه مجتمع أخلاقى يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين وتوجيهاته، وهى قاعدة لا تشمل علاقات الجنسين وحدها، وإن كانت هذه من أبرز سمات هذا المجتمع فهو خالٍ من التبرج ومن فوضى الاختلاط، وخال من كل ما يخدش الحياء من فعل أو قول أو إشارة، وخال من الفاحشة إلا القليل الذى لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثير من علاقات الجنسين، فهى تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات الإسلام، والعلاقات الاقتصادية من بيع وشراء وتبادل واستغلال للمال قائمة على أخلاقيات الإسلام، وعلاقات الناس فى المجتمع قائمة على الصدق والأمانة والإخلاص والتعاون والحب، لا غمز ولا لمز ولا نميمة ولا قذف للأعراض(١).

٤ - أنه مجتمع جاد مشغول بمعالى الأمور لا بسفاسفها وليس الجد بالضرورة عبوساً وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمة فى الناس وتحث على النشاط والعمل والحركة، كما أن اهتمامات الناس هى اهتمامات أعلى وأبعد من واقع الحس القريب، وليست فيه سمات المجتمع الفارغة المترهلة، التى تتسكع فى البيوت وفى الطرقات تبحث عن وسيلة لقتل الوقت من شدة الفراغ(٢).

٥ - أنه مجتمع مجند للعمل فى كل اتجاه تلمس فيه روح الجندية واضحة، لا فى القتال فى سبيل الله فحسب، وإن كان القتال فى سبيل الله قد شغل حيزاً كبيراً من حياة هذا المجتمع، ولكن فى جميع الاتجاهات، فالكل متأهب للعمل فى اللحظة التى يطلب منه فيها العمل، ومن ثم لم يكن فى حاجة إلى تعبئة عسكرية ولا مدنية، فهو معبأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة وبتأثير شحنتها الدافعة لبذل النشاط فى كل اتجاه(٣).

٦ - أنه مجتمع متعبد تلمس روح العبادة واضحة فى تصرفاته، ليس فقط فى أداء الفرائض والتطوع بالنوافل ابتغاء مرضاة الله، ولكن فى أداء الأعمال جميعاً، فالعمل فى حسه عبادة يؤديه بروح العبادة، الحاكم يسوس رعيته بروح العبادة، والمعلم الذى يعلم القرآن ويفقه الناس فى الدين يعلم بروح العبادة، والتاجر الذى يراعى الله فى بيعه وشرائه يفعل ذلك بروح العبادة، والزوج يرعى بيته بروح العبادة، والزوجة ترعى بيتها

(١، ٢، ٣) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص١٠٢.

بروح العبادة، تحقيقًا لتوجيه رسول الله ﷺ : «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته»[1].

هذه من أهم سمات عصر الصديق الذى هو بداية الخلافة الراشدة، وهذه السمات جعلته مجتمعًا مسلمًا فى أعلى آفاقه، وهى التى جعلت هذه الفترة هى الفترة المثالية فى تاريخ الإسلام، كما أنها هى التى ساعدت فى نشر هذا الدين بالسرعة العجيبة التى انتشر بها، فحركة الفتح ذاتها من أسرع حركات الفتح فى التاريخ كله، بحيث شملت فى أقل من خمسين عامًا أرضًا تمتد من المحيط غربًا إلى الهند شرقًا، وهى ظاهرة فى ذاتها تستحق التسجيل والإبراز، وكذلك دخول الناس فى الإسلام فى البلاد المفتوحة بلا قهر ولا ضغط، وقد كانت تلك السمات التى اشتمل عليها المجتمع المسلم هى الرصيد الحقيقى لهذه الظاهرة، فقد أحب الناس الإسلام لما رأوه مطبقًا على هذه الصورة العجيبة الوضاءة، فأحبوا أن يكونوا من بين معتنقيه[2].

ثالثًا : سياسة الصديق فى محاربة التدخل الأجنبى :

أدت حركة الدولة الإسلامية الضاربة فى الجزيرة العربية إلى لجوء كثير من القبائل المجاورة لكل من الروم والفرس وأبوا التسليم للدولة الإسلامية، وما إنْ سمعوا بوفاة رسول الله ﷺ ، حتى سعوا للتقرب من الدولتين، واستغل الفرس والروم هذه القبائل بالحض والتشجيع والدعم لتقف ضد الدولة الإسلامية[3]،فكانت سياسة الصديق للتصدى لهذا الدعم الخارجى بأن أرسل حملة أسامة بن زيد إلى الشام بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فكانت تلك الحملة بمثابة الضمان لعدم استرسال تلك القبائل على مهاجمة الدولة الإسلامية، وأرسل أبو بكر أيضًا خالد بن سعيد بن العاص على رأس جيش إلى الحمقتين من مشارف الشام،وعمرو بن العاص إلى تبوك ودومة الجندل،وأرسل العلاء بن الحضرمى إلى البحرين(أى :ساحل الخليج العربى كله)،ثم تابع المثنى بن حارثة الشيبانى إلى جنوب العراق بعد القضاء على ردة البحرين، واضطرت سجاح التميمية وقد كانت من نصارى العرب فى العراق التى كانت تحت سيطرة الفرس أن ترتد عائدة

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى، ص١٠٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص١٠٣.

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص٣١١.

إلى العراق لما رأت قوة المسلمين، لقد كان المسلمون بقيادة أبى بكر على مستوى اليقظة والمسئولية، فحفظوا الحدود الشمالية بدقة، فمن الشرق إلى الغرب على طول الحدود الشمالية المتاخمة للفرس والروم نجد العلاء بن الحضرمى، وخالد بن الوليد شمال نجد، ثم عمرو بن العاص فى دومة الجندل، وخالد بن سعيد على مشارف الشام، ناهيك عن جيش أسامة(١).

كان الفرس يتربصون بالإسلام الدوائر، ولكنهم كمنوا كمون الأفعى وخاصة أنهم كانوا يرون المد الإسلامى يكتسح من أمامه كل أقزام التاريخ، ويزيح من وجهه جميع قوى الشر والطغيان، وعندما حانت الفرصة بارتداد بعض القبائل عن الإسلام، وتوجهت قبيلة بكر بن وائل إلى كسرى بعد وفاة الرسول ﷺ تعرض عليه إمارة البحرين فلاقى العرض قبولا لديه، وأرسل معهم المنذر بن النعمان على رأس قوة مؤلفة من سبعة آلاف فارس وراجل وعدد من الخيل تقارب فى أعدادها المائة لمساعدتهم فى مواجهة المسلمين، وهم شرذمة لا يخشى خطرهم كما يقول الكلاعى(٢)، وكان مسيلمة الكذاب تتطلع إليه الأعين من بلاط فارس(٣)، وقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل: من أن سجاح لم تنحدر من شمالى العراق إلى شبه الجزيرة يتبعها رهطها إلا مدفوعة بتحريض الفرس وعمالهم فى العراق، كى يزيدوا الثورة فى بلاد العرب اشتعالاً(٤).

هذا عن دور الفرس أما دور الروم فقد كان أظهر وأخطر، ذلك لأن موقف الروم من الإسلام ودولته كان أصلب وأعتى، فهم أمة ذات فكر وعقيدة وذات نظم وقوانين متقدمة، ولهم من العَدد والعُدد مدد لا يكاد ينقطع، ومن الحلفاء والأتباع دول ودول، ولذا كانت العلاقات بينهما فى أعلى درجات سخونتها وتوترها منذ فترات مبكرة(٥)، وقد لجأ الروم ومنذ وقت مبكر بعد وصول كتب رسول الله ﷺ إلى محاولة الصدام مع المسلمين، فكان من جرَّاء ذلك غزوتا: مؤتة وتبوك اللتان أثبتتا لهم ماديًا أن الدولة الإسلامية ليس من السهل ابتلاعها أو شراء أصحابها، كما أثبتتا للمسلمين من جهة

---

(١) حروب الردة، ص(١٧٤، ١٧٥).

(٢) الاكتفاء فى تاريخ المصطفى والثلاثة الخلفاء (٣/٣١٨، ٣١٩).

(٣) الإسلام والحركات المضادة، ص١٤٦ للدكتور الخربوطلى.

(٤) الردة، غيداء خزنة كاتبى، ص٤٩ مخطوطة نقلاً عن حركة الردة، ص١٤٦.

(٥) حركة الردة للعتوم، ص ١٤٦.

أخرى إخلاص متنصرة العرب من قبائل الشام لأبناء دينهم من الروم، وعلى الرغم من الاتفاقيات التى عقدها رسول الله ﷺ بنفسه إثر غزوة تبوك مع أمراء الشام من أتباع الروم، فإن الروم كانوا لا يكفُّون عن مناوشة الدولة الإسلامية ومحاولة قص أجنحتها، وبالتالى القضاء عليها، وكان الصديق رضى الله عنه متنبهًا لهذا الأمر جيداً، وقد تمثل ذلك فى إصراره الشديد على إنفاذ جيش أسامة لوجهته، وقد رأى قبائل العرب فى شمالى الجزيرة من لخم وغسان وجذام وبلى وقضاعة وعذرة وكلب تعود للانقضاض على عهود رسول الله ﷺ التى أبرمها معها، ومن غير الدولة الرومية يمدهم بوقود المعركة من سلاح ورجال ومال ومخططات؟ وكأنه كان يريد أن يقول للروم بلسان الحال: إنه على الرغم من انتقاض العرب داخل بلادى فإن ذلك لن يفت فى عضدنا نحن المسلمين، ونحن قادرون أن نصد عن دولتنا أكبر هجمة عالمية ولو كانت من جانبكم(١).

إن انتقاض الجزيرة العربية جدد الأمل عند الفرس والروم بأن العرب سيقضون على الإسلام، وقدمت الفرس والروم للعرب الثائرين على الحكم الإسلامى كثيًرا من المساعدات، وآوت الفارين منهم، ولذلك لم يكد المسلمون يعيدون الجزيرة العربية إلى وحدتها حتى كان الأوان قد آن للزحف نحو الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين اللذين يتربصان بالإسلام(٢).

لقد تحرك الصديق من قاعدته الأمينة (المدينة المنورة)، وبعث منها الجيوش وزودها بكل ما من شأنه أن يجعلها ذات هيبة فى عيون أعدائها وفى قلوبهم، وقد استطاع الصديق أن يفيض من قاعدته الخير على بقية أرجاء الجزيرة العربية، وما كان له أن ينطلق لفتح بلاد الشام والعراق لولا أنه أمَّن قاعدته الكبرى الجزيرة العربية، موالية للإسلام، موحدة على أساسه، وقد تمثل أمن هذه القاعدة فى ثلاثة مستويات هى:

أولاً: عزم الخليفة على مواصلة الجهاد وإيمانه الوطيد بصلاحية فكره وتميزه واستعلائه به، وثانيًا: نظافة مجتمعه الأصغر مجتمع المدينة من مهاجرين وأنصار، وثالثًا: تطهير مجتمعه الأكبر وهو المجتمع العربى من أدران الشرك وعقابيل الردة، وقد انبنت هذه المستويات بعضها على بعض حتى سما البناء شامخًا قويًا واستطاع أن يرمى به ثغور

---

(١) حركة الردة للعتوم، ص ١٥٠.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى، د. أحمد شلبى (١/ ٣٨٨).

العراق والشام رميًا زعزع كيانات الروم والفرس زعزعة شديدة فى أمد قصير، وما ذلك إلا لأن الجيوش المنطلقة من الجزيرة كانت موحدة الصفوف موحدة الفكر موحدة الراية محمية الظهر مؤمنة مراكز التموين(١).

رابعًا: من نتائج أحداث الردة:

خلفت حروب الردة آثاراً ونتائج لم تكن محدودة الزمان والمكان، وإنما شملت أجيالاً وآماداً وتصورات وأفكاراً وسلوكيات وأحكامًا ما زالت تغذى الأجيال من بعدها وتمدها بالكثير. ومن أهم تلك النتائج:

١ - تميز الإسلام عما عداه من تصورات وأفكار وسلوك:

بعد وفاة رسول الله ﷺ اختلطت الأمور ببعضها، وسارعت الأعراب إلى الردة، فكان منهم المؤلفة قلوبهم أو من المنافقين أو الذين أسلموا رغم أنوفهم، وفى وقت متأخر، أو من الذين لم يسلموا أصلاً، ومن أمثلة الصنفين الأولين إسلام عيينة بن حصن الفزارى الذى أسلم إسلامًا فيه دخن كبير، ولذا ما إن هبت نار الفتنة حتى استجاب لها وباع دينه بدنيا طليحة الأسدى، ولما أسر وبعث إلى أبى بكر مقيداً بالإغلال كان فتيان المدينة يمرون عليه فينخسونه بالجريد ويقولون: أى عدو الله! أكفرت بعد إيمانك؟! فيقول: والله ما كنت آمنت بالله قط(٢)، ومن هؤلاء الذين يقال إنهم لم يسلموا أصلاً قبيلة عنس اليمنية، وهى قبيلة الطاغية الأسود الذى ادعى النبوة وفعل فى بلاد اليمن الأفاعيل ونكل بالمسلمين.

ومن أمثلة سوء الفهم لنصوص الإسلام التى أدت بهؤلاء إلى الكفر أن بعضًا منهم أنكر الزكاة محتجًا بمدلول قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فقد جاء فى التعليق على هذه الآية فى تفسير ابن كثير رحمه الله قوله: (اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفعها إلى الإمام لا يكون وإنما كان هذا خاصًا برسول الله ﷺ، وقد احتجوا بقوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وقد رد عليهم هذا

---

(١) حركة الردة للعتوم، ص٣٢٣.

(٢) تاريخ الطبرى (٣/٢٦٠)، حركة الردة للعتوم، ص١١٤.

التأويل (السقيم) والفهم الفاسد أبو بكر وسائر الصحابة (رضوان الله عليهم) وقاتلوهم حتى أدوها إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ(١).

وظهرت العصبية القبلية بقوة، فهذا مسيلمة الكذاب يقول لبنى حنيفة محرضًا إياهم على اتباعه وإنكار حق قريش بالنبوة : أريد أن تخبرونى بماذا صارت قريش أحق بالنبوة والإمامة منكم؟ والله ما هم بأكثر منكم ولا أنجد ، وإن بلادكم لأوسع من بلادهم وأموالكم أكثر من أموالهم(٢).

وهذا الرَّجال بن عُنفوة الحنفى الذى أضله الله على علم بعد أن قرأ القرآن وفقه فى الدين يقول فى حقيقة النبوة بين رسول الله ومسيلمة : كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا(٣)، وهذا طلحة النمرى قال لمسيلمة عندما رآه وسمع منه ما علم به كذبه : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر(٤).

بل إن مسيلمة يعرف كذب نفسه، فلما كانت معركة اليمامة وبدت الغلبة للمسلمين قال له أصحابه محنقين عليه : أين ما كنت تعدنا به من النصر والآيات؟ فقال : قاتلوا عن أحسابكم فأما الدين فلا دين(٥)، واختلطت عليهم التصورات والأفكار والسلوكيات والآمال، وعمل المرتدون على إنهاء الإسلام ومحوه من الوجود وتكالبت قوى الشر على ذلك، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، وأحبطت جميعها بتوحد المسلمين وتجمعهم وتكتلهم حول القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامى التى تربت على يد رسول الله ﷺ، وأصبحت تشبه القطب المغناطيسى الضخم الذى قام – بحكم طبيعته وخصائصه – بجذب كل من كان مؤهلاً للإسلام ويحمل خاصية الانجذاب إلى هذا القطب المغناطيسى الضخم الفعال، فقد أدى هذا التجمع إلى إظهار قوة الإسلام ليس بكثرة العدد والعُدة، وإنما فى قوة تفرده تصوراً وفكراً وسلوكًا فى لبناته الصلبة وتربيتها الفذة التى تربت عليها تلك اللبنات مجتمعة، والقوة فى وضوح التعامل مع الحدث دون مواربة أو تربيت أو إغماض عين وفتح الأخرى، وإنما كانوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٣٨٦) طبعة الحلبى.

(٢) حركة الردة للعتوم، ص ١٢٤ .

(٣) الإصابة لابن حجر رقم ٢٧٦١ .

(٤) تاريخ الطبرى (٤ / ١٠٤) .

(٥) نفس المصدر السابق (٤ / ١١٢) .

واضحين وضوح عبارة أبى بكر الصديق للمسلمين جميعًا: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت(١).

إن من نتائج أحداث الردة حفظ التصور الإسلامى من التحريف والتشويه وأن تجردت الراية الإسلامية من العصبية الجاهلية والولاء المختلط، وصارت خالصة من أية شائبة، وأن التصور الإسلامى لا يقبل المداهنة مهما كانت الظروف المحيطة، وأن القوة الإسلامية لا ترتبط بالعدد ولا العدة ولكن بقوة الإيمان والروح المعنوية، وأن الأصل دعوة الناس إلى الإسلام وليس مقاتلتهم، فالدعوة أولاً، وأن الحرص على الناس هو المقدم على كل شىء(٢).

٢ - ضرورة وجود قاعدة صلبة للمجتمع:

أظهرت أحداث الردة معادن أصيلة فى بنية قاعدة هذه الدولة، وكشفت عن عناصر صلبة، فلم يكونوا أفراداً متناثرين ولكنهم كانوا يشكلون القاعدة لهذا المجتمع ولهذه الدولة، ولم تكن قاعدة رخوة أو هشة أو ساذجة، وإنما كانت قاعدة صلبة واعية، تدرك حقيقة نفسها وحقيقة عدوها وتعى أبعاد المخاطر من حولها، وتخطط بانتباه ويقظة كاملة فى مواجهة كل الصعاب، وهى مع هذا وذاك موصولة بالقوى العزيز، ولهذا انتصرت على كل خصومها وأزالت كل العوائق من طريقها، فقد حافظت هذه القاعدة على الإسلام ودولته، وساهمت فى جمع الحشود لكسر شوكة أهل الردة، وعملت على لم شمل الناس من حولها، وتم بفضل الله ثم جهود هذه القاعدة الصلبة حفظ كيان الأمة وبقائها وتنميتها(٣).

٣ - تجهيز الجزيرة كقاعدة للفتوح الإسلامية:

بمجرد وفاة الرسول ﷺ تناثرت التجمعات، وتمردت كثير من القبائل على الخليفة، وقام الصديق رضى الله عنه مع الصحابة بعمل شاق عظيم استطاعوا أن يُخضعوا القبائل للدولة، وأشرف الصديق على تنفيذ الخطط التربوية والتعليمية والحربية والإدارية، ونجح نجاحًا باهراً، والتحمت القبائل العربية مع الدولة الإسلامية وأصبحت جزيرة العرب

---

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٢٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٢٤.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٣٢٥.

بسكانها قاعدة الفتوح الإسلامية بعد ذلك، وصارت هى النبع الذى يتدفق منه الإسلام ليصل إلى أصقاع الأرض فاتحًا ومعلمًا ومربيًا[١].

إن جزيرة العرب هى قاعدة الفتوح فكيف يتسنى الفتح إذا لم تكن له قاعدة أو كانت هذه القاعدة مضطربة غير مستقرة، أما الآن فقد أصبح ممكنًا تعبئة كل طاقات شبه الجزيرة وحشدها للأعمال الحربية التى تلت[٢].

٤ - الإعداد القيادى لحركة الفتوح الإسلامية:

ومن خلال أحداث الردة التى ميزت الصفوف وامتحنت الطاقات والقدرات، وكشفت عن الطبقة التى كانت تغطى معادن الأمة، ظهرت المعادن الخسيسة على حقيقتها وأعطيت القيادة للمعادن النفيسة الصلبة المصقولة لتمسك بزمام الأمور فى حركة الفتوح، فالمصادر التاريخية تمدنا بمعلومات جمة عن قيادات لم تكن من المهاجرين ولا من الأنصار ولا من الصحابة، ولكنهم تربوا من خلال كتاب الله مباشرة، ثم صقلتهم أحداث الردة وميزتهم عن غيرهم، ليصلوا إلى صدارة الجيوش الفاتحة وشهد لهم الجميع بالحنكة والأداء المتفانى والإيمان الصادق.

هذا وقد كانت القيادة المركزية فى المدينة وميادين القتال تديرها قيادات غاية فى التفاهم والتعاون والتحاب على الرغم من بعد المسافات، إلا أن التوازن الرائع بين دور كل من القيادة المركزية وقيادات ميادين القتال كان واضحًا وبارزًا[٣].

٥ - الفقه الواقعى للردة:

وردت العديد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى تحدثت على الردة كحالة تعترى بعض البشر، وكل ما ورد من النصوص ظلت فى إطارها العام النظرى الثابت، ولم تكن قد مورست بشكل عام فى الواقع، ولما وقعت الردة وعاشها المسلمون عمليًا واستنبطوا لها أحكامًا على ضوء تلك النصوص، كانت تلك الاستنباطات معالم هادية لفقه تلك النصوص، ويتضح هذا من نقاش بين الصحابة حول موقفهم من هؤلاء القوم، فكانوا يعودون إلى النصوص يدرسون ويتحاورون حولها، وسرعان ما يتفقون على

---

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص٣٢٦.

(٢) الطريق إلى المدائن، أحمد عادل كمال، ص١٨٢.

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٢٨.

صورة واحدة سواء فى تقييمهم وتوصيفهم الوصف المنطبق عليهم، أم فى طريقة معاملتهم، فهذه الوقفات العملية أمام الحدث والنص انتجت أبوابًا فى كتب التشريع الإسلامى ضمت تفصيلات تشريعية دقيقة عن أحكام الردة، ثم صار عمل الصحابة سابقة فقهية تؤخذ فى الاعتبار عند استنباط اجتهاد أو تطبيق حكم فيما بعد(١).

٦- ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ :

إن أية محاولة للتمرد على دين الإسلام سواء أقام بها فرد أم جماعة أم دولة، إنما هى محاولة يائسة مآلها الإخفاق الذريع والخيبة الشنيعة، لأن التمرد إنما هو تمرد على أمر الله المتمثل بكتابه الذى تكفل بحفظه وحفظ جماعة تلتف حوله، وتقيمه فى نفوسها وواقعها مدى الدهر، وبحكمه القاضى بالعاقبة للمتقين وبالمن على المستضعفين أن يديل لهم من الظالمين، إن مصير الكائدين لدين الله هو البوار فى الدنيا والآخرة وما أجمل ما قال الشاعر:

كناطح صخرة يومًا ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل(٢)

٧ - **استقرار التنظيم الإدارى فى الجزيرة :**

استقر التقسيم الإدارى بعد انتصار الصديق فى حروب الردة على نظام الولايات وهى: مكة وكان أميرها عتاب بن أسيد، والطائف وأميرها عثمان بن أبى العاص، وصنعاء وأميرها المهاجر بن أبى أمية، وحضرموت وواليها زياد بن لبيد وخولان وواليها يعلى بن أمية، وزبيد ورقع وواليهما أبو موسى الأشعرى، أما جَنَد اليمن فأميرها معاذ بن جبل، ونجران وواليها جرير بن عبدالله، وجرش وواليها عبدالله بن ثور، والبحرين وواليها العلاء بن الحضرمى، وعمان وواليها حذيفة الغلفانى، واليمامة وواليها سليط بن قيس(٣).

* * *

---

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٢٩.

(٢) حركة الردة للعتوم، ص٣٣٤.

(٣) الدولة العربية الإسلامية لمنصور أحمد الحرابى، ص٩٧.

الفصل الرابع

فتوحات الصديق واستخلافه لعمر رضى الله عنهما ووفاته

تمهيد :

إن غاية وجود الأمة المسلمة فى هذه الدنيا هى توحيد الله وتحقيق عبوديته الشاملة فى هذه الحياة كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦]. فإذا كان خَلْقُ الجن والإنس الغاية منه عبادة الله وحده سبحانه وتعالى، فكان لزامًا على الأمة المسلمة أن تسعى لتحقيق هذه الغاية وتحمل هذه الأمانة وأعباء تبليغها للناس أجمعين، بالدعوة إلى الله وتعليم الناس وتربيتهم على منهج الله، والعمل على إزالة كل العقبات التى تقف فى وجه أداء هذه الأمانة إلى الناس أجمعين، وبذلك يتحقق بسط سيادة الشرع الحكيم على كل بنى البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه المطلقة المتمثلة فى خضوع الجميع لشرع الله تعالى[١]، ولذلك شرع الله تعالى الجهاد لإزالة الحواجز والعقبات المانعة من سماع دين الفطرة التى فطر الناس عليها. قال ابن تيمية: وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هى العليا، فمن منع قوتل باتفاق المسلمين[٢]. وقد قام ﷺ بتبليغ واجب الدعوة إلى الله، فأرسل الكتب والرسل إلى القادة والملوك والزعماء. وبعث السرايا والجيوش لإزالة الحواجز البشرية والأعراف الجاهلية والموانع النفسية والعوائق المادية المانعة من سماع الإسلام وتفهمه، بل قاد ﷺ بذاته بعض البعوث والغزوات والتى كان آخرها غزوة تبوك سنة ٩هـ، والناس فى كل هذه المعارك والغزوات مخيرون بين ثلاثة: إما أن يدخلوا فى الإسلام ويكونوا للمسلمين إخوانًا، وإما أن يختاروا البقاء على كفرهم ويدفعوا الجزية، وإما أن يرفضوا هذا وذاك فيكون السيف فاصلاً بيننا وبينهم[٣]، وسار الصديق رضى الله عنه على هذا المنهج وشرع إرسال الجيوش لتحقيق بشائر الرسول بفتح

---

(١) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى للصَّلاَّبى، ص ١٦٧ .

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص ١٨ .

(٣) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى للصَّلاَّبى، ص ١٦٨ .

كثير من الممالك والبلاد كفتح العراق وغيرها من البلاد فقد قال ﷺ لعدى بن حاتم: «**فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز**» (١). وقد وضع رسول الله ﷺ الخطوط العريضة لتلك الفتوحات، وأضافت تلك المبشرات رصيداً ماديًا ومعنويًا وحسيًا للأمة، وقد حاول المستشرقون وأذنابهم وأعداء الإسلام أن يجردوا الفتوحات الإسلامية من دوافعها الدعوية وأهدافها الربانية ومقاصدها السامية، وألصقوا بحركة الفتوحات تهمًا باطلة لا تقوم أمام الدليل والبرهان والحجة.

إن الهدف الرفيع والمقصد السامى لحركة الفتوحات التى قادها الصديق رضى الله عنه كان غرضها نشر دين الله تعالى بين الناس، وإزاحة الطواغيت من على رقاب الناس، وكان الصديق والمسلمون معه على يقين بما أخبر الله ورسوله من النصر والتمكين، وهذا اليقين من أخلاق جيل النصر، فقد كانوا على يقين بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [الصف: ٩] وبقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ [غافر: ٥١] ولنترك الأحداث فى حركة الفتوحات تخبرنا عن الحقائق وتوضح الطريق لأبناء الأمة الصادقين.

(١) صحيح السيرة النبوية، ص ٥٨٠.

المبحث الأول

فتوحات العراق

أولاً: خطة الصديق لفتح العراق:

ما إن انتهت حروب الردة واستقرت الأمور فى الجزيرة العربية التى كانت ميدانًا لها، حتى شرع الصديق فى تنفيذ خطة الفتوحات التى وضع معالمها رسول الله ﷺ، فجيش الصديق لفتح العراق جيشين:

١ – الأول بقيادة خالد بن الوليد وكان يومئذ باليمامة، فكتب إليه يأمره بأن يغزو العراق من جنوبه الغربى وقال له: سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ (بفرج الهند) أى ثغرها وهى الأبلة[١] وأمره بأن يأتى العراق من أعاليها، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم وأمره أن لا يكره أحداً على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه، وأمره أن يستصحب[٢] كل امرئ مرَّ به من المسلمين، وشرع أبو بكر فى تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمداداً لخالد رضى الله عنه[٣].

٢ – الجيش الثانى بقيادة عياض بن غنم وكان بين النباج[٤] والحجاز فكتب إليه بأن يغزو العراق من شماله الشرقى بادئًا بالمصيخ[٥] وقال له: سر حتى المصيخ وابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها حتى تلقى خالداً. ثم أردف أمره هذا بقوله: وأذن لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره. أى: لا تجبرا أحداً على السير معكما للقتال إكراهاً فمن شاء فليقدم ومن شاء فليحجم[٦].

---

(١) الأبلة: على شط العرب فى زاوية الخليج الذى يدخل فى مدينة البصرة وهى أقدم من البصرة وكانت بها مسالح كسرى.

(٢) يستصحب: يطلب صحبته دون إلزام.

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٧).

(٤) قرية فى بادية البصرة، فى منتصف الطريق بين مكة والبصرة.

(٥) موضع على حدود الشام مما يلى العراق.

(٦) الفن العسكرى الإسلامى، د. ياسين سويد، ص ٨٣؛ تاريخ الطبرى (٤/ ١٦٢).

وكتب الصديق رضى الله عنه إلى خالد وعياض: .. ثم يستبقان إلى الحيرة، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه وقال: إذا اجتمعتما إلى الحيرة وقد فضضتما مسالح فارس وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم، المدائن(١).

٣ – وكان المثنى بن حارثة قد قدم على أبى بكر وحث الصديق على محاربة الفرس وقال له: ابعثنى على قومى ففعل ذلك أبو بكر، فرجع المثنى وشرع فى الجهاد بالعراق ثم إنه بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكر يستمده، فكتب معه أبو بكر إلى المثنى: أما بعد فإنى قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق فاستقبله بمن معك من قومك ثم ساعده ووازره وكانفه ولا تعصين له أمراً ولا تخالفن له رأيًا فإنه من الذين وصف الله تبارك وتعالى فى كتابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. فما أقام معك فهو الأمير، فإن شخص عنك فأنت على ما كنت عليه(٢). وكان من قوم المثنى رجل يدعى مذعور بن عدى، خرج عن المثنى بن حارثة وراسل الصديق وقال له: أما بعد: فإنى امرؤ من بنى عجل أحلاس الخيل – أى يلزمون ظهورها – وفرسان الصباح – أى يغيرون صباحًا – ومعى رجال من عشيرتى الرجل خير من مئة رجل، ولى علم بالبلد وجراء على الحرب وبصر بالأرض، فولّنى أمر السواد أكفكه إن شاء الله(٣). وكتب المثنى بن حارثة رضى الله عنه بشأن مذعور بن عدى إلى الصديق فقال له: ... فإنى أخبر خليفة رسول الله ﷺ أن امرءاً من قومى يقال له مذعور بن عدى أحد بنى عجل فى عدد يسير، وإنه أقبل ينازعنى ويخالفنى، فأحببت إعلامك ذلك لترى رأيك فيما هنالك(٤)، وردَّ الصديق على مذعور ابن عدى فقال له: أما بعد: فقد أتانى كتابك وفهمت ما ذكرت وأنت كما وصفت نفسك وعشيرتك نعم العشيرة، وقد رأيت لك أن تنضم إلى خالد بن الوليد

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ١٦٣).

(٢) الوثائق السياسية، حميد الله، ص ٣٧١.

(٣، ٤) مجموعة الوثائق السياسية، ص ٣٧٢.

فتكون معه وتقيم معه ما أقام بالعراق، وتشخص معه إذا شخص[1]. وكتب إلى المثنى بن حارثة: ... فإن صاحبك العجلى كتب إلىَّ يسألنى أموراً فكتبت إليه آمره بلزوم خالد حتى أرى رأيى، وهذا كتابى إليك آمرك أن لا تبرح العراق حتى يخرج منه خالد بن الوليد، فإذا خرج منه خالد بن الوليد فالزم مكانك الذى كنت به، وأنت أهل لكل زيادة وجدير بكل فضل[2]. وممن سبق يمكننا أن نستخلص بعض الدروس والعبر والفوائد فمنها:

١ - كان تاريخ بعث خالد إلى العراق في شهر رجب وقيل فى المحرم سنة اثنتى عشرة[3].

٢ - الحس الاستراتيجى عند الصديق:

إن الأوامر التى وجهها الصديق إلى قائديه خالد وعياض تشير إلى الحس الاستراتيجى المتقدم الذى كان يملكه الصديق رضى الله عنه، فقد أعطى جملة تعليمات عسكرية استراتيجية وتكتيكية، فحدد لكل من القائدين المسلمين جغرافيًا منطلقه للدخول إلى العراق، كأنما هو يمارس القيادة من غرفة العمليات بالحجاز، وقد بسطت أمامه خارطة العراق بكل تضاريسها ومسالكها فيأمر أحدهما (خالداً) بدخول العراق من أسفلها جنوبًا بغرب (أى الأبلة) ويأمر الثانى (عياضًا) بدخول العراق من أعلاها شمالاً بشرق (أى المصيخ) ويأمر الاثنين معًا أن يلتقيا فى وسط العراق. ولا ينسى الخليفة مع ذلك أن يأمرهما بأن لا يُكرها الناس على الانخراط فى جيشهما وأن لا يجبرا أحدا على البقاء معهما للقتال، فلم يكن التجنيد فى نظره إلزاميًا وإنما كان طوعيًا واختياريًا[4].

٣ - تحديد الحيرة كموقع استراتيجى:

كان هدف الخليفة الصديق السيطرة على الحيرة وذلك لأهميتها العسكرية، فالحيرة تقع على بعد ثلاثة أميال جنوب (الكوفة)، وتبعد عن (النجف) مسيرة ساعة للفارس إلى الجنوب الشرقى للنجف، والناظر على الخارطة يرى لأول وهلة أهمية هذا الموقع

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص ٣٧٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٧).

(٤) الفن العسكرى الإسلامى، ص (٨٣، ٨٤).

الاستراتيجى، فالحيرة كانت (عقد مواصلات) فى نقطة تتصل بها الطرق من جميع الاتجاهات، فهى تتصل بالمدائن من الشرق عبر نهر الفرات وتتصل شمالاً بـ (هيت) وتتصل بـ (الأنبار) على جسر الأنبار، وتتصل بالشام من الغرب، كما تتصل بـ (الأبلة) فى منطقة (البصرة) بالعراق، وفى (كسكر) فى (السواد)، وفى (النعمانية) على نهر دجلة، ومن هذا يتضح جليًا أهمية السيطرة على هذا الموقع المهم، وكان الصديق مصيبًا عندما جعلها هدفًا لجيشين هما جيش خالد وجيش عياض، فالحيرة كانت قلب العراق وأقرب منطقة مهمة إلى المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية، التى كانت تدرك هذه القيمة الاستراتيجية للحيرة، ولذا كانت ترسل القوات باتجاهها دائمًا لاستعادتها، لأن المسيطر على الحيرة يؤمن سيطرته على المنطقة الكائنة غربى الفرات بأجمعها، وهى عدا هذا كانت مهمة للقوات الإسلامية فى قتالها الروم فى بلاد الشام[١].

إن تخطيط الصديق للوصول إلى الحيرة فى الفتوحات يعرف فى الخطط العسكرية للجيوش الحديثة بحركة فكى الكماشة أو عملية الالتفاف الدائرى بأكثر من جيش، وهذا يؤكد أن عملية فتح العراق وضم أطراف شبه الجزيرة العربية عن طريق الجهاد لم تكن محض مصادفة أو نتيجة لمجريات الحوادث[٢]. ويظهر للباحث فقه أبى بكر رضى الله عنه فى التخطيط الجهادى بأنه كان يرتكز على اتخاذ القرارات بتنظيم الجيوش وتوجيهها، وتحديد واجباتها وأهدافها، وتنسيق التعاون فيما بينها، وتحقيق التوازن على مسارح العمليات، غير أنه يترك لقادته حرية العمل العسكرى لإدارة العمليات القتالية بالأساليب التى يرونها مناسبة، وبالطرائق التى تستجيب لما يجابهونه من مواقف[٣].

٤ - نكران الذات عند المثنى بن حارثة :

ومن المواقف التى تذكر فى الجهاد فى العراق ما كان للمثنى بن حارثة الشيبانى وكان يقاتل الأعداء فى العراق بقومه، ولما علم بذلك أبو بكر سرَّه ما كان منه فأمَّره على مَنْ بناحيته وذلك قبل مجئ خالد، فلما توجهت همة الصديق لغزو فارس رأى أن خالداً أجدر القواد بهذه المهمة فوجهه لها، وكتب كتابًا إلى المثنى يأمره بالانضمام إلى خالد وطاعته، فما كان منه إلا أن سارع فى الاستجابة ولحق بخالد هو وجيشه، وإن هذا

(١) معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، عبد الجبار السامرائى، ص ٣٥.

(٢) أبو بكر الصديق، نزار الحديثى، وخالد الجنابى، ص ٤٥.

(٣) مشاهير الخلفاء والأمراء، الصديق، بسام العسلى، ص ١٢٧.

موقف يذكر للمثنى حيث لم يَغُرَّه كثرة جيشه ولا كونه أقدم من خالد فى إمرة جيوش العراق، فلم يحمله ذلك على أن يرى أنه أحق بالقيادة من خالد[1].

٥ - احتياط الصديق لأمر الجهاد فى سبيل الله:

وقد جاء فى كتاب أبى بكر لخالد وعياض بن غنْم أن استنفروا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزونَّ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيى، فلم يشهد الأيام مرتد[2]، يعنى فى أول الأمر وقد شهدوا الأيام بعد ذلك حينما ثبتت استقامتهم كما سيأتى بإذن الله تعالى. وهذا الموقف من أبى بكر مبنى على الاحتياط لأمر الجهاد فى سبيل الله تعالى، حتى لا يشترك فيه طلاب الدنيا فيكونوا سببًا فى فشل المجاهدين واختلال صفوفهم، وهذا درس تربوى من أبى بكر استفاده من الدروس النبوية الغالية وذلك فى تنقية الصف الإسلامى من الشوائب، وتوحيد هدفه حتى يكون خالصًا لوجه الله تعالى، فيأمن بذلك من الانتكاسات الخطيرة التى تحدث بسبب تعدد الأهداف، ولقد حرص أبو بكر على هذا المبدأ السامى مع شدة احتياج الجيش الإسلامى آنذاك إلى الرجال، مما يدل على قناعته التامة بأن العبرة بسمو الهدف والإخلاص لا بكثرة العدد[3].

٦ - الرفق بالناس والتوصية بفلاحى العراق:

وفى قول الصديق لخالد: وتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم[4]، وهذا القول بين لنا الهدف من الجهاد الإسلامى خارج بلاد الإسلام فهو جهاد دعوى يقصد به دعوة الناس إلى الدخول فى الإسلام، ولما كانت الدعوة غير ممكنة مع بقاء الحكومات، فإنه لا بد من إزالتها لتمكين شعوبها من الدخول فى الإسلام، وهذا الهدف ظاهر فى جميع المعارك التى خاضها الصحابة رضى الله عنهم، حيث كانوا يدعون أعداءهم إلى الإسلام فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا فليستسلموا لحكم الإسلام ويدفعوا الجزية مقابل حماية المسلمين لهم، فإن أبوا فلا بد من القتال حتى

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٣٠).
(٢) تاريخ الطبرى (٤/ ١٦٣).
(٣) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٣١).
(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ١٥٩).

تكون كلمة الله هى العليا[١]، وقد وصى الصديق رضى الله عنه قادة جيوشه بفلاحى العراق وأهل السواد، حرصًا منه على هداية الناس وعلى منابع الثروة وعلمًا منه بأن العمران لا تقوم بدونه دولة، كما أن الفلاحة مصدر من مصادر الثروة وهى المتصلة بحياة الناس ومعايشهم[٢].

٧- لا يهزم جيش فيهم مثل هذا :

عندما استمد خالد أبا بكر أثناء سيره للعراق أمده الصديق بالقعقاع بن عمرو التميمى فقيل له : أتُمدُّ رجلاً قد ارفضَّ عنه جنوده برجل؟ فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا[٣]. وهذه فراسة من أبى بكر بينتها أحداث العراق بعد ذلك، وقد كان أبو بكر أعلم الناس بالرجال وما يتصفون به من طاقات وكفاءات مختلفة[٤].

ثانيًا : معارك خالد بن الوليد بالعراق :

لم يلبث خالد أن قدم العراق ومعه ألفا رجل ممن قاتل المرتدين وحشد ثمانية آلاف رجل من قبائل ربيعة، وكتب إلى ثلاثة من الأمراء فى العراق قد اجتمعت لهم جيوش لغرض الجهاد وهم مذعور بن عدى العجلى وسُلْمَى بن القين التميمى وحرملة بن مُرَيْطة التميمى، فاستجابوا وضموا جيوشهم التى بلغ تعدادها مع جيش المثنى ثمانية آلاف، فأصبح جيش المسلمين ثمانية عشر ألفًا[٥]، وقد اتفقوا على أن يكون مكان تجمع الجيوش الأبلة[٦]، وقبل أن يسير خالد إلى العراق كتب إلى هرمز صاحب ثغر الأبلة كتاب إنذار يقول فيه : أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقررْ بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة[٧]. وقد لجأ إلى هذا الأسلوب وهو نوع من الحرب النفسية ليدخل الخوف و الرعب فى قلب هرمز وجنوده، وليوهن من قوتهم ويضعف من عزيمتهم، وحين قارب خالد العدو جعل

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٣٠).
(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٣٤٢.
(٣) تاريخ الطبرى (٤/ ١٦٣).
(٤) التايرخ الإسلامى (٩/ ١٢٩).
(٥) تاريخ الطبرى (٤/ ١٦٣).
(٦) أبو بكر الصديق، خالد الجنابى، نزار الحديثى، ص٤٦.
(٧) تاريخ الطبرى (٤/ ١٦٤).

الجيش ثلاث فرق وأمر أن تسلك كل فرقة طريقًا، ولم يحملهم على طريق واحد، تحقيقًا لمبدأ مهم من مبادئ الحرب وهو أمن القطعات، فجعل المثنى على فرقة المقدمة ثم تلتها فرقة عليها عدى بن حاتم الطائي، وخرج خالد بعدهما وواعدهما الحضير[١]، ليجتمعوا به ويصمدوا لعدوهم[٢].

١ - معركة ذات السلاسل:

سمع هرمز بمسير خالد وعلم أن المسلمين تواعدوا الحضير، فسبقهم إليه وجعل على مقدمته القائدين قباذ وأنو شجان، ولما بلغ خالد أنهم يمموا الحضير عدل عنها إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها، ونزل على الماء واختار المكان الملائم لجيشه، وجاء خالد فنزل على غير ماء، فقال لأصحابه: حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين[٣].

وحط المسلمون أثقالهم والخيل وقوف، وتقدم الراجلون وزحفوا إلى الكفار، ومنَّ الله تعالى بكرمه وفضله على المسلمين بسحابة فأمطرت وراء صفوف المسلمين، ونهلوا من غدرانها فتقوى بذلك المسلمون، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة الشاهدة على معية الله جل جلاله لأوليائه المؤمنين بنصره وإمداده، وواجه المسلمون هرمز وكان مشهوراً بالخبث والسوء حتى ضُرب المثل بخبثه، فعمل مكيدة لخالد وذلك أنه اتفق مع حاميته على أن يبارز خالداً ثم يغدروا به ويهجموا عليه، فبرز بين الصفين ودعا خالداً إلى البراز فبرز إليه، والتقيا فاختلفا ضربتين واحتضنه خالد فحملت حامية هرمز على خالد، وأحدَقوا به، فما شغله ذلك عن قتل هرمز، وما أن لمح ذلك البطل المغوار القعقاع بن عمرو حتى حمل بجماعة من الفرسان على حامية هرمز وكان خالد يجالدهم فأناموهم[٤]، وحمل المسلمون من وراء القعقاع حتى هزموا الفرس، وهذا هو أول المشاهد التى ظهر فيها صدق فراسة أبى بكر حينما قال عن القعقاع: (لا يهزم جيش فيه مثل هذا)[٥] وأما خالد فقد ضرب أروع الأمثال فى البطولة ورباطة الجأش، فقد أجهز على قائد الفرس

---

(١) الحضير: ماء لباهلة على أربعة أميال من البصرة (المعجم، ياقوت، ٢/٢٧٧).

(٢) أبو بكر الصديق، خالد الجنابى، ص٤٦.

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/٥١)؛ تاريخ الطبرى (٤/١٦٥).

(٤) تاريخ الطبرى (٤/١٦٥).

(٥) نفس المصدر السابق (٤/١٦٣).

وحاميته من حوله، فلم يستطيعوا تخليصه منه، ثم ظل يجالدهم حتى وصل إليه القعقاع ومن معه فقضى عليهم، وقد كان الفرس ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا فلم تغن عنهم شيئًا أمام الليوث البواسل، وسميت هذه المعركة بذات السلاسل(١).

وغنم المسلمون من الفرس حمل ألف بعير، وبعث خالد سرايا تفتح ما حول الحيرة من حصون فغنموا أموالاً كثيرة، ولم يعرض خالد لمن لم يقاتلوه من الفلاحين بل أحسن معالتهم كما أوصاه الصديق، وأبقاهم فى الأرض التى يفلحونها ومكنهم من إنتاجها ومتعهم بثمرات عملهم، فمن دخل فى الإسلام حدد له نصيب الزكاة ومن بقى على دينه فرض عليه الجزية، وهو أقل بكثير مما كان ينهبه المالكون الفرس، ولم ينتزع الأرض من أيدى أصحابها الفرس، ولكنه أنصف العاملين فيها فأحسُّوا بأن عنصراً جديداً من العدل والإخاء الإنسانى يشرف عليهم من خلال هذا الفتح المجيد، وأرسل خالد خمس الغنائم والأموال إلى الصديق ووزع الباقى على المجاهدين، وكان مما أرسله إلى الصديق قلنسوة هرمز ولكن الصديق أهداها إلى خالد مكافأة له على حسن بلائه(٢)، وكانت قيمتها مائة ألف وكانت مفصصة بالجوهر، فقد كان أهل فارس يعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف، فكان هرمز ممن تم شرفه(٣) فى الفرس.

٢- معركة المذار (الثنى):

كان هرمز قد كتب إلى كسرى بكتاب خالد فأمده كسرى بجيش بقيادة (قارن)، ولكن هرمز استخف بجيش المسلمين فسارع إليهم قبل وصول قارن فنكب ونكب جيشه، وهرب فلول المنهزمين فالتقوا بجيش (قارن) وتذامروا فيما بينهم وتشجعوا على قتال المسلمين، وعسكروا بمكان يسمى المذار، وكان خالد قد بعث المثنى بن حارثة وأخاه المعنّى فى آثار القوم ففتحا بعض الحصون، وعلما بمجئ جيش الفرس فأبلغا خالداً الخبر، وكتب خالد إلى أبى بكر بمسيره إليه، وسار وهو مستعد للقتال حتى لا يفاجأ بهم والتقى المسلمون معهم فى (المذار) فاقتتلوا، والفرس قد أغضبهم وأثار حفيظتهم ما وقع لهم قبل ذلك، وخرج قائدهم (قارن) ودعا إلى البراز، فبرز إليه خالد ولكن

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/١٣٣)؛ تاريخ الطبرى (٤/١٦٥).

(٢) الصديق أول الخلفاء، ص١٣١.

(٣) تاريخ الطبرى (٤/١٦٦).

سبقه إليه معقل بن الأعمش بن النباش فقتله، وكان قارن وضع على ميمنته (قباذ) وعلى ميسرته (أنوشجان) وهما من القواد الذين حضروا اللقاء الأول وفروا من المعركة، فتصدَّى لهما بطلان من أبطال المسلمين، فأما قباذ فقتله عدى بن حاتم الطائى، وأما أنوشجان فقتله عاصم بن عمرو التميمى، واشتد القتال بين الفريقين، ولكن الفرس انهزموا بعد مقتل قادتهم وقتل منهم ثلاثون ألفًا ولجأ بقيتهم إلى السفن فهربوا عليها، ومنع الماء المسلمين من ملاحقتهم، وأقام خالد بالمذار وسلم الأسلاب لمن سلبها بالغة ما بلغت، وقسم الفىء و نفل من الأخماس أهل البلاء وبعث ببقية الأخماس(١) إلى المدينة.

٣- معركة الولجة:

وصل نبأ نكبة الفرس فى المذار إلى كسرى، فبعث الأندرزغر على رأس جيش عظيم، وأردفه بجيش آخر عليه بهمن جاذويه، وتحرك الأندرزغر من المدائن حتى انتهى إلى كسكر ومنها إلى الولجة، وخرج بهمن جاذويه سالكًا وسط السواد يريد أن يحشر جيش المسلمين بينه وبين الأندرزغر، واستطاع أن يحشر فى طريقه عدداً من الأعوان والدهاقين، و تجمعت القوة الفارسية فى الولجة، وعندما شعر الأندرزغر أن حشوده أصبحت كبيرة قرر الزحف على خالد، ولما بلغ خالد وهو بالثنى (مكان قرب البصرة ومعناه منعطف النهر والجبل) تجمع الفرس ونزولهم الولجة رأى أن من الأفضل للمسلمين أن يهجموا هذه الحشود الكبيرة من ثلاث جهات حتى يفرقوا جموعهم، وتكون المفاجأة للفرس مربكة، وأخذ يعد العدة لتنفيذ خطة الهجوم، ولكى يؤمن خطوطه الخلفية أمر سويد بن مقرن بلزوم الحفير، وتحرك بجيشه حتى وصل الولجة وبعد أن قام باستطلاع واف للمنطقة وجد أن ميدان المعركة أرض مستوية وواسطة تصلح للقتال وتسمح بحرية الحركة، ولما كان خالد قد قرر أن يهاجم قوات الفرس من ثلاث جبهات فقد نفذ خطته وبعث بفرقتين لمهاجمة حشود الفرس من الخلف والجانبين، وبدأت المعركة واشتد القتال بين الفريقين وشدد خالد بهجومه من المقدمة، وفى الوقت المناسب انقض الكمينان على مؤخرة جيش العدو فحلت به الهزيمة المنكرة، وفر الأندرزغر مع عدد من رجاله ولكنهم ماتوا عطشًا(٢)، وقام خالد فى الناس خطيبًا فرغبهم فى بلاد

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ١٦٨)؛ التاريخ الإسلامى (٩/ ١٣٤).

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٥٢)؛ أبو بكر الصديق، خالد الجنابى، ص٤٨.

الأعاجم وزهدهم فى بلاد العرب وقال: ألا ترون ما هاهنا من الأطعمات؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى سبيل الله والدعاء إلى الإسلام ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقاتل على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولّى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه. ثم خمس الغنيمة وقسم أربعة أخماسها وبعث الخمس إلى الصديق وأسر من أسر من ذرارى المقاتلة وأقر الفلاحون بالجزية(١). وفى خطبة خالد بن الوليد للناس إشارة إلى أن العرب وهم فى جاهليتهم إضافة إلى أنهم ليسوا من طلاب الآخرة فإنهم لم يظفروا بالدنيا لتفرقهم وتناحرهم فيما بينهم، فخالد يقول: نحن طلاب الآخرة ولنا هدف سام نسعى إليه من أجله ندعو ومن أجله نجاهد، ولو فرض أننا لا نحمل هذا الهدف ولا نجاهد من أجله فإن العقل يقتضى أن نقاتل من أجل أن نصلح أحوالنا المعيشية، وخالد حينما يذكر ذلك لا يجعل هذا الموقف ثنائيًا مع الهدف السامى الذى ذكره، وإنما يذكر ذلك على أنه مجرد افتراض يفرض نفسه لو لم يوجد الهدف السامى المذكور، وكأنه يقول: إذا كنا سنقارع هؤلاء من أجل هذا الهدف الدنيوى أفلا نقارعهم من أجل الهدف الأخروى وابتغاء مرضاة الله جل وعلا؟

وهذا الكلام يشحذ الهمم ويقوى العزم ويُحيى القلب ويفجر الطاقات، فتنطلق بعد ذلك النفوس المؤمنة مجاهدة فى سبيل الله تعالى بكل طاقاتها وإمكاناتها وقدراتها(٢).

وجاء فى رواية: أن فى يوم الولجة بارز خالد رجلاً من أهل فارس يعدل بألف رجل فقتله، فلما فرغ اتكأ عليه ودعا بغدائه(٣)، وهذا التصرف الجليل من سيف الله رضى الله عنه فيه إذلال للفرس وتحطيم لجبروتهم وتغطرسهم وإضعاف لعزائمهم(٤).

٤- معركة أُلَّيْس وفتح امغيشيا:

فى هذه الموقعة انضم بعض نصارى العرب إلى الأعاجم، وصاروا عونًا للفرس على المسلمين، وكان عليهم عبد الأسود العجلى وعلى الفرس جابان، وكان قد أمره بهمن جاذويه ألا ينازل المسلمين إلا أن يعجلوه، وبعد أن بلغ خالد تجمع نصارى العرب وعرب الضاحية من أهل الحيرة سار إليهم، وكان همه متجهًا لمواقعتهم ولا علم له بانضمام

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٠).

(٢) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٣٩).

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٠).

(٤) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٣٨).

الفرس لجموع العرب، فلما أقبلت جنود المسلمين طلب جابان من جنده مهاجمتهم، فأظهروا عدم الاكتراث بخالد والتهاون بأمره وتداعوا إلى الطعام إلا أن خالداً لم يدعهم يهنأون بطعامهم، واقتتلوا أشد القتال، وقد زاد فى كلب الأعداء وشدتهم ما يتوقعون من لحاق بهمن جاذويه بهم فى مدد كبير، وصبر المسلمون علي هذا القتال العنيف، وقال خالد: اللهم إنَّ لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم، ثم إن الله كشفهم للمسلمين ومنحم أكتافهم، فأمر خالد مناديه فنادى فى الناس: الأسر الأسر لا تقتلوا إلا من امتنع، فأقبلت الخيول بهم أفواجًا مستأسرين يساقون سَوْقًا وقد وكَّل بهم رجالاً يضربون أعناقهم فى النهر، ففعل ذلك بهم يومًا وليلة وطلبوهم الغد وبعد الغد حتى انتهوا إلى النهرين، ومقدار ذلك من كل جانب أُليس فضرب أعناقهم، وقال له القعقاع وأشباه له: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نهيت عن السيلان ونهيت الأرض عن نشف الدماء، فأرسل عليها الماء تبر يمينك، وقد كان صد الماء عن النهر، فأعاده فجرى دمًا عبيطًا فسمى نهر الدم لذلك الشأن(١).

ولما هُزم وأجلُوا عن عسكرهم ورجع المسلمون من طلبهم ودخلوه وقف خالد على الطعام فقال: فقد نفلتكموه فهو لكم. وقال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نفله، فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل وجعل من لم يَر الأرياف ولا يعرف الرِّقاق يقول: ما هذه الرِّقاق البيض! وجعل من قد عرفها يجيبهم ويقول لهم مازحًا: هل سمعتم برقيق العيش؟ فيقولون: نعم، فيقول: هو هذا فسمى الرقاق وكانت العرب تسميه القرَى(٢). وبعد أن فرغ خالد من أُليس نهض حتى أتى أمغيشيا، وقد جلا عنها أهلها وأعجلوا عما فيها وتفرقوا فى السواد فامر بهدمها وهدم كل شىء كان فى حيزها، وأصابوا بها ما لم يصيبوا مثله، فقد بلغ سهم الفارس ألفا وخمسمائة درهم سوى أنفال أهل البلاء، ولما وصلت الأخماس وأخبار النصر إلى الصديق رضى الله عنه، وما صنعه خالد والمسلمون قال: يا معشر قريش - يخبرهم بالذى أتاه - عَدَا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله(٣)، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد(٤) وكان خالد قد بعث

(١) تاريخ الطبرى (٤/١٧٣).
(٢) نفس المصدر السابق (٤/١٧٣).
(٣) الخراذيل: قطع اللحم.
(٤) تاريخ الطبرى (٤/١٧٥).

بالخبر مع رجل يدعى جندلاً من بنى عجل وكان دليلاً صارمًا، فقدم على أبى بكر بالخبر وبفتح أليس وقدر الفيء وبعدة السبى وبما حصل من الأخماس وبأهل البلاء من الناس، فلما قدم على أبى بكر فرأى صرامته وثبات خبره، قال: ما اسمك؟ قال: جندل، قال: ويهًا جندل:

نفس عصام سودت عصاما وعودته الكر والأقداما

وأمر له بجارية من ذلك السبى فولدت له(١).

وفى قول الصديق عن خالد: عدا أسدكم على الأسد فغلبه علي خراذيله، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد(٢)، وسام شرف لخالد واعتراف بالجميل ورفع لأهل البلاء والفضل والهمم العالية، ودفع لأصحاب الهمم الضعيفة ليضاعفوا من جهودهم وينافسوا على معالى الأمور ومكارمها(٣)، و هذا القول من أبى بكر - وكان أعلم بالرجال - أعظم شهادة وأجل تقدير يناله رجل فى تاريخ الإسلام، فالصديق وهو خليفة المسلمين الأعظم لا يرى لخالد رضى الله عنه فى الناس عدلاً فى عبقريته وشجاعته، ولا نظيراً فى بطولته ومهارته، وحسبك بها لخالد من الصديق(٤).

٥- فتح الحيرة:

علم مرزبان الحيرة بما صنع خالد بأمغيشيا فأيقن أنه آتيه، فاستعد لذلك وأرسل جيشًا بقيادة ابنه ثم خرج فى إثره، وأمر ابنه بسد الفرات ليعطل سفن المسلمين، وفوجئ المسلمون بذلك واغتموا له، فأرسلوا الفلاحين فأخبروهم بضرورة سد الأنهار حتي يسيل الماء، فماذا فعل خالد؟

نهض خالد فى خيل يقصد ابن المرزبان فلقى خيلاً من خيله ففاجأهم فأنامهم بالمقر، ثم نهض قبل أن تصل أخباره إلى المرزبان حتى لقى جنداً لابنه على فم الفرات فقاتلهم وهزمهم، وسد الأنهار وسلك الماء سبيله، ثم طلب خلد عسكره واتجه إلى الحيرة، وعلم المرزبان بموت ابنه وخبر موت أزدشير، فهاله الأمر فعبر الفرات هاربًا من غير قتال،

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ١٧٤).
(٢) نفس المصدر السابق (٤/ ١٧٥).
(٣) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٤٤).
(٤) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص٢١٦.

فعسكر خالد مكانه وأهل الحيرة متحصنون وأدخل خالد الخيل من عسكره، وتمت خطته حول قصور الحيرة بمحاصرتها على هذا النحو:

أ- ضرار بن الأزور لمحاصرة القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائى.

ب- ضرار بن الخطاب لمحاصرة قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى العبادى.

ج- ضرار بن مقرن لمحاصرة قصر بنى مازن وفيه ابن أكال.

د- المثنى بن حارثة لمحاصرة قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح.

وعهد خالد إلى أمرائه أن يدعوا القوم إلى الإسلام، فإن أجابوا قبلوا منهم وإن أبوا أجلوهم يومًا وأمرهم أن لا يمكنوا عدوًا منهم بل عليهم أن يناجزوهم، ولا يمنعوا المسلمين من قتال عدوهم ففعلوا، واختار القوم المنابذة وعمدوا لرمى المسلمين بالحذف[١]، فرشقهم المسلمون بالنبل وشنوا غاراتهم وفتحوا الدور والديارات، فنادى القسيسون: يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم، فنادى أهل القصور: يا معشر العرب قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا. وخرج رؤساء القصور فقابلهم خالد كل أهل قصر على حدة ولامهم على فعلهم، وتصالحوا مع خالد على الجزية، وصالحوه على مائة وتسعين ألفًا، وبعث خالد بالفتح والهدايا إلى أبى بكر فقبل الهدايا وعدها لأهل الحيرة من الجزية تعففًا عما لم يأذن به الشرع، وقطعًا لدابر العادات الأعجمية التى كان يحتال بها على سلب أموال الناس[٢].

وكتب خالد فى عهده لأهل الحيرة: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عاهد عليه خالد ابن الوليد عديًّا وعمرًا ابنى عدى وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرىّ بن أكال - وهم نقباء أهل الحيرة - ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به وعاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة، جزاءً عن أيديهم فى الدنيا، رهبانهم وقسّيسهم، إلا من كان منهم على غير ذى يد، حبيسًا عن الدنيا تاركًا لها وسائحًا تاركًا الدنيا، وعلى المنعة فإن لم يمنعهم شىء فلا شىء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة، وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة ١٢هـ[٣]، وقد جاء فى رواية: أن خالداً عرض على أهل الحيرة واحدة من ثلاث: أن تدخلوا فى ديننا فلكم

---

(١) الحذف: الرمى بالحصى عن جانب والضرب عن جانب.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٣٤٨.

(٣) تاريخ الطبرى (٤/ ١٨١).

ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم، وإن أقمتم فى دياركم، أو الجزية أو المنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة، فقال: بل نعطيكم الجزية، فقال خالد: تبًّا لكم ويحكم إن الكفر فلاة مضلَّة فأحمق العرب من سلكها(١).

ففى حديث خالد رضى الله عنه تتضح بعض الصفات الإيمانية التى تجسدت فى جيش فتح العراق، فهذا الجيش يتحرك من أجل هدف سامٍ ألا وهو دعوة الناس إلى الإسلام وتبليغ الهداية للبشرية، وليس التوسع فى الممالك وفرض السلطان والتمتع بالحياة الدنيا؛ كما بيَّن خالد أهم مقومات نجاح المسلمين فى حروبهم ألا وهو الحرص الأكيد على طلب الشهادة وابتغاء ما عند الله تعالى فى الآخرة، كما بيَّن النص السابق حرص الصحابة رضى الله عنهم على تطبيق سنة النبى ﷺ وذلك بالرغبة القلبية فى هداية البشرية حيث إن خالداً وبَّخهم على اختيار البقاء على الكفر مع أن بقاءهم على الكفر ودفع الجزية فيه مصلحة مالية للمسلمين، ولكن خالداً من قوم هانت عليهم الحياة الدنيا وفضلوا ما عند الله جل وعلا فى الآخرة وقد سَنَّ رسول الله ﷺ لهم هذا المبدأ السامى(٢)، فى قوله ﷺ: **«لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النَّعم»**(٣).

وفى قبول الصديق لهدية أهل الحيرة وقد أهدوها طائعين مختارين، فعدها من الجزية عدلاً وتعففًا وخشية أن يظلم أهل ذمته أو يكلفهم شططًا درس عظيم فى إقامة العدل بين الناس، وقد قارن الشيخ على طنطاوى بين فتوح الاستعمار التى أثارتها أوروبا وبين فتح المسلمين مقارنة متميزة ثم استدل بقول الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحلَّلتم فكان العدل منا سجية ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... فكل إناء بالذى فيه ينضح(٤)

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ١٧٨).
(٢) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٤٨).
(٣) البخارى، كتاب المغازى رقم ٤٢١٠.
(٤) أبو بكر الصديق، طنطاوى، ص٣٣.

● الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية:

كان فتح الحيرة عملاً حربيًا عظيم القيمة وسع أمل المسلمين فى فتح بلاد فارس، لمكان هذا البلد الجغرافى والأدبى من العراق والمملكة الفارسية، فقد اتخذها القائد العام للجيوش الإسلامية مقراً لقيادته العليا ومركزاً رئيسيًا تتلقى منه جيوش الإسلام أوامر الهجوم والدفاع والإمداد والنظم، وكذلك جعلها قاعدة عامة للتدبير والسياسة التى يقوم عليها تنظيم من وقع فى يد المسلمين، وبث خالد عماله على الولايات لجباية الخراج والجزاء، ووجه أمراءه إلى الثغور لحمايتها، وأقام هو ريثما يتم ما أراده من الاستقرار والنظام، وترامت أخباره إلى الدهاقين والرؤساء فأقبلوا إليه يصالحونه حتى لم يبق ما بين قرى سواد العراق إلى أطرافه من ليس مولى للمسلمين أو على عهد منهم[1]، وقد كان من عماله على الأقاليم:

١- عبد الله بن وثيمة النصرى على الفلاليج.

٢- جرير بن عبد الله البجلى على بانقيا.

٣- بشير بن الخصاصية على النهرين.

٤- سويد بن مقرن المزنى على تُستَرُ.

٥- أُطّ بن أبى أُطّ على روذستان.

وكان من قادة الثغور:

١- ضرار بن الأزور الأسدى.

٢- المثنى بن حارثة الشيبانى.

٣- ضرار بن الخطاب الفهرى.

٤- ضرار بن مقرن المزنى.

٥- القعقاع بن عمرو التميمى.

٦- بُسر بن أبى رهم الجهنى.

---

(١) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص٢٢٢.

٧- عُتَيبة بن النَّهاس(١).

● **الرسائل التى أرسلها خالد إلى خاصة الفرس وعامتهم:**

أجمع خالد أمره على منازلة الفرس فى ساحات ملكهم بعد أن صفا له الجو فى العراق وأمن ظهره بانحسار أمر فارس عن العرب، فيما بين الحيرة ودجلة، وكان أهل فارس فى هذه الفترة على خلاف شديد فيمن يولونه عليهم بعد موت كسراهم أزدشير، فانتهز خالد هذه الفرصة وكتب إلى خاصتهم يقول: من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس: أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم وأوهن بأسكم وسلب أموالكم وأزال عزكم، فإذا أتاكم كتابى فأسلموا تسلموا أو اعتقدوا منا الذمة وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذى لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا.(١) وكتب إلى عامتهم فقال: من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس: الحمد لله الذى فض خدمتكم وفرق جمعكم وأوهن بأسكم وسلب أموالكم وأزال عزكم، فإذا أتاكم كتابى فأسلموا تسلموا أو اعتقدوا منا الذمة وأجيبوا إلى الجزية وإلا والله الذى لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا(٢).

وبفتح الحيرة تحقق شطر من أمل أبى بكر رضى الله عنه فى فتح العراق وإخضاعه تمهيداً لغزو فارس فى عقر دارهم، وقد قام خالد بن الوليد رضى الله عنه بمهمته فى ذلك خير قيام، ووصل إلى الحيرة فى وقت قياسى حيث بدأ صراعه مع الأعداء فى شهر محرم من العام الثانى عشر فى معركة الكاظمة وانتهى من فتح الحيرة فى شهر ربيع الأول من العام نفسه(٣).

● **كرامة لخالد بن الوليد فى فتح الحيرة:**

وقد أخرج الإمام الطبرى بإسناده... وكان مع ابن بُقَيْلة(٤)، منصف له(٥) فعلق

(١) أبو بكر الصديق، خالد الجنابى، نزار الحديثى، ص(٥١، ٥٢).
(٢) تاريخ الطبرى (٤/ ١٨٦).
(٣) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٥٠).
(٤) يعنى: عمرو بن عبد المسيح وهو سيد قومه.
(٥) أى: خادم.

كيسًا في حقوه فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه في راحته فقال: ما هذا يا عمرو؟ قال: هذا وأمانة الله سمٌّ ساعة، قال: لم تحتقب السم؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أتيت على أجلي و الموت أحب إليَّ من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي، فقال خالد: إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها وقال: بسم الله خير الأسماء رب الأرض ورب السماء – الذي ليس يضر مع اسمه داء – الرحمن الرحيم، فأهووا إليه يمنعونه منه وبادرهم فابتلعه، فقال عمرو: والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القَرْن[1]، وأقبل على أهل الحيرة فقال: لم أرَ كاليوم أوضح إقبالاً[2]. وقد ذكر هذه الرواية الحافظ ابن كثير ولم يضعفها[3]، وذكرها الحافظ ابن حجر وقال: رواه أبو يعلى ورواه ابن سعد من طريقين آخرين ولم يضعفها[4]، وذكرها ابن تيمية مثالاً من أمثلة الكرامات[5]. وقد أنكر بعض الكتاب المعاصرين هذا الخبر واعتبروه من نسج خيال بعض الرواة حول شخصية خالد، وقد ثبتت هذه الرواية من ناحية الإسناد فقد ارتضاها الطبرى وابن سعد وابن كثير وابن حجر وابن تيمية ولم يضعفوا إسنادها، و هم أعلم وأنصف فى علم التاريخ الإسلامى من الكتَّاب المعاصرين.

إن خالداً رضى الله عنه عندما أقدم على شرب السم، كان فى قمة اليقين والإيمان بأن الله جل جلاله هو الذى خلق كل شيء وأودع فى كل شيء خصائصه، وأنه القادر على أن يلغى مفعول هذه الخصائص إذا أراد لحكمة عالية وهدف عظيم، كما أذهب فعالية النار حينما ألقى فيها إبراهيم عليه السلام وجعلها عليه برداً وسلامًا، وقد حصل ذلك لغير الأنبياء عليهم السلام كما حصل لأبى مسلم الخولانى لما رفض أن يقر بنبوة الأسود العنسى الكذاب؛ فألقاه فى النار فوجوده فيها قائماً يصلى ولم تضره[6]، كما أن خالداً حينما أقدم على ذلك لم يخالج قلبه ذرة من إرادة حظ النفس وكسب السمعة والجاه، لأنه لو نوى شيئًا من ذلك لعلم أن الله تعالى سيتخلى عنه، وهو لا حول له ولا قوة على

---

(١) يعنى: أهل الجيل المعاصر.

(٢) تاريخ الطبرى (٤ / ١٨٠).

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٢٥١).

(٤) الإصابة لابن حجر (٢/ ٢١٨) رقم ٢٢٠٦.

(٥) الفتاوى (١١/ ١٥٤).

(٦) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٥٣).

انتزاع أثر السم الضار وهذه تجربة فذة لا يُطلب من أى مسلم أن يخوضها، ولو كان هدفه نفس الهدف الذى رمى إليه خالد، لأنه يندر أن يوجد من يبلغ إيمانه وثقته بالله تعالى إلى المستوى الذى بلغ إليه خالد رضى الله عنه وأرضاه(١).

٦- فتح الأنبار (ذات العيون)

استقام الأمر لخالد فى تلك الجهات فاستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو التميمى، واتجه بتعبئة لإغاثة عياض بن غنم الذى أرسله الصديق لفتح العراق من الشمال، ويلتقى بخالد، وصل خالد إلى الأنبار فوجد القوم قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالى الحصون(٢)، فضرب المسلمون عليهم الحصار وأمر خالد جنوده أن يصوبوا إلى عيون أهل الأنبار، فلما نشب القتال أصابوا فى أول رمية ألف عين من عيونهم، و لذلك سميت هذه الوقعة ذات العيون(٣)، واخترق خالد الخندق الذى حول الأنبار بفطنة وذكاء، حيث عمد إلى الضعاف من الإبل بجيشه فنحرها وملأ الخندق فى أضيق نقطة فيها بجثث الإبل، واقتحم المسلمون الخندق وجسرهم جثث الإبل، وصاروا مع عدوهم داخل الخندق، فالتجأ العدو إلى الحصن(٤)، واضطر شيراز قائد جند الفرس إلى قبول الصلح بشروط خالد على أن يخرج من الأنبار فى عدد من الفرسان يحرسونه، فقبل خالد منه ذلك بشرط ألا يأخذ معه من المتاع أو من الأموال شيئًا(٥).

وتعلم الصحابة ممن بها من العرب الكتابة العربية، وكان أولئك العرب قد تعلموها من عرب قبلهم وهم بنو إياد، كانوا بها فى زمان بختنصر حين أباح العراق للعرب، وأنشدوا خالداً قول بعض إياد يمتدح قومه:

قومى إياد أنهم أمم ... أولو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم باحة العراق إذا ... ساروا جميعًا واللوح والقلم(٦)

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/١٥٤).

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٣٥٠.

(٣) البداية والنهاية (٦/٣٥٣).

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٣٥٠.

(٥) تاريخ الطبرى (٤/١٩١).

(٦) البداية والنهاية (٦/٣٥٣).

٧- عين التمر :

استخلف خالد الزبرقان بن بدر على الأنبار وسار إلى عين التمر، فوجد عقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من النمر وتغلب وإياد ومن حالفهم، ومعهم من الفرس مهران بقواته[١]، وطلب عقة من مهران أن يتركه لقتال خالد وقال له : إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً فقال له : دونكم وإياهم وإن احتجتم إلينا أعناكم فلامت العجم أميرهم على هذا، فقال : دعوهم فإن غلبوا خالداً فهو لكم وإن غُلِبُوا قاتلنا خالداً وقد ضعفوا ونحن أقوياء، فاعترفوا له بفضل الرأى عليهم، وسار خالد وتلقاه عقة، فلما تواجهوا قال خالد لمجنبته : احفظوا مكانكم فإنى حامل، وأمر حماته أن يكونوا من ورائه وحمل على عقة وهو يسوى الصفوف فاحتضنه وأسره وانهزم جيش عقة من غير قتال فأكثروا فيهم الأسر، وقصد خالد حصن عين التمر، فلما بلغ مهران هزيمة عقة وجيشه نزل من الحصن وهرب وتركه، ورجعت فلول نصارى الأعراب إلى الحصن فوجدوه مفتوحًا فدخلوه واحتموا به، فجاء خالد وأحاط بهم وحاصرهم أشد الحصار، واضطر أهل الحصن أن ينزلوا على حكم خالد، فأمر بضرب عنق عقة ومن كان أسر معه والذين نزلوا على حكمه أجمعين، وغنم جميع ما فى ذلك الحصن ووجد فى الكنيسة التي به أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل وعليهم باب مغلق فكسره خالد وفرقهم فى الأمراء وأهل الغناء، وكان حمران مولى عثمان بن عفان من ذلك الخمس، ومنهم سيرين والد محمد ابن سيرين أخذه مالك بن أنس، وأرسل خالد الخمس إلى الصديق، ثم أرسل أبو بكر الوليد بن عقبة إلى عياض مدداً له وهو محاصر دومة الجندل، فلما قدم عليه وجده فى ناحية من العراق يحاصر قومًا، وهم قد أخذوا عليه الطرق فهو محصور أيضًا، فقال عياض للوليد : إن بعض الرأى خير من جيش كثيف ماذا ترى فيما نحن فيه؟ فقال له الوليد : اكتب إلى خالد يمدك بجيش من عنده فكتب إليه يستمده فقدم كتابه على خالد عقب وقعة عين التمر وهو يستغيث به، فكتب إليه : من خالد إلى عياض: إياك أريد . لَبِّثْ قليلاً تأتِكَ الحلائب[٢] يحملن آساداً عليها القشائب[٣]، كتائب تتبعها كتائب[٤].

(١) البداية والنهاية (٦/٣٥٤).
(٢) الحلائب : ما يحمل عليه من دواب.
(٣) القشائب : السموم جمع قشب.
(٤) البداية والنهاية (٦/٣٥٤).

٨- دومة الجندل:

رحل خالد بجنده من عين التمر بعد أن خلف عليها عويم بن الكاهل الأسلمى، ووصلت أنباؤه إلى أهل دومة الجندل فاستنجدوا بحلفائهم من قبائل بهراء وكلب وغسان وتنوخ(١)، وكان أمر أهل دومة الجندل إلى زعيمين هما: أكيدر بن عبد الملك والجودى بن ربيعة فاختلفا فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمنُ طائراً منه، ولا أحدٌ فى حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلُّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعونى وصالحوا القوم، فأبوا عليه فقال: لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم(٢).

وهذه شهادة خصم فى خالد والحق ما شهدت به الأعداء، وقد كان خالد أسره قبل ذلك حينما أرسله إليه رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فأخذه وأتى به إلى النبى ﷺ فمنَّ عليه، وكتب له كتاب عهد ولكنه خان العهد بعد ذلك، ولقد بقى الرعب فى نفسه منذ يوم أسره خالد إلى جانب سمعته الشهيرة فى حروبه مع العرب والعجم، وخرج أكيدر مفارقًا قومه وبلغ خالداً خبره وهو فى طريقه إلى (دومة) فأرسل إليه عاصم ابن عمرو معارضاً له فأخذه فقال: إنما تلقيت الأمير خالداً، ولكن خيانته السابقة جعلت خالد ينفذ فيه حكم الإعدام، وهكذا قتله الله بخيانته ونقضه العهد ولم يُغن الحذر من القدر(٣).

ونزل خالد على دومة الجندل وجعل أهلها ومشايعيهم من بهراء وكلب وتنوخ بين فكى (كماشة) ذراعها الأول عسكره والثانية عسكر عياض بن غنم(٤)، وتقدم الجودى ابن ربيعة بجنوده نحو خالد، وتقدم ابن الحدرجان وابن الأيهم بجنودهما ناحية عياض، ودارت المعركة وأنزل خالد الهزيمة بالجودى وأتباعه، وانتزع عياض النصر من ابن الحدرجان ومن معه بصعوبة، وحاولت فلول المنهزمين الاحتماء بالحصن ولكنه كان قد عج بمن فيه فأغلقوه عليهم وتركوا أصحابهم حوله فى العراء، ولم يلبث خالد أن هاجم من بداخل الحصن بعد أن اقتلع بابه فقتل منهم جموعًا كثيرة(٥)، وبفتح دومة الجندل

---

(١) البداية والنهاية (٦/٣٥٤).

(٢) البداية والنهاية (٦/٣٥٥)؛ تاريخ الطبرى (٤/١٩٥).

(٣) التاريخ الإسلامى (٩/١٦٣).

(٤) خالد بن الوليد: صادق عرجون، ص٢٣١.

(٥) تاريخ الطبرى (٤/١٩٦)؛ أبو بكر الصديق، خالد الجنابى، ص٥٤.

أصبح للمسلمين موقع استراتيجى ذو أهمية فريدة لأن دومة الجندل تقع على ملتقى الطرق إلى ثلاث جهات، فشبه الجزيرة العربية من الجنوب والعراق من الشمال الشرقى والشام من الشمال الغربى، ومن الطبيعى أن تنال هذه المدينة مثل هذه العناية من الخليفة أبى بكر الصديق وجنوده تقاتل بالعراق وتقف على تخوم الشام، وتلك هى العلة فى أن عياضاً لم يبرحها بل ظل مرابطًا أمامها إلى أن خف إليه خالد، ولو أن دومة الجندل لم تذعن للمسلمين لبقى أمرهم فى العراق تحفه المخاطر(١).

وبذلك استطاع خالد أن يعين عياضًا على فتح دومة الجندل، ولئن كانت حروب خالد رضى الله عنه فى جنوب العراق مثالاً للبراعة فى الهجوم السريع واغتنام الفرص وإثارة الرعب لدى الأعداء، فإن ثبات عياض رضى الله عنه هذه المدة الطويلة فى وجه أعداء قد تكالبوا عليه من كل مكان دليل على تمتع الجيش الإسلامى أيضًا بالصبر والمصابرة وطول الأمل، والثقة بنصر الله تعالى فى النهاية، وكان عياض رضى الله عنه من أفاضل المهاجرين ومن سادة قريش، وكان سمحًا جواداً وقد وثق به الخلفاء وولاتهم بعد ذلك، فكان أحد قادة اليرموك وكان على مقدمة جيش أبى عبيدة ثم فتح بعد ذلك الجزيرة بأكملها وهى المناطق التى بين الشام والعراق، واستخلفه أبو عبيدة رضى الله عنه على الشام لما حانت وفاته فأقره عمر رضى الله عنه على الشام إلى أن احتاج إليه فى الفتوح فوجهه إليها(٢).

٩- وقعة الحُصَيد(٣):

أمر خالد الأقرع بن حابس بالرجوع إلى الأنبار، وأقام بدومة الجندل فكانت إقامته مدعاة لطمع الأعاجم وظنهم به الظنون وكذلك ظنها عرب المنطقة فرصة، فكاتبوا الأعاجم ليكونوا معهم على خالد غضبًا لعقة الذى لم ينسوا مصرعه بعد، فخرج زرمهر من بغداد ومعه روزبة يريدان الأنبار، وتواعدا فى الحصيد والخنافس، فوصل خبرهم الزبرقان بن بدر وهو على الأنبار، فاستمد القعقاع بن عمرو خليفة خالد على الحيرة، فأمده بأعبد بن فدكى السعدى (أبو ليلى) وأمره بالحصيد وبعروة بن الجعد البارقى

(١) أبو بكر الصديق، نزار الحديثى، خالد الجنابى، ص٥٤.
(٢) التاريخ الإسلامى (٩/١٦٤).
(٣) الحصيد: موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة.

وأمره بالخنافس، وعندما علم خالد بتحرك بعض القبائل ورغبتهم بالانضمام إلى روزبة في الحصيد جعل القعقاع أميراً على الناس في الحصيد بعد أن ترك مكانه عياض بن غنم على الحيرة، فلما علم روزبة بتوجه القعقاع إليه استمد زرمهر، فانضم إليه والتقى المسلمون بجموع الفرس وقتلوا منهم مقتلة عظيمة من بينهم زرمهر وروزبة وغنموا غنائم كثيرة[١]، وقد قال القعقاع بن عمرو في هذه المعركة:

ألا أبلغا أسماء أن حليلها ... قضى وطراً من روزمهر الأعاجم

غدا صبحنا في حصيد جموعهم ... لهندية تفرى فراخ الجماجم[٢]

١٠- وقعة المُصيَّخ:

بعد أن وصلت أخبار المسلمين في الحُصَيد إلى خالد واعد قادة جيوشه في ليلة وساعة يجتمعون فيها عند المُصيَّخ قرب حوران فلما توافوا في موعدهم بيتوا بعض القبائل ومن آوى إليهم من ثلاثة أوجه فأوقع بهم خسائر كبيرة[٣]، ثم علم خالد بتحشد بعض القبائل في (الثَّنِيّ) وهو موضع قرب الرقة و(الزُّمَيْل) في ديار بكر استعداداً لقتال المسلمين فباغتهم في (الثَّنِيّ) من عدة اتجاهات فشتت جموعهم، وكذلك هاجم المتحشدين في (الزميل) فأوقع بهم خسائر هائلة[٤].

يقول عدى بن حاتم: انتهينا في هذه الغارة إلى رجل يقال له حرقوص بن النعمان النمرى، وحوله بنوه وبناته وامرأته، وقد وضع لهم جفنة من الخمر وهم يقولون: أحد يشرب هذه الساعة وهذه جيوش خالد قد أقبلت؟ فقال لهم: اشربوا شرب وداع فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها، فشربوا وجعل يقول:

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر ... بعيد انتفاخ القوم بالعكر الدثر

وقبل منايانا المصيبة بالقدر ... لحين لعمرى لا يزيد ولا يجرى[٥]

---

(١) البداية والنهاية (٦/٣٥٥).

(٢) الكامل في التاريخ (٢/٥٩).

(٣) أبو بكر الصديق، خالد الجنابى، نزار الحديثى، ص٥٥.

(٤) تاريخ الطبرى (٤/١٩٩، ٢٠٠).

(٥) نفس المصدر السابق (٤/١٩٩).

فسبق إليه وهو فى ذلك فى بعض الخيل فضرب رأسه، فإذا هو فى جفنته وأخذنا بناته وقتلنا بنيه(١).

وقد قتل فى هذه المعركة رجلان كانا قد أسلما ومعهما كتاب من الصديق بالأمان، ولم يعلم بذلك المسلمون فلما بلغ خبرهما الصديق وداهما وبعث بالوصاة بأولادهما وقال فيهما الصديق: كذلك يلقى من يساكن أهل الحرب فى ديارهم، أى الذنب لهما فى مجاورتهما المشركين(٢).

١١- وقعة الفراض:

بعد أن بسط خالد راية الإسلام على العراق، واستسلمت له قبائل العرب قصد الفراض، وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة حتى يحفظ ظهره ويأمن من أن تكون وراءه عورة عند اجتيازه أرض السواد إلى فارس، فلما اجتمع المسلمون بالفراض غضب الروم وهاجوا واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس فلبسوا سراعًا لأنهم كانوا حانقين على المسلمين الذين أذلوهم وكسروا شوكتهم، كما استمدوا العرب من تَغْلِب وإياد والنَّمِر فأمدوهم لأنهم لم ينسوا بعد مصرع رؤسائهم وأشرافهم، فاجتمعت جيوش الفرس والروم والعرب على المسلمين فى تلك الموقعة، فلما بلغوا الفرات قالوا للمسلمين: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم، فقال خالد: بل اعبروا إلينا، قالوا: فتنحوا حتى نعبر، فقال خالد: لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا. وذلك للنصف من ذى القعدة سنة اثنتى عشرة. فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض: احتسبوا ملككم هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم، والله لَيُنْصَرن ولَنُخذلَنَّ، ثم لم ينتفعوا بذلك، فعبروا أسفل من خالد، فلما تتاموا قالت الروم: امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسنٍ أو قبيح من أينا يجىء! ففعلوا فاقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً، ثم إن الله عز وجل هزمهم وقال خالد للمسلمين: ألحوا عليهم ولا ترفهوا عنهم فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه فإذا جمعوهم قتلوه، وقتل من الأعداء عشرات الألوف، وأقام خالد فى الفراض عشرة أيام ثم أمر بالرجوع للحيرة(٣).

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ١٩٩).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٦).

(٣) تاريخ الطبرى (٤/ ٢٠١).

وهكذا واجه المسلمون لأول مرة جيشًا مكونًا من الفرس الذين يمثلون دولة المشرق العظمى والروم الذين يمثلون دولة المغرب العظمى والعرب الموالين لهؤلاء وهؤلاء، ومع ذلك انتصر المسلمون عليهم انتصاراً ساحقًا، ولا شك أن هذه المعركة تعتبر من المعارك التاريخية الفاصلة - وإن لم تَنَلْ من الشهرة ما نالته المعارك الكبرى - لأنها حطمت معنويات الكفار على مختلف انتماءاتهم حيث هزموا جميعًا، وهذه المعركة تعتبر خاتمة المعارك التي خاضها سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضى الله عنه فى العراق(١)، وانكسرت شوكة الفرس بعد هذه المعركة، ولم تقم لهم قوة حربية يخشاها الإسلام بعد هذه الموقعة(٢).

ومما قاله القعقاع بعد عمرو فى هذه المعركة:

لقينا بالفراض جموع روم	وفرس غَمَّها طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا	وبيتنا بجمع بنى رزام
فما فتئت جنود السلم حتى	رأينا القوم كالغنم السَّوام(٣)

ثالثًا: حجة خالد وأمر الصديق له بالخروج إلى الشام وتسلم المثنى لقيادة جيوش العراق:

١- حجة خالد (١٢هـ) وأمر الصديق له بالخروج إلى الشام:

أقام خالد بالفراض عشرة أيام ثم أذن بالقفول إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير فى المقدمة وأمر شَجَرة بن الأعز أن يسير فى الساقة، وأظهر خالد أنه يسير فى الساقة، ثم انطلق فى كوكبة من أصحابه وقصد شطر المسجد الحرام وسار إلى مكة فى طريق لم يُسلك قبله قط وتأتى له فى ذلك أمر لم يقع لغيره، فجعل يسير معتسفًا على غير جادة حتى انتهى إلى مكة، فأدرك الحج هذه السنة (١٢هـ)، ثم عاد فأدرك أمر الساقة قبل أن يصلوا الحيرة، ولم يعلم أبو بكر الصديق بذلك أيضاً إلا بعدما رجع أهل الحج من الموسم فبعث يعتب عليه فى مفارقته

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٧٣).

(٢) خالد بن الوليد، ص٣٦.

(٣) معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، عبدالجبار السامرائى، ص١٢٣.

الجيش[1]، وأمره بالذهاب إلى الشام وجاء فى خطاب الصديق لخالد : أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء[2].

هذا الخطاب الجليل من الخليفة الحكيم رضى الله عنه يصور مدى حرص الصديق رضى الله عنه على القواد الناجحين، فيمدهم بالمشورة والنصائح التى تأخذ بيدهم إلى الفوز والتمكين بفضل الله:

أ - يأمر الصديق رضى الله عنه سيف الله خالداً أن يترك العراق ويتوجه إلى الشام لعل الله يفتح على يديه هذا الموقع.

ب - ينصحه ألا يعود فى مثل ما حدث فى حجه بدون إذن من الخليفة.

ج - يأمره أن يسدد ويقارب ويجتهد مخلصاً النية لله وحده.

د - يحذره من العجب بالنفس والزهو والفخر، فذلك حظ النفس الذى يفسد العمل على العامل ويرده فى وجهه، كما يحذره أن يدل ويمن على الله بالعمل الذى يعمله، فإن الله هو المان به إذ التوفيق بيده سبحانه[3].

هذا وقد ظهرت فى معارك العراق مقدرة الجيوش الإسلامية على تطبيق مبادئ الحرب من مباغتة وصد الهجوم وتثبيت الأعداء، وحشد القوات وإدامة المعنويات وجمع المعلومات، ورسم الخطط وتنفيذها بكل قوة ودقة واحتياط منقطع النظير، فهو لم يذهب إلى الشام لمجاهدة الروم إلا بعد خبرة واسعة فى فتوحات العراق، وكان المرشح للبقاء على جيوش العراق بعد سفر خالد المثنى بن حارثة الشيبانى لخبرته الواسعة بأرض العراق ومهارته الفائقة فى حرب الفرس، ويظهر للباحث أن الخطط التى وضعها خالد فى حروب العراق كانت تعتمد على الله ثم على جمع المعلومات الدقيقة التى تدل على نشاط مخابراته واستكشافاته فى الميدان، والذى يبدو أن هذه المخابرات قد قام بتنظيمها

---

(١) البداية والنهاية (٦/٣٥٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٤/٢٠٢).

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٩٥.

القائد الفذ (المثنى بن حارثة الشيبانى) ليس فقط لألمعيته وقدرته الفائقة على التنظيم، وإنما لمعايشته للمنطقة، فهو ينتمى إلى (بنى شيبان) من (بكر بن وائل) الذين كانت منازلهم بتخوم العراق وحوض الفرات التى تمتد شمالا إلى (هيت)، فكانوا بحكم مساكنهم واتصالاتهم مؤهلين لأن يكونوا عيونًا (مخابرات) فما وجدنا تحركًا لجيش من جيوش الفرس إلا وكان خبر ذلك التحرك منذ بدئه على لسان (المثنى) فى الوقت المناسب، وما من شاردة ولا واردة تحدث فى بلاط الفرس إلا وكان (المثنى) على علم بها فى حينها(١).

وكان فى خطاب الصديق إلى خالد: دع العراق واخلف فيه أهله الذى قدمت عليهم، ثم امضِ مخففًا فى أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك فى الطريق وقدموا عليك من الحجاز، ثم تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك ورحمة الله(٢)، وتهيأ خالد للسير إلى الشام وقسم خالد الجند نصفين: نصفًا يسير به إلى الشام ونصفًا للمثنى، ولكنه جعل الصحابة جميعًا من نصيبه، فقال له المثنى: والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة وإبقاء النصف، فوالله ما أرجو النصر إلا بهم فأنت تعرينى منهم، وكان خطاب الصديق قد وصل إلى خالد قبل سفره يأمره فيه بمن يأخذ من الجند ومن يدعهم للمثنى قال: يا خالد لا تأخذ مجداً إلا خلفت لهم مجداً، فإذا فتح الله عليك فارددهم إلى العراق وأنت معهم ثم أنت على عملك(٣).

فما زال خالد يسترضى المثنى ويعوضه عن الصحابة بمقاتلين من سادة أقوامهم من أهل البأس وممن عرفوا بالشجاعة والصبر وشدة المراس، فرضى المثنى آخر الأمر(٤)، وحشد خالد جنوده وانطلق ليعبر إلى الشام صحارى رهيبة غائبة النواحى مترامية الآفاق كأنما هى التيه وسأل الأدلاء: كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم؟ فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين! قالوا له: لا نعرف إلا طريقًا لا يحمل الجيوش

---

(١) معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، ص١٣٤.

(٢) الصديق أول الخلفاء، ص١٦٩.

(٣، ٤) الصديق أول الخلفاء، ص١٧٠.

فوالله إن الراكب المفرد ليخافه على نفسه! إنك لن تطيق ذلك الطريق بالخيل والأثقال، إنها لخمس ليال لا يُصاب فيها ماء.

قال خالد: إنه لابد من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم، وعزم خالد على سلوك هذا الطريق مهما تكن مخاطره، فكم فاز باللذة الجسور، فنصحه رافع بن عمير أن يستكثر من الماء حتى يجتاز ذلك الطريق، فأمر خالد جنوده أن يخزنوا الماء في بطون الإبل العطاش، ثم يشدوا مشافرها لكيلا تجتر فتستنزف الماء[١]، وقال لرجاله: إن المسلم لا ينبغي أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له[٢].

وسار به الدليل رافع بن عمير في طريق تمتاز بوعورتها وقلة مائها وضياع معالمها وقلة سكانها ولا سيما الجزء الممتد بين قراقر وسوى[٣]، إلا أنها أقصر الطرق، فأوضح خالد لجنده الاعتبارات التي تجعله يفضل سلوك هذا الطريق على غيره، وهي السرعة والسرية والمباغتة، وكان رافع قد طلب من خالد أن يهيئ عشرين ناقة كبيرة فأعطاه ما أراد، فمنع عنها الماء أياماً حتى عطشت ثم أوردها إياه فملأت جوفها فقطع مشافرها وكممها فلا تجتر، ثم قال لخالد: سر الآن بالخيول والأثقال وكلما نزلت منزلاً نحرت من تلك الإبل وشرب الناس مما تزودوا، فسار الجيش من قراقر وهي آخر قرى العراق على حدود الصحراء إلى سُوَى وهي أوائل قرى الشام، والمسافة بينهما خمس ليال يستريحون بالنهار ويسيرون بالليل،واعتمد خالد على رافع بن عمير دليلاً بعد أن وثق به ومن صحة دلالته،واختار محرز المحاربي لحذقه في الدلالة على النجوم،لذلك كان مسيرهم ليلاً وصباحًا مع تحاشي السير عند ارتفاع النهار والظهيرة لقطع مرحلتين في اليوم الواحد، ولم يترك خالد أحداً من جنده يسير راجلاً وإنما أركب الجند الإبل للمحافظة على قابليتهم البدنية، وسار خالد في الطريق وكلما نزل منزلاً نحر عدداً من النوق فأخذ ما في أكراشها فسقاه الخيل، ثم شرب الناس مما حملوا من الماء،فلما كان اليوم الخامس نَفِدَ الماء، فخاف خالد على أصحابه من العطش، وقال لرافع وهو أرمد: ما عندك؟ فطلب رافع من الناس أن يبحثوا عن شجرة عوسج صغيرة في تلك المنطقة فلم يجدوا إلا جزءاً

---

(١) الصديق أول الخلفاء، ص١٧١.

(٢) الحرب النفسية، د.أحمد نوفل (٢/ ١٥٥).

(٣) القراقر: ماء الكلب في بادية السماوة، وسوى ماء لبهراء في بادية السماوة، (ياقوت، المعجم، ٣/ ٢٧١، ٤/ ٣١٧).

صغيراً من ساقها، فأمر رافع أن يحفروا هناك، فحفروا فظهرت عين للماء فشربوا حتى روى الناس، فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل[1]،وقد قال بعض العرب لخالد في هذا المسير: إن أنت أصبحت عند الشجرة الفلانية نجوت أنت ومن معك، وإن لم تدركها هلكت أنت ومن معك فسار خالد بمن معه وسروا سروة عظيمة فأصبحوا عندها، فقال خالد : عند الصباح يحمد القوم السُرَى فأرسلها مثلاً وهو أول من قالها رضى الله عنه[2].

وقد قال رجل من المسلمين في مسيرهم هذا مع خالد :

لله دَرٌّ رافعٍ أنَّى اهتدى فَوَّزَ من قراقرٍ إلى سُوَى

خمسًا إذا ما سارها الجيش بكى ما سارها قبلك إنسيٌ يُرَى[3]

وهذه القصة تدل على أن القائد المحنك لا يبالي بالأخطار وأنه أعمل الحيلة في سبيل الحصول على الماء لقطع الصحراء حتى وصل إلى غرضه، وفي اليوم الخامس وصل جيش خالد إلى سوى وهو أول تخوم الشام تاركًا وراءه حاميات الروم على الطرق الرئيسة العامة تواجه العراق، وكانت حركته في قطع الصحراء بخمسة أيام أعجوبة من أعاجيب المخاطر المحسوبة، ذللتها إرادة القائد وإيمانه وإقدامه[4].

وصل خالد إلى (أدك) وهي أول حدود الشام، فأغار على أهلها وحاصرهم فحررها صلحًا ثم نزل تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا، ثم طلبوا الأمان فصالحهم وواصل سيره فأتى (القريتين)، فقاتله أهلها فظفر بهم، ثم قصد (حوارين)، وصار إلى موضع يعرف بالثنية، فنشر رايته وهي كانت لرسول الله ﷺ تسمى العُقَاب فسمي ذلك الموضع بثنية العُقَاب[5]، ولما مر بعذراء أباحها وغنم لغسان أموالاً عظيمة وخرج من شرقي دمشق، ثم سار حتى وصل إلى قناة بصرى، فوجد الصحابة تحاربها فصالحه صاحبها وسلمها إليه، فكانت أول مدينة فتحت من الشام ولله الحمد، وبعث خالد بأخماس ما غنم من

---

(١) أبو بكر الصديق، نزار الحديثي وخالد الجنابي، ص٦٨ .

(٢، ٣) البداية والنهاية (٧/٧).

(٤) معركة اليرموك، اللواء خليل سعيد، بحث مقدم إلى ندوة الفكر العسكري العربي نقلاً عن أبي بكر الصديق، خالد الجنابي، ص٦٨ .

(٥) أبو بكر الصديق، د.نزار الحديثي، خالد الجنابي، ص٦٨ .

غسان مع بلال بن الحرث المزنى إلى الصديق، ثم سار خالد وأبو عبيدة ومرثد وشرحبيل إلى عمرو بن العاص - وقد قصده الروم بأرض العربا من المعور - فكانت واقعة أجنادين[١].

وهكذا نجح خالد بن الوليد فى الوصول إلى الشام لمساندة الجيوش الإسلامية بعد مغامرة ومباغتة فذة فى التاريخ العسكرى الإنسانى، يقول اللواء محمود شيت خطاب عن ذلك: ... وعبور خالد للصحراء من الطريق الخطر مباغتة فذة فى التاريخ العسكرى لا أعرف لها مثيلا ولست أعتقد أن عبور هانيبال للألب، وعبور نابليون للألب أيضاً، ولا تفويز نابليون من صحراء سيناء، أو قطع الجيش البريطانى لهذه الصحراء فى الحرب العالمية الأولى، يمكن أن تعتبر شيئًا إلى جانب مغامرة خالد، لأن عبور الجبال أسهل بكثير من عبور الصحراء لتيسر الماء فى الجبال وعدم تيسره فى الصحراء ولأن صحراء سيناء فيها كثير من الآبار والأماكن المأهولة وعدم تيسر ذلك فى الصحراء التى قطعها خالد، فكان نجاح خالد فى عبور الصحراء مباغتة كاملة للروم لم يكونوا يتوقعونها بتاتًا[٢]، مما جعل حاميات المدن والمواقع التى صادفته فى طريقه بين العراق وأرض الشام تستسلم لقوته بعد قتال طفيف أو بدون قتال، لأنها لم تكن تتوقع أبداً أن تلاقى قوة جسيمة من المسلمين تظهر عليهم من هذا الاتجاه فى هذا الوقت بالذات[٣].

لقد تأثر القادة العسكريون على مرِّ التاريخ وتوالى الأزمان بالعبقرية العسكرية الخالدية حتى قال عنه الجنرال الألمانى (فون درغولتيس) مؤلف كتاب «الأمة المسلحة» قائد إحدى الجبهات التركية الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى: (إنه أستاذى فى فن الحرب)[٤].

٢ - خبر المثنى بن حارثة بالعراق بعد ذهاب خالد:

كان المثنى شجاعًا مقدامًا شهمًا غيوراً وكان ميمون النقيبة حسن الرأى، وكان راسخ العقيدة قوى الإيمان شديد الثقة بالله، بعيد النظر يؤثر المصلحة العامة على مصلحته

(١) البداية والنهاية (٧/٦، ٧).
(٢) قادة فتح العراق والجزيرة، ص١٩٣ نقلاً عن الحرب النفسية (٢/١٦٣).
(٣) الحرب النفسية، د. أحمد نوفل (٢/١٦٢).
(٤) معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، ص١٦٧.

الخاصة، وكان يشارك أصحابه في السراء والضراء وكان يمتلك موهبة إعطاء القرارات الصحيحة السريعة، وكان ذا إرادة قوية ثابتة يتحمل المسئولية الكاملة في أخطر الظروف والأحوال، يثق بقواته وتثق به قواته ثقة لا حدود لها، ويحبهم ويحبونه حبًا لا مزيد عليه، ذا شخصية قوية نافذة فهو بحق كما يقول عنه عمر بن الخطاب: مؤمر نفسه[1]، كانت له قابلية فائقة تعينه على أعباء القتال، وله ماض ناصع مجيد، وكان دائما أول من يهاجم وآخر من ينسحب، وكان خبيراً بمناطق العراق جريئًا على الفرس سريع الحركة واسع الحيلة، وكان أول من اجترأ على الفرس بعد الإسلام وجَّرأ المسلمين عليهم، وأبلى في حروب العراق بلاء لم يبله أحد، وهو الذى رفع معنويات المسلمين وحطم معنويات الفرس[2]، وقد وصف المثنى جنود الفرس فقال: قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليَّ من ألف من العرب، ولمائة من العرب اليوم أشد عليَّ من ألف من العجم، إن الله أذهب بأسهم وأوهن كيدهم فلا يروعَنّكُمْ زهاء ترونه ولا سواد ولا قسى فج ولا نبال طوال، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كانوا كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت[3].

كان تعيين الصديق للمثنى على العراق في محله ويدل على معرفته بأقدار الرجال ومعادنهم، وعندما حان وقت رحيل خالد بجيشه إلى الشام خرج معه المثنى لوداعه ولما حانت لحظة الفراق، قال له خالد: ارجع - رحمك الله - إلى سلطانك غير مقصِّر ولا وانٍ[4]، وتسلم المثنى قيادة العراق بعد خالد، وما إنْ علم كسرى بذهاب خالد حتى حشد آلاف الجنود بقيادة (هرمز جاذويه) وكتب للمثنى يُهَدِّد ويتوعد، فقال: إنى قد بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم[5]، وأجابه المثنى بعقل وفطنة ولم ينسَ شجاعته في الرد على هذا المجوسي، فكتب يقول في رسالة لكسرى: إنما أنت أحد رجلين: إما باغ فذلك شرٌّ لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وعند الناس الملوك، وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم فالحمد لله الذى ردَّ كيدكم إلى رعاة الدجاج

(١، ٢) الحرب النفسية (٢/١٦٤).

(٣) من ذى قار إلى القادسية، صالح عماش، ص١٢٤ نقلاً عن الحرب النفسية (٢/١٦٨).

(٤) عصر الصحابة، عبدالمنعم الهاشمى، ص ١٨٩.

(٥) الكامل لابن الأثير (٢/٧٣).

والخنازير(١). فجزع أهل فارس من هذا الكتاب ولاموا ملكهم على كتابه، واستهجنوا رأيه، وسار المثنى من الحيرة إلى بابل ولما التقى المثنى وجيشهم بمكان عند عُدوة الصَّراة الأولى(٢)، اقتتلوا قتالاً شديداً جداً وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرق خيول المسلمين، فحمل عليه أمير المسلمين المثنى بن حارثة فقتله، وأمر المسلمين فحملوا، فلم تكن إلا هزيمة الفرس فقتلوهم قتلا ذريعًا، وغنموا منهم مالا عظيمًا، وفرَّت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن فى شر حالة ووجدوا الملك قد مات(٣)، وعاد الاضطراب إلى بلاد فارس، وطارد المثنى أعداء الله حتى بلغ أبواب المدائن، ثم كتب إلى أبى بكر بانتصاره على الفرس، واستأذنه فى الاستعانة بمن تابوا من أهل الردة لكن انتظاره طال وأبطأ عليه أبو بكر فى الرد لتشاغله بأهل الشام وما فيه من حروب، فسار المثنى بنفسه إلى الصديق واستناب على العراق بشير بن الخصاصية وعلى المسالح سعيد بن مرة العِجْلى(٤)، فلما وصل المدينة وجد أبا بكر رضى الله عنه على فراش المرض وقد شارف الموت، واستقبله أبو بكر واستمع إليه واقتنع برأيه، ثم طلب عمر بن الخطاب فجاءه، فقال له: اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا، فإن أنا مت فلا تمسينَّ حتى تندب الناس مع المثنى، ولاتشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتنى متوفَّى رسول الله وما صنعت ولم يُصَب الخلق بمثله... وإن فتح الله على أمراء الشام فارْدُد أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وهم أهل الضراوة بهم والجراءة عليهم(٥).

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٣).

(٢) الصراة: بالفتح وهو نهر يستمد من الفرات.

(٣، ٤) البداية والنهاية (٧/ ١٨).

(٥) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٤).

المبحث الثانى

فتوحات الصديق بالشام

تمهيـــد :

كان اهتمام المسلمين بالشام منذ زمن النبى ﷺ حيث كتب إلى هرقل عظيم الروم كتابًا يدعوه إلى الإسلام، وكتب ﷺ إلى الحارث بن أبى شمْر الغسانى ملك غسان بالبلقاء(١) من أرض الشام وعامل قيصر على العرب يدعوه إلى الإسلام، فأدركته العزة بالإثم فأراد أن يغزو رسول الله ﷺ، فأتاه أمر من قيصر ينهاه عن ذلك، وأرسل ﷺ جيشًا بقيادة زيد بن حارثة فاستشهد فى مؤتة هو وجعفر بن أبى طالب و عبدالله بن رواحة، وتولى بعدهم خالد بن الوليد الذى قام بمناورة عسكرية ناجحة تركت أثرًا بعيدًا فى نفوس أهالى تلك المناطق، ونستطيع أن نقول إن النبى ﷺ بتلك الغزوة وضع أسسًا وقطع خطوة نحو القضاء على دولة الروم المتجبرة فى بلاد الشام، وهزَّ هيبتها من قلوب العرب، وحمَّس المسلمين للاستعداد المعنوى والمادى لإتمام بقية الخطوات المباركة، بل قاد غزوة تبوك بنفسه ﷺ، ومن خلال الاحتكاك الميدانى استطاع المسلمون أن يتعرفوا على حقيقة قوات الروم ومعرفة أساليبهم فى القتال، وأعطت تلك الغزوات الفرصة لأهالى بلاد الشام على أن يتعرفوا على أصول هذا الدين ومبادئه وأهدافه، فآمن كثير من أهالى تلك البلاد، واستمر الصديق على المنهج الذى وضعه رسول الله ﷺ، ولذلك أصرَّ بعد وفاة النبى ﷺ على إنفاذ جيش أسامة، ولما عقد الصديق الألوية من ذى القصَّة عقد منها لواءً لخالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى مشارف الشام، ثم أمره أن يكون رِدءًا للمسلمين بتيماء(٢)، لا يفارقها إلا بأمره ولا يقاتل إلا من قاتله، فبلغ خبره هرقل - ملك الروم - فجهز جيشًا من العرب التابعين للروم من بَهراء وسليح وكلب ولخم وجُذام وغسان، فسار إليهم خالد بن سعيد فلقيهم على منازلهم فافترقوا، وأرسل هو لأبى بكر بالخبر فكتب إليه يأمره بالإقدام. وأن يزحف على الروم قبل تنظيم صفوفهم، ونصحه أن يحافظ على خط رجعته وأن لا يتوغل كثيرًا فى بلاد العدو، وجاء فى جواب الخليفة له :

(١) البلقاء : من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى عاصمتها عمان.

(٢) تيماء : بلدة فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى.

أن (اقدم ولا تحجم واستنصر بالله)، فتقدم خالد حتى بلغ القسطل فى طريق البحر الميت فهزم جيشًا من الروم على الشاطئ الشرقى للبحر، ثم تابع مسيرته، عند ذلك هاج الروم فجمعوا قوات تزيد على ما جمعوه فى تيماء، ورأى خالد تجمعهم فكتب إلى الخليفة يستمده، ليتابع تقدمه، فبعث إليه عكرمة بن أبى جهل بجيش البدال[1] كما بعث إليه الوليد بن عقبة بجموع أخرى، فلما وصلت هذه القوات إلى خالد بن سعيد أمر بالهجوم على الروم وأخذ طريقه إلى مرج الصفر، وانحدر القائد الرومى ماهان بجيشه يستدرج جيوش المسلمين التى اتجهت إلى جنوب البحر الميت، ووصلت إلى مرج الصفر شرقى بحيرة طبرية، واغتنم الروم على المسلمين الفرصة وأوقعوا بهم الهزيمة، وصادف باهان سعيد بن خالد بن سعيد فى كتيبة من العسكر فقتلهم وقتل سعيداً فى مقدمتهم، وبلغ خالد مقتل ابنه، ورأى نفسه قد أحيط به فخرج هاربًا فى كتيبة من أصحابه على ظهور الخيل، وقد نجح عكرمة فى سحب بقية الجيش إلى حدود الشام[2].

أولاً : عزم أبى بكر على غزو الروم ومبشرات فى الطريق :

كان أبو بكر يفكر فى فتح الشام، ويجيل النظر ويقلب الرأى فى ذلك، وبينما كان الصديق مشغولاً بذلك الأمر جاءه شرحبيل بن حسنة أحد قواد المسلمين فى حروب الردة، فقال : يا خليفة رسول الله أتحدث نفسك أنك تبعث إلى الشام جنداً؟ فقال : نعم قد حدثت نفسى بذلك وما أطلعتُ عليه أحداً وما سألتنى عنه إلا لشىء، قال : أجل إنى رأيت يا خليفة رسول الله فيما يرى النائم كأنك تمشى فى الناس فوق خَرْشفة من الجبل - يعنى مسلكًا وعرًا - حتى صعدت قُنَّةً من القنات العالية فأشرفت على الناس ومعك أصحابك، ثم إنك هبطت من تلك القنات إلى أرض سهلة دمثة - يعنى لينة - فيها الزرع والقرى والحصون فقلت للمسلمين : شنوا الغارة على أعداء الله وأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة، وأنا فيهم معى راية، فتوجهت بها إلى أهل قرية فسألونى الأمان فأمنتهم، ثم جئت فأجدك قد انتهيت إلى حصن عظيم ففتح الله لك وألقوا إليك السَّلَم ووضع الله لك مجلسًا فجلست عليه، ثم قيل لك : يفتح الله عليك وتُنصر فاشكر ربك

---

(١) كان عكرمة قد رجع من كنده وحضرموت عن طريق اليمن ومكة، فلما بلغ المدينة أمره الخليفة أن يسير مدداً لخالد بن سعيد، وكان عكرمة قد سرح الجند الذين قاتلوا معه فى جنوب شبه الجزيرة، فاستبدل الخليفة بهم غيرهم وأمرهم ان يسيروا تحت لواء عكرمة إلى الشام.

(٢) أبو بكر الصديق، نزار الحديثى، د. خالد الجنابى، ص ٥٨.

واعمل بطاعته، ثم قرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[النصر: ١ – ٣]. ثم انتبهت، فقال له أبو بكر: نامت عينك، خيراً رأيت، وخيرا يكون إن شاء الله، ثم قال: بشَّرت بالفتح ونعيت إليَّ نفسى، ثم دمعت عينا أبى بكر وقال: أما الخرشفة التى رأيتنا فيها حتى صعدنا إلى القنة العالية فأشرفنا على الناس، فإنا نكابد من أمر هذا الجند والعدو مشقة ويكابدونه، ثم نعلو بعد ويعلو أمرنا، وأما نزولنا من القنَّة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة والزرع والعيون والقرى والحصون، فإنا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش، وأما قولى للمسلمين: شنُّوا على أعداء الله الغارة فإنى ضامن لكم الفتح والغنيمة، فإن ذلك دُنُوُّ المسلمين إلى بلاد المشركين وترغيبى إياهم على الجهاد والأجر والغنيمة التى تُقسم لهم، وقبولهم، وأما الراية التى كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم ودخلتها فاستأمنوا فأمَّنتهم، فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك، وأما الحصن الذى فتح الله لى فهو ذلك الوجه الذى يفتح الله لى، وأما العرش الذى رأيتنى عليه جالسًا فإن الله يرفعنى ويضع المشركين، وقال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾[يوسف: ١٠٠] وأما الذى أمرنى بطاعة الله وقرأ عليَّ السورة فإنه نعى إليَّ نفسى، وذلك أن النبى ﷺ نعى الله إليه نفسه حين نزلت هذه السورة، وعلم أن نفسه قد نُعيت إليه، ثم سالت عيناه وقال: لآمرنَّ بالمعروف ولأنهين عن المنكر ولأجهَدنَّ فيمن ترك أمر الله ولأُجَهِّزَنَّ الجنود إلى العادلين بالله– يعنى المشركين به – فى مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا: الله أحد أحد لا شريك له أو يؤدُّوا الجزية عن يد وهم صاغرون، هذا أمر الله وسنة رسوله ﷺ، فإذا توفانى الله عز وجل لا يجدنى الله عاجزاً ولا وانيًا ولا فى ثواب المجاهدين زاهداً[١]. فهذه الرؤيا الصالحة من المبشرات التى حدث بها رسول الله ﷺ حيث قال: «**لم يبق من النبوة إلا المبشرات**». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «**الرؤيا الصالحة**»[٢]. فهذه الرؤيا جاءت على قدر لتدفع الصديق إلى العزم على ما همَّ به وإعلان ما أضمره، فدعا إلى عقد مجلس شورى بخصوص غزو الشام، فقد أخذ الصديق بالعزيمة والعمل والتوكل على الله واستأنس بالرؤيا.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢ / ٦١، ٦٢)؛ فتوح الشام للأزدى، ص ١٤ نقلاً عن التاريخ الإسلامى للحميدى (٩ /١٧٧، ١٧٨).

(٢) البخارى، كتاب التعبير، رقم (٦٩٩٠).

ثانيًا: مشورة أبى بكر فى جهاد الروم واستنفار أهل اليمن:

١- مشورة أبى بكر فى جهاد الروم:

لما أراد أبو بكر رضى الله عنه أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعليًا وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه فقال: إن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه ولا تبلغ الأعمال جزاءها، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم من جمع كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا أن تتخذوا إلها غيره، فالعرب أمة واحدة، بنو أب وأم، وقد أردت أن أستنفركم إلى الروم بالشام، فمن هلك هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعًا عن الدين، مستوجبًا على الله عز وجل ثواب المجاهدين، هذا رأيى الذى رأيت، فليشر علىَّ كل امرىء بمبلغ رأيه. فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ ثم قال: الحمد لله الذى يخص بالخير من يشاء من خلقه، والله ما استَبَقْنا إلى شيء من الخير إلا سبقتنا إليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قد والله أردت لقاءك لهذا الرأى الذى ذكرت، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن، فقد أصبت، أصاب الله بك سبل الرشاد، سَرِّبْ إليهم الخيل فى إثر الخيل، وابعث الرجال تتبعها الرجال، والجنود تتلوها الجنود، فإن الله عز وجل ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله. ثم إن عبدالرحمن بن عوف قام فقال: يا خليفة رسول الله إنها الروم وبنو الأصفر حدّ حديد وركن شديد، والله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاماً ولكن تبعث الخيل فتغير فى أدنى أرضهم، ثم تبعثها فتغير، ثم ترجع إليك، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضروا بعدوّهم وغنموا من أرضهم، فقووا بذلك على قتالهم، ثم تبعث إلى أقاصى أهل اليمن وإلى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك، فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك. ثم جلس وسكت الناس، فقال لهم أبو بكر: ماذا ترون رحمكم الله؟ فقام عثمان بن عفان رضوان الله عليه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبى ﷺ، ثم قال: رأيى أنك ناصح لأهل هذا الدين، عليهم شفيق، فإذا رأيت رأيا علمته رشداً وصلاحاً وخيراً،

فاعزم على إمضائه غير ظنين ولا مُتَّهم(١). فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار: صدق عثمان فيما قال، ما رأيت من رأى فأمضه فإنا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك، ولا نتهم رأيك ولا نتخلف عن دعوتك، فذكروا هذا وشبهه وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فى القوم لا يتكلم، فقال له أبو بكر: ما ترى يا أبا الحسن؟

فقال: أرى أنك مبارك الأمر، ميمون النقيبة(٢)، وإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت إن شاء الله. فقال أبو بكر: بشرك الله بخير، فمن أين علمت هذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون**»(٣) فقال أبو بكر: سبحان الله ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتنى سرَّك الله فى الدنيا والآخرة. ثم إن أبا بكر رضى الله عنه قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلى على النبى ﷺ ثم قال: أيها الناس إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأعزَّكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإنى مؤمِّر عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم فاطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم، ولْتَحسُن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون(٤)... وأمر أبو بكر بلالاً فنادى فى الناس: أن انفروا إلى جهاد عدوكم الروم بالشام(٥).

من هذه المشورة تبين لنا منهج أبى بكر رضى الله عنه فى مواجهة الأمور الكبيرة، حيث لم يكن يبتُّ فيها برأى حتى يجمع أهل الحل والعقد فيستشيرهم، ثم يصدر بعد ذلك عن رأى ممحص مدروس، وهذه هى سنة رسول الله ﷺ كما مرَّ معنا فى السيرة النبوية، وحينما نتأمل فى تفاصيل هذه المحاورة نجد أن الصحابة رضى الله عنهم قد أجمعوا على موافقة أبى بكر فى غزو الروم، وإنما تنوعت وجهات نظر بعضهم فى كيفية هذا الغزو، فكان رأى عمر إرسال الجيوش تلو الجيوش حتى تتجمع فى الشام فتكون قوة كبيرة تستطيع أن تصمد للأعداء، وكان رأى عبدالرحمن بن عوف أن يبدأ الغزو بقوات

---

(١) يعنى: لا نظن بك التقصير ولا نتهمك فى إخلاصك.

(٢) النقيبة: الرأى والمشورة.

(٣) البخارى، كتاب الاعتصام، رقم (٧٣١١)؛ مسلم، كتاب الإمارة رقم (١٥٣٣).

(٤، ٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/٦٣– ٦٥) نقلاً عن الحميدى.

صغيرة تغير على أطراف الشام ثم تعود إلى المدينة، حتى إذا تمَّ إرهاب العدو وإضعافه تبعث الجيوش الكبيرة، وقد أخذ أبو بكر برأى عمر فى هذا الأمر، واستفاد من رأى عبدالرحمن بن عوف فيما يتعلق بطلب المدد بالجيوش من قبائل العرب وخاصة أهل اليمن(١).

٢- استنفار أهل اليمن:

كتب الصديق إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد فى سبيل الله، وهذا هو نص الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم: من خليفة رسول الله إلى من قُرِىء عليه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن: سلام عليكم. فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد، فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافًا وثقالاً وقال: جاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله، والجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا مَن قِبَلَنا مِن المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وعسكروا وخرجوا وحسنت بذلك نيتهم وعظمت فى الخير حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه ولتحسن نيتكم فيه، فإنكم إلى إحدى الحسنيين إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، فإن الله تبارك وتعالى لم يرضَ من عباده بالقول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق ويقروا لحكم الكتاب، حفظ الله دينكم وهدى قلوبكم وزكى أعمالكم ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين(٢). وبعث الصديق هذا الكتاب مع أنس بن مالك رضى الله عنه، وفى هذا الكتاب يظهر دور أبى بكر رضى الله عنه فى حث المسلمين وجمعهم للجهاد فى سبيل الله وهو ما يمكن أن يسمى بالتعبئة العامة(٣).

ومن خطاب الصديق لأهل اليمن يتضح أن الجهاد من أجل تحقيق غرضين: تحقيق إسلام المسلمين لأن الله لا يرضى لعباده بالقول دون العمل، ومقاتلة غير المسلمين حتى يدينوا بدين الحق ويقروا لحكم كتاب الله، وهذا هو السبب الذى جعل أهل اليمن ينساحون من جميع أرجاء اليمن بأعداد هائلة، ولم يصل إلى علمنا أن أحداً منهم

---

(١) التاريخ الإسلامى للحميدى (٩/ ١٨٨).

(٢) تاريخ فتوح الشام للأزدى، ص ٤٨، تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٢٩).

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٩٤.

خرج مستكرهًا بل خرجوا طواعية، وأقبلت جموعهم بنسائهم وأولادهم وكانوا من أسرع المستجيبين للنداء حبًا ورغبة في الجهاد، ويعبر عن هذا أنس بن مالك حامل رسالة الصديق إلى أهل اليمن، والذى تنقل بين أحيائهم قبيلة قبيلة وجناحًا جناحًا يقرأ عليهم كتاب أبى بكر ويحثهم على الإسراع، فقال: فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع هذا القول يحسن الرد عليَّ ويقول: نحن سائرون وكأنا قد فعلنا، حتى انتهيت إلى ذى الكلاع فلما قرأت عليه الكتاب وقلت هذا المقال دعا بفرسه وسلاحه ونهض فى قومه من ساعته ولم يؤخر ذلك، وأمر بالعسكر، فما برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن وقد قام فيهم خطيبًا فقال فيما قاله: ثم قد دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين واكتساب الأجر العظيم، فلينفر من أراد النفير معى الساعة(١)، فعاد أنس بن مالك فى حوالى ١١ رجب ١٢ هـ وبشَّرَ أبا بكر بقدوم القوم فقال: قد أتوك شُعثا غبراً أبطال اليمن وشجعانها وفرسانها، وقد ساروا إليك بالذرارى والحرم والأموال(٢)، وما لبث إلا أيامًا حتى قدم ذو الكلاع الحميرى وقومه فى حوالى ١٦ رجب ١٢هـ(٣)، ولم تكن هذه الاستجابة الفورية الراغبة خاصة بأهل (حمير) بل كل من جاء من اليمن كان على نفس المستوى، وعلى سبيل المثال فقد قدم من (همدان) أكثر من ألفى رجل وعليهم حمزة بن مالك الهمدانى(٤)، وعندما قدم أهل اليمن على المدينة ودخلوا المسجد على أبى بكر فلما سمعوا القرآن اقشعرت جلودهم من خشية الله وجاشت أنفسهم، وجعلوا يبكون خاشعين، فبكى أبو بكر وقال: هكذا كنا ثم قست القلوب(٥)، وعندما رأى ذو الكلاع الحميرى الصديق وجده شيخًا نحيلاً معروق الوجه وعليه ثوب خشن ولا شىء يسطع من ثيابه! لا شىء على الإطلاق غير الورع يضئ وجهه الأبيض، وكان ذو الكلاع قدم على الصديق من اليمن ومن خلفه ومن حوله ألف عبد من الفرسان، وعلى رأسه التاج وعلى حلته الجواهر المتلألئة وبردته تسطع بخيوط الذهب المرصع باللآلى والياقوت والمرجان فلما شاهد ما عليه الصديق من اللباس والزهد والتواضع والنسك، وما هو عليه من الوقار والهيبة، تأثر

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢ / ٦٤)؛ اليمن فى صدر الإسلام، ص(٣٠١، ٣٠٢).

(٢، ٣، ٤) اليمن فى صدر الإسلام، ص٣٠٢.

(٥) الصديق أول الخلفاء، ص ١١٤؛ أبو بكر للطنطاوى، ص٢١٨.

ذو الكلاع ومن معه من السادة فذهبوا مذهب الصديق ونزعوا ما كان عليهم[١]، وقد تأثر ذو الكلاع بالصديق وتَزَيًّا بزِيِّه حتى إنه رُئى يوما في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته، وقالوا له: فضحتنا بين المهاجرين والأنصار! قال: فأردتم أن أكون جباراً فى الجاهلية جباراً فى الإسلام؟ لاها الله (أى لا والله) لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد فى هذه الدنيا[٢].

وصنعت ملوك اليمن كما صنع ذو الكلاع الحميرى، فتخلوا عن التيجان المثقلة بالجواهر، وتركوا حلل المخمل الموشى بخيوط الذهب والياقوت والدر والمرجان، واشتروا من سوق المدينة ثياباً خشنة، ووضع الصديق فى بيت المال ما تخلوا عنه جميعًا من نفائس[٣].

كان أبو بكر رضى الله عنه خير من تمثل بالإسلام فى حياته بعد رسول الله، وكان لسان حاله دعوة إلى الله تعالى، وأبلغ نصيحة تلك التى يشاهدها الناس من طريق العين لا من طريق الأذن، وخير الناصحين من ينصح بأفعاله لا بأقواله.. فلما رأى ملوك اليمن أن أبا بكر خليفة رسول الله وصاحب الأمر والنهى فى الجزيرة العربية يمشى فى الأسواق ويلبس العباءة والشملة، علموا أن هناك شيئًا أعظم من الثياب المزركشة والذهب واللآلىء، هو النفس العظيمة فسعوا ليتشبهوا بأبى بكر، واستحيوا من الله والناس أن يقابلوا خليفة رسول الله بالتاج والبرود والحلى، وهو بعباءة، فقد صغرت عليهم نفوسهم وهانت وهدأت ثورتها وانطفأت سورتها كما ينطفى النجم الصغير إذا واجه الشمس! رحم الله أبا بكر، فقد كان عظيماً فى تواضعه متواضعاً فى عظمته[٤].

ثالثًا: عقد الصديق الألوية للقادة وتوجيه الجيوش:

عزم الصديق على تسيير الجيوش لبلاد الشام فدعا الناس إلى الجهاد، وعقد الألوية لأربعة جيوش أرسلها لفتح الشام وهى:

١ - جيش يزيد بن أبى سفيان:

وهو أول الجيوش التى تقدمت إلى بلاد الشام، وكانت مهمته الوصول إلى دمشق

(١، ٢) مروج الذهبى للمسعودى (٢/٣٠٥).
(٣) الصديق أول الخلفاء، ص(١٣٧، ١٣٨).
(٤) ابو بكر الصديق، على طنطاوى، ص٢١٩.

وفتحها ومساعدة الجيوش الأربعة عند الضرورة، وكان جيش يزيد أول الأمر ثلاثة آلاف ثم عززه الخليفة بالإمدادات حتى صار معه بحدود السبعة آلاف رجل، وقبل رحيل جيش يزيد أوصاه الخليفة أبو بكر وصية بليغة عالية المستوى تشتمل على حكم باهرة فى مجالى الحرب والسلم، وشيَّعه ماشيًا وأوصاه بما يأتى : إنى قد وليتك لأبلوك وأجرِّبك وأخرِّجك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذى من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدُّهم توليًا له، وأقرب الناس من الله أشدُّهم تقربًا إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد[(١)]، فإياك وعِبِّيَّة الجاهلية[(٢)]، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير وَعدْهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم وأقْلل لُبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولاترينَّهم فيروا خلَلَك[(٣)]، ويعلموا علمك، وأنزلهم فى ثروة عسكرك[(٤)]، وامنع من قبَلَك من محادثتهم، وكن أنت المتولى لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة ولا تَخْزُن عن المشير خبرك فَتُؤْتى من قبل نفسك، واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك وبَدِّدْهم فى عسكرك، وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه فى غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل واجعل النَّوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعًا، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولاتجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبَّاثين وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر،

---

(١) يعنى : عمل خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استعفى ابابكر فأعفاه.

(٢) يعنى التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية.

(٣) يعنى : لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك.

(٤) يعنى : ليروا قوة المسلمين.

وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له، قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعًا لولاة الأمر(١).

ومن فوائد هذه الوصية:

● أن الولايات والمناصب ليست حقا ثابتًا لأصحابها، وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل، ومن واجب المسئول الأعلى أن يَعْزلهم إذا أساءوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا فيخل بمسئوليته ويعرِّض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع.

● إن تقوى الله عز وجل هي أهم عوامل النجاح في العمل، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم، فإذا اتقوه في باطنهم فحريٌّ بهم أن يتقوه في ظاهرهم، وبذلك يتجنب الوالي كل مظاهر الفساد والإفساد، التي تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التي لا تلتزم بتقوى الله تعالى.

● التحذير من التعصب للآباء والأجداد والأقوام، فإن التعصب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف على الطريق المستقيم، إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفًا للاستقامة، إضافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهي الأخوة في الله تعالى.

● الإيجاز في الموعظة فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا فيضيع المقصود، ويغلب على السامع الإعجاب ببلاغة المتكلم إن كان بليغًا عن استيعاب ما يقول، والاستفادة من مواعظه، وإن لم يكن بليغًا، فإن الملل يأخذ بالسامع فلا يعي ما يقول المتكلم.

● إذا أصلح المسئول نفسه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجًا صالحًا للقدوة الحسنة، فإن ذلك يكون سببًا في صلاح من هم تحت رعايته.

● الاهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهراً ومخبَراً، مظهَراً من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها، ومخبَراً من ناحية الخشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى، فإن هذه الصلاة

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦٤، ٦٥).

الكاملة يقام بها ذكر الله فى الأرض وتهذِّب السلوك وتُقَوِّى القلوب وتبعث على ارتياح النفوس وتعتبر ملاذاً للمسلم عند الشدائد.

- إكرام رسل العدو إذا قدموا مع الاحتراس منهم وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلامى، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلى به المسلمون من مكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكرام إلى حد إطلاعهم على بطانة أمور المسلمين، بل ينبغى إطلاعهم على قوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم.

- الاحتفاظ بالأسرار وعدم التهاون بإفشائها، خاصة فيما يتعلق بأمور المسلمين العامة فإن الحكيم يستطيع التصرف فى الأمور وإن تغيرت وجوهها مادام سرُّه حبيساً فى ضميره، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها.

- إتقان المشورة أهم من النظر فى نتائجها، فإن المستشار وإن كان حصيف الرأى ثاقب الفكر فإنه لا يستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح، فإذا أخفى المستشير بعض تفاصيل القضية، فإنه يكون قد جنى على نفسه حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

- أن على القائد وكل مسئول أن يكون مخالطاً لمن ولى أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمورهم، وفى هذا أكبر العون له على تصور مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها، أما المسئول الذى يعيش فى عزلة ولا يختلط إلا بأفراد من كبار رَعيته، فإنه لا يصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء وقد لا يكشفون له الأمور بكل تفصيلاتها، وقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

- الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصة فى مكامن الخطر، واختبار الحراس الأمناء من ذوى النباهة، وعدم وضع الثقة الكاملة بهم، بل لابد من الرقابة عليهم حتى لا يُؤتى المسلمون من قِبَلهم.

- أن يسلك المسئول فى عقاب المخالف مسلكاً وسطاً فلا يتهاون فيترك عقوبة المستحق، فإن ذلك يُجَرِّئُه على مزيد من المخالفة ويجرئ غيره على ارتكاب المخالفات، فتسود الفوضى وينفلت الأمر، ولا يشتدُّ فى العقوبة فيُنَفِّرَ الرعية، ويدفعهم إلى التسخط والتحزب، بل تكون عقوبته بحكمة واتزان، وبعد النظر والتروى بحيث تؤدى غرضها التربوى بدون إثارة ضجة ولا دفع إلى النقد والتسخط.

● أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل ما يجرى فى حدود المسئولية المناطة به، حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتماماً بأمورهم فيزيد المحسن إحساناً ويقتصر المسىء، عن الإساءة، ولكن بدون تجسس عليهم فإن ذلك يعتبر فضيحة لهم، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذى يربط المسئول بأفراد رعيته، من المودة والإعجاب والشكر على الجميل، وهذا الخيط ما دام قائماً فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التى تفسد المجتمع وتحدث الفوضى، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى، فإن أهم الحواجز التى تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور، لأنها تحتاج إلى قوة رادعة، وهذه لها سلبياتها المعروفة.

● أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة، وإن سمع منهم ما يكره أحياناً من النقد والتوجيه، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع، وأن يجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية، فإن هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم، فإنهم يحولون بينه وبين التفكير فى الأمور الجادة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولى أمورهم.

● أن يصدُق القائد فى لقاء الأعداء وأن لا يجبُن، فإن جُبنه يسرى على جنده، فيقع بذلك الفشل والهزيمة، وفى غير الحرب أن يكون المسئول شجاعاً فى مواجهة المواقف، وأن لا يضعف فيسرى ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج.

● أن يتجنب القائد الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، هذا فى مجال الحرب، وفى مجالات السلم أن يتجنب المسئول أية استفادة دنيوية من عمله لا تحل له شرعاً، مثل أخذ الهدايا التى يقصد بها من دفعها الاستفادة من المسئول فى مجانبة الحق، فإن ذلك من الغلول، والغلول كما جاء فى هذه الوصية يقرب إلى الفقر ويدفع النصر.

● ومن هذه الفوائد تبين لنا عظمة هذه الوصية التى أوصى بها أبو بكر أحد قواده، وهى تبين لنا أنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين، وأنه كان يتصور ما قد يواجهه قواده، فيحاول تزويدهم بما ينفعهم فى تلافى الوقوع فى المشكلات وحلها إذا وقعت، وهذه الوصية وأمثالها تسجِّل إضافة جديدة لمواقف أبى بكر المتعددة الأنواع، فإذا تأملت

إدارته للحكم وجدت رجلاً بارعًا فى أمور السياسة، وإذا رأيت توجيهه للقادة العسكريين تجده رجلاً بارعًا فى شئون الحرب وكأنه مع القادة فى الميادين، وإذا رأيت رحمته وتأليفه للقلوب رأيت رجلاً بارعًا فى الدعوة إلى الله تعالى، فهو الرجل الرحيم بالمؤمنين، الرافع لشأن أهل البلاد والصدق منهم الخبير بأهل الكفاءة والقدرة، القوى الحازم على أعداء الله من المنافقين والكافرين[١].

٢ - جيش شرحبيل بن حسنة:

حدد أبو بكر الصديق لمسير شرحبيل ثلاثة أيام بعد مسير يزيد بن أبى سفيان، فلما مضى اليوم الثالث ودع أبو بكر شرحبيل وقال له: يا شرحبيل ألم تسمع وصيتى ليزيد ابن أبى سفيان؟ قال: بلى، قال: فإنى أوصيك بمثلها وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن ليزيد: أوصيك بالصلاة فى وقتها، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تُقتل، وبعيادة المرضى وبحضور الجنائز وذكر الله كثيراً على كل حال. فقال شرحبيل: الله المستعان وما شاء الله أن يكون كان[٢]، وكان جيش شرحبيل ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف، وأمره أن يسير إلى تبوك والبلقاء ثم بصرى، وهى آخر مرحلة، وتقدم شرحبيل نحو البلقاء حيث لم يلق مقاومة تذكر وكان يسير على الجناح الأيسر لجيش أبى عبيدة والجناح الأيمن لجيش عمرو بن العاص فى فلسطين، فأوغل فى البلقاء حتى بلغ بصرى فأخذ يحاصرها، فلم يوفق فى فتحها لأنها كانت من المراكز الحصينة[٣].

٣ - جيش أبى عبيدة بن الجراح:

لما عزم الصديق على بعث أبى عبيدة بن الجراح بجيشه دعاه فودعه ثم قال له: اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له ثم يعمل بما أمر به، إنك تخرج فى أشراف الناس وبيوتات العرب وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنية الحسنة، أحسن صحبة من صحبك وليكن الناس عندك فى الحق سواء، واستعن بالله وكفى بالله معينًا، وتوكل على الله

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/١٩٢-١٩٧).

(٢) فتوح الشام للأزدى، ص١٥.

(٣) أبو بكر الصديق، نزار الحديثى، ص٦٢.

وكفى بالله وكيلاً، اخرج من غد إن شاء الله[1]، وكان جيشه يتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف مجاهد، وهدف ذلك الجيش حمص، سار أبو عبيدة من المدينة ماراً بوادى القرى، ثم اطلع إلى الحجر (مدن صالح) ثم إلى ذات منار ثم إلى زيزا ومنها إلى مأمؤاب، فالتقى بقوة للعدو فقاتلهم، ثم صالحوه فكان أول صلح عقد فى الشام، ثم واصل تقدمه نحو الجابية[2]، وكان هذا الجيش الجناح الأيسر للجيش الأول والجناح الأيمن للجيش الثانى[3]، وكان فى صحبة أبى عبيدة بن الجراح فارس من فرسان العرب المشهورين، قيس بن هبيرة بن مسعود المرادى فأوصى به الصديق أبا عبيدة قبل سفره وقال له : إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف فارس من فرسان العرب ليس بالمسلمين غناء عن رأيه ومشورته وبأسه فى الحرب، فأدنه وألطفه وأره أنك غير مستغن عنه ولا مستهين بأمره، فإنك تستخرج بذلك نصيحته لك وجهده وجدَّه على عدوك، ودعا أبو بكر قيس بن هبيرة فقال : إنى بعثتك مع أبى عبيدة الأمين الذى إذا ظُلم لم يَظلم، وإذا أسىء إليه غفر، وإذا قطع وصل، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين، فلا تعصين له أمراً، ولا تخالفن له رأيًا، فإنه لن يأمرك إلا بخير، وقد أمرته أن يسمع منك فلا تأمره إلا بتقوى الله، فقد كنا نسمع أنك شريف ذو بأس سيد مجرب فى زمان الجاهلية الجهلاء، إذ ليس فيهم إلا الإثم، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك فى الإسلام على المشركين وعلى من كفر بالله وعبد معه غيره، فقد جعل الله فى ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل والعزَّ للمسلمين، فقال قيس بن هبيرة : إن بقيت وأبقاك الله فسيبلغك عنى من حيطتى على المسلم وجهدى على الكافر ما تحب ويسرك ويرضيك، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : افعل ذلك رحمك الله، قال : فلما بلغ أبا بكر مبارزة قيس بن هبيرة البطرقين بالجابية وقتله إياهما قال : صدق قيس وبرَّ ووفى[4].

ونلحظ أن أبا بكر رضى الله عنه شحذ همة قيس بن هبيرة وفجَّر طاقاته الكامنة فى نفسه، واستخرج منه أعلى ما أمكن من طاقة وصرفها فى حماية الإسلام والجهاد فى

---

(١) فتوح الشام للأزدى، ص١٧ .

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦٦) .

(٣) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، نهاد عباس، ص١٤١ .

(٤) فتوح الشام للأزدى، ص (٢٦، ٢٧) .

سبيله، ولا شك أن الثناء على العظماء والنبلاء بذكر فضائلهم يرفع من معنويتهم ويمنحهم قوة عالية تدفعهم إلى التضحية والفداء[١].

٤ - جيش عمرو بن العاص:

وجَّه الصديق عمرو بن العاص بجيش إلى فلسطين وكان الصديق قد خيَّره بين البقاء في عمله الذى أسنده إليه رسول الله ﷺ، وبين أن يختار له ما هو خير له فى الدنيا والآخرة إلا أن يكون الذى هو فيه أحب إليه، فكتب إليه عمرو بن العاص: إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها، فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلها فارم به[٢]، فلما قدم المدينة أمره أبوبكر رضى الله عنه أن يخرج من المدينة وأن يعسكر حتى يندب معه الناس، وقد خرج معه عدد من أشراف قريش منهم الحارث بن هشام وسهيل ابن عمرو وعكرمة بن أبى جهل، فلما أراد المسير خرج معه أبو بكر يشيعه وقال: يا عمرو إنك ذو رأى وتجربة بالأمور وبصر بالحرب، وقد خرجت مع أشراف قومك ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك فلا تألُهم نصيحة، ولا تدخر عنهم صالح مشورة، فرب رأى لك محمود فى الحرب مبارك فى عواقب الأمور، فقال عمرو بن العاص: ما أخلَقَنى أن أصدِّق ظنك وأن لا أُفَيِّلُ رأيك[٣]، وخرج عمرو بقواته وكان تعداده يتراوح من ستة إلى سبعة آلاف مجاهد وهدفها فلسطين وسلكت طريقًا لساحل البحر الأحمر، حتى وادى عربة فى البحر الميت، ونظم عمرو بن العاص قوة استطلاع مؤلفة من ألف مجاهد ودفعها باتجاه محور تقدم الروم، ووضع على قيادتها عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، واصطدمت هذه القوة بقوات الروم، واستطاعت انتزاع النصر وتمزيق قوة العدو، وعادت ببعض الأسرى فاستنطقهم عمرو بن العاص، وعلم منهم أن جيش العدو بقيادة (رويس) يحاول مباغتة المسلمين بالقيام بالهجوم، وعلى ضوء المعلومات الجديدة نظم عمرو قواته وشن الروم هجومهم، واستطاع المسلمون صده ونجحوا فى رد قوات الروم، وبعد ذلك شنوا هجومهم المضاد ودمروا قوة العدو وأرغموهم

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩ / ٢٠٦).

(٢) إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء، ص٥٥ .

(٣) أى: أن لا يخطئ رأيك فىّ؛ فتوح الشام للأزدى، ص(٤٨ - ٥١).

على الفرار وترك ميدان المعركة، وتابع الفرسان المطاردة وانتهت المعركة بسقوط الألوف القتلى من الروم[١].

وأمر الصديق رضى الله عنه كل أمير أن يسلك طريقًا غير طريق الآخر، لما لحظ فى ذلك من المصالح، وكأن الصديق اقتدى فى ذلك بنبى الله يعقوب[٢]، حين قال لبنيه:

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٧].

رابعًا: تأزم الموقف فى بلاد الشام:

كانت الجيوش المكلفة بفتح بلاد الشام تلاقى صعوبة فى تنفيذ المهمات الموكلة إليها، فقد كانت تواجه جيوش الإمبراطورية الرومانية التى تمتاز بقوتها وكثرة عددها، وقد بنت الحصون والقلاع للدفاع عن مراكز المدن، واستخدمت أسلوب الكراديس فى تنظيم جيوشها، لقد كان للروم فى الشام جيشان كبيران أحدهما فى فلسطين والآخر فى أنطاكية، وتمركز هذان الجيشان فى ستة مواضع على الشكل الآتى:

أ – أنطاكية: وهى عاصمة الشام فى العهد الرومى.

ب – قنسرين: وتقع بين حماة وحلب على مسافة خمسة وعشرين كيلو مترًا جنوبى غربى حلب، وهى حدود بلاد الشام التى تحاذى فارس فى الشمال الغربى.

ج – حمص: ويمتد نفوذها العسكرى حتى تدمر وصحراء الشام، وهى حدود بلاد الشام التى تحاذى فارس من الشمال الشرقى.

د – عمان: قاعدة البلقاء وفيها قلعة محصنة.

هـ – أجنادين: قاعدة الروم العسكرية فى جنوب فلسطين وعلى حدود بلاد العرب الشرقية والغربية، وعلى حدود مصر.

و – قيسارية: فى شمال فلسطين وتبعد عن حيفا ثلاثة عشر كيلو مترًا ولا تزال أنقاضها قائمة.

---

(١) العمليات التعرضية الدفاعية عند المسلمين، ص ١٤٣.

(٢) البداية والنهاية (٧/٤).

أما مقر القيادة العامة فهو أنطاكية أو حمص، وعندما شهد قائد الروم هرقل الذى كان يشرف على الموقف بنفسه فى (إيليا) توغل الجيوش الإسلامية، أصدر أوامره إلى قواته بالتوجه لتدمير هذه الجيوش، وكانت خطة مواجهة الجيوش الإسلامية كالآتى:

- يتراجع الروم أمام المسلمين ويتخلون لهم عن الحدود الشامية الحجازية.
- تتجمع وحدات الجيش الأول فى فلسطين بعد تقريرها بقيادة سرجون.
- تتجمع وحدات الجيش الثانى فى أنطاكية بقيادة تيدور.
- تتحرك هذه الجيوش وتهاجم أمراء الإسلام الأربعة الواحد بعد الآخر، وذلك لتسهيل تصفية جيوش الإسلام على انفراد، وعلى أساس هذه الخطة التى وضعها هرقل تحركت جيوش الروم وحسب الترتيب الآتى[1]:

- توجيه أخيه تذارق فى تسعين ألفا للقضاء على جيش عمرو بن العاص.
- توجيه بن توذر إلى يزيد بن أبى سفيان.
- توجيه القبقار بن نسطوس فى ستين ألفا إلى جيش أبى عبيدة.
- توجيه الدارقص نحو شرحبيل بن حسنة[2].

استطاع المسلمون الحصول على المعلومات الدقيقة عن هذه الجيوش ونواياها بكل تفاصيلها، وعن تفاصيل الخطة الرومية التي كان قد وضعها هرقل لتدمير الجيوش الإسلامية كل على انفراد، وراسل قادة المسلمين الخليفة بالمدينة، فكتب أبو عبيدة إلى أبي بكر رضى الله عنهما يخبره بما بلغه مما جمع هرقل ملك الروم من الجموع، وهذا نص كتاب أمين الأمة إلى الصديق: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ من أبى عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: فإنا نسأل الله أن يعز الإسلام وأهله عزاً متيناً، وأن يفتح لهم فتحاً يسيراً، فإنه بلغنى أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام تدعى أنطاكية، وأنه بعث إلى أهل مملكته فحشرهم إليه، وأنهم نفروا إليه على الصعب والذلول[3]، وقد رأيت أن

(١) معارك خالد بن الوليد، العميد ياسين سويد، ص(٧٧ ، ٧٨).

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص١٤٧.

(٣) يعنى: الخيل بأنواعها، ما يصعب قيادة منها وما يسهل والمراد وصفهم بالكثرة.

أعلمك ذلك فترى فيه رأيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه أبو بكر رضى الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته وجمعه لكم الجموع، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم ويخرجوا من ملكهم بغير قتال، وقد علمت والحمد لله، قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم للحياة، ويرجون من الله فى قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد فى سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين، فالقهم بجندك ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين، فإن الله معك، وأنا مع ذلك مُمدُّكَ بالرجال، حتى تكتفى ولا تريد أن تزداد إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

وكتب يزيد بن أبى سفيان إلى أبى بكر رضى الله عنه بنفس مضمون كتاب أبى عبيدة بن الجراح وردَّ الصديق على يزيد رضى الله عنهم جميعًا، وهذا نص الجواب: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فقد بلغنى كتابك تذكر فيه تحوُّل ملك الروم إلى أنطاكية، وأن الله ألقى الرعب فى قلبه من جموع المسلمين، فإن الله – وله الحمد – قد نصرنا ونحن مع رسول الله ﷺ بالرُّعب وأمدنا بملائكته الكرام، وإن ذلك الدين الذى نصرنا الله به بالرعب، هو هذا الدين الذى ندعو الناس إليه اليوم، فوربك لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين، ولا من يشهد أن لا إله إلا الله كمن يعبد معه آلهة آخرين ويدين بعبادة آلهة شتى، فإذا لقيتموهم فانهد إليهم بمن معك وقاتلهم فإن الله لن يخذلك، وقد نبأنا الله تبارك وتعالى أن الفئة القليلة منا تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله، وأنا مع ذلك مُمدُّك بالرجال فى إثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله، وبعث الصديق بهذا الكتاب مع عبدالله بن قُرْط الثمالى، حتى قدم على يزيد فقرأه على المسلمين ففرحوا به وسُرُّوا[2].

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/٢١٣) نقلاً عن فتوح الشام للأزدى، ص (٣٠، ٣١).

(٢) فتوح الشام للأزدى، ص(٣٠ – ٣٣) نقلاً عن الحميدى.

وجاء كتاب من عمرو بن العاص بخصوص جموع الروم، ورد عليه الصديق فقال: سلام عليك أما بعد: فقد جاءنى كتابك تذكر ما جمعت الروم من الجموع، وإن الله لم ينصرنا مع نبيه ﷺ بكثرة جنود، وقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وما معنا إلا فَرَسان وإن نحن إلا نتعاقب الإبل، وكنا يوم أحد مع رسول الله ﷺ وما معنا إلا فرس واحد، كان رسول الله يركبه ولقد كان يظهرنا ويعيننا على من خالفنا، واعلم يا عمرو أن أطوع الناس لله أشدهم بغضًا للمعاصى فأطع الله ومر أصحابك بطاعته(١).

خروج هاشم بن عتبة بن أبى وقاص إلى الشام:

وشرع الصديق فى إمداد الجيوش الإسلامية ببلاد الشام بالرجال والسلاح والخيول وما يحتاجونه، ودعا هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، وقال له: يا هاشم إن من سعادة جَدِّكَ ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمة على جهاد عدوها من المشركين، وممن يثق الوالى بنصيحته ووفائه وعفافه وبأسه، وقد بعث إلىَّ المسلمون يستنصرون على عدوهم من الكفار، فسر إليهم فيمن تبعك فإنى نادب الناس معك، فاخرج حتى تقدم على أبى عبيدة أو يزيد قال: لا، بل على أبى عبيدة! قال: فاقدم على أبى عبيدة، وقام أبو بكر رضى الله عنه فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فإن إخوانكم من المسلمين معافون مدفوع عنهم مصنوع لهم، وقد ألقى الله الرعب فى قلوب عدوهم منهم، وقد اعتصموا بحصونهم وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم، وقد جاءتنى رسلهم يخبروننى بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم حتى نزل قرية من قرى الشام فى أقصى الشام وقد بعثوا إلىَّ يخبروننى أنه قد وجه إليهم هرقل جنداً من مكانه ذلك، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم يشدد الله بهم ظهورهم، ويكبت بهم عدوهم، ويلقى بهم الرعب فى قلوبهم، فانتدبوا – رحمكم الله – مع هاشم بن عتبة بن أبى وقاص واحتسبوا فى ذلك الأجر والخير، فإنكم إن نصرتم فهو الفتح والغنيمة، وإن تهلكوا فهى الشهادة والكرامة، ثم انصرف أبو بكر رضى الله عنه إلى منزله ومال الناس على هاشم حتى كثروا عليه، فلما أتموا ألفًا أمره أبو بكر أن يسير فجاءه فسلم عليه وودَّعه، فقال له أبو بكر رضى الله عنه: يا هاشم إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشباب بصبره وبأسه ونجدته، وإن الله – عز وجل – قد جمع لك الخصال كلها وأنت حديث السن مستقبل الخير، فإذا لقيت عدوك فاصبر

(١) خطب أبى بكر الصديق، محمد أحمد عاشور، ص ٩٢.

وصابر واعلم أنك لا تخطو خطوة ولا تنفق نفقة ولا يصيبك ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله إلا كتب الله به عملاً صالحًا إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

فقال هاشم: إن يرد الله بى خيرًا يجعلنى كذلك وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله، وأنا أرجو إن أنا لم أُقْتَل أن أقْتُل ثم أقْتَل إن شاء الله، فقال له عمه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: يا ابن أخى لا تطعنَنَّ طعنة ولا تضربن ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله، واعلم أنك خارج من الدنيا رشيداً وراجع إلى الله قريبًا، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدمُ صدق قدَّمته أو عمل صالح أسلفته، فقال: أىْ عم، لا تخافن منى غير هذا إنى إذا لمن الخاسرين إن جعلت حلِّى وارتحالى وغدوى ورواحى وسيفى وطعنى برمحى وضربى بسيفى رياء للناس ثم خرج من عند أبى بكر رضى الله عنه فلزم طريق أبى عبيدة، حتى قدم عليه فتباشر بمقدمه المسلمون وسُرُّوا به[١].

خروج سعيد بن عامر إلى الشام:

وبعد ذهاب هاشم بن عتبة بمدة أمر أبو بكر بلالاً فنادى فى الناس ألا انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن عامر بن حذيم إلى الشام فانتدب معه سبعمائة رجل فى أيام يسيرة، فلما أراد سعيد بن عامر الشخوص بالناس أتى بلال أبا بكر، فقال: يا خليفة رسول الله إن كنت إنما أعتقتنى لأقيم معك وتمنعنى مما أرجو لنفسى فيه الخير أقمت معك، وإن كنت إنما أعتقتنى لله لأملك نفسى وأضرب فيما ينفعنى فخلٍّ سبيلى حتى أجاهد في سبيل ربي فإن الجهاد أحب إليَّ من المقام.. فقال له أبو بكر: أما إذا كان هواك فى الجهاد فلم أكن لآمرك بالمقام، إنما كنت أريدك للأذان وإنى لأجد لفراقك وحشة يا بلال فما بدٌّ من التفرق، فرقة لا لقاء بعدها أبدًا حتى يوم البعث، فاعمل عملاً صالحًا يا بلال يكن زادك من الدنيا ويذكرك الله به ماحييت يحسن لك به الثواب إذا توفيت، فقال بلال: جزاك الله من ولىٍّ نعمة وأخ فى الإسلام خيرًا فوالله ما أمرك لنا بالصبر على طاعة الله والمداومة على الحق والعمل الصالح ببدع، وما أريد أن أؤذِّن لأحد بعد رسول الله ﷺ، ثم خرج بلال مع سعيد بن عامر بن حذيم، وكان أبو بكر قد أمر سعيد بن عامر أن يسير حتى يلحق بيزيد بن أبى سفيان فسار حتى لحقه فشهد معه وقعة العَرَبة والداثنة[٢].

---

(١) فتوح الشام للأزدى، ص(٣٣ – ٣٥).

(٢) نفس المصدر السابق، ص (٣٥ – ٣٨) بتصرف.

وكانت وفود الجهاد تتوافد على المدينة، ويقوم الصديق بتوجيهها إلى الجبهات، وكانت بعض الوفود من أهل القرى فيهم جهل وجفاء، فكان أهل المدينة من صحابة وتابعين يحتملون أذى بعض الوفود الذين لم يتلقوا تربية إسلامية كافية، ويرفعون أمر مايلاقونه منهم إلى خليفة رسول الله، ولم يذكر أنه حصل نزاع بينهم مع كثرة الوفود التى وفدت على المدينة، وكان أبو بكر الصديق قد ناشد المجتمع المدنى[١] وقال لهم: نشدتك الله امرأً مسلمًا سمع نشدى لما كفَّ عن هؤلاء القوم، ومن رأى لى عليه حقًا فليحتمل ذرب[٢] ألسنتهم، وعجلة يكرهها منهم ما لم يبلغ ذلك الحد، فإن الله مهلك بهؤلاء أعداءنا جموع هرقل والروم، وإنما هم إخوانكم فإن كانت منهم عجلة على أحد منكم فليحتمل ذلك، ألم يكن ذلك أصوب فى الرأى وخيراً فى المعاد من أن يُنتصر منهم؟

قال المسلمون: بلى

قال: فإنهم إخوانكم فى الدين وأنصاركم على الأعداء ولهم عليكم حق فاحتملوا ذلك لهم، ثم نزل من على المنبر[٣].

خامسًا: توجيه خالد إلى الشام ومعركة أجنادين واليرموك:

كانت قيادة الجيوش الإسلامية بالشام تتابع تطور حركة الجيوش الرومانية، وشعر القادة بخطورة الموقف فعقدوا مؤتمراً بالجولان، وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة يشرح له الموقف، وفى الوقت نفسه قرروا الانسحاب من جميع الأراضى التى تم فتحها وتجمعوا فى مكان واحد ليتمكنوا من إحباط خطة الرومان وإجبارهم على خوض معركة فاصلة تخوضها كل الجيوش الإسلامية، وكان عمرو بن العاص أشار على القادة أن يكون التجمع باليرموك، وجاء رأى الصديق مطابقًا لرأى عمرو بن العاص[٤] فى اختيار مكان التجمع، واتفقوا أن يتم الانسحاب مع تجنب الاشتباك مع العدو، فانسحب أبو عبيدة من حمص، وانسحب شرحبيل بن حسنة من الأردن، وانسحب يزيد بن أبى سفيان من دمشق، وأخذ عمرو بن العاص فى الانسحاب تدريجيًا من فلسطين[٥]، ولكنه لم

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩ / ٢٢٤).

(٢) يعنى: حدتها وشدتها.

(٣) التاريخ الإسلامى للحميدى (٩ / ٢٢٣).

(٤، ٥) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص١٤٨.

يستطع الانسحاب منها حتى نجده خالد بن الوليد قبل اليرموك، فظل يناور في بئر السبع لمتابعة الروم له، وبذلك شن المسلمون هجوماً مضاداً فكانت معركة أجنادين[١].

عندما تسلم الصديق رسالة أبى عبيدة وشرح له فيها الموقف أمره بالانسحاب إلى اليرموك والتجمع هناك، وقال له: بث خيلك في القرى والسواد وضيق عليهم بقطع الميرة والمادة، ولا تحاصروا المدائن حتى يأتيك أمرى فإن ناهضوك فانهد لهم واستعن بالله عليهم فإنه ليس يأتيهم مدى إلا امددناك بمثلهم[٢]، وجاء في رواية: إن مثلكم لا يؤتى من قلة إنما يؤتى العشرة الآلاف إذا أوتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين ولْيُصَلِّ كل رجل منكم بأصحابه[٣]، وكان توجيه الصديق للجيوش بأن يجتمعوا ويكونوا عسكراً واحداً وأن يلقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين وقال لهم: بأنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من خذله[٤].

ونرى من خلال رسائل الصديق بأنه وضع أساس النصر للجيوش بطاعتها لله أولاً، فالخذلان يأتى بالمعاصى والذنوب، وعمل الصديق على تجميع الجيوش في مكان واحد حتى لا يستغل العدو فترة انتشارهم في البلاد لينهك قواهم الواحد بعد الآخر، كما أن تعيينه لليرموك دال على دراسة الصديق لجغرافية الأرض في عصره وإدراكه لمواقعها، وهذا حربى عظيم وفقه الله عز وجل له، وقرر الصديق أن ينقل خالد بن الوليد بجيشه إلى الشام وأن يتولى قيادة الجيوش بها، فالأمر بالشام يحتاج إلى قائد يجمع بين قدرة أبى عبيدة ودهاء عمرو وحنكة عكرمة وإقدام يزيد، وأن يكون صاحب قدرة عسكرية فائقة مع قدرة على حسم الأمور وصاحب دهاء وحيلة وإقدام، وصاحب حنكة ودراية مع دقة في تقدير المواقف، وصاحب تجربة طويلة في المعارك[٥]. فوقع اختيار الصديق على خالد ابن الوليد فكتب إليه بالعراق ونفذ ابن الوليد تعاليم الخليفة، ووصل بجيشه إلى الشام بعد رحلة عبر الصحراء لم يذكر التاريخ شبيها لها، وقد بينت ذلك فكانت إمدادات الصديق تتواصل على الشام، ويضع الخطط المتطورة ويرد على أساليب الأعداء

---

(١) حروب الإسلام في الشام، أحمد محمد، ص٤٥.

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص١٤٨.

(٣، ٤) تاريخ الطبرى (٤/ ٢١١).

(٥) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص(٣٥٩، ٣٦٠).

التكتيكية والمعنوية والمادية التى كان هدفها إشغال الصديق عن هدفه حتى قال قادة الروم: والله لنشغلن أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا[1]. وكان رد الصديق: والله لاشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد[2]، وقد حققت توجيهات الصديق عدة أمور منها: توحيد جيش المسلمين فى الشام، وتوحيد قيادة هذا الجيش بإمرة خالد، وتحديد موقع اللقاء، وهذا يؤكد وضوح الرؤية عند الخليفة أبى بكر فى تحريك الجيوش، فكان عندما أرسلها من المدينة خرجت فى طرق متباعدة نسبيًا فكانت على شكل رؤوس حراب أو على شكل مروحة وهو عادة ما يعرف بحركة الانتشار فى الجيوش الحديثة، وعندما حان وقت الاشتباك واللقاء الفاصل جمعها مع بعضها فى موقع اختياره لها، فقد ظهرت قدرته البارعة في استعمال الجيوش وهو ما اتفق على تسميته (بالاستراتيجية) فى العلم العسكرى الحديث[3]، وكان الصديق كقائد عام للجيوش الإسلامية يحرص على حضوره المعنوى فى ميدان القتال بالأوامر، مع ما كانت تتميز به تلك الأوامر من تبصر وبعد نظر، ونفاذ فى البصيرة وبداهة فى فهم الوضع العسكرى على أرض المعركة، وبالتالى سرعته فى تحريك القوى وفقًا لهذا الوضع وبما يلائمه تمام الملاءمة، وحسن اختياره للقادة الذين كانوا بفعل الثقة المتبادلة بينه وبينهم يقرأون أفكاره ويحسون برغباته ونواياه، فتتجسد فى مخيلتهم فكرة المناورة التى يعتزم تنفيذها ويقومون بتنفيذها، كما لو كان الخليفة ينفذها، وبواسطة هذه الوسائل كان الخليفة يدير المعارك على الجبهات المختلفة كأنما هو حاضر فى كل منها، بحيث يحس الجيش قادة وجنوداً كأن الخليفة نفسه معهم يقودهم ويوجههم، فيأتى عملهم مطابقًا تمام المطابقة لما يريد ويرغب ووفقًا لأوامره وتوجيهاته[4].

وعندما أرسل الصديق إلى خالد يأمره بالتوجه إلى الشام وتولى الجيوش هناك، قام الصديق بإرسال رسالة إلى أبى عبيدة يخبره فيها بتولية خالد عليه ويأمره فيها بالسمع والطاعة، وبين فيها سبب تولية خالد: أما بعد فإنى قد وليت خالداً قتال الروم بالشام فلا تخالفه واسمع له وأطع أمره، فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد، والسلام عليك ورحمة

(١، ٢) البداية والنهاية (٧/٥).

(٣) الفن العسكرى الإسلامى، ص٨٩؛ أبو بكر الصديق، الحديثى، ص٦٠

(٤) الفن العسكرى الإسلامى، ص٩٨.

الله وبركاته[١]، وكانت رسالة خالد إلى أخيه أبى عبيدة قد قطعت المسافات من العراق إلى الشام واستقرت فى قلبه الغنى بالإيمان والزهد فى هذه الدنيا الفانية، وهذا نصها:

لأبى عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلاهو، أما بعد: فإنى أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة فى دار الدنيا، فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى فيه بالمسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولِّى على أمرها، والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه، وأنت رحمك الله على حالك الذى كنت به: لا تُعصَى فى أمرك ولا يخالف رأيك ولا يقطع أمر دونك، فأنت سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ولا يستغنى عن رأيك، تمَّم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ورحمنا وإياك من عذاب النار، والسلام عليك ورحمة الله[٢]، وكان مع حامل الرسالة خطابٌ من خالد موجهًا إلى المسلمين بالشام جاء فيه: .... أما بعد فإنى أسأل الله الذى أعزنا بالإسلام وشرفنا بدينه وأكرمنا بنبيه محمد ﷺ وفضلنا بالإيمان رحمة من ربنا لنا واسعة ونعمة منه علينا سابغة أن يتم ما بنا وبكم من نعمته، واحمدوا الله عباد الله يزدكم، وارغبوا إليه فى تمام العافية يُدمْها لكم، وكونوا له على نعمة من الشاكرين. وإن كتاب خليفة رسول الله أتانى يأمرنى بالمسير إليكم، وقد شمَّرت وانكمشت وكأن خيلى قد أطلَّت عليكم فى رجال، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحسن ثوابه عصمنا الله وإياكم بالإيمان وثبَّتنا وإياكم على الإسلام ورزقنا وإياكم حسن ثواب المجاهدين والسلام عليكم[٣].

فلما قدم حامل الرسالتين عمرو بن الطفيل بن عمرو الأزدى على المسلمين وقرأ عليهم خطاب خالد بن الوليد وهم بالجابية دفع إلى أبى عبيدة كتابه، فلما قرأه قال: بارك الله لخليفة رسول الله فيما رأى وحيا الله خالداً بالسلام[٤]. إن هذا التعامل الرفيع بين هذين العظيمين يكشف لنا عن معانى الأخوة المنبثقة عن التوحيد الصحيح والمحفوفة بسياج الأخلاق الحميدة، التى كان يتصف بها صحابة رسول الله، فإن خالداً لم تتغير نفسه أو يشعر بعلو على إخوانه بسبب فتوحاته فى العراق وثقة الخليفة

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية، ص(٣٩٢، ٣٩٣).

(٢) نفس المصدر السابق، ص٣٩٢.

(٣، ٤) فتوح الشام للأزدى، ص (٦٨ – ٧٢) نقلاً عن الحميدى.

به، بل يعترف بالفضل لأهله ويعلن طاعته لأبى عبيدة بن الجراح الذى ولى الأمر من بعده، وفى مقابل ذلك نجد أبا عبيدة بن الجراح الذى يبارك هذا الأمر ويُحَيِّى خالداً، وهذا يدل على تجرد خالد وأبى عبيدة من حظوظ النفس وإيثارهم لمصلحة الأمة وإرادتهم وجه الله فى أعمالهم[(١)]، وفى هذا درس عظيم لأبناء الأمة على مستوى الحكومات والحركات والشيوخ والدعاة والقادة والزعماء فى التعامل فيما بينهم عند التعيين أو العزل أو الفصل.

١ - معركة أجنادين:

وصل خالد إلى الشام وفتح بصرى واجتمع بقادة المسلمين أبى عبيدة وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان، ودرس الموقف العسكرى واطلع على أدق تفاصيله، كما اطلع على موقف عمرو بن العاص الذى كان ينسحب بمحاذاة ضفة نهر الأردن لكى يلتقى بجيوش المسلمين الأخرى، ومحاذراً الاشتباك بالجيش الرومى الذى كان يتعقبه، وقد حاول قائد هذا الجيش أن يجر جيش عمرو للاشتباك معه فى معركة فاصلة، إلا أن عَمْراً كان تمام اليقظة والحذر وعلى علم تام بأنه ليس من مصلحته الاشتباك فى مثل هذه المعركة، لأن جيشه لم يكن يتجاوز السبعة آلاف بينما كان جيش الروم يقارب السبعين ألف، وبعد أن درس خالد الموقف العسكرى رأى أن أمامه خيارين، فإما أن يسرع وينضم إلى جيش عمرو ويخوض وإياه معركة فاصلة فيقضى على قوة الروم الكبيرة فيتعزز الموقف العسكرى للجيش الإسلامى ويصون خط رجعته ويحمى جناحه الأيسر ويثبت أقدام المسلمين فى فلسطين، وإما أن يقف مكانه ويوعز إلى عمرو بالانضمام إليه ثم ينتظر قوات الروم التى كانت تزحف نحوه من دمشق ليخوض معها معركة فاصلة، وقد فضل خالد أن يأخذ بالخيار الأول، لأن التغلب على جيش الروم فى فلسطين وتشتيته يحفظ للمسلمين خط رجعتهم ويعزز مركزهم، ويجعلهم فى موقف يستطيعون معه تهديد الجيش الرومى، ويجعلونه يتوقع حصول حركة التفاف من خلفه، فيضطر للأخذ بتدابير خاصة للحماية تشغل جانبًا من قواته فيصبح بذلك مدافعًا بعد أن كان مهاجمًا، فانحدر من اليرموك إلى سهل فلسطين بعدما أصدر أمره إلى عمرو بأن ينسحب متدرجًا جيش الروم حتى يصل جيش خالد فيطبقان عليه فارتد

---

(١) التاريخ الإسلامى للحميدى (٩ / ٢٣١).

عمرو إلى أجنادين[١]، وعندما وصلت قوات خالد أصبح جيش المسلمين بحدود ثلاثين ألف مقاتل، وكان وصول خالد فى الوقت المناسب فما أن اصطدمت قوات عمرو بالروم حتى انقض خالد بقواته الرئيسة، وجرت معركة عنيفة، وكان لمهارة القائدين خالد وعمرو العسكرية دور كبير فى تحقيق النصر الحاسم، حيث تم توجيه قوة اقتحامية اخترقت صفوف العدو حتى وصلت إلى قائد الروم فقتلوه، وبمقتل القائد انهارت مقاومة الروم وهربوا فى اتجاهات مختلفة[٢].

وقد كانت أجنادين أولى المعارك الكبيرة فى بلاد الشام بين المسلمين والروم، فلما انتهى خبر الهزيمة إلى قيصر الروم هرقل وهو فى حمص شعر بمدى الكارثة[٣].

وكتب خالد بن الوليد إلى أبى بكر رضى الله عنه بفتح الله عز وجل عليه وعلى المسلمين: لعبد الله أبى بكر خليفة رسول الله من خالد بن الوليد سيف الله المصوب على المشركين، أما بعد : سلام عليكم فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فإنى أخبرك أيها الصديق أنّا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعًا جمة كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صُلُبهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرُّون حتى يُصيبونا أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله فطاعنَّاهم بالرماح ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم فى كل فج وشعب وغائط، فأحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه وحسن الصنع لأوليائه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فلما وصل الكتاب إلى أبى بكر رحمة الله عليه فرح به وأعجبه. وقال: الحمد الله الذى نصر المسلمين وأقر عينى بذلك[٤].

٢ - اليرموك:

عادت بواكير النصر من وقعة أجنادين بعد الانتصار الكبير الذى حققه المسلمون فى هذه الوقعة وهزيمة الروم، واطمأن المسلمون إلى ما حققوه من نصر فى أجنادين، واجتمعت جيوش المسلمين فى اليرموك تنفيذاً لأمر الخليفة الصديق، وتحركت جيوش الروم بقيادة تيدور ونزلت فى منزل واسع الطعن واسع المطرد ضيق المهرب، فسارت

---

(١) أجنادين: موضع معروف من نواحى فلسطين. (ياقوت، ١/٢٠٣).

(٢) أبو بكر رضى الله عنه، نزار الحديثى، ص ٧٠.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٧١.

(٤) فتوح الشام للأزدى، ص (٨٤ - ٩٣).

حشود الروم حتى نزلوا الواقوصة قريبًا من اليرموك .

- **قوات الطرفين :**

● المسلمون أربعون ألف مقاتل وقيل : خمسة وأربعون ألفًا بقيادة خالد بن الوليد .

● الروم : يقدر عدد الروم بمائتين وأربعين ألفًا بقيادة تيدور .

- **قبل المعركة :**

● المسلمون : وصل المسلمون بقيادة خالد بن الوليد اليرموك فعسكروا بها حتى اجتمعت الروم مع أمرائها على الضفة الجنوبية للنهر، وقال عمرو بن العاص : (أبشروا أيها الناس فقد حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير)[١] .

وخرج خالد بن الوليد بأسلوب جديد لم يستخدمه العرب من قبل ذلك[٢]، فاستخدم أسلوبًا جديداً وهو الكراديس، فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا إلى أربعين ورتب جيشه الترتيب الآتي :

– فرقًا وفيها من عشرة إلى عشرين كردوسًا ولها قائد وأمير .

– كراديس : ألف مقاتل وله قائد وأمير[٣] .

– وقسم جيشه إلى أربعين كردوسًا كما يلي :

فرقة القلب : مؤلفة من ثمانية عشر كردوسًا بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومعه عكرمة ابن أبي جهل والقعقاع بن عمرو .

فرقة الميمنة : مؤلفة من عشرة كراديس بقيادة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة .

فرقة الميسرة : مؤلفة من عشرة كراديس بقيادة يزيد بن أبي سفيان .

فرقة الطليعة (المقدمة) من الخيالة والمخافر الأمامية ومهمتها المراقبة والاستطلاع والاحتفاظ على التماس مع العدو، ولذلك تكون فرقة صغيرة وخفيفة .

---

(١) العمليات التعرضية والدفاعية، ص ١٦٣ .

(٢) البداية والنهاية (٧ / ٨) .

(٣) العمليات التعرضية والدفاعية، ص ١٦٣ .

فرقة المؤخرة: مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل (خمسة كراديس) بقيادة سعيد بن زيد ومهمتها قيادة الظعن (الأمور الإدارية) وكان القاضى (أبو الدرداء) وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود ومهمته تأمين الأمور الإدارية والإعاشة وجمع الغنائم والقارىء المقداد بن الأسود وكان يدور على الناس ويقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد لرفع المعنويات، وخطيب الجيش أبو سفيان بن حرب وهو يطوف على الصفوف[1] يحث الجند على القتال، والقائد العام خالد بن الوليد فى الوسط وحوله كبار الصحابة، وأعد الجيش الإسلامى بقيادة خالد بن الوليد فى الوسط لكل شىء عدته، وأخذ كل قائد من القواد يمر على جنده ويحثهم على الجهاد والصبر والمصابرة، ورأى قادة المسلمين أن هذه المعركة هى معركة يتوقف عليها نتائج كبرى وأنها الحاسمة، وكان خالد يعلم أنه: إن رد الروم إلى خندقهم فسيظل يردهم وإن هزموه فلن يفلح بعدها. أى أن هزيمة الروم فى هذه المعركة تعنى هزيمتهم فى أرض الشام كلها وتفتح أبواب الشام على مصراعيها للمسلمين دون حواجز ولا عراقيل والانطلاق منها إلى مصر فآسيا وأوربا[2].

● **التعبئة الإيمانية:**

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين، فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم فإن وعد الله حق، يا معشر المسلمين: اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدأوهم بالقتال وأشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت إلا من ذكر الله فى أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله تعالى. وخرج معاذ بن جبل على الناس فجعل يذكرهم ويقول: يا أهل القرآن ومستحفظى الكتاب وأنصار الهُدَى وأولياء الحق إن رحمة الله لا تنال، وجنته لا تُدخل بالأمانى ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق ألم تسمعوا لقول الله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ [النور: ٥٥] فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فُرَّارًا من عدوكم وأنتم فى قبضته، وليس لكم ملتحد من دونه ولا عز بغيره. وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غضوا الأبصار واجثوا

---

(١) البداية والنهاية (٧ / ٨).

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص ١٦٤.

على الركب وأشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويعاقب عليه ويجزى بالإحسان إحسانًا، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفْرًا كَفْرًا وقَصْرًا قَصْرًا فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشِّدة تطايروا تطاير أولاد الحجل. وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين إنكم قد أصبحتم فى دار العجم منقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده شديد عليكم حَنَقُه، وقد وترتموهم فى أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وديارهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء والصبر فى المواطن المكروهة، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا، ولتكن هى الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصَّاهن[1] ثم عاد فنادى: يا معشر أهل الإسلام حضر ما ترون فهذا رسول الله والجنة أمامكم والشيطان والنار خلفكم. ثم سار إلى موقفه[2] رحمه الله.

وقد وعظ الناس أبو هريرة فجعل يقول: سارعوا إلى الحور العين وجوار ربكم عز وجل فى جنات النعيم، ما أنتم إلى ربكم فى موطن بأحب إليه منكم فى مثل هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم. وجعل أبو سفيان يقف على كل كردوس ويقول: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك[3]. قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين!! فقال خالد: ويلك أتخوفنى بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر برأ من توجِّيه وأنهم أضعفوا فى العدد، وكان فرسه قد حفىَ واشتكى فى مجيئه من العراق[4].

وجعل معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول: اللهم زلزل أقدامهم وأرعب قلوبهم وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى وحبب إلينا اللقاء وأرضنا بالقضاء[5].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٩).

(٢) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٦٣.

(٣، ٤) البداية والنهاية (٧/ ١٠).

(٥) أبو بكر رجل الدولة ص٨٨.

٥ - الروم:

أقبلت الروم فى خيلائها وفخرها وقد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها، كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة ورهبانهم يتلون الإنجيل ويحثونهم على القتال[١]، ونزلت الروم الواقوصة قريبًا من اليرموك، وصار الوادى خندقًا عليهم، وتعبأ الروم باستخدام أسلوب الكراديس فى خطين كل خمسة فى دائرة يفصل بينهما وبين الخمسة الأخرى فاصل، ثم يأتى الخط الثانى وراء فرجات الخط الأول، واتبع الروم فى قتالهم الترتيب التالى:

- الرماة فى المقدمة واجبهم أن ينشبوا القتال ثم الانسحاب إلى الوراء والأجنحة.
- الخيالة بالجناحين واجبهم حماية الرماة حتى انسحابهم من الخلف.
- الكراديس (المشاة) واجبهم الاقتحام.
- قائد المقدمة جرجه.
- قائد الجناحين ماهان والدارقص[٢].

• **المفاوضات قبل القتال:**

ولما تقارب الناس تقدم أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان نحو جيش الروم ومعهما ضرار ابن الأزور، والحارث بن هشام، ونادوا إنما نريد أميركم لنجتمع به، فأذن لهم فى الدخول على تَذَارِق وإذا هو جالس فى خيمة من حرير. فقال الصحابة: لا نستحل دخولها، فأمر لهم بفراش بسط من حرير، فقالوا: ولا نجلس على هذه، فجلس معهم حيث أحبوا، وتفاوضوا على الصلح ورجع عنهم الصحابة بعدما دعوهم إلى الله عز وجل فلم يتم ذلك[٣].

وذكر الوليد بن مسلم: أن باهان طلب خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا فى مصلحة لهم. فقال باهان: إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجَهْد والجوع، فهلموا إلى أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعامًا وترجعون إلى بلادكم

---

(١) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٦٣.

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٠).

فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها، فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت غير أنا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك. فقال أصحاب باهان: هذا والله ما كنا نحدث به عن العرب(١).

● إنشاب القتال:

لما تكامل الاستعداد ولم تنجح المفاوضات تقدم خالد إلى عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو - وهما على مجنبتى القلب - أن ينشبا القتال، فبدرا يرتجزان ودعوا إلى البراز وتنازل الأبطال وتجاولوا وحميتِ الحرب وقامت على ساق.

هذا وخالد مع كردوس من الحماة الشجعان الأبطال بين يدى الصفوف والأبطال يتصاولون بين يديه وهو ينظر ويبعث إلى كل قوم من أصحابه بما يعتمدونه من الأفاعيل ويدبر أمر الحرب أتم التدبير(٢).

● إسلام أحد قادة الروم فى ميدان المعركة:

وخرج جَرجَة أحد الأمراء الكبار من الصف واستدعى خالد بن الوليد، فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما فقال جرجة: يا خالد أخبرنى فاصدقنى ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا. قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعًا ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه وبعضنا كذَّبه وباعده فكنت فيمن كذَّبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه، فقال لى: «**أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين**»(٣). ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله بذلك، فأنا أشد المسلمين على المشركين، فقال جَرجَة: يا خالد إلى ما تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل. قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بالحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل فى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا

(١، ٢) البداية والنهاية (٧/ ١٠).

(٣) نفس المصدر السابق (٧/ ١٣).

شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا . قال جَرَجَة : فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال : نعم وأفضل . قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبينا وهو حيٌّ بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا . فقال جَرَجَة : بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى؟ قال : تالله لقد صدقتك وأن الله ولىٌّ ما سألت عنه . فعند ذلك قلب جَرَجَة الترس ومال مع خالد، وقال : علمنى الإسلام فمال به خالد إلى فسطاطه فَسَنَّ عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين . وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد وهم يرون أنها منه حَمْلة فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية عليهم عكرمة بن أبى جهل والحارث بن هشام(١) .

● ميسرة الروم تحمل على ميمنة المسلمين:

تقدمت صفوف الروم وأقبلت كقطع الليل للقيام بهجوم عام على الجيش الإسلامى، وحملت ميسرتهم على ميمنة المسلمين فانكشف قلب الجيش الإسلامى من ناحية الميمنة واستطاع الروم إحداث ثغرة فى صفوف المسلمين والتسلل إلى مؤخرتهم، فصاح معاذ بن جبل : يا عباد الله المسلمين إن هؤلاء شدوا للشد عليكم ولا والله لا يردهم إلا صدق اللقاء والصبر فى البلاء . ثم نزل عن فرسه وقال : من أراد أن يأخذ فرسى ويقاتل عليه فليأخذه، وآثر بذلك أن يقاتل راجلاً مع المشاة(٢) . وثبتت قبائل الأزد ومذحج وحضرموت وخولان حتى صدوا أعداء الله ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال فزال المسلمون من الميمنة إلى القلب وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر، وثبت سُور من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم، ثم تنادوا فتراجعوا حتى نَهْنَهوا من أمامهم من الروم وأشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس، واستقبل النساء من انهزم من سَرَعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة . فتراجعوا إلى مواقفهم(٣) .

---

(١) البداية والنهاية (٧/١٣) .

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية، ص ١٦٩ .

(٣) فتوح الشام للأزدى، ص ٢٢٢ .

فقال عكرمة بن أبى جهل: قاتلت رسول الله فى مواطن وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه عَمُّه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا، وقتل منهم خلق منهم ضرار بن الأزور رضى الله عنه(١).

وقد ذكر الواقدى وغيره أنهم لما صرعوا من الجراح استسقوا ماء فجئ إليهم بشربة ماء فلما قرِّبت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعًا، ولم يشربها أحد منهم رضى الله عنهم أجمعين.

ويقال: إن أول من قتل من المسلمين يومئذ شهيداً رجل جاء إلى أبى عبيدة فقال: إنى قد تهيأت لأمرى فهل لك حاجة إلى رسول الله ﷺ؟ قال: نعم تقرئه عنى السلام وتقول: يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا قال: فتقدم هذا الرجل حتى قُتل رحمه الله. وثبت كل قوم على رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنها الرحا، فلم تر يوم اليرموك إلا مُخًا ساقطًا ومعصمًا نادراً وكفًا طائرة من ذلك الموطن(٢).

● **ميمنة الروم تحمل على ميسرة المسلمين:**

حملت ميمنة الروم بقيادة قناطر على ميسرة المسلمين حملة شديدة، وكانت فى ميسرة المسلمين قبائل كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان فأزيلت عن مواضعها، فانكشف قلب المسلمين من ناحية الميسرة وركب الروم أكتاف من انهزم من المسلمين، وتبعوهم حتى دخلوا معسكر المسلمين، فاستقبلتهم نساء المسلمين بالحجارة وأعمدة الخيام يضربنهم على وجوههم ويقلن لهم: أين عز الإسلام والأمهات والأزواج أين تفرون وتدعوننا للعلوج؟ فإذا زجرنهم خجل أحدهم من نفسه ورجع إلى القتال، وقتلوا من الروم خلقًا كثيراً واستشهد فى هذه المرحلة سعيد بن زيد، وحاولت ميسرة الروم مرة أخرى بشن الهجوم على ميمنة المسلمين: فشدوا على عمرو بن العاص وجنده فى محاولة اختراق الصفوف لكى يقوموا بعملية التطويق، وقاتل عمرو وجنده عن مواضعهم إلا أن الروم تمكنوا من دخول معسكرهم، ونزلت المسلمات من التل وأخذن

---

(١) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٧٠.

(٢) البداية والنهاية (١٢/٧).

يضربن وجوه الرجال المراجعين وقالت ابنة عمرو: قبح الله رجلاً يفر عن حليلته وقبح الله رجلاً يفر عن كريمته وقالت أخريات: لستم بعولتنا إن لم تمنعونا، وبذلك ارتدت إلى المسلمين عزائمهم، ودخلوا القتال مرة أخرى وحمل المسلمون على الروم من جديد حتى أزاحوهم عن المواضع التى كسبوها[1].

● الحركة الإفراجية والقضاء على مشاة الروم:

حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التى حملت على ميمنة المسلمين فأزالوهم إلى القلب، فقتل من الروم فى حملته هذه ستة آلاف ثم قال: والذى نفسى بيده لم يبقَ عندهم من الصبر والجَلَد غير ما رأيتم، وإنى لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم. ثم اعترضهم فحمل بمائة فارس معه على نحو من مائة ألف فما وصل إليهم حتى انقضَّ جميعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فانكشفوا، وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم[2]، وقامت ميمنة المسلمين بإغلاق المنافذ والثغرات فى وجوه الروم وحصروا بين وادى اليرموك ونهر الزرقاء ودارت رحى المعركة وأبلى المسلمون بها بلاءً حسنًا، واستطاع المسلمون أن يفصلوا فرسان الروم عن مشاتهم، فحملوا على الروم وركبوا أكتافهم حتى أرهقوهم وبذلك أراد فرسان الروم مخرجًا لهم للفرار منه وبذلك أمر خالد عمرو بن العاص بفسح المجال لهم فى طريق الهرب، ففعل ذلك وهرب فرسان الروم، وبذلك تحرك مشاة الروم دون غطاء من خيالتهم فجاء المشاة إلى الخنادق وهم مقيدون بالسلاسل حتى صاروا كأنهم حائط، وقد هدم، وجاءهم المسلمون إلى خندقهم فى ظلام الليل وأخذ معظمهم ينهار بالوادى فإذا منهم شخص قُتل سقط معه الجميع الذين كانوا مقيدين معه، وقتل منهم المسلمون فى هذه المرحلة خلقًا كثيراً قدر عددهم بمائة ألف وعشرين ألفًا، والناجون منهم قد انسحب منهم إلى فحل، والقسم الآخر إلى دمشق داخل بلاد الشام[3].

وثبت يومئذ يزيد بن أبى سفيان وقاتل قتالاً شديداً، وذلك أن أباه مرَّ به فقال له: يا بنى عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادى من المسلمين إلا محفوفًا بالقتال فكيف بك وبأشباهك الذين ولوا المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر

(١) العمليات التعرضية والدفاعية، ص ١٧٤.

(٢) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٧١؛ فتوح البلدان للأزدى، ص ١٧١.

(٣) العمليات التعرضية والدفاعية، ص ١٧٥.

والنصيحة، فاتق الله يا بنى ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب فى الأجر والصبر فى الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال: أفعل إن شاء الله. فقاتل يومئذ قتالاً شديداً وكان من ناحية القلب رضى الله عنه(١)، وقال سعيد بن المسيب عن أبيه، قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتًا يكاد يملأ المعسكر يقول: يا نصر الله اقترب الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد(٢)، وأخر الناس صلاتى العشاء حتى استقر الفتح(٣)، وأكمل خالد ليلته فى خيمة تَذَارِق أخى هرقل -وهو أمير الروم كلهم يومئذ-(٤)، وهرب فيمن هرب وباتت الخيول تجول حول خيمة خالد يقتلون من مرَّ بهم من الروم حتى أصبحوا، وقُتِل تَذارِق وكان له ثلاثون سرادقًا وثلاثون رواقًا من ديباج بما فيها من الفرش والحرير، فلما كان الصباح حازوا ما كان هنالك من الغنائم(٥)، وكان عدد شهداء المسلمين ثلاثة آلاف بينهم من صحابة النبى ﷺ وشيوخ المسلمين وأقطابهم، وممن استشهد من هؤلاء عكرمة بن أبى جهل وابنه عمرو وسلمة بن هشام وعمرو بن سعيد وأبان بن سعيد وغيرهم(٦)، وكان عدد قتلى الروم مائة وعشرين ألفًا، منهم ثمانون ألفًا مقيدون بالسلاسل وأربعون ألفا مطلقون سقطوا جميعهم فى الوادى(٧)، لقد فرح المسلمون بهذا النصر العظيم وعكَّر ذلك الفرح وصول خبر وفاة الصديق حيث حزنوا عليه حزنًا شديداً، وعوضهم الله تعالى بالفاروق رضى الله عنهم أجمعين(٨)، وقد كان البريد قد قدم بموت الصديق والمسلمون مصافو الروم، فكتم خالد ذلك عن المسلمين لئلا يقع فى صفوفهم وهن أو ضعف، فلما تم النصر وأصبحوا أجلى لهم الأمر، وكان الفاروق قد عين أبا عبيدة بن الجراح بدلاً من خالد بن الوليد على جيوش الشام، وتقبل خالد أمر الفاروق برحابة صدر(٩)، وعزَّى المسلمين فى خليفة رسول الله وقال لهم: الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب إلىَّ من عمر والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلى من أبى بكر وألزمنى حبه(١٠)، وتولى أبو عبيدة القيادة العامة لجيوش الشام.

---

(١) فتوح البلدان للأزدى، ص ٢٢٨.

(٢، ٣، ٤، ٥) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٧٣.

(٦، ٧) العمليات التعرضية والدفاعية، ص ١٧٩.

(٨) البداية والنهاية (٧/ ١٤).

(٩) نفس المصدر السابق (٧/ ١٦).

(١٠) البداية والنهاية (٧/ ١٤).

ومما قيل من الشعر في يوم اليرموك قول القعقاع بن عمرو:

ألم تَرنا على اليرموك فُزنا ... كما فُزنا بأيام العراق

وعذراء المدائن قد فتحنا ... ومرجَ الصفرِ بالجراد العتاق[1]

فتحنا قبلها بُصرى وكانت ... محرمة الجناب لدى النعاق[2]

قتلنا من أقام لنا وفينا ... نهابُهُمُ بأسياف رقاق

قتلنا الروم حتى ما تساوى ... على اليرموك معروق الوراق

فضضنا جمعهم لما استجالوا ... على الواقوص بالبتر الرقاق[3]

غداة تهافتوا فيها فصاروا ... إلى أمرٍ يعضِّل بالذواق[4]

وقد أصاب هرقل هم وحزن لما أصاب جيشه في اليرموك، ولما قدمت على أنطاكية فلول جيشه قال هرقل: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عمّا يرضى الله ونفسد في الأرض، فقال: أنت صدقتني[5].

* * *

---

(١) العتاق: الخيول.

(٢) النعاق: صوت الغراب.

(٣) الواقوص: اسم موضع، البتر الرقاق: السيوف القاطعة.

(٤) البداية والنهاية (٧/١٥).

(٥) البداية والنهاية (٧/٥١ - ٦١).

المبحث الثالث

أهم الدروس والعبر والفوائد

أولاً: من معالم السياسة الخارجية فى دولة الصديق:

رسمت خلافة الصديق رضى الله عنه أهدافًا فى السياسة الخارجية للدولة الإسلامية والتى كان من أهمها:

١- بذر هيبة الدولة فى نفوس الأمم الأخرى:

فقد حققت سياسة الصديق هذا الهدف بطرق عديدة منها:

(أ) وصول أخبار الانتصارات التى أيد الله بها الأمة المسلمة فى حروب الردة مما ساعد على وأد هذه الفتنة وتثبيت أركان الدولة، ومثل هذه الأخبار تصل إلى الدول المجاورة، وبخاصة إذا كانت تتابع أنباء الدولة الإسلامية وترقب حركتها وترى فيها خطراً جديداً يهددها، وللفرس والروم فى ذلك الوقت قدرة على معرفة الحوادث والأمور، فلما وصلت أنباء المرتدين وثبات الناس على الدين أدركت الدولتان أن بنيان هذه الأمة الجديدة يستعصى على المؤامرات ويتجاوز المحن والابتلاءات، وهذا له وَقْعُهُ فى نشر هيبة دولة الإسلام.

(ب) جيش أسامة: ظهر لجيش أسامة الذى أنفذه الصديق أثر بالغ فى نشر هيبة الدولة الإسلامية، وقد جعل الروم يتساءلون عن الجيش الذى حاربهم وعاد منتصراً إلى عاصمة دولته، فامتلأت قلوبهم فزعًا حتى حشد هرقل عشرات الألوف من جيشه على الحدود، فقد نقلت تلك الأخبار إلى بلاد كسرى، وتناقلها الناس مما كان له الأثر فى نشر هيبة المسلمين فى قلوب هذه الدول[1].

٢- مواصلة الجهاد الذى أمر به النبى ﷺ:

قام الصديق بمواصلة الجهاد لتأمين الدعوة ووصولها للناس، فجهز الجيوش وندب الناس للخروج إلى الجهاد فى سبيل الله، لنشر دعوة الحق وإزاحة الطواغيت الذين رفضوا

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص(٢٥٩، ٢٦٠).

دعوة النبى ﷺ لهم بالإسلام، وصمموا على حجب نور الحق عن شعوبهم وقد خرج الناس يلبون هذه الدعوة الحبيبة إلى النفوس تحت لواء قادة أصحاب بلاء وجهاد فى سبيل الله أمثال خالد وأبى عبيدة وعمرو وشرحبيل ويزيد رضى الله عنهم، اختارهم خليفة محنك مجرب ذو ملكة عسكرية عجيبة صقلتها الظروف التى أحاطت به والأزمات الخطيرة التى أحدقت بأمته، مما دفعه إلى العناية بهذه الناحية، فاختار القواد أحسن اختيار وأمدهم بتوجيهاته وإرشاداته، ففتحوا الشام والعراق فى أقصر وقت ممكن وبأقل كلفة متاحة(١).

٣- العدل بين الأمم المفتوحة والرفق بأهلها:

كانت السياسة الخارجية للصديق قائمة على بسط لواء العدل على الديار المفتوحة ونشر الأمن والطمأنينة بين أهلها، حتى يحس الناس بالفرق بين دولة الحق ودولة الباطل، وحتى لا يظن الناس أنه قد ذهب جبار ظالم ليحل مكانه من هو أشد منه أو مثله فى ظلمه وجبروته، ووصى أبو بكر قواده بالرحمة والعدل والإحسان إلى الناس، فإن المغلوب يحتاج إلى الرأفة وتجنب ما يثير فيه حمية القتال، وحافظ المسلمون الفاتحون على الإنسان والعمران فشاهدت الشعوب المفتوحة خلقًا جديداً فى ذوق رفيع وإنسانية صادقة، فقام ميزان الشريعة بين الأمم المغلوبة بالقسط، وانتشر نور الإسلام فأخذ يعد له مجامع القلوب فسارعت الشعوب إلى اعتناق هذا الدين والانضواء تحت لوائه، وكان جند الأعاجم من الفرس أو الروم إذا وطئوا أرضًا دنسوها ونشروا فيها الرعب والفزع وانتهكوا الحرمات، مما قاسى منه الناس الويل والثبور، وتناقلت الأجيال قصصه المرعبة والمفزعة جيلاً بعد جيل وقبيلاً إثر قبيل، فلما جاء الإسلام ودخل جنده هذه الديار فإذا بالناس يجدون العدل يبسط رداءه فوق رؤوسهم، ويعيد إليهم آدميتهم التى انتزعها الظلم والطغيان، وقد حرص الصديق على هذه السياسة حرصًا عظيمًا وكان يقوِّم أى عوج يظهر أو خطأ يقع. روى البيهقى: أن الأعاجم كانوا إذا انتصروا على عدو استباحوا كل شىء من ملك أو أمير وكانوا يحملون رؤوس البشر إلى ملوكهم كبشائر للنصر وإعلان للفخر، فرأى أمراء المسلمين فى حروب الروم أن يعاملوهم بنفس معاملتهم فبعث عمرو بن العاص وشرحبيل

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٦٠.

بن حسنة برأس (بنان) أحد بطارقة الشام إلى أبى بكر مع عُقبة بن عامر، فلما قدم عليه أنكر ذلك، فقال له عقبة: يا خليفة رسول الله إنهم يصنعون ذلك بنا، فقال: أَفَنَسْتَنٌّ بفارس والروم؟ لا يحمل إلى رأس إنما يكفى الكتاب والخبر(١).

٤- رفع الإكراه عن الأمم المفتوحة:

من معالم السياسة الخارجية عند الصديق رضى الله عنه رفع الإكراه عن الأمم المفتوحة، فلم يكره أحد من الأمم أو الشعوب على دينه بالقوة وهو فى هذا ينطلق من قول الله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]. والمسلمون أرادوا من الفتوحات إزالة الطغاة وفتح الأبواب أمام الشعوب لترى نور الإسلام، أما وقد أزيل كابوس الظلم عن الناس فليتركوا أحراراً ولا يكرهوا على شيء طالما حافظوا على عهدهم مع المسلمين، والذى كان يشمل فى بنوده:

(أ) أن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

(ب) أن لا يكون لهم مكان فى بعض الوظائف كالجيش.

(جـ) أن لا يُكَوِّنوا جهة معادية للإسلام فى شعائره أو عباداته أو شريعته.

(د) إذا غير أحدهم دينه السابق فلا يقبل منه إلا الإسلام.

وتقوم دولة الإسلام بتفسير الإسلام لهم عمليًا ونظريًا، بحيث يؤدى ذلك إلى اقتناعهم بهذا الدين ليدخلوا فيه عن رغبة فإن العقائد لا تستقر بالإكراه(٢).

ثانيًا: من معالم التخطيط الحربى عند الصديق:

إن المطالع للفتوحات فى عهد الصديق رضى الله عنه يمكن له أن يستنتج خطوطًا رئيسة للخطة الحربية التى سار عليها وكيف تعامل هذا الخليفة العظيم مع سنة الأخذ بالأسباب؟ وكيف كانت هذه الخطة المحكمة عاملاً من عوامل نزول النصر والتمكين من الله عز وجل للمسلمين، ومن هذه الخطوط ما يلى:

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص١٢٣.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٦٣.

١- عدم الإيغال فى بلاد العدو حتى تدين للمسلمين:

كان الصديق رضى الله عنه حريصًا أشد الحرص على عدم الإيغال فى بلاد العدو حتى تدين للمسلمين، وقد كان ذلك واضحًا تمام الوضوح فى جبهات العراق والشام، ففى فتوح العراق أرسل الصديق رضى الله عنه إلى خالد وعياض بتكليفهما بغزو العراق من جنوبه وشماله وجاء فى الكتاب: وأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة، فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد فَضَضْتُما مسالح ما بين العرب وفارس(١)، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليُقم بالحيرة أحدكما وليقتحم الآخر على القوم، وجالدوهم عما فى أيديهم واستعينوا بالله واتقوه وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما، واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصى ومعاجلة التوبة، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة(٢). وهذا الكتاب الجليل يدل على فكر أبى بكر العالى وتخطيطه الدقيق وقبل ذلك توفيق الله له، فقد جاء تخطيطه الحربى موافقًا تمامًا لما اقتضته مصلحة الجيوش الإسلامية أثناء تطبيق هذه الخطة الحكيمة، وقد شهد ببراعة أبى بكر فى التخطيط الحربى أخبر الناس بالحروب آنذاك وهو خالد بن الوليد، فإنه لما نهض للقيام بمهمة عياض فى فتح شمال العراق ونزل بكربلاء، واشتكى إليه المسلمون ما وقعوا فيه من التأذى بذُبابها الكثيف، قال لعبد الله بن وثيمة: اصبر فإنى إنما أريد أن أستفرغ المسالح التى أمر بها عياض فنُسكنها العرب فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم، وتجيئنا العرب آمنة غير متعتعة وبذلك أمرنا الخليفة ورأيه يعدل نجدة الأمة(٣)، وقد سار على هذه الخطة بالعراق المثنى بن حارثة حيث يقول ذلك القائد الفذ: قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، ولا تقاتلوهم بعقر دارهم، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم، إلى أن يرد الله الكرة عليهم(٤)، وأما فى فتوحات الشام فقد كانت الصحراء من خلف المسلمين حماية لهم، ومع هذا كان المسلمون يتأكدون أولاً من أن عدوهم قد انقطع أمله فى مفاجأتهم من خلف ظهورهم، وأن

---

(١) يعنى تفريق التجمعات الحربية التى دون بلاد فارس.

(٢) تاريخ الطبرى (٤/١٨٨، ١٨٩).

(٣) نفس المصدر السابق (٤/١٨٩).

(٤) الإصابة (٥/٥٦٨) رقم ٧٧٣٦؛ تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٣٣١.

يستولوا على ما يقع بيمينهم وشمالهم من المدن والبلاد، وسدَّ كل ثغر بالمقاتلة، وقد كانت تلك القاعدة مرعية عندهم يحرصون علها أشد الحرص[١].

٢- التعبئة وحشد القوات:

عندما تولى الصديق الخلافة وضع من خطوط الإعداد الحربى: التعبئة وحشد القوات، وقد نادى المسلمين لحروب الردة، ثم استنفرهم بعدها للفتوحات، وأرسل إلى أهل اليمن كتابه المعروف فى ذلك[٢].

٣- تنظيم عملية الإمداد للجيوش:

حينما تطورت معارك الجبهة الشرقية ووجد قائدا الجبهة – خالد والمثنى – أنهما فى حاجة إلى مدد بشرى لأن الطاقة التى معهما لا تستطيع تلبية المعركة فى متطلباتها وواجباتها، فكتبا إلى الصديق رضى الله عنه يلتمسان المدد فقال لهما: استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن بقى على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون أحد ارتد حتى أرى رأيى[٣]. وشرع فى إمداد جبهات العراق والشام حتى اللحظات الأخيرة من حياته.

٤- تحديد الهدف من الحرب:

وضعت هذه النقطة فى خطة الحرب الإسلامية فى الفتوحات، لتكون هدف العمليات الذى يسعى إليه الجميع، وقد وضع الصديق خطته فى هذه القضية على أساس أن يعلم كل فرد مقاتل أن هدف المسلمين من هذه الفتوحات: نشر الإسلام وتبليغه إلى الشعوب، بإزالة الطواغيت الذين يحرمون شعوبهم من هذا الخير العميم، فقد كان القادة يعرضون على عدوهم قبل المعركة واحدة من ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب[٤].

٥- إعطاء الأفضلية لمسارح العمليات:

قاد الصديق رضى الله عنه بنفسه أولى العمليات الحربية ضد المرتدين، ونظم الجيوش لحربهم ولم يهمل بقية المسارح فوجه أسامة إلى الشام والمثنى إلى العراق وكرس جهود

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٣١.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٣) تاريخ الطبرى (٤/ ١٦٣).

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٣٢.

المسلمين في السنة الأولى للقضاء على الردة، وعندما تمت عملية إعادة توحيد الجزيرة وأصبح بالإمكان الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، وجه ثقل العمليات إلى الجبهتين العراقية والشامية، وعندما احتاجت الجبهة الشامية إلى المدد نقل الصديق محور ثقل الهجوم إلى الشام، ووجه خالداً إليه، وترك المثنى في الجبهة العراقية.

٦- عزل ميدان المعركة:

عندما بدأ الصديق رضي الله عنه باستنفار القوات لحرب الروم والفرس، أرسل خالد ابن سعيد إلى تبوك بمهمة إلى مناطق الحشد ومحاور التقدم، وأمره أن يكون ردءاً للمسلمين، وعندما فشل في هذا الواجب وتجاوزه قام عكرمة بن أبي جهل به(١).

٧- التطور في أساليب القتال:

كتب الصديق إلى أبي عبيدة عندما بلغه تقدم جيوش الروم وانضمام أهل دمشق إليهم ما يلي: بث خيولك في القرى والسواد وضيق عليهم الميرة والمادة ولا تحاصرن المدائن حتى يأتيك أمري(٢)، وعندما دعمه بقوات كافية كتب له: فإن ناهضوك فانهد لهم واستعن بالله عليه، فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثلهم(٣).

٨- سلامة خطوط الاتصال مع القادة:

كانت خطوط الاتصال بين الصديق وقادة المعارك منظمة ومنتظمة بحيث تصل المكاتبات من القادة في أمان، وتصل ردود الخليفة في سرية تامة وسرعة متقدمة لا تسمح للعدو أن يفاجأ المسلمين بشيء لا يتوقعونه، وهكذا كانت الخطط الحربية عند المسلمين محكمة دقيقة، مما كان عاملاً من عوامل دحر الأعداء والتغلب عليهم بفضل الله في حركة الفتوح(٤).

٩- ذكاء الخليفة وفطنته:

امتازت الخطط الحربية الإسلامية في بداية الفتوحات بوجود العقل المدبر ذي الفطنة والذكاء والكياسة والفراسة، وهو الصديق، وقد ساعد أبو بكر على فهمه الواسع

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٣٤.
(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص١٤٨.
(٣، ٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٣٣٤.

للتخطيط العسكرى طول ملازمته للنبى ﷺ، فقد تربى على تعليمه وتوجيهاته فكسب علومًا شتى وخبرات متنوعة، فقام بعد رحيل رسول الله ﷺ فى مقام الخلافة خير قيام، فحمل البصيرة الواعية وزود الجيش بالنصائح الغالية، وأرسل الإمدادات فى أوقاتها تسعف المجاهدين وتمدهم بالهمة والعزيمة الماضية(١).

ثالثًا: حقوق الله والقادة والجنود من خلال وصايا الصديق:

١- حقوق الله:

بين الخليفة فى توجيهاته للقادة والجنود حقوق الله تعالى، كمصابرة العدو وإخلاص قتالهم لله، وأداء الأمانة وعدم الممالئة والمحاباة فى نصرة دين الله.

(أ) مصابرة العدو:

حين وجه أبو بكر رضى الله عنه عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه إلى عمان كان مما أوصاه به قوله: واتق الله فإذا لقيت العدو فاصبر(٢)، كما قال الصديق رضى الله عنه لهاشم بن عتبة بن أبى وقاص، عندما وجهه مدداً لجند الشام: إذا لقيت عدوك فاصبر وصابر، واعلم أنك لا تخطو خطوة ولا تنفق نفقة ولا يصيبك ظمأ ولا مخمصة فى سبيل الله إلا كتب الله لك به عملاً صالحًا، إن الله لا يضيع أجر المحسنين(٣).

(ب) أن يقصدوا بقتالهم نصرة دين الله:

فقد جاء فى خطاب الصديق لخالد حين أمره بالذهاب للشام ما يفيد هذا المعنى، حيث ذكره بأن يجتهد ويخلص النية لله وحده، وحذره من العجب بالنفس والزهو والفخر فذلك خظ النفس الذى يفسد العمل على العامل، ويرده فى وجهه، كما حذره أن يدل ويمن على الله بالعمل الذى يعمله، فإن الله هو المان به إذ التوفيق بيده سبحانه(٤) وهذا بعض ما جاء فى تلك الرسالة: ... فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٣٣٦.

(٢) عيون الأخبار (١/١٨٨).

(٣) فتوح الشام للأزدى، ص٣٤.

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص٢٩٥.

فأتمم يتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء(١).

(جـ) أداء الأمانة:

وقد كانت توجيهات الصديق لأمرائه وجنوده واضحة فى وجوب أن يؤدوا الأمانة فيما حازوه من الغنائم، ولا يغل أحد منهم شيئًا، بل يحمل جميعه إلى المغنم ليقسم بين جميع الغانمين ممن شهدوا الواقعة، وكانوا على العدو يداً واحدة(٢)، وعلى سبيل المثال ما جاء فى وصية الصديق ليزيد بن أبى سفيان فى النهى عن الغلول(٣)، هذه بعض توجيهات الصديق مما يتعلق ببعض حقوق الله على القادة والجنود.

٢- حقوق القائد:

وقد بين الخليفة الصديق حقوق القادة على الجنود والرعية، كالتزام طاعته والمسارعة إلى امتثال أمره، وعدم منازعته فى شىء من قسمة الغنائم وغير ذلك.

(أ) التزام طاعته:

فعندما تولى أبو بكر رضى الله عنه بعد أن تولى الخلافة كان أول شىء نبه المسلمين إليه فى خطاب التولية أنه سائر على نهج رسول الله ﷺ، كما ذكّر بالطاعة حيث قال: واعلموا أن ما أخلفتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها(٤)، وألزم قادته بالطاعة لبعضهم فمن ذلك ما كتبه إلى المثنى بن حارثة الشيبانى بقوله: إنى قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق فاستقبله بمن معك من قومك ثم ساعده ووازره وكاتفه، ولا تعصين له أمراً ولا تخالفوا له رأيا، فإنه من الذين وصف الله تبارك وتعالى فى كتابه فقال: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح: ٢٩](٥) كذلك أخذ أبو بكر رضى الله عنه يوصى فى خلافته جيوش المسلمين المتجهة لفتح بلاد الشام بالطاعة، فقال لهم: أيها الناس إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/٢٠٢).

(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/٤٦).

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص١٢١.

(٤) تاريخ الطبرى (٤/٤٤).

(٥) فتوح الشام للأزدى، ص(٦٠، ٦١).

وأكرمكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين عن كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام فإني مؤمر عليكم أمراء وعاقد لكم ألوية فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم، لتحسن نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون[١].

فكان جوابهم له بقولهم: أنت أميرنا ونحن رعيتك فمنك الأمر ومنا الطاعة، فنحن مطيعون لأمرك وحيثما توجهنا نتوجه[٢]. وعندما عين الصديق خالد بن الوليد لفطنته وعلمه بالحرب، ولما وصل خالد بن الوليد للشام طلب من أبى عبيدة بن الجراح بأن يبعث إلى أهل كل راية ويأمرهم أن يطيعوه، فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس، فأمره بذلك فخرج الضحاك يسير فى الناس طالباً منهم طاعة القائد الجديد لجيوش الشام خالد ابن الوليد فيما يأمرهم به، فأجاب الناس بالسمع والطاعة[٣].

(ب) أن يفوضوا أمرهم إلى رأيه:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء:٨٣]. جعل الله تفويض الرعية الأمر إلى ولى الأمر سبباً لحصول العلم وسداد الرأى، فإن ظهر لهم صواب خفى عليه بينوه له وأشاروا به عليه، ولذلك ندب إلى المشاورة ليرجع بها إلى الصواب[٤]، وفى خلافة الصديق نرى أبا بكر رضى الله عنه كلف أمراء وقادة جيوشه بالتوجه إلى الشام، وفوض لهم أمر الجيوش حيث قال لهم: يا أبا عبيدة ويا معاذ ويا شرحبيل ويا يزيد أنتم من حماة هذا الدين وقد فوضت إليكم أمر هذه الجيوش فاجتهدوا فى الأمر واثبتوا، وكونوا يداً واحدة فى مواجهة عدوكم[٥]، ثم أمر القادة بمراعاة أحوال الجنود وتقديم الإخلاص والاتحاد حتى لا تختلف آراؤهم[٦]، وأضاف الصديق قائلاً: فإذا قدمتم البلد ولقيتم العدو واجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح، وإن لم يلقكم أبو عبيدة، وجمعتكم حرب فأميركم يزيد بن أبى

---

(١) فتوح الشام للأزدى، ص٥.

(٢) الفتوح ابن أعثم (١/ ٨٢).

(٣) فتوح الشام للأزدى، ص١٨٩.

(٤) الأحكام السلطانية للماوردى، ص ٤٨.

(٥) فتوح الشام للأزدى، ص٧.

(٦) الفتوح ابن أعثم (١/ ٨٤).

سفيان[1]، وهكذا فوض خليفة رسول الله ﷺ إدارة العسكر إلى رأى أحد قادته ووكله إلى تدبيره،حتى لا تختلف آراؤهم، وأكد على ذلك عندما قال لعمرو بن العاص: أنت أحد أمرائنا هناك، فإن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح[2]، وكان ذلك رأيه أيضاً مع قادة العراق حيث قال للمثنى بن حارثة: إنى بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق ... فما أقام معك فهو الأمير فإن شخص عنك فأنت على ما كنت عليه والسلام عليك[3].

(جـ) المسارعة إلى امتثال أمره:

ففى حروب الردة كتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد فى أمر مسيلمة الكذاب، فقد أمره بالمسير إليه فجمع خالد بن الوليد أصحابه وقرأ عليهم الكتاب وسألهم الرأى فأجابوه بقولهم: الرأى رأيك وليس فينا أحد يخالف أوامرك[4]، كما كتب الصديق رضى الله عنه لخالد بن الوليد أثناء مقامه بالعراق بالخروج فى شطر الناس إلى الشام، وأن يخلف على الشطر الباقى المثنى بن حارثة، وقال له: لا تأخذ نجداً إلا خلفت له نجداً. فامتثل خالد للأمر وقسم الجند نصفين[5]، وكتب إلى عمرو بن العاص بالسير من بلاد قضاعة إلى اليرموك ففعل وبعث بأبى عبيدة ويزيد وأمرهما بالإغارة وألا يوغلوا فى بلاد الشام حتى لا يكون وراءهم أحد من العدو، وقد استجاب القادة والجنود لتوجيهاته وأوامر الصديق رضى الله عنه[6].

(د) عدم منازعته في شيء من قسمة الغنائم:

سار أبو بكر رضى الله عنه فى خلافته على نهج الرسول ﷺ فى تقسيم الغنائم، فبعد انتهاء خالد بن الوليد رضى الله عنه من معركة اليمامة كتب إلى الصديق رضى الله عنه يخبره بما فتح الله عليه وما أغنمه منهم، فكتب إليه أبو بكر قائلاً: اجمع الغنائم والسبى وما أفاء الله عليك من مال بنى حنيفة فأخرج من ذلك الخمس ووجه به إلينا

---

(١) فتوح الشام، ص٧.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٤٨.

(٣) الوثائق السياسية، حميد الله، ص٣٧١.

(٤) الفتوح، ابن أعثم (١/ ٢٩).

(٥) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية، سليمان آل كمال (١/ ١١٢).

(٦) نفس المصدر السابق (١/ ١١٣).

ليقسم فيمن بحضرتنا من المسلمين، وادفع إلى كل ذى حق حقه والسلام. وهذا ما كان يفعله جميع قادة أبى بكر رضى الله عنه فى إدارتهم العسكرية فى قسمة الغنائم ولم ينازعهم الجند فى شىء من قسمتها والتسوية بينهم فيها(١).

٣- حقوق الجند:

بين الصديق رضى الله عنه من خلال وصاياه ورسائله حقوق الجند، كاستعراضهم وتفقد أحوالهم والرفق بهم فى السير، وأن يقيم عليهم العرفاء والنقباء واختيار مواضع نزولهم لمحاربة العدو، وإعداد ما يحتاج إليه الجند من زاد وعلوفة، والتعرف على أخبار العدو بالجواسيس الثقات لسلامة الجند، وتحريضهم على الجهاد، وتذكيرهم بثواب الله وفضل الشهادة، ومشاورة ذوى الرأى منهم، وأن يلزمهم بما أوجبه الله من حقوق، وأن ينهاهم عن الاشتغال عن الجهاد بتجارة وزراعة ونحوهما(٢)، وإليك تفصيل بعض هذه النقاط:

(أ) استعراضهم وتفقد أحوالهم:

فقد رأينا أبا بكر الصديق رضى الله عنه عندما طرق المرتدون المدينة المنورة أخذ أهلها بحضور المسجد وقال لهم: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة وإنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد(٣)، وأخذ رضى الله عنه يعرض أصحابه ثم يعين منهم على أنقاب المدينة نفراً للحراسة(٤)، وعندما اجتمع جيش فتوح الشام صعد أبو بكر رضى الله عنه على دابته حتى أشرف على الجيش فنظر إليهم وقد ملأوا الأرض، فتهلل وجهه وأخذ يعرضهم قبل سيرهم ويوصيهم ويدعو لهم، وعقد لهم الألوية ومشى معهم نحواً من ميلين(٥).

(ب) الرفق بالجند فى السير:

فقد أوصى أبو بكر خالد بن الوليد فى حروب الردة بالرفق بمن معه وأن يتخذ الأدلاء

---

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية، (١/ ١٢٠).

(٢) نفس المصدر السابق (١/ ١٣١ - ٢٥٥).

(٣، ٤) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٤).

(٥) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ١٣٦).

فى مسيره(١)، وأوصى سائر أمراء الردة بذلك(٢)، وفى فتوح العراق عندما عقد خالد بن الوليد معاهدة الصلح مع أهل أُليس(٣)، وغيرهم، كان من ضمن شروط المعاهدة أن يبذرقوا(٤) المسلمين، ويكونوا أدلاء وأعوانا لهم على الفرس، لأنهم أعرف وأعلم بطرق بلادهم من غيرهم(٥)، وحين كلف أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد بالتوجه من العراق إلى الشام مدداً وعوناً لهم دعا خالد الأدلاء وتشاور معهم حول سيرهم فى طريق المفازة إلى الشام، لأنه أسرع الطرق وأسرعها لنجدة إخوانه، ثم رافقه منهم رافع بن عميرة الطائى دليلاً(٦)، وأوصى الصديق رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان عندما وجهه إلى الشام بقوله: إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى مسيرك(٧). وعندما جد الجند فى السير ذكر أحدهم يزيد بوصية أبى بكر له بالرفق بهم فى السير وأن يلتزم بها(٨). كما أوصى الصديق عمرو بن العاص عندما وجهه إلى فلسطين بقوله له: وكن والداً لمن معك وارفق بهم فى السير فإن فيهم أهل ضعف(٩)، وقد امتثل قادة الصديق ﷺ لأمره بالرفق بالجند فى مسيرهم، وأصبحوا لا يسيرون إلى قتال الأعداء إلا ومعهم أدلاء يدلونهم على أسهل الطرق وأوفرها ماء وعشباً، حتى يتمكنوا من مواصلة سيرهم نحو العدو من غير إهدار لقوتهم أو تحطيم لمعنوياتهم(١٠).

(جـ) أن يجعل لكل طائفة شعاراً يتداعون به:

ففى بعثه جيش أسامة لقتال الروم كان شعارهم: يا منصور أمت(١١)، وفى حروب الردة عند مسير خالد بن الوليد نحو مسيلمة الكذاب باليمامة، كان شعارهم يومئذ:

---

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/١٤٧).

(٢) مآثر الإناقة للقلقشندى (٣/١٤٠).

(٣) أليس: قرية من قرى الأنبار. (ياقوت، معجم البلدان، ١/٢٤٨).

(٤) البذرقة: الخفارة والحراسة، وهى الجماعة تتقدم القافلة لتحرسها، وأصل الكلمة فارسية.

(٥) الخراج لأبى يوسف، ص ٢٩٤.

(٦) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/١٤٨).

(٧، ٨) فتوح الشام للواقدى (١/٢٣).

(٩) نفس المصدر السابق (١/١٣٠).

(١٠) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/١٤٩).

(١١) الطبقات لابن سعد (٢/١٩١).

يا محمداه يا محمداه[١]. وشعار تنوخ فى فتوح العراق: يا آل عباد الله[٢]، وفى فتوح الشام باليرموك نجد أن لكل قائد وقبيلة شعاراً مميزاً يميزها عن غيرها اتخذته ليستدل به عليها، وكانوا يجهرون به عند القتال ويتعارفون به، فكان شعار أبى عبيدة: أمت أمت، وشعار خالد بن الوليد ومن معه: يا حزب الله، وشعار قبيلة عبس: يا لعبس، وشعار اليمن من أخلاط الناس: يا أنصار الله، وشعار حمير: الفتح. وشعار دارم والسكاسك: الصبر الصبر، وشعار بنى مراد: يا نصر الله انزل. فهذه كانت أبرز الشعارات فى معركة اليرموك[٣].

(د) أن يتصفحهم عند مسيرهم:

ومن وصايا أبى بكر الصديق رضى الله عنه لقواده حين بعث بهم فى حروب الردة: وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وألا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيونًا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم[٤]، كما أمر قادته بعدم الاستعانة بالمرتدين فى جهاد العدو، وذلك احتراسًا وحرصًا على سلامة جند المسلمين[٥]، كذلك أوصى الصديق رضى الله عنه قادة فتوح الشام بالحذر والحيطة والتيقظ من رسل العدو حتى لا يتعرفوا على ما بجيشهم من ثغرات ومكامن ضعف وأمرهم بأن لا يخالطوا العسكر ولا يحدثوهم، فمن ذلك قوله ليزيد بن أبى سفيان: وإذا قدمت عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم فإنه أول خيرك إليهم وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت الذى تلى كلامهم، ولا تجعل سرك مع علانيتك فيمرج[٦] عملك[٧].

(هـ) حراستهم من غرة يظفر بها العدو في مقامهم ومسيرهم:

وظهر ذلك عندما وضع الصديق الحرس على أنقاب المدينة خشية أن تطرقها بعض

---

(١) تاريخ الطبرى (٤ / ١١١).

(٢، ٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية، (١ / ١٧٤).

(٤) تاريخ الطبرى (٤ / ٧١، ٧٢).

(٥) نفس المصدر السابق (٤ / ١٦٣).

(٦) المرج: الفساد، والقلق، والاختلاط، والاضطراب.

(٧) مروج الذهب للمسعودى (٣ / ٣٠٩).

القبائل المرتدة، وحين وجه رضى الله عنه خالد بن الوليد إلى حرب أهل الردة حذره من البيات والغرة وقال له: واحترس من البيات فإن فى العرب غرة[١]، كما أوصى أمراء وقادة فتوح الشام بالاحتراس ونشر الحرس على العسكر لحفظهم من الأعداء، وأن يقوموا بالتفتيش المفاجئ على الحرس حتى يتأكدوا من قيامهم بمهامهم المعدين لها، فمن ذلك ما قاله ليزيد بن أبى سفيان: وأكثر حرسك وأكثر مفاجآتهم فى ليلك ونهارك[٢]، وقال لعمرو ابن العاص: وأمر أصحابك بالحرس ولتكن أنت بعد ذلك مطلعًا عليهم، وأطل الجلوس بالليل على أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم[٣]، وحذا قادة الصديق رضى الله عنه حذوه فى اتخاذ الحرس على العسكر فى مقامهم وسيرهم[٤].

(و) إعداد ما يحتاج إليه العسكر من زاد وعلوفة:

فقد كان الصديق رضى الله عنه يشترى الإبل والخيل والسلاح فيجعلها فى سبيل الله[٥]، إلى جانب ما يكسبه ويغنمه العسكر من العدو[٦]، وحينما كلف الصديق خالد بن الوليد بمحاربة المرتدين، كان مما أوصاه به إذا دخل على أرض العدو أن لا يسير إليهم إلا وهو مستظهر بالزاد[٧]، وكان قادة الصديق أثناء مصالحتهم للعدو يشترطون عليهم أن يضيفوا من مر بهم من المسلمين، بما يحل من طعامهم وشرابهم[٨]، وقد سمح أبو بكر لجند الشام أثناء ما أوصاهم بأنهم إذا عقروا شاة أو بعيراً للعدو لا يعقرونها إلا للأكل[٩].

(ز) ترتيب الجند فى مصاف الحرب:

استعمل قادة الصديق فى معاركهم الحربية نظام الصف والصفوف تزيد وتنقص،

---

(١) نهاية الأرب للنويرى (٦/١٦٨).

(٢) مروج الذهب (٢/٣٠٩).

(٣) فتوح الشام للواقدى (١/٢٣).

(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية، (١/١٩٦).

(٥) نفس المصدر السابق (١/٢١٥).

(٦) الخراج لأبى يوسف، ص(٢٨٦، ٢٨٧).

(٧) نهاية الأرب للنويرى (٦/١٦٨).

(٨) الخراج لأبى يوسف، ص٢٨٩.

(٩) نهاية الأرب للنويرى (٦/١٦٨).

بحسب ما يقتضيه الموقف ويراه القائد فى ميدان القتال(١)، إلا أن خالد بن الوليد فى معركة اليرموك أدخل نظام الكراديس فى أعينهم، وذلك لأن نظام الكراديس عبارة عن مجموعة من الجند تقف فى صفوف لا تكون منفصلة عن الأخرى، بينها مسافات متباعدة مما يسهل ذلك عليها عملية الحركة وزيادة الانتشار، فمن قول خالد للجند لاستخدامه لنظام الكراديس: إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبئة تعبئة أكثر فى رأى العين من الكراديس(٢)، فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة وعليها يزيد بن أبى سفيان، وهكذا خرج فى ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين، وخرج فى تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك، ووزع المهام الإدارية بين القيادة(٣)، إلا أن نظام الصف ظل قائماً ومعمولاً به فى النظام الحربى الإسلامى بعد اليرموك(٤).

(ح) تحريضهم على القتال:

كان الصديق رضى الله عنه يُحَرِّضُ المجاهدين على القتال، ويقوى نفوسهم بما يشعرهم من الظفر، ويذكر لهم أسباب النصر ليقل العدو فى أعينهم فيكونوا عليه أجرأ، وبالجرأة يسهل الظفر(٥)، فقد حرض وحض أبو بكر خالد بن الوليد على القتال بقوله: احرص على الموت توهب لك الحياة(٦). وعندما عقد الألوية لجيوش الشام أخذ يحرضهم ويحضهم على الجهاد فى سبيل الله ويوصيهم، ويدعو لهم بالنصر على الأعداء(٧).

(ط) أن يذكرهم بثواب الله وفضل الشهادة:

فمما قاله أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تلك الجيوش المتوجهة إلى الشام قوله: ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله، لما ينبغى للمسلم أن يحب أن

---

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية، (١/ ٢٣١).

(٢، ٣) تاريخ الطبرى (٤/ ٢١٥).

(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٢٣٢).

(٥) نفس المصدر السابق (١/ ٢٣٤).

(٦) نفس المصدر السابق (١/ ٢٣٨).

(٧) فتوح الشام للأزدى، ص(١١-١٥).

يخص به هى التجارة التى دل عليها، ونجى بها من الخزى، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة[١].

(ى) أن يشاور ذوى الرأى منهم:

وهذا ما فعله الصديق فى حروب الردة وفتوحات الشام وكثير من القضايا الفقهية والمستجدات التى تحدث فى المجتمع المسلم، وقد طلب من القادة أن يتناصحوا ويتشاوروا[٢]. وقد كان الصديق قدوة فى ذلك، ففى حروب الردة دعا عمرو بن العاص وقال له: يا عمرو إنك ذو رأى فى قريش وقد تنبأ طليحة، فما ترى؟ واستشاره ثم سأله عن خالد بن الوليد عند اختياره لقيادة الجند فأجابه: يسوس للحرب يصبر للموت له أناة القطاة ووثوب الأسد، فعقد له[٣]، وسار خالد بن الوليد لما كلف به، وأخذ يستشير من معه لإعداد الخطة لمحاربة المرتدين ويخبر القيادة العليا بما استقر عليه رأى الجند[٤]، وحين أراد أبو بكر رضى الله عنه أن يغزو الروم ويعد الجيوش لفتح بلاد الشام، شاور فى ذلك جماعة من أصحاب رسول الله، وبعد أن أخذ رأيهم وما أجمعوا عليه، أمر الجند بالتجهيز للتوجه لما أمروا به[٥]، وكان مما أوصى به الصديق رضى الله عنه أمراء وقادة جند الشام بأن يعملوا بالمشورة، فمن ذلك ما قاله ليزيد بن أبى سفيان: هذا ربيعة بن عامر[٦] من ذوى العلاء والمفاخر، قد علمت صولته وقد ضممته إليك وأمّرْتُكَ عليه فاجعله فى مقدمتك، وشاوره فى أمرك ولا تخالفه[٧]، قال يزيد: حبًا وكرامة، وأضاف أبو بكر رضى الله عنه قائلاً: إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى مسيرك، ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم فى الأمر واستعمل العدل[٨]، كما قال ليزيد: وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة،

---

(١) تاريخ الطبرى (٤ / ٢٠٨).

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص ١٤٣.

(٣) تاريخ اليعقوبى (٢ / ١٢٩).

(٤) الفتوح، ابن أعثم (١ / ٢٩).

(٥) تاريخ فتوح الشام، ص٢؛ الفتوح، ابن أعثم (١ / ٨١).

(٦) ربيعة بن عامر القرشى العامرى له ذكر فى الفتوح، صحابى يعد من أهل فلسطين.

(٧، ٨) فتوح الشام للواقدى (١ / ٢٢).

ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك[1]. إلى غير ذلك مما قاله ليزيد بن أبى سفيان حول مبدأ الشورى والالتزام بها، وقد أوصى أمراء جند الشام بما لا يخرج عن ذلك[2]، وامتثل قادة الصديق بما أُمِروا به من إجراء المشورة فيما بينهم، فقد قال أبو عبيدة بن الجراح لعمرو بن العاص: يا عمرو لرب يوم لك قد شهدته فبورك فيه للمسلمين برأيك ومحضرك، وإنما أنا رجل منكم ولست - وإن كنت الوالى عليكم - بقاطع أمراً دونكم، فأحضرنى رأيك فى كل يوم بما ترى، فإنه ليس بى عنك غنى[3]. هذا بالإضافة إلى طلب القادة فى أرض المعركة من القيادة العليا المركزية المشورة فيما أشكل عليهم من أمور الإدارة العسكرية، لمرحلة وضع الخطط الحربية والتنفيذ ومعاملة الأسرى[4].

(ك) أن يلزمهم بما أوجبه الله من حقوق:

فقد كان أبو بكر رضى الله عنه يوصى قادته بذلك، فحين بعث عمرو بن العاص إلى أرض فلسطين قال له: اتق الله فى سرك وعلانيتك واستحيه فى خلواتك، فإنه يراك فى عملك، وقد رأيت تقدمى لك على من هو أقدم منك سابقة وأقدم حرمة، فكن من عمال الآخرة وأرد بعملك وجه الله، وكن والداً لمن معك، والصلاة ثم الصلاة أذن بها إذا دخل وقتها، ولا تصل صلاة إلا بأذان يسمعه أهل العسكر، واتق الله إذا لقيت العدو، والزم أصحابك قراءة القرآن، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها، فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة الدنيا حى تلتقى بمن مضى من سلفك، وكن من الأئمة الممدوحين فى القرآن، إذ يقول الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء:٧٣][5].

هذه أهم حقوق الله والقادة والجند التى تحدث عنها الصديق فى وصاياه ورسائله لقادته رضى الله عنه.

---

(١) مروج الذهب (٢/٣٠٩).

(٢) تاريخ فتوح الشام للأزدى، ص(١٣ - ١٥ - ٢٠، ٢١).

(٣) نفس المصدر السابق، ص(٥١ - ٨٤)

(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/٢٧٢).

(٥) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/٢٥١) هذا الكتاب لخصت واختصرت منه حقوق الله، والقادة والجنود.

رابعاً: السر في اكتساح المسلمين لقوات الفرس والروم:

إن المتأمل فى حركة الفتح الإسلامى يرى توفيق الله تعالى لجيوش الخليفة أبى بكر رضى الله عنه، فقد اندفعت تلك الجيوش المظفرة نحو العراق والشام، واستطاعت أن تكسر شوكة الرومان والفرس، وتفتح تلك الديار فى وقت قياسى فى تاريخ الحروب، والسبب فى سرعة هذا الفتح عوامل تتعلق بالمسلمين الفاتحين، وأخرى ترجع إلى الأمم التى فتح المسلمون ديارهم، فمن العوامل التى تتعلق بالمسلمين:

١- إيمان المسلمين بالحق الذى يقاتلون من أجله.

٢- يقين المسلمين بربهم فى قضيتى الرزق والأجل والقضاء والقدر.

٣- تأصل الصفات الحربية فى المسلمين.

٤- سماحة المسلمين وعدالتهم مع الشعوب.

٥- رحمة المسلمين فى تقدير الجزية والخراج ووفائهم بعهودهم.

٦- ثروة المسلمين الواسعة من الرجال والقواد العظام.

٧- إحكام الخطة الحربية الإسلامية(١).

وأما الأسباب التى تتعلق بالبلاد المفتوحة فأهمها: ضعف الروم والفرس فقد ضعفوا وانتشر بينهم الظلم وعم الفساد، ودب فيهم سوء الأخلاق، وأصابت حضارتهم الشيخوخة، وقضى عليها إسراف ملوكها، وانحرافهم عن منهج الله، ومضت فيهم سننه التى لا ترحم ولا تجامل ولا تتبدل، وأما المسلمون فقد أكرمهم الله بمنهجه فساروا عليه، وأخذوا بأسباب التمكين وحققوا شروطه، وتعاملوا مع سنن الله فى الشعوب وبناء الدول وإصلاح المجتمعات، ولا يفهم من كلامى أن ضعف الروم والفرس سهل السبيل أمام المسلمين بشكل كبير، فرغم ضعف الدولتين بسبب العوامل السابقة، إلا أنه لم يمنعهما من الإعداد الهائل لملاقاة المسلمين، فجهزتا مئات الآلاف من الجند المدربين الذين يفوقون جند المسلمين عدداً وعدة، كما أنهما أبرزتا أسلحة غير معهودة عند المسلمين كالفيلة والكلاليب المحماة، التى كانوا يرسلونها من خلف الحصون يصطادون

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص(٢٢٢ - ٢٢٧).

بها من تقع عليه من المسلمين، كما أن الظن بأن الروم استهانوا بالمسلمين ولم يستعدوا لهم يدفعه الكلام السابق وترده رواية ابن عساكر: أن هرقل جمع بطارقته وهو بحمص، وقال لهم: هذا الذى حذرتكم فأبيتم أن تقبلوه منى!! قد صارت العرب تأتى مسيرة شهر فتغير عليكم ثم تخرج من ساعتها ولم تكلم، قال أخوه: ابعث رباطًا إلى البلقاء فبعث رباطًا واستعمل عليه رجلاً من أصحابه، فلم يزل حتى تقدمت الجيوش إلى الشام فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما[1].

****

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٣٨.

المبحث الرابع

استخلاف الصديق لعمر بن الخطاب ووفاته

أولاً: استخلافه لعمر:

في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة النبوية، مرض الخليفة أبو بكر رضى الله عنه واشتد به المرض(١)، فلما ثقل واستبان له من نفسه، جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بى ما قد ترون ولا أظننى إلا ميتًا لما بى، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى وحل عنكم عقدتى، ورد عليكم أمركم فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر أن لا تختلفوا بعدى(٢).

وقد قام أبو بكر رضى الله عنه بعدة إجراءات لتتم عملية اختيار الخليفة القادم:

١- استشارة أبى بكر كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار:

وتشاور الصحابة رضى الله عنهم، وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه، إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، فدعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرنى عن عمر بن الخطاب فقال له: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، فقال أبو بكر: وإن، فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه. ثم دعا عثمان بن عفان. فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله والله لو تركته ما عَدَتْكَ، ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك يرضى للرضا ويسخط للسخط، والذى يسر خير من الذى يعلن ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه. وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريبًا كانوا برأى واحد فى عمر إلا طلحة ابن عبيد الله خاف من شدته فقد قال لأبى بكر: ما أنت قائل لربِّك إذا سألك عن استخلافك

---

(١) البداية والنهاية (٧/١٨)؛ تاريخ الطبرى (٤/٢٣٨).

(٢) التاريخ الإسلامى (٩/٢٥٨).

عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسونى، أبالله تخوفوننى؟ خاب من تزوَّدَ من أمركم بظلم، أقول اللهم استخلفت عليهم خيْرَ أهْلِكَ[١].

وبين لمن نبهه إلى غلظة عمر وشدته فقال: ذلك لأنه يرانى رقيقًا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه[٢].

٢- ثم كتب عهداً مكتوبًا يقرأ على الناس فى المدينة وفى الأنصار عن طريق أمراء الأجناد فكان نص العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب، إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإنى لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً، فإن عَدَلَ فذلك ظنى به وعلمى فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت ولا أعلم الغيب ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧][٣].

إن عمر هو نصح أبى بكر الأخير للأمة فقد أبصر الدنيا مقبلة تتهادى، وفى قومه فاقة قديمة يعرفها فإذا ما أطلوا لها استشرفتهم شهواتها فنكلت بهم واستبدت وذاك ما حذرهم رسول الله ﷺ إياه[٤]، قال رسول الله ﷺ: **فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**[٥]. لقد أبصر أبو بكر الداء فأتى لهم رضى الله عنه بدواء ناجع .. جبل شاهق إذا ما رأته الدنيا أيست وولت عنهم مدبرة، إنه الرجل الذى قال فيه النبى ﷺ: **إيهًا يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط إلا سلك فجاً غير فجّك**[٦]. إن الأحداث الجسام التى مرت بالأمة قد بدأت بقتل

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٩)؛ التاريخ الإسلامى، محمود شاكر، ص ١٠١ الخلفاء الراشدون.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٩).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبى – عهد الخلفاء – ص (١١٦ – ١١٧).

(٤) أبو بكر رجل الدولة، ص ٩٩.

(٥) البخارى، كتاب الجزية والموادعة رقم (٣١٥٨).

(٦) البخارى، كتاب فضائل أصحاب النبى رقم (٣٦٨٣).

عمر، هذه القواصم خير شاهد على فراسة أبى بكر وصدق رؤيته فى العهد لعمر، فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: أفرس الناس ثلاثة: صاحبة موسى التى قالت: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين، وصاحب يوسف حيث قال: أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، وأبو بكر حين استخلف عمر(١)، فقد كان عمر هو سد الأمة المنيع الذى حال بينها وبين أمواج الفتن(٢).

٣- **أنه أخبر عمر بن الخطاب بخطواته القادمة**: فقد دخل عليه عمر فعرّفه أبو بكر بما عزم فأبى أن يقبل فتهدده أبو بكر بالسيف فما كان أمام عمر إلا أن قَبِلَ(٣).

٤- **أنه أراد إبلاغ الناس بلسانه، واعيًا مدركًا حتى لا يحصل أى لبس**، فأشرف أبو بكر على الناس وقال لهم: أترضون بما أستخلف عليكم، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذات قرابة، وإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا(٤).

٥- **أنه توجه بالدعاء إلى الله يناجيه** ويبثه كوامن نفسه وهو يقول: اللهم وليته بغير أمر نبيك ولم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة واجتهدت لهم رأيى فولّيت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضر فاخلفنى فيهم فهم عبادك(٥).

٦- **أنه كلف عثمان بن عفان أن يتولى قراءة العهد** على الناس وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبى بكر، بعد أن ختمه بخاتمه لمزيد من التوثيق والحرص على إمضاء الأمر دون أى آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقروا بذلك جميعًا ورضوا به(٦).

٧- **البيعة لعمر بن الخطاب قبل أن يتوفى أبو بكر الصديق**، فبعد أن قُرِئَ العهد على

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٨) قال الهيثمى: رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم (٣/ ٩٠) وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أبو بكر رجل الدولة، ص١٠٠.

(٣) مآثر الإنافة للقلقشندى (١/ ٤٩).

(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ٢٤٨).

(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ١٩٩)؛ تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٦٦٥-٦٦٩).

(٦) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٠).

الناس ورضوا به أقبلوا عليه وبايعوه[١]، ولم تتم بيعة بعد الوفاة بل باشر عمر بن الخطاب أعماله بصفته خليفة للمسلمين فور وفاة أبى بكر رضى الله عنه[٢]، ويلحظ الباحث أنَّ عمر ولى الخلافة باتفاق أصحاب الحل والعقد وإرادتهم، فهم الذين فوضوا لأبى بكر انتخاب الخليفة، وجعلوه نائبًا عنهم فى ذلك، فشاور ثم عين الخليفة، ثم عرض هذا التعيين على الناس فأقروه وأمضوه ووافقوا عليه، وأصحاب الحل والعقد فى الأمة هم النواب (الطبيعيون) عن هذه الأمة، وإذن فلم يكن استخلاف عمر رضى الله عنه إلا على أصح الأساليب الشورية وأعدلها[٣].

إن الخطوات التى سار عليها أبو بكر الصديق فى اختيار خليفته من بعده لا تتجاوز الشورى بأى حال من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبعة فيها غير الإجراءات المتبعة فى تولية أبى بكر نفسه[٤]. وهكذا تم عقد الخلافة لعمر رضى الله عنه بالشورى والاتفاق، ولم يورد التاريخ أى خلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحدًا نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته فى أثناء حكمه، فكان الجميع وحدة واحدة[٥].

٨- وصية الصديق لعمر بن الخطاب:

فقد اختلى الصديق بالفاروق وأوصاه بمجموعة من التوصيات لإخلاء ذمته من أى شيء، حتى يمضى إلى ربه خاليًا من أى تبعة، بعد أن بذل قصارى جهده واجتهاده[٦]، وقد جاء فى الوصية: اتق الله يا عمر واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تُؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى دار الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى دار الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدًا

(١، ٢) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص٢٧٢.

(٣) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص٢٣٧.

(٤) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص٢٧٣.

(٥) النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الريس، ص١٨١.

(٦) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص٢٧٢.

أن يكون خفيفًا، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتهم قلت: إنى أخاف أن لا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم وردَّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم قلت: إنى لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغبًا راهبًا لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حفظت وصيتى فلا يك غائب أبغض إليك من الموت ولستَ تُعجزه(١).

ثانيًا: وحان وقت الرحيل:

قالت عائشة رضى الله عنها: أول ما بُدِىء مرض أبى بكر أنه اغتسل وكان يومًا باردًا فحُمَّ خمسة عشرة يومًا لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر بالصلاة وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له فى مرضه(٢)، ولما اشتد به المرض قيل له: ألا تدعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآنى فقال: إنى فعال لما أريد(٣)، وقالت عائشة رضى الله عنها: قال أبو بكر: انظروا ماذا زاد فى مالى منذ دخلت فى الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة بعدى. فنظرنا فإذا عبد نوبى كان يحمل صبيانه، وإذا ناضح(٤) كان يسقى بستانًا له. فبعثنا بهما إلى عمر، فبكى عمر، وقال: رحمة الله على أبى بكر لقد أتعب من بعده تعبًا شديدًا(٥).

وقالت عائشة رضى الله عنها: لما مرض أبو بكر مرضه الذى مات فيه، دخلت عليه وهو يعالج ما يعالج الميت ونفسه فى صدره، فتمثلت هذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فنظر إلىَّ كالغضبان ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكن قول الله أصدق ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]. ثم قال: يا عائشة: إنه ليس أحد من أهلى أحب إلىَّ منك وقد كنت نحلتك حائطًا(٦)، وإن فى نفسى منه شيئًا فردِّيه إلى الميراث. قالت: نعم، فرددته. وقال رضى الله عنه: أما إنا منذ

---

(١) صفة الصفوة (١/٢٦٤، ٢٦٥).
(٢) أصحاب الرسول، محمد المصرى (١/١٠٤).
(٣) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص٣٣.
(٤) الناضح: هو البعير الذى يستقى عليه.
(٥) صفة الصفوة (١/٢٦٥).
(٦) حائطًا: وفى رواية جداد وهى بمعنى: قطع ثمرة النخل (صفة الصفوة، ١/٢٦٦).

ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهمًا، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير، إلا هذا العبد الحبشى وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثى بهن إلى عمر وابرئى منهن ففعلت، فلما جاء الرسول إلى عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل فى الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده[١]. وقد جاء فى رواية: أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال: إن عمر لم يدعنى حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطى الذى بمكان كذا فيها، فلما توفى ذكر ذلك لعمر فقال: يرحم الله أبا بكر لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالاً[٢].

ويظهر من هذه المواقف ورع الصديق فى المال العام، فقد ترك هذا الخليفة العظيم تجارته، وتخلى عن ذرائع كسبه اشتغالاً عنها بأمور المسلمين، وقيامًا بوظائف الخلافة، فيضطر إلى أخذ نفقته من بيت المال بما لا يزيد عن الحاجة إلى سد الجوع وستر العورة، ثم هو يؤدى للمسلمين خدمة هيهات أن تؤدى حقها الخزائن، ولما أشرف على وفاته وعنده فضلة من مال المسلمين، وهى ذلك المتاع الحقير يأمر بردها إلى المسلمين ليلقى ربه آمنًا مطمئنًا نزيه القلب طاهر النفس، خفيف الحمل إلا من التقوى، فارغ اليدين إلا من الإيمان، إن فى هذا لبلاغًا، وإنها لموعظة لقوم يعقلون[٣]. كما أن ما قام به من الوصية بتعويض بيت مال المسلمين بأرضه المذكورة مقابل ما أنفق على نفسه وعياله منه، وكان ورعًا منه ورغبة فى أن يكون عمله فى الولاية تطوعًا وخالصًا لله تعالى، بعيداً عن أى حظ من حظوظ الدنيا.

وقد استمر مرض أبى بكر مدة خمسة عشر يومًا، حتى كان يوم الإثنين ليلة الثلاثاء فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، قالت عائشة – رضى الله عنها –: إن أبا بكر قال لها: فى أى يوم مات رسول الله ﷺ؟ قالت: فى يوم الإثنين قال: إنى لأرجو فيما بينى وبين الليل، قال: ففيم كفنتموه؟ قالت: فى ثلاثة أثواب

---

(١) الطبقات لابن سعد (٣/١٤٦، ١٤٧) رجاله ثقات.
(٢) المنتظم لابن الجوزى (٤/١٢٧)؛ وأصحاب الرسول (١/١٠٥).
(٣) أشهر مشاهير الإسلام (١/٩٤).

بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة فقال: أبو بكر: انظرى ثوبى هذا فيه ردع زعفران أو مشق فاغسليه واجعلى معه ثوبين آخرين[1]، فقيل له: قد رزق الله وأحسن نكفنك فى جديد. قال: إن الحى هو أحوج إلى الجديد ليصون به نفسه عن الميت، إنما يصير الميت إلى الصديد وإلى البلى[2]، وقد أوصى أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس، وأن يدفن بجانب رسول الله ﷺ، وكان آخر ما تكلم به الصديق فى هذه الدنيا، قول الله تعالى: ﴿ توَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[3] [يوسف: ١٠١].

وارتجّت المدينة لوفاة أبى بكر الصديق، ولم تر المدينة منذ وفاة الرسول يومًا أكثر باكيًا وباكية من ذلك المساء الحزين، وأقبل على بن أبى طالب مسرعًا باكيًا مسترجعًا ووقف على البيت الذى فيه أبو بكر، فقال: رحمك الله يا أبا بكر.. كنت إلف رسول الله وأنيسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته، وكنت أول القوم إسلامًا وأخلصهم يقينًا، وأشدهم لله يقينًا، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء فى دين الله عز وجل، وأحوطهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم على الإسلام، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله هديًا وسمتًا، وأشرفهم منزلة، وأرفعهم عنده، وأكرمهم عليه فجزاك الله عن رسول الله وعن الإسلام أفضل الجزاء، صدّقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر، سماك الله فى تنزيله صديقًا، فقال: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣]. واسيته حين بخلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته فى الشدة أكرم الصحبة ثانى اثنين صاحبه فى الغار، والمُنَزَّل عليه السكينة ورفيقه فى الهجرة، وخليفته فى دين الله وأمته، أحسن الخلافة حين ارتدوا، فقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبى، ونهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسول الله إذ وهنوا، وكنت كما قال رسول الله ضعيفًا فى بدنك قويًا فى أمر الله تعالى، متواضعًا فى نفسك عظيمًا عند الله تعالى،

---

(١) أصحاب الرسول (١٠٦/١).

(٢) التاريخ الإسلامى، محمود شاكر، الخلفاء الراشدون، ص ١٠٤.

(٣) الشيخان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، برواية البلاذرى فى أنساب الأشراف. تحقيق د. إحسان صدقى العمد، ص ٦٩.

جليلاً في أعين الناس كبيرًا في أنفسهم، لم يكن لأحدهم فيك مغمز ولا لقائل فيك مهمز، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ بحقه، القريب والبعيد عنك في ذاك سواء، وأقرب الناس عندك أطوعهم لله عز وجل وأتقاهم،... شأنك الحق والصدق والرفق، قولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، اعتدل بك الدين، وقوى بك الإيمان، وظهر أمر الله، فسبقت - والله - سبقًا بعيدًا، وأتعبت من بعدك إتعابًا شديدًا، وفزت بالخير فوزًا مبينًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، رضينا عن الله عز وجل قضاءه، وسلمنا له أمره، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبدًا، كنت للدين عزًا وحرزًا وكهفًا، فألحقك الله عز وجل بنبيك محمد ﷺ، ولا حرمنا أجرك ولا أضلنا بعدك. فسكت الناس حتى قضى كلامه ثم بكوا حتى علت أصواتهم، وقالوا: صدقت(١). وجاء في رواية: إن عليًا قال عندما دخل على أبي بكر بعدما سُجِّيَ أنه قال: ما أحد ألقى الله بصحيفته أحب إليَّ من هذا المُسَجَّى(٢). هذا وقد توفى الصديق رحمه الله وهو ابن ثلاث وستين سنة... مجمع على ذلك في الروايات كلها، استوفى سن رسول الله ﷺ، وغسلته زوجه أسماء بنت عميس، وكان قد أوصى بذلك(٣)، ودفن جانب رسول الله، وقد جُعل رأسه عند كتفي رسول الله(٤)، وصلى عليه خليفته عمر بن الخطاب، ونزل قبره عمر وعثمان وطلحة وابنه عبد الرحمن، وألصق اللحد بقبر رسول الله ﷺ(٥).

وهكذا خرج أبو بكر الصديق من هذه الدنيا بعد جهاد عظيم، في سبيل نشر دين الله في الآفاق، وستظل الحضارة الإنسانية مدينة لهذا الشيخ الجليل الذى حمل لواء دعوة الرسول بعد وفاته، وحمى غرسه عليه الصلاة والسلام، وقام برعاية بذور العدل والحرية، وسقاها أزكى دماء الشهداء، فأتت من كل الثمرات عطاء جزيلاً، حقق عبر التاريخ تقدمًا عظيمًا في العلوم والثقافة والفكر، وستظل الحضارة مدينة للصديق، لأنه

(١) التبصرة لابن الجوزى (١/٤٧٧ - ٤٧٩) نقلاً عن أصحاب الرسول (١/١٠٨).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبى، عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٢٠.

(٣) الطبقات لابن سعد (٣/٢٠٣، ٢٠٤) وإسناده صحيح.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبى، عهد الخلفاء الراشدين، ص ١٢٠.

(٥) أصحاب رسول الله (١/١٠٦).

بجهاده الرائع وبصبره العظيم حمى الله به دين الإسلام فى ثباته فى الردة، ونشر الله به الإسلام فى الأمم والدول والشعوب بحركة الفتوحات العظيمة، التى لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، وأختم هذا الكتاب بقول أبى محمد عبد الله القحطانى الأندلسى:

قل إن خير الأنبياء محمد ... وأجلُّ من يَمشى على الكُثبان

وأجلُّ صَحْبِ الرُسْل صَحْب محمدٍ ... وكذاك أفضل صحبه العمران(١)

رجلان قد خُلقا لنصر محمد ... بدمى ونفسى ذانك الرجلان

فهما اللَّذان تظاهرا لنبيِّنا ... فى نصره وهما له صهران

بنتاهما أسنى نساء نبينا ... وهما له بالوحى صاحبتان

أبواهما أسْنَى صحابة أحمد ... يا حبَّذا الأبوان والبنتان

وهما وزيراه اللَّذان هُما هما ... لفضائل الأعمال مُستَبِقانِ

وهما لأحمد ناظراه وسمعه ... وبقربه فى القبر مُضطَجعَان

كانا على الإسلام أشفق أهله ... وهما لدين محمد جَبَلانِ

أصفاهما أقواهُما أخشاهما ... أتقاهما فى السِّرِّ والإعلان

أسناهما أزكاهما أعلاهما ... أوفاهما فى الوزن والرُّجحان

صِدِّيق أحمد صاحب الغار الذى ... هو فى المغارة والنبىُّ اثنان

أعنى أبا بكر الذى لم يختلف ... من شرعنا فى فضله رجلان

هو شيخ أصحاب النبى وخيرهم ... وإمامهم حقّاً بلا بطلان

وأبو المطهرة التى تنزيهها ... قد جاءنا فى النور والفرقان(٢)

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

(سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)

---

(١) أى: أبو بكر وعمر رضى الله عنهما.

(٢) نونية القحطانى، (٢١، ٢٢).

الخلاصة

١ – إن سيرة الخلفاء الراشدين وتاريخهم المجيد من أقوى مصادر الإيمان والعاطفة الإسلامية الصحيحة، التي لا تزال هذه الأمة تقتبس منها شعلة الإيمان وتحمل زاد الدعوة، فتشعل أنوار الحق في قلوب الناس حتى لا تنطفئ بريح الهدم التي يوجهها أعداء الأمة ضد دعوتها وتاريخها.

٢ – إن المسلمين – بل الإنسانية كلها – أشد ما كانوا اليوم حاجة إلى معرفة فضائل أصحاب رسول الله ﷺ وكرم معدنهم، وأثر تربية رسول الله فيهم، وما كانوا عليه من علو المنزلة التي صاروا بها الجيل المثالي الفذ في تاريخ البشر.

٣ – لقد تعرَّض التاريخ الإسلامي في عمومه وتاريخ صدر الإسلام على الخصوص للتزوير والتشكيك والتحريف والبتر والزيادة وسوء التأويل، من الروافض والمستشرقين والنصارى واليهود والعلمانيين، ولذلك أصبح من الفروض الكفائية على الأمة تصحيح الحقائق، فعلى كل من يستطيع تصحيح تاريخ صدر الإسلام أن يعتبر ذلك من أفضل العبادات، وأن يبادر له ويجتهد فيه ما استطاع حتى يكون أمام أبناء الأمة مثال صالح من سلفهم، يقتدون به ويجددون عهده ويصلحون من سيرتهم بالسير على منهجهم.

٤ – إن سيرة الصديق مليئة بالدروس والعبر فهو أعظم شخصية في الإسلام بعد النبي ﷺ، فقد كان هذا الصحابي الجليل قد اتصف بمكارم الأخلاق والصفات الحميدة منذ الجاهلية، فلم يعرف عنه أنه سجد لصنم أو شرب الخمر.

٥ – كان الصديق رضي الله عنه عالمًا بالأنساب، وكانت له مزية حببته إلى قلوب العرب وهي أنه لم يكن يعيب الأنساب ولا يذكر المثالب، بخلاف غيره، فقد كان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما فيها من خير وشر، وقد اشتهر بالتجارة، وكان ينفق من ماله بسخاء وكرم عرف به في الجاهلية.

٦ - كان أبو بكر كنزاً من الكنوز ادخره الله تعالى لنبيه، وكان من أحب قريش لقريش، فذلك الخلق السمح الذى وهبه الله إياه، جعله من الموطئين أكنافًا، من الذين يألفون ويؤلفون.

٧ - كان تحرك الصديق رضى الله عنه فى الدعوة إلى الله يوضح صورة من صور الإيمان بهذا الدين، والاستجابة لله ورسوله، صورة المؤمن الذى لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال حتى يحقق فى دنيا الناس ما آمن به.

٨ - تعرَّض الصديق للابتلاء، فقد أوذى أبو بكر الصديق وحُثى على رأسه التراب، وضرب فى المسجد الحرام بالنعال حتى ما يعرف وجهه من أنفه وحمل إلى بيته.

٩ - من صفات الصديق التى تميز بها: الجرأة والشجاعة، فقد كان لا يهاب أحداً فى الحق، ولا تأخذه لومة لائم فى نصرة دين الله والعمل له والدفاع عن رسوله ﷺ.

١٠ - ساهم الصديق فى سياسة فك رقاب المسلمين المعذبين، وأصبح هذا المنهج من ضمن الخطة التى تبنتها القيادة الإسلامية لمقاومة التعذيب الذى نزل بالمستضعفين، فدعم الدعوة بالمال والرجال والأفراد، فراح يشترى العبيد والإماء المملوكين من المؤمنين والمؤمنات وأعتقهم لوجه الله.

١١ - استخدم الصديق رضى الله عنه علم الأنساب كوسيلة من وسائل الدعوة، ولذلك كان مرافقًا لرسول الله ﷺ أثناء دعوته للقبائل فى أسواق العرب فى المواسم.

١٢ - رافق الصديق رضى الله عنه رسول الله فى هجرته إلى المدينة فكان الساعد الأيمن لرسول الله منذ بزوغ الدعوة حتى وفاته ﷺ، فكان رضى الله عنه ينهل بصمت وعمق من ينابيع النبوة: حكمة وإيمانًا ويقينًا وعزيمة وتقوى وإخلاصًا، فأثمرت هذه الصحبة صلاحًا وصدِّيقية، ذكرًا ويقظة، حُبًا وصفاء، عزيمة وتصميمًا، إخلاصًا وفهمًا، فوقف مواقفه المشهودة بعد وفاة رسول الله ﷺ فى سقيفة بنى ساعدة، وغيرها من المواقف كبعث جيش أسامة وحروب الردة، فأصلح ما فسد وبنى ما هُدم وجمع ما تفرق وقَوَّم ما انحرف.

١٣ - شهد أبو بكر مع النبى ﷺ المشاهد كلها ولم يفته منها مشهد، وثبت مع رسول الله يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع إليه النبى ﷺ رايته العظمى يوم تبوك وكانت سوداء.

١٤ - كانت حياة الصديق فى المجتمع المدنى مليئة بالدروس والعبر، وتركت لنا نموذجًا حيًا لفهم الإسلام وتطبيقه فى دنيا الناس، وقد تميزت شخصية الصديق بصفات عظيمة ومدحه رسول الله ﷺ فى أحاديث كثيرة وبيَّن فضله وتقدمه على كثير من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

١٥ - كان إيمان الصديق بالله عظيمًا، فقد فهم حقيقة الإيمان وتغلغلت كلمة التوحيد فى نفسه وقلبه، وانعكست آثارها على جوارحه، وعاش بتلك الآثار فى حياته فتحلى بالأخلاق الرفيعة، وتطهر من الأخلاق الوضيعة، وحرص على التمسك بشرع الله والاقتداء بهديه ﷺ، وكان إيمانه بالله باعثًا له على الحركة والهمة والنشاط والسعى والجهد والمجاهدة والجهاد والتربية والاستعلاء والعزة، وكان فى قلبه من اليقين والإيمان شيء عظيم لا يساويه فيه أحد من الصحابة.

١٦ - كان الصديق من أعلم الناس بالله وأخوفهم له، وقد اتفق أهل السنة على أن أبا بكر أعلم الأمة، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد، وسبب تقدمه على كل الصحابة فى العلم والفضل ملازمته للنبى ﷺ، فقد كان أدوم اجتماعًا به ليلاً ونهاراً وسفراً وحضراً، وكان يسمر عند النبى ﷺ بعد العشاء، يتحدث معه فى أمور المسلمين، وقد استعمله النبى ﷺ على أول حجة حجت من مدينة النبى ﷺ، وعلم المناسك أدق ما فى العبادات، ولولا سعة علمه لم يستعمله، وكذلك الصلاة استخلفه عليها، ولولا علمه لم يستخلفه، ولم يستخلف غيره لا فى حج ولا فى صلاة، وكتاب الصدقة التى فرضها رسول الله أخذه أنس من أبى بكر، وهو أصح ما روى فيها، وعليه اعتمد الفقهاء وغيرهم فى كتابة ما هو متقدم منسوخ، فدل على أنه أعلم بالسنة الناسخة، ولم يحفظ له قول يخالف فيه نصًا، وهذا يدل على غاية البراعة والعلم.

١٧- لما مات رسول الله ﷺ اضطرب الناس، فثبت الله الأمة بالصديق، فوقف موقفه العظيم وقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، وظهر موقفه العظيم فى سقيفة بنى ساعدة حيث استطاع أن يقنع الأنصار بما رآه هو الحق، من غير أن يعرِّض المسلمين للفتنة، فأثنى على الأنصار ببيان فضلهم من الكتاب والسنة والثناء.

١٨- بايع سعد بن عبادة الصديق بالخلافة فى أعقاب النقاش الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة، إذ أنه نزل عن مقامه الأول فى دعوى الإمارة وأذعن للصديق بالخلافة، وكان ابن عمه بشير بن سعد الأنصارى أول من بايع الصديق بالخلافة فى اجتماع السقيفة، ولم يثبت النقل الصحيح أية أزمات لا بسيطة ولا خطيرة، ولم يثبت أى انقسام، أو فرق لكل منها مرشح يطمع فى الخلافة، كما زعم بعض كتاب التاريخ، ولكن الأخوة الإسلامية ظلت كما هى بل ازدادت توثقًا، كما يثبت النقل الصحيح.

١٩- وردت آيات كريمة وأحاديث نبوية شريفة أشارت إلى خلافة الصديق، وأجمع أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا على أن أحق الناس بالخلافة بعد النبى ﷺ، أبو بكر الصديق، لفضله وسابقته ولتقديم النبى ﷺ إياه فى الصلوات على جميع الصحابة، وقد فهم أصحاب النبى ﷺ مراد المصطفى عليه الصلاة والسلام من تقديمه فى الصلاة، فأجمعوا على تقديمه فى الخلافة.

٢٠- الخلافة الإسلامية هى المنهج الذى اختارته الأمة الإسلامية وأجمعت عليه طريقة وأسلوبًا للحكم، تنظم من خلاله أمورها وترعى مصالحها، وقد ارتبطت نشأة الخلافة بحاجة الأمة لها واقتناعها بها، ومن ثم كان إسراع المسلمين فى اختيار خليفة لرسول الله ﷺ، فالخلافة هى نظام حكم المسلمين، وقد استمدت أصولها من دستور المسلمين من القرآن الكريم ومن سنة النبى ﷺ، وقد تحدث الفقهاء عن أسس الخلافة الإسلامية فقالوا بالشورى والبيعة، وهما أصلان قد أشير إليهما فى القرآن الكريم.

٢١- تحدث العلامة أبو الحسن الندوى عن شروط خلافة النبى ﷺ ومتطلباتها، وقد أثبت بالأدلة والحجج من خلال سيرة الصديق بأن أبا بكر كانت شروط خلافة النبى ﷺ متحققة فيه.

٢٢- بعد البيعة العامة للصديق ألقى خطبة على الأمة تعتبر من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، فقد بين فيها منهجه لقيادة الدولة وقرَّر فيها قواعد العدل والرحمة فى التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولى الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد فى سبيل الله لأهميته فى إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك فى حماية المجتمع من الانهيار والفساد.

٢٣- أراد الصديق رضى الله عنه أن ينفذ السياسة التى رسمها لدولته واتخذ من الصحابة الكرام أعوانًا يساعدونه على ذلك، فجعل أبا عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة (وزير المالية)، فأسند إليه شئون بيت المال، وتولى عمر بن الخطاب القضاء (وزارة العدل)، وباشر الصديق القضاء بنفسه أيضًا، وتولى زيد بن ثابت الكتابة (وزير البريد والمواصلات)، وأحيانًا يكتب له من يكون حاضراً من الصحابة كعلى ابن أبى طالب أو عثمان بن عفان رضى الله عنهم، وأطلق المسلمون على الصديق لقب خليفة رسول الله، ورأى الصحابة ضرورة تفريغ الصديق لمنصب الخلافة وتكفلت الأمة بنفقاته الخاصة.

٢٤- عاش الصديق بين المسلمين كخليفة لرسول الله، فكان لا يترك فرصة تمر إلا علم الناس وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فكانت مواقفه تشع على من حوله من الرعية بالهدى والإيمان والأخلاق.

٢٥- يعتبر عهد الصديق بداية العهد الراشدى الذى تتجلى أهميته بصلته بالعهد النبوى، وقربه منه، فكان العهد الراشدى عامة والجانب القضائى خاصة امتداداً للقضاء فى العهد النبوى، مع المحافظة الكاملة والتامة على جميع ما ثبت فى العهد النبوى وتطبيقه بحذافيره وتنفيذه بنصه ومعناه.

٢٦- كان أبو بكر يستعمل الولاة فى البلدان المختلفة ويعهد إليهم بالولاية العامة فى الإدارة والحكم والإمامة وجباية الصدقات وسائر أنواع الولايات، وكان ينظر إلى حسن اختيار الرسول للأمراء والولاة على البلدان فيقتدى به فى هذا العمل، ولهذا نجده قد أقر جميع عمال الرسول الذين توفى الرسول ﷺ وهم على ولايتهم ولم

يعزل أحداً منهم إلا ليعينه فى مكان آخر أكثر أهمية من موقعه الأول، ويرضاه كما حدث لعمرو بن العاص، وكانت مسئوليات الولاة فى عهد أبى بكر الصديق بالدرجة الأولى امتداداً لصلاحيتهم فى عصر الرسول ﷺ، خصوصاً الولاة الذين سبق تعيينهم أيام الرسول ﷺ.

٢٧- وردت أخبار كثيرة فى شأن تأخر عليّ عن مبايعة الصديق رضى الله عنهما، وكذا تأخر الزبير بن العوام وجُلُّ هذه الأخبار ليس بصحيح إلا مارواه ابن عباس رضى الله عنهما قال: إن علياً والزبير ومن كان معهما تخلفوا فى بيت فاطمة بنت رسول الله، فقد كان انشغال جماعة من المهاجرين وعلى رأسهم على بن أبى طالب بأمر جهاز رسول الله، من تغسيل وتكفين، وقد بايع الزبير بن العوام وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما أبا بكر فى اليوم التالى لوفاة الرسول وهو يوم الثلاثاء.

٢٨- عندما سئل الصديق عن ميراث رسول الله، قال للسيدة فاطمة والعباس عم النبى ﷺ: سمعت رسول الله يقول: «**لا نورث ما تركنا صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال**» وفى رواية قال أبو بكر رضى الله عنه: ... لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به فإنى أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ. ومن الثابت تاريخياً أن أبا بكر دام أيام خلافته يعطى أهل البيت حقهم فى فىء رسول الله ﷺ فى المدينة، ومن أموال فدك وخمس خيبر، إلا أنه لم ينفذ فيها أحكام الميراث عملاً بما سمعه من رسول الله.

٢٩- بين الصديق رضى الله عنه فى خطبته طبيعة خليفة رسول الله ﷺ وأنه ليس خليفة عن الله، بل عن رسوله ﷺ وأنه بشر غير معصوم لا يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيقه بنبوته ورسالته، فهو فى سياسته متبع وليس بمبتدع.

٣٠ - من الدروس والعبر فى بعث جيش أسامة رضى الله عنه: أن الأحوال تتغير وتتبدل، والشدائد لا تشغل أهل الإيمان عن أمر الدين، والمسيرة الدعوية لا ترتبط بأحد، ووجوب اتباع النبى ﷺ وحدوث الخلاف بين المؤمنين وردّه إلى الكتاب والسنة، وجعل الدعوة مقرونة بالعمل ومكانة الشباب فى خدمة الإسلام، وروعة الآداب الإسلامية فى الجهاد وتحقيق جيش أسامة لأهدافه، فقد ضعفت جبهة الردة فى الشمال وأصبحت من أضعف الجبهات.

٣١- إن الردة التى قامت بها القبائل العربية بعد وفاة رسول الله ﷺ لها أسباب منها هول الصدمة بموت رسول الله، ورقة الدين والسقم فى فهم نصوصه، والحنين إلى الجاهلية ومقارفة موبقاتها، والتفلت من النظام والخروج على السلطة الشرعية، والعصبية القبلية، والطمع فى الملك، والتكسب بالدين، والشح بالمال، والتحاسد، والمؤثرات الأجنبية كدور اليهود والنصارى والمجوس.

٣٢- وأما أصناف الردة فمنهم من ترك الإسلام جملة وتفصيلاً، وعاد إلى الوثنية وعبادة الأصنام، ومنهم من ادعى النبوة، ومنهم من عاد إلى ترك الصلاة، ومنهم من بقى يعترف بالإسلام ويقيم الصلاة ولكنه امتنع عن أداء الزكاة، ومنهم من شمت بموت الرسول ﷺ وعاد أدراجه يمارس عاداته الجاهلية، ومنهم من تحير وتردد وانتظر على من تكون الدبرة، وكل ذلك وضحه علماء الفقه والسير.

٣٣- كان موقف الصديق رضى الله عنه من المرتدين لاهوادة فيه ولا مساومة فيه ولا تنازل، يرجع إليه الفضل الأكبر - بعد الله تعالى - فى سلامة هذا الدين وبقائه على نقائه وصفائه وأصالته، وقد أقر الجميع وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد وقف فى مواجهة الردة الطاغية ومحاولة نقض عرى الإسلام عروة عروة موقف الانبياء والرسل فى عصورهم، وهذه خلافة النبوة التى أدى أبو بكر حقَّها، واستحق بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلى أن يرث الله الأرض وأهلها.

٣٤- إن من الحقائق الأساسية حول هذه الفتنة، أنها لم تكن شاملة لكل الناس كشمولها الجغرافى، بل إن هناك قادة وقبائل وجماعات وأفراداً تمسكوا بدينهم فى كل منطقة.

٣٥- فى حروب الردة باليمن ظهرت صورتان مختلفتان للنساء صورة المرأة الطاهرة العفيفة التى تقف مع الإسلام وتحارب الرذيلة، وتقف مع المسلمين لكبح جماح شياطين الإنس والجن مثل (آزاد) الفارسية زوج شهر بن باذان وابنة عم فيروز الفارسى، وصورة أخرى كالحة مظلمة وهى ماقامت به بعض بنات اليمن من يهود ومن لف لفهن فى حضر موت، فقد طرن فرحًا بموت رسول الله فأقمن الليالى الحمراء مع المجان والفساق يشجعن على الرذيلة ويزرين بالفضيلة، فقد رقص الشيطان فيها معهنّ وأتباعه طربًا لنكوص الناس عن الإسلام، والدعوة إلى التمرد عليه وحرب أهله.

٣٦- كان بعض أهل اليمن لهم مواقف عظيمة في الثبات على الحق والدعوة إلى الإسلام، وتحذير قومهم من خطورة الردة، ومن هؤلاء كان مران بن ذى عمير الهمداني أحد ملوك اليمن وعبد الله بن مالك الأرحبي، وكان من أصحاب النبي ﷺ وشرحبيل بن السِّمْط وابنه في بني معاوية من كندة.

٣٧- بعد حروب الردة تجمعت اليمن تحت قيادة مركزية عاصمتها المدينة المنورة، وقسم اليمن إلى أقسام إدارية لا وحدات قبلية، فقد قسم إلى ثلاثة أقسام إدارية: صنعاء والجند وحضرموت، ولم تعد العصبية القبلية أساسًا في الزعامة أو في التولية، ولم تعد القبلية سوى وحدة عسكرية لا سياسية، وأصبحت المقاييس المعتبرة هي المقاييس الإيمانية التقوى والإخلاص والعمل الصالح.

٣٨- كان لهزيمة طليحة الأسدى في معركة بزاخة أثر كبير في رجوع كثير من القبائل إلى حظيرة الإسلام، فقد أقبلت بنو عامر بعد هزيمة بزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، فبايعهم خالد على ما بايع عليه أهل بزاخة من أسد وغطفان وطيء.

٣٩- إن مقتل مالك بن نويرة بسبب كبره وتردده، فقد بقي للجاهلية في نفسه نصيب، ولذلك ماطل في التبعية للقائم بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ وفي تأدية حق بيت مال المسلمين عليه المتمثل بالزكاة.

٤٠- قام الصديق بالتحقيق في مقتل ابن نويرة وانتهى إلى براءة ساحة خالد من تهمة قتل مالك بن نويرة، فقد كان الصديق في هذا الشأن أكثر اطلاعًا على حقائق الأمور، وأبعد نظراً في تصريفها، من بقية الصحابة، لأنه الخليفة وإليه تصل الأخبار.

٤١- إن من كمال الصديق توليته لخالد واستعانته به، لأنه كان شديداً ليعتدل به أمره ويخلط الشدة باللين، فإن مجرد اللين يفسد ومجرد الشدة يفسد، فكان يقوم باستشارة عمر وباستنابة خالد وهذا من كماله الذى صار به خليفة رسول الله.

٤٢- كان للمثنى بن حارثة دور كبير في إخماد فتنة البحرين، والوقوف بقواته بجانب العلاء بن الحضرمى، وقد سار بجنوده من البحرين شمالاً ووضع يده على القطيف وهجر حتى بلغ مصب دجلة، وقضى في سيره على قوات الفرس وعمالهم، وقد كانت أخباره تصل إلى الصديق، وسأل عنه أصحابه فقال له قيس بن عاصم

المنقرى: هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد، هذا المثنى ابن حارثة الشيبانى.

٤٤- تعتبر هزيمة بنى حنيفة فى اليمامة أمام جيوش خالد قاصمة الظهر لحركة الردة، وكان من ضمن شهداء المسلمين فى حرب اليمامة كثير من حفظة القرآن، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضى الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بجمع القرآن من الرقاع والعظام والسعف ومن صدور الرجال، وأسند الصديق هذا العمل العظيم والمشروع الحضارى الضخم إلى الصحابى الجليل زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه.

٤٥- تحققت شروط التمكين ولوازمه كلها فى عهد الصديق والخلفاء الراشدين من بعده، وكان للصديق الفضل بعد الله فى تذكير الأمة بهذه الشروط، ولذلك رفض طلب الأعراب فى وضع الزكاة عنهم وأصَرَّ على بعث جيش أسامة، والتزم بالشرع كاملاً ولم يتنازل عن صغيرة ولا كبيرة.

٤٦- كان إعداد الصديق فى حروب الردة شاملاً معنويًا وماديًا فجيش الجيوش وعقد الألوية واختار القادة لحروب الردة، وراسل المرتدين وحرَّض الصحابة على قتالهم، وجمع السلاح والخيل والإبل وجهز الغزاة، وحارب البدع والجهل والهوى وحكَّم الشريعة، وأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع، وأخذ بمبدأ التفرغ وساهم فى إحياء مبدأ التخصص، فخالد لقيادة الجيوش وزيد بن ثابت لجمع القرآن وأبو برزة الأسلمى للمراسلات الحربية، واهتم بالجانب الأمنى والإعلامى، وغير ذلك من الأسباب.

٤٧- تظهر آثار تحكيم شرع الله فى عصر الصديق فى تمكين الله للصحابة فقد حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله فى تحاكمهم إلى شرعه، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم ونصرهم على المرتدين، ورزقهم الأمن والاستقرار.

٤٨- كان الجهاد الذى خاضه الصحابة فى حروب الردة إعداداً ربانيًا للفتوحات الإسلامية، حيث تميزت الرايات وظهرت القدرات وتفجرت الطاقات واكتشفت قيادات ميدانية، وتفنن القادة فى الأساليب والخطط الحربية، وبرزت مؤهلات

الجندية الصادقة المطيعة المنضبطة الواعية التى تقاتل وهى تعلم على ماذا تقاتل، وتقدم كل شيء وهى تعلم من أجل ماذا تضحى وتبذل، ولذا كان الأداء فائقًا والتفانى عظيمًا.

٤٩- توحدت شبه الجزيرة العربية - بفضل الله - ثم جهاد الصحابة مع الصديق - تحت راية الإسلام لأول مرة فى تاريخها بزوال الرؤوس أو انتظامها ضمن المد الإسلامى، وبسطت عاصمة الإسلام - المدينة - هيمنتها على ربوع الجزيرة، وأصبحت الأمة تسير وراء زعيم واحد بمبدأ واحد بفكرة واحدة، فكان الانتصار انتصارًا للدعوة الإسلامية ولوحدة الأمة بتضامنها وتغلبها على عوامل التفكك والعصبية، كما كانت برهانًا على أن الدولة الإسلامية بقيادة الصديق قادرة على التغلب على أعنف الأزمات.

٥٠- أثبتت أحداث التاريخ أن أية محاولة للتمرد على دين الإسلام سواء أقام بها فرد أم جماعة أم دولة إنما هى محاولة يائسة، مآلها الإخفاق الذريع والخيبة الشنيعة، لأن التمرد إنما هو تمرد على أمر الله المتمثل بكتابه الذى تكفل بحفظه وحفظ جماعة تلتف حوله وتقيمه فى نفوسها وواقعها مدى الدهر، وبحكمه القاضى بالعاقبة للمتقين وبالمن على المستضعفين أن يديل لهم من الظالمين.

٥١- ما إن انتهت حروب الردة واستقرت الأمور فى الجزيرة العربية التى كانت ميدانًا لها، حتى شرع الصديق فى تنفيذ خطة الفتوحات، التى وضع معالمها رسول الله ﷺ، فجيش الجيوش لفتح العراق والشام.

٥٢- إن الأوامر التى وجهها الصديق إلى قادة فتوح العراق (خالد وعياض) تشير إلى الحس الاستراتيجى المتقدم الذى كان يملكه الصديق رضى الله عنه، فقد أعطى جملة تعليمات عسكرية استراتيجية منها وتكتيكية، فحدد لكل من القائدين المسلمين جغرافيًا منطقة للدخول إلى العراق، كأنما هو يمارس القيادة من غرفة العمليات بالحجاز، وقد بسطت أمامه خارطة العراق بكل تضاريسها ومسالكها.

٥٣- خاض خالد فى العراق عدة معارك كانت السبب فى فتح العراق، كمعركة ذات السلاسل ومعركة المذار والولجة وأليس وفتح الحيرة والأنبار وعين التمر ودومة الجندل ووقعة الحصيد ووقعة المصيخ ووقعة الفراض.

٥٤- عزم الصديق على فتح الشام فاستشار كبار الصحابة ثم استنفر أهل اليمن للجهاد، وعقد الألوية للقادة وأرسل أربعة جيوش لبلاد الشام، وكان قادة الجيوش كلا من يزيد بن أبى سفيان، وأبى عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة.

٥٥ - كانت الجيوش المكلفة بفتح الشام تلاقى صعوبة فى تنفيذ المهمات الموكلة إليها، فقد كانت تواجه جيوش الامبراطورية الرومانية التى تمتاز بقوتها وكثرة عددها، فراسلوا الصديق وأعلموه بوضعهم الحرج، فأمر الصديق الجيوش بالانسحاب إلى اليرموك والتجمع هناك، وأمر خالداً بالسير بنصف جيش العراق نحو جبهات الشام وأمره بقيادة الجيوش هناك.

٥٦- استطاع خالد بن الوليد أن يحقق انتصارات عظيمة على جيوش الشام من أهمها معركة أجنادين واليرموك.

٥٧- يمكن للباحث أن يستنبط أهم معالم السياسة الخارجية فى دولة الصديق: وهى بذر هيبة الدولة فى نفوس الأمم الأخرى، مواصلة الجهاد الذى أمر به الرسول ﷺ، والعدل بين الأمم المفتوحة والرفق بأهلها، ورفع الإكراه عن الأمم المفتوحة وإزالة الحاجز البشرى بينهم وبين الإسلام.

٥٨- إن المطالع للفتوحات فى عهد الصديق رضى الله عنه يمكن له أن يستنتج خطوطا رئيسة للخطة الحربية التى سار عليها وكيف تعامل هذا الخليفة العظيم مع سنَّة الأخذ بالأسباب؟ وكيف كانت هذه الخطة المحكمة عاملاً من عوامل نزول النصر والتمكين من الله عز وجل للمسلمين، ومن هذه الخطوط ما يلى: عدم الإيغال فى بلاد العدو حتى تدين للمسلمين، التعبئة وحشد القوات، تنظيم عملية الإعداد للجيوش، تحديد الهدف من الحرب، إعطاء الأفضلية لمسارح العمليات، عزل ميدان المعركة، التطور فى أساليب القتال، سلامة خطوط الاتصال مع القادة، ذكاء الخليفة وفطنته.

٥٩- بين الصديق فى توجيهاته للقادة والجنود حقوق الله تعالى كمصابرة العدو وإخلاص قتالهم لله وأداء الأمانة وعدم الممالأة والمحاباة فى نصر دين الله، ووضع حقوق القادة على الجنود والرعية كالتزام طاعته والمسارعة إلى امتثال أمره، وعدم

مسارعته فى شيء من قسمة الغنائم، وغير ذلك من الحقوق، وفصل الصديق رضى الله عنه من خلال وصاياه ورسائله فى حقوق الجند كاستعراضهم وتفقد أحوالهم والرفق بهم فى السير، وأن يقيم عليهم العرفاء والنقباء، واختيار مواضع نزولهم لمحاربة العدو، وإعداد ما يحتاج إليه الجند من زاد وعلوفة، والتعرف على أخبار العدو بالجواسيس الثقات لسلامة الجند، وتحريضهم على الجهاد وتذكيرهم بثواب الله وفضل الشهادة، ومشاورة ذوى الرأى منهم، وأن يلزمهم بما أوجبه الله من حقوق، وأن ينهاهم عن الاشتغال عن الجهاد بزراعة أو تجارة، وكل هذه الحقوق قد استخرجت من رسائله ووصاياه للقادة.

٦٠- إن المتأمل فى حركة الفتح الإسلامى يرى توفيق الله تعالى لجيوش الخليفة أبى بكر رضى الله عنه، فقد استطاعت تلك الجيوش المظفرة أن تكسر شوكة الرومان والفرس وفتح تلك الديار فى وقت قياسى فى تاريخ الحروب، ومن أهم أسباب تلك الفتوح، إيمان المسلمين بالحق الذى يقاتلون من أجله، تأصل الصفات الحربية فى المسلمين، سماحة المسلمين وعدالتهم مع تلك الشعوب، رحمة المسلمين فى تقدير الجزية والخراج ووفاؤهم بعهودهم، ثروة المسلمين الواسعة من الرجال والقادة العظام، إحكام الخطة الإسلامية الحربية، وغير ذلك من الأسباب.

٦١- عندما نزل المرض بالصديق وأشرف على الموت، قام بعدة إجراءات عملية لتتم عملية اختيار الخليفة القادم وهى: استشار كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وبعد أن تم ترشيح الصديق لعمر ووافق معظم الصحابة على ذلك، كتب عهداً مكتوباً يقرأ على الناس فى المدينة وفى الأمصار، وأخبر عمر بن الخطاب بخطواته القادمة وعرَّفه ما عزم عليه وألزمه بذلك، وأبلغ الناس بلسانه واعيًا مدركًا حتى لا يحصل أى لبس، وتوجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويبثه كوامن نفسه، وكلف عثمان ابن عفان أن يتولى قراءة العهد على الناس وأخذ البيعة لعمر قبل موته، وقام بتوجيه الفاروق عندما اختلى به.

٦٢- إن الخطوات التى سار عليها أبو بكر الصديق فى اختيار خليفته من بعده لا تتجاوز الشورى بأى حال من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبعة فيها غير الإجراءات المتبعة فى تولية أبى بكر نفسه، وهكذا تم عقد الخلافة لعمر بالشورى والاتفاق، ولم يرد التاريخ أى خلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحداً

نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته فى أثناء حكمه، فكان الجميع وحدة واحدة.

٦٣- خرج أبو بكر الصديق من هذه الدنيا بعد جهاد عظيم فى سبيل نشر دين الله فى الآفاق، وستظل الحضارة الإنسانية مدينة لهذا الشيخ الجليل الذى حمل لواء دعوة الرسول ﷺ بعد وفاته، وحمى غرسه عليه الصلاة والسلام، وقام برعاية بذور العدل والحرية وسقاها أزكى دماء الشهداء، فآتت من كل الثمرات عطاءً جزيلاً، حقق عبر التاريخ تقدمًا عظيمًا فى العلوم والثقافة والفكر، وستظل الحضارة مدينة للصديق، لأنه بجهاده الرائع وبصبره العظيم حمى الله به دين الإسلام فى ثباته فى الردة، ونشر الله به الإسلام فى الأمم والدول والشعوب بحركة الفتوحات العظيمة.

٦٤- إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه، وما هى إلا محاولة متواضعة هدفها معرفة حقيقة عصر الخلافة الراشدة، لكى نستفيد منها فى حركتنا المستمرة لتحكيم شرع الله ونشر دعوته فى دنيا الناس، وبينى وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيبًا فسد الخللا ... جلَّ من لا عيب فيه وعلا

وأسأل الله العلى العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولاً حسنًا، وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالى الصالحة التى أتقرب بها إليه، وأن لا يحرمنى ولا إخوانى الذين أعانونى على إكماله من الأجر والمثوبة ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠] وبقول الشاعر ابن الوردى لابنه:

اطلب العلم ولا تكسل فما ... أبعد الخير على أهل الكسل

احتفل للفقه فى الدين ولا ... تشتغل عنه بمال وَخَوَلْ

واهجر النوم وحصِّلْه فمن ... يعرف المطلوب يحقر ما بذل

لا تقل قد ذهبت أربابه ... كل من سار على الدرب وصلْ

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

المصادر والمراجع

١ – أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د.إبراهيم على شعوط، المكتب الإسلامى الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٢ – أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

٣ – أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، دار القاسم الطبعة الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

٤ – أبو بكر الصديق د. نزار الحديثى، د.خالد جاسم الجنابى، دار الشئون الثقافية العامة العراق، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

٥ – أبو بكر الصديق، على طنطاوى، دار المنارة، جدة السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٦ – أبو بكر الصديق، محمد مال الله، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

٧ – أبو بكر رجل الدولة، مجدى حمدى، دار طيبة الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٨ – الأحكام السلطانية لأبى الحسن الماوردى، دار الكتب العلمية بيروت.

٩ – أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ استخلاف أبى بكر الصديق د.جمال عبدالهادى محمد مسعود، دكتورة وفاء محمد رفعت جمعة، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

١٠ – الأساس فى السنة، سعيد حوى، دار السلام بمصر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

١١ – أسد الغابة فى معرفة الصحابة، لأبى الحسن على بن محمد الجزرى، دار إحياء التراث العربى، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

١٢ - أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة، رفيق العظم، دار الرائد العربى، بيروت - لبنان، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٣ - أصحاب الرسول، محمود المصرى، مكتبة أبى حذيفة السلفى، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٤ - أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجنكى الشنقيطى، مطبعة المدنى ١٣٨٦هـ.

١٥ - أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع، مطبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٦ - الأنصار فى العصر الراشدى (سياسيا وعسكريا وفكريا) للدكتور حامد محمد خليفة، رسالة دكتوراه من كلية الآداب فى جامعة بغداد، لم تطبع، من صورة مصورة.

١٧ - الإبانة عن أصول الديانة لأبى الحسن الأشعرى، ط الجامعة الإسلامية ١٩٧٥م.

١٨ - الإحسان فى صحيح ابن حبان، علاء الدين على بن بلبان الفارسى، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

١٩ - الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية نشأتها وتطورها، الدكتور سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، جامعة أم القرى، معهد البحوث وإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٠ - الإصابة فى تمييز الصحابة، أحمد بن على بن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢١ - الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجى، دار طيبة السعودية الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

٢٢ - الإيمان وأثره فى الحياة، يوسف القرضاوى، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة العاشرة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٢٣ - الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن فى الإسلام، مصطفى محمود منجود، المعهد العالى للفكر الإسلامى، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٤ – إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، محمد الخضرى، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

٢٥ – أحكام المرتد في الشريعة الإسلامية، نعمان عبد الرزاق السامرائي، دار العربية ١٩٦٨م.

٢٦ – الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر ابن عبدالبر، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٧ – الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة لأبي بكر أحمد بن الحسيني البيهقي، الناشر حديث أكاديمي نشاط آباد، فيصل آباد، باكستان.

٢٨ – الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع سليمان الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ–١٩٩٧م.

٢٩ – البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، دار الريان، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

٣٠ – تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر الطبري، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٣١ – تاريخ الأنصار السياسي، د. عبدالمنعم الدسوقي، دار الخلفاء مصر.

٣٢ – تاريخ الإسلام للذهبي، عهد الخلفاء الراشدين، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٣٣ – التاريخ الإسلامي، الخلفاء الراشدون، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

٣٤ – التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبدالعزيز عبدالله الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.

٣٥ – تاريخ الخلافة الراشدة، محمد بن أحمد كنعان، مؤسسة المعارف، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٣٦ – تاريخ الخلفاء للإمام جلال الدين السيوطي، عُني بتحقيقه إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

٣٧ - تاريخ الدعوة إلى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، د. يسرى محمد هانى، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية وإحياء التراث.

٣٨ - تاريخ الدعوة الإسلامية فى زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، د. جميل عبدالله المصرى، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٩ - التاريخ السياسى والعسكرى، د.على معطى، مؤسسة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٤٠ - تاريخ القضاء فى الإسلام، د. محمد الزحيلى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٤١ - تاريخ اليعقوبى، دار بيروت للطباعة والنشر، طبعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٤٢ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام، لأبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤٣ - تاريخ صدر الإسلام وفجره، د. شحادة على الناطور ١٩٩٥م.

٤٤ - تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبدالمنعم عبدالله عامر، لأبى زكريا يزيد بن محمد الأزدى، مؤسسة القاهرة ١٩٧٠م.

٤٥ - التبيين فى أنساب القرشيين، لأبى محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى، عالم الكتب، بيروت.

٤٦ - التحالف السياسى فى الإسلام، منير الغضبان، دار السلام، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤٧ - تحفة الأحوذى بشرح الترمذى، عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفورى، دار الاتحاد العربى للطباعة، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

٤٨ - تراث الخلفاء الراشدين فى الفقه الإسلامى، د. صبحى محمصانى، دار العلم للملايين، الطبعةالأولى ١٩٨٤م.

٤٩ - التربية القيادية للغضبان، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٥٠ – ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، خلافة أبى بكر الصديق، د.محمد بن صامل السلمى، دار الوطن الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٥١ – تفسير ابن كثير، دار الفكر للطباعة بيروت، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م.

٥٢ – تفسير الألوسى المسمى روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى (محمود الألوسى البغدادى)، إدارة الطبعة المصطفائية، بالهند، بدون ذكر سنة الطبع.

٥٣ – تفسير الرازى، دار إحياء التراث العربى، بيروت الطبعة الثالثة.

٥٤ – تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٥٥ – تفسير القرطبى لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان ١٩٦٥م.

٥٦ – التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ – ١٩٩١م.

٥٧ – التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد بن بليه بن مرهان العجمى، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى.

٥٨ – التمكين للأمة الإسلامية فى ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٥٩ – تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، دار إحياء التراث العربى بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٦٠ – الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق، د. مهد رزق الله أحمد، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

٦١ – جامع الأصول فى أحاديث الرسول، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى، تحقيق عبدالقادر الأرناؤط، طبع مكتبة الحلوانى، سوريه عام ١٣٩٢هـ.

٦٢ – الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع للخطيب البغدادى، مكتبة المعارف، بالرياض ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

٦٣ – الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية، محمد خير هيكل، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، دار البيارق، عمان.

٦٤ – الحجاز والدولة الإسلامية، د. إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، طبعة ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٦٥ – الحرب النفسية من منظور إسلامى، د.أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان، طبعة عام ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٦٦ – حركة الردة، د. على العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

٦٧ – الحركة السنوسية فى ليبيا، على محمد الصلابى، دار البيارق، عمان، طبعة أولى، ١٩٩٩م.

٦٨ – حركة الفتح الإسلامى، شكرى فيصل، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، ١٩٨٢م.

٦٩ – حروب الإسلام فى الشام، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

٧٠ – حروب الردة من قيادة النبى إلى إمرة أبى بكر، شوقى أبو خليل، دار الفكر، دمشق.

٧١ – حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، أحمد سعيد بن سالم، دار المنار، ١٤١٥هـ– ١٩٩٤م.

٧٢ – حروب الردة، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م.

٧٣ – الحكم بغير ما أنزل الله، أحواله وأحكامه، د. عبدالرحمن بن صالح المحمود، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م.

٧٤ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبى نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهانى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٥ – حياة أبى بكر، محمود شلبى، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، عام ١٩٧٩م.

٧٦ – خاتم النبيين، لأبى زهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م دار الفكر، بيروت.

٧٧ – خالد بن الوليد، صادق إبراهيم عرجُون، الدار السعودية، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٧٨ – الخراج، لأبى يوسف، منشورات مكتبة الرياض الحديثة، بدون تاريخ طبع.

٧٩ – خطب أبى بكر الصديق، د. محمد أحمد عاشور، جمال عبدالمنعم الكومى، دار الاعتصام.

٨٠ – الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى، د. يحيى إبراهيم اليحيى دار الهجرة السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م.

٨١ – الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، سالم بهنساوى، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.

٨٢ – الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد، صلاح عبدالفتاح الخالدى دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ– ١٩٩٥م.

٨٣ – الخلفاء الراشدون، عبدالوهاب النجار، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٨٤ – خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، دار ثابت، القاهرة، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ– ١٩٩٤م.

٨٥ – الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، الإمام السيوطى، الناشر محمد أمين دمج، بيروت – لبنان.

٨٦ – دراسات فى الحضارة الإسلامية، أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربى.

٨٧ – دراسات فى السيرة النبوية، عماد الدين خليل، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٠٩هـ– ١٩٨٩م بيروت.

٨٨ – دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، د. عبدالرحمن الشجاع، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ– ١٩٩٩م.

٨٩ – دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبى بكر محمد البيهقى، تحقيق عبدالمعطى قلعجى، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية بيروت.

٩٠ – دواعى الفتوحات الإسلامية ودواعى المستشرقين، د.جميل عبدالله المصرى، دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

٩١ – دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة، د. أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربى، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

٩٢ – الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، السيد عمر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

٩٣ – الدولة العربية الإسلامية الأولى، عصام محمد سابور، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٥م.

٩٤ – الدولة العربية الإسلامية، منصور الحرابى، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية الليبية، الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ – ١٩٨٧م.

٩٥ – ديوان الردة، د.على العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

٩٦ – ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات.

٩٧ –الرياض النضرة فى مناقب العشرة، لأبى جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبرى، المتوفى ٦٩٤هـ، المكتبة القيمة، القاهرة.

٩٨ – سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألبانى، منشورات المكتب الإسلامى.

٩٩ – سنن أبى داود، سليمان السجستانى، تحقيق وتعليق عزت الدعاس ١٣٩١هـ سوريه.

١٠٠ – سنن الترمذى، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى، دار الفكر ١٣٩٨هـ.

١٠١ – السياسة الشرعية بين الراعى والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٠٢ – سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

١٠٣ - السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون، على بن برهان الدين الحلبى، دار المعرفة.

١٠٤ - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، د. على محمد الصّلاّبى، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٠٥ - السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، د. مهدى رزق الله أحمد، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.

١٠٦ - السيرة النبوية لأبى شهبة، دار القلم دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٠٧ - السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التراث، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٠٨ - السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفى السباعى، المكتب الإسلامى، بيروت لبنان، الطبعة التاسعة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٠٩ - السيرة النبوية لابن كثير، للإمام أبى الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبدالواحد، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت.

١١٠ - سيرة وحياة الصديق، مجدى فتحى السيد، دار الصحابة للتراث، بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١١١ - الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمى، دار البشير، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١١٢ - الشيخان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب برواية البلاذرى فى أنساب الأشراف، تحقيق د. إحسان صدقى العمد، المؤتمن للنشر، السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١١٣ - صحيح البخارى لأبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١١٤ - صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألبانى، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، المكتب الإسلامى، بيروت، لبنان.

١١٥ - صحيح السيرة النبوية، إبراهيم صالح العلى، دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.

١١٦ - الصحيح المسند من فضائل الصحابة، لأبى عبدالله مصطفى العدوى، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١١٧ - صحيح سنن ابن ماجة، لمحمد ناصر الدين الألبانى، منشورات المكتب الإسلامى.

١١٨ - صحيح سنن أبى داود، لمحمد ناصر الدين الألبانى، منشورات المكتب الإسلامى.

١١٩ - صحيح مسلم بشرح النووى، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م.

١٢٠ - صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

١٢١ - الصديق أول الخلفاء، عبدالرحمن الشرقاوى، دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٢٢ - الصديق أبو بكر، محمد حسين هيكل، دار المعارف بمصر ط١٩٧١م.

١٢٣ - صفة الصفوة، للإمام أبى الفرج ابن الجوزى، دار المعرفة، بيروت.

١٢٤ - صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى، على محمد الصلابى، دار البيارق، عمان ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٢٥ - صور من جهاد الصحابة، عمليات جهادية خاصة تنفذها مجموعات خاصة من الصحابة، د. صلاح عبدالفتاح الخالدى، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م..

١٢٦ - الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت.

١٢٧ - عبقرية الصديق، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت.

١٢٨ - عتيق العتقاء الإمام أبو بكر الصديق، محمود على البغدادى، دار الندوة الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٢٩ - العشرة المبشرون بالجنة، د. سيد الجميلى، دار الريان للتراث، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

١٣٠ - عصر الخلافة الراشدة د. أكرم ضياء العمرى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٣١ - عصر الخلفاء الراشدين، دكتورة فتحية عبدالفتاح النبراوى، الدار السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

١٣٢ - عصر الصحابة، عبدالمنعم الهاشمى، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٣ - عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام، د.ناصر بن على عائض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

١٣٤ - العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، د. سليمان بن سالم بن رجاء السحيمى، مكتبه الإمام البخارى، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٥ - العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، الرائد نهاد عباس شهاب الجبورى، دار الحرية بغداد.

١٣٦ - العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الدين الخطيب، إعداد محمد سعيد مبيض، دار الثقافة، الدوحة، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

١٣٧ - عيون الأخبار لأبى محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

١٣٨ - فتح البارى: المطبعة السلفية، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

١٣٩ - فتوح البلدان لأبى العباس أحمد بن يحيى البلاذرى، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٤٠ - فتوح الشام، محمد بن عمر الواقدى، دار ابن خلدون.

١٤١ - فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، دار طويق السعودية الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

١٤٢ - الفصل فى الملل والأهواء والنحل، لأبى محمد بن حزم الظاهرى، مكتبة الخانجى مصر.

١٤٣ – فضائل الصحابة لأبى عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، دار ابن الجوزى، السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٤٤ – فقه التمكين فى القرآن الكريم د. على محمد الصلابى، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

١٤٥ – فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوى، دار الوفاء بالمنصورة، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٤٦ – الفن العسكرى الإسلامى، د.ياسين سويد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.

١٤٧ – فى التاريخ الإسلامى، د.شوقى أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

١٤٨ – فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

١٤٩ – قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجى، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م بيروت – لبنان.

١٥٠ – قصة بعث جيش أسامة، د. فضل إلهى، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

١٥١ – القيادة العسكرية فى عهد الرسول، د. عبدالله محمد الرشيد، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

١٥٢ – الكامل فى التاريخ، أبو الحسن على بن أبى المكارم الشيبانى المعروف بابن الأثير، تحقيق على شيرى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٩م.

١٥٣ – كيف نكتب التاريخ الإسلامى، محمد قطب، دار الوطن السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٥٤ – لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلى.

١٥٥ – مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، للقلقشندى، تحقيق عبدالستار أحمد الفرج، عالم الكتب، بيروت.

١٥٦ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، دار الريان، القاهرة، دار الكتاب العربى بيروت.

١٥٧ - مجموعة الفتاوى تقى الدين أحمد بن تيمية الحَرَّانى، دار الوفاء، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٥٨ - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٥٩ - محمد رسول الله، محمد صادق عرجون، دار القلم، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٦٠ - محنة المسلمين فى العهد المكى، د.سليمان السويكت، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٦١ - المرتضى سيرة أمير المؤمنين أبى الحسن على بن أبى طالب، لأبى الحسن الندوى، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٦٢ - مرض النبى ووفاته وأثره على الأمة، خالد أبو صالح، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١٦٣ - مروج الذهب ومعادن الجواهر لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

١٦٤ - مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى عصر الخلافة الراشدة، د.يحيى إبراهيم اليحيى، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

١٦٥ - المستدرك على الصحيحين لأبى عبدالله محمد بن عبدالله النيسابورى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٦٦ - المستفاد من قصص القرآن، عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٦٧ - المسلمون والروم فى عصر النبوة، د. عبدالرحمن أحمد سالم، دار الفكر العربى، طبعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٦٨ – معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، عبدالجبار محمود السامرائى، الدار العربية للموسوعات، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

١٦٩ – معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، الطبعة الرابعة ١٩٨٩م.

١٧٠ – معجم البلدان، ياقوت الحموى، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.

١٧١ – المعجم الكبير لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، ٢٦٠هـ – ٣٦٠ هـ، دار مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م.

١٧٢ – المغازى للواقدى، محمد بن عمر بن واقد، تحقيق مارسدن جوسن، عالم الكتب بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

١٧٣ – مقدمة ابن خلدون.

١٧٤ – مقومات النصر فى ضوء القرآن والسنة، د. أحمد أبو الشباب، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٧٥ – ملامح الشورى فى الدعوة الإسلامية، عدنان على رضا النحوى، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.

١٧٦ – من دولة عمر إلى دولة عبدالملك، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

١٧٧ – من معين السيرة، صالح أحمد الشامى، المكتب الإسلامى، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

١٧٨ – منهاج السنة لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

١٧٩ – منهج كتابة التاريخ الإسلامى، محمد صامل العليانى، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.

١٨٠ – مواقف الصديق مع النبى فى مكة، د. عاطف لماضة، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

١٨١ – مواقف الصديق مع النبى فى المدينة، د. عاطف لماضة، دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

١٨٢ – موسوعة التاريخ الإسلامى، د. أحمد شلبى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٧.

١٨٣ – موسوعة فقه أبى بكر الصديق، د. محمد رواس قلعجى، دار النفائس، الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.

١٨٤ – موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف صالح عبدالله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكى، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨م دار الوسيلة، جدة.

١٨٥ – نسب قريش: أبو عبدالله مصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيرى، دار المعارف القاهرة.

١٨٦ – نظام الحكم فى الإسلام، عارف أبو عيد، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

١٨٧ – نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى، ظافر القاسمى، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

١٨٨ – نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين، حمد محمد العمد، المؤسسة الجماعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

١٨٩ – نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، محمد عبدالحى الكتانى الإدريسى الحسنى الفاسى، شركة الأرقم بن أبى الأرقم، بيروت.

١٩٠ – نقد علمى لكتاب الإسلام وأصول الحكم، محمد الطاهر بن عاشور.

١٩١ – النهاية فى غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحى.

١٩٢ – نونية القحطانى لأبى محمد عبدالله بن محمد الأندلسى القحطانى، دار السوادى السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

١٩٣ – الهجرة النبوية المباركة، د. عبدالرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

١٩٤ – الهجرة فى القرآن الكريم، أحزمى سامعون جزولى، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

١٩٥ – الوحى وتبليغ الرسالة، د. يحيى اليحيى، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع.

١٩٦ – وقائع ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م.

١٩٧ – ولاية الشرطة فى الإسلام، العميد الدكتور نمر بن محمد الحميدانى، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

١٩٨ – الولاية على البلدان فى عصر الخلفاء الراشدين، د. عبدالعزيز إبراهيم العمرى، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

١٩٩ – اليمن فى صدر الإسلام، د. عبدالرحمن شجاع، دار الفكر. دمشق.

* * *

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

المبحث الرابع

الصديق فى ميادين الجهاد

المبحث الخامس

الصديق فى المجتمع المدنى وبعض صفاته وشىء من فضائله

الفصل الثانى

وفاة الرسول ﷺ وسقيفة بنى ساعدة وجيش أسامة

المبحث الأول

وفاة الرسول ﷺ وسقيفة بنى ساعدة

المبحث الثانى

البيعة العامة وإدارة الشئون الداخلية

الفصل الثالث

جيش أسامة وجهاد الصديق لأهل الردة

المبحث الأول

جيش أسامة

المبحث الثانى

جهاد الصديق لأهل الردة

المبحث الثالث

الهجوم الشامل على المرتدين

المبحث الرابع

مسيلمة الكذاب وبنو حنيفة

المبحث الخامس

أهم الدروس والعبر والفوائد من حروب الردة

الفصل الرابع

فتوحات الصديق واستخلافه لعمر رضى الله عنهما ووفاته

المبحث الأول

فتوحـات العـراق

المبحث الثانى

فتوحات الصديق بالشام

المبحث الثالث

أهم الدروس والعبر والفوائد

المبحث الرابع

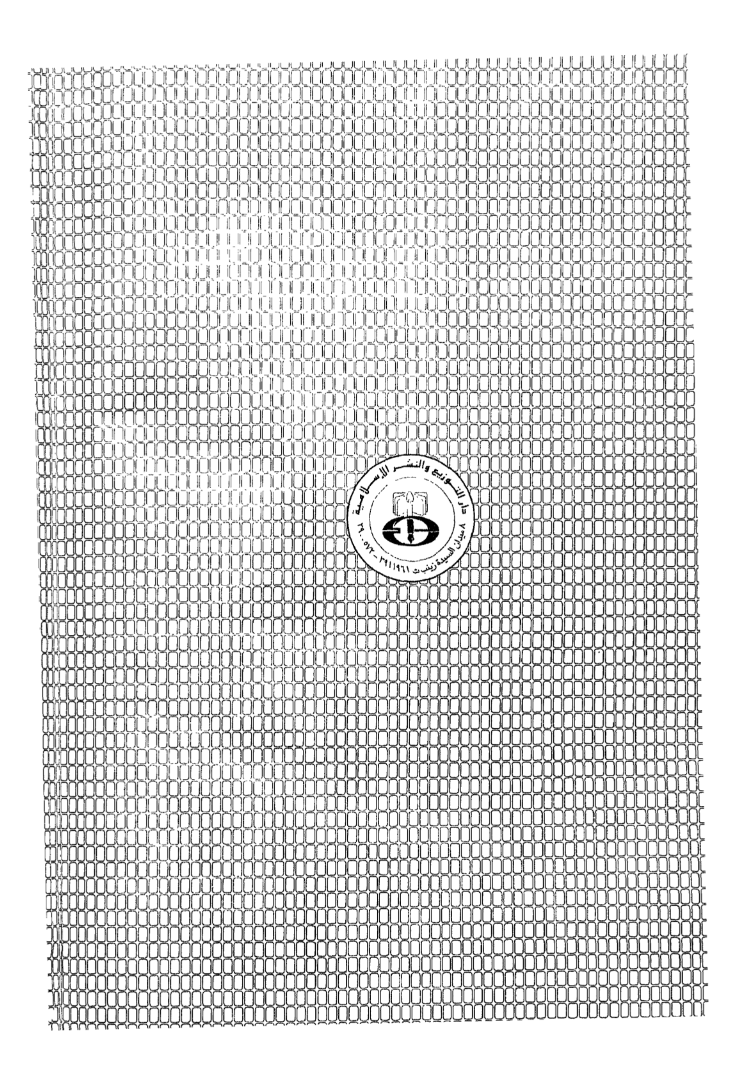
استخلاف الصديق لعمر بن الخطاب ووفاته

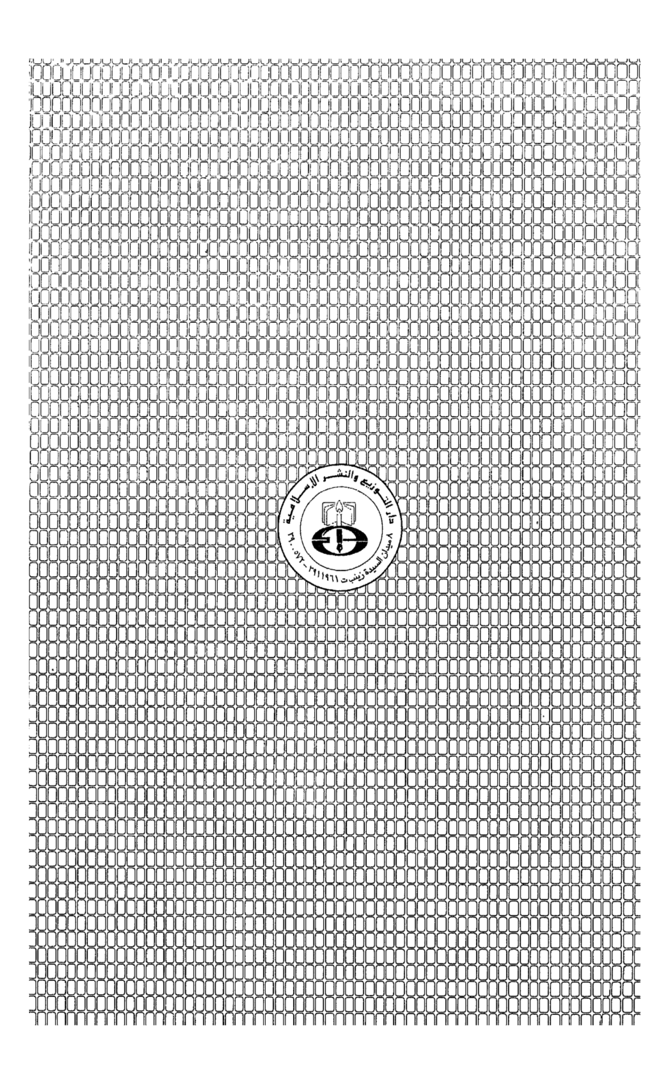
دار الطباعة والنشر الإسلامية

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية/العاشر من رمضان/المنطقة الصناعية ب٢ تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤

Printed in Egypt by ISLAMIC PRINTING & PUBLISHING Co. Tel:. 015 / 363314 - 362313

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢


دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت ٢٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢

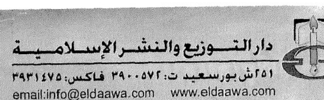
هذا الكتاب

إن حياة أبى بكر الصديق ﷺ صفحة مشرفة من التاريخ الإسلامى ، الذى حوى من صفحات الشرف ، والمجد ، والإخلاص ، والدعوة ما فاق أى تاريخ مضى . لذلك قمت بتتبع أخبار الصديق وحياته وعصره ، واستخرجتها من بطون الكتب ، وقمت بترتيبها وتنسيقها وتوثيقها وتحليلها واستخلاص الدروس منها ، لكى تصبح فى متناول الدعاة ، والخطباء ، والعلماء ، والساسة ، ورجال الفكر ، وقادة الجيوش ، وحكام الأمة ، وطلاب العلم ، لعلهم يستفيدون منها فى حياتهم ، ويقتدون بها فى أعمالهم ، فيكرمهم الله بالفوز فى الدارين .

لقد تتبعت صفات الصديق وفضائله فكان أول من أسلم من الرجال ، وأسلم على يديه وبدعوته صفوة من خيرة الصحابة ، وكان من أكثر الصحابة الذين تعرضوا لمحنة الأذى والفتنة ، وكان من أعظم الصحابة إنفاقا لماله فيما يرضى الله ورسوله ، ولقد توّج ذلك كله أنه كان صاحب رسول الله ﷺ فى هجرته إلى المدينة ، ثم أردفت ذلك كله بمشاهده فى ميادين الجهاد مع رسول الله ﷺ، وحياته فى المجتمع المدنى ، ومواقفه العظيمة بعد وفاة رسول الله ﷺ وكيف ثبَّت الله به الأمة . وسلطت الأضواء على سقيفة بنى ساعدة ، ونسفت الشبهات والأباطيل التى ألصقت بها من قِبل المستشرقين والروافض ومن سار على نهجهم ، وبيَّنتُ موقف الصديق من إرسال جيش أسامة ، وما فيه من دروس فى الشورى ، والدعوة ، والحزم ، والاقتداء برسول الله ﷺ ، وردّ الخلاف إلى الكتاب والسُنَّة ، وآداب الإسلام وصورته المشرقة ، والتى تمثلت فى تعاليم الصديق لجيش أسامة رضى الله عنهما . وقد قمت بتوضيح أحداث الردّة ، فتحدثت عن أسبابها ، وأصنافها ، وبدايتها فى أواخر العصر النبوى ، وموقف الصديق منها وخطته ، وأساليبه التى استخدمها فى حروبه ضد المرتدين ، وقد وقفت مع مؤهلات الصديق التى توفرت فى شخصيته ، والتى استطاع بها – بعد توفيق الله أن يسحق حركة الردة ، وكيف تحققت شروط التمكين وأسبابه ، وصفات جيل التمكين فى ذلك العهد الذى قاده الصديق .

رضى الله عن الصديق وعن أصحاب رسول الله أجمعين ،،،




دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٥١ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
email:info@eldaawa.com www.eldaawa.com